

كريس ويتاكر

رواية

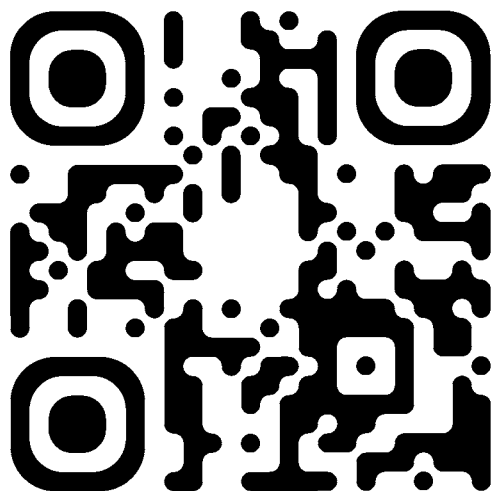
نبدأ
حيث

النهاية

مكتبة

المركز الثقافي العربي





سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

كريس ويتاكر

نبدأ حيث النهاية

العنوان الأصلي للرواية:

Chris Whitaker
We Begin at the End

© 2020 by Chris Whitaker
All rights reserved

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكتاب

نبدأ حيث النهاية

تأليف

كريس ويتاكر

ترجمة

زياد حسون

الطبعة

الأولى، 2023

الإيداع القانوني:

2023MO0129

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9920-657-53-2

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: +212 522 305726

Email: markaz.casablanca@gmail.com

كريس ويتاكر

مكتبة

t.me/soramnqraa

نبدأ حيث النهاية

رواية

ترجمة: زياد حُسُون



المركز الثقافي العربي

الإهداء

إلى قرائي الذين رافقوني إلى تول أوكس،
وغريس، وكيب هيفن الآن.
حين يضمنني المسير، أنتم تبقونني على الدرب.

مكتبة

t.me/soramnqraa

أنت ترى شيئاً فترفع يدك.

لا يهمّ سواء أكان ورقة سيجارة أو علبة مشروبات غازية. ترى شيئاً فترفع يدك. أنت لا تلمسه حتّى. بل ترفع يدك فحسب.

استعدّ سكّان البلدة، وخاضت أقدامهم في الأرض الموحلة. تحرّكوا في صفوف، عشرون خطوة تفصل بينها، مئة عين شاخصة للأسفل، يبدّ أن رقصة الملعونين تلك تجمعهم ككتلة واحدة.

في الخلف، كانت البلدة قد فرغت من قاطنيها، واختنق صدى صيف هاديّ نقيّ بغمامة الأخبار اللعينة.

لقد كانت سيّسي رادلي ذات السنوات السبع، والشعر الأشقر. لم يكن الرئيس دوبوا بحاجة إلى أن يوزّع صوراً لها، فقد كانت معروفة من الجميع تقريباً.

لازم ووك الجانب الأبعد. كان في الخامسة عشرة، ولا يهاب شيئاً، لكنّ ركبتيه اصطككتا مع كلّ خطوة.

ساروا في الغابة مثل جيش، يقودهم رجال الشرطة، مشطت أضواء المصابيح المكان. خلف الأشجار كان هناك المحيط، طريق طويل نزولاً، لكنّ الفتاة لم تكن تستطيع السباحة.

بجانب ووك كانت مارثا ماي. كانا قد تواعدا ثلاثة أشهر، حيث كانا لا يزالان يتلمّسان خطواتهما الأولى إلى الحميمة، وكان والدها كاهناً لدى الكنيسة الأسقفية في ليتل بروك. أَلَقْتُ نظرةً خاطفةً: «هل ما زلت ترغب في أن تكون شرطياً؟».

حدّق ووك في دوبوا، من أعلى إلى أسفل، كان الأمل الأخير ملقًى على عاتقه. - «لقد رأيتُ ستار⁽¹⁾»، قالت مارثا، «إنّها مع والدها في الأمام، كانت تبكي».

ستار رادلي، شقيقة الفتاة المفقودة، وصديقة مارثا الأعزّ. كانوا مجموعةً متراصّةً. واحدٌ منهم فقط كان غائباً. - «أين هو فنسنت؟» سأَلْتُهُ.

- «كنتُ معه قبلاً، ربّما يكون على الجانب الآخر». كان ووك وفنسنت مقرّبين مثل أخوين. حين كانا في التاسعة جرحاً كَفَّيهما، ضغطا عليهما معاً، وأقسما الأيمان المغلّظة على الوفاء المطلق.

لم يقولوا شيئاً آخر. راقبا الأرض فحسب، بعد طريق سنست، بعد شجرة الأمنيات، الأحذية من طراز تشاك تايلور تُفرّق أوراق الشجر في الأسفل. ركّز ووك بشدّة، لكنّه كاد أن يُفوّتها مع ذلك. على بعد عشر خطواتٍ من طريق كابريلو على طريق الولاية رقم واحد، ستمئة ميلٍ بعيداً عن ساحل كاليفورنيا، تجمّد واقفاً في مكانه، ثمّ رفع نظره ليرى الصفّ يمضي من دونه. جثا على ركبتيه.

(1) Star بالإنجليزية والاسم يعني نجمة - المترجم.

كان الحذاء صغيراً، جلده أحمر وأبيض، مع إبزيم⁽¹⁾ بلونٍ ذهبيّ.

تباطأت سيّارةً على الطريق السريع لدى اقترابها، التفت الأضواء الأمامية مع المنعطف إلى أن سقطت أمام ووك.

عندئذٍ، رآها.

أخذ نفساً، ورفع يده.

(1) الإبزيم: عروة معدنية لها لسان دقيق، يدخل فيها طرف الحزام الآخر لتثبيته وشده - المترجم.

القسم الأول

الخارجة عن القانون

وقف ووك عند طرف حشدٍ محموم، كان يعرف بعضهم منذ ولادته، وآخرين منذ ولادتهم.

المصطافون مع الكاميرات، وحروق الشمس، والابتسامات المسترخية غير مدركين أنَّ المياه كانت تسليخهم أكثر ممَّا قد تفعل الأخشاب.

حضرت قنوات الأخبار المحلية. تسأل مراسلة من قناة KCNR. «هل تمنحنا كلمةً أيُّها الرئيس ووك؟».

ابتسم، دفع يديه عميقاً داخل جيبه، وتطلَّع إلى أن يشقَّ طريقه عندما تلهَّف الناس لسماع شيء.

انفجر ضجيجٌ متقطع لدى انهيار السقف وتحطُّمه على الماء في الأسفل. قطعةٌ بعد قطعة، تكشَّفت الأساسات الخام مثل هيكلٍ عظميٍّ، كأنَّ البيت لم يكن أكثر من مجرد مسكن. كان هذا منزل آل فيرلون منذ قدرة ووك على التذكُّر، نصف فدَّانٍ من المحيط عندما كان طفلاً، تمَّ تطويقه بالشرائط العازلة قبل سنة، فقد كان الجرف يتآكل، جاء أشخاصٌ من هيئة كاليفورنيا للحياة البرِّية بين الحين والآخر، وأخذوا قياساتٍ، ووضعوا تقديراتٍ.

هَيَجَانٌ، وكاميراتٌ، وانفعالاتٌ مبتذلةٌ مع تساقطِ الألواح

الخشبية والتشُّبُّث الأخير للشرفة الأمامية بالهيكل . جثا ميلتون
الجزَّار على ركبةٍ واحدةٍ، وأدَّى حركةً استعراضيةً عندما مالت سارية
العلم، وتَنكَّست الراية .

اقترَب صغير عائلة تالو كثيراً، فشدَّته أمُّه من ياقته بقوة جعلتهُ
يتراجع، ويسقط جالساً على مؤخرته .

في الخلف تداعت الشمس مع المبنى جاعلةً من الماء شرائح
برتقاليةً، وحمراء، وظلالاً بلا لونٍ أو اسم . حصلت المراسلة على
تقريرها، وودَّعت بقعةً تاريخيةً متواضعةً تكاد لا تأخذها بعين
الاعتبار .

نظر ووك حوله ورأى ديكى، الذي لم يَبْدُ عليه التعاطف بحالٍ
من الأحوال، وقف مثل عملاقٍ طوله قرابة سبعة أقدام . كان الرجل
منخرطاً في مجال العقارات، فقد امتلك العديد من المنازل في كيب
هيفن ونادياً في كابريلو، وهو أشبه بوكيرٍ حيث تكلف الرذيلة عشرة
دولاراتٍ وخسارة القليل من الفضيلة .

ظلُّوا واقفين ساعةً أخرى، أصاب التعبُ ساقَي ووك بينما
استسلمت الشرفة أخيراً، وانهارت . قاوم المتفرِّجون الرغبة في
التصفيق، ثمَّ استداروا، ومضوا في سبيلهم عائدين إلى حفلات
الشواء، والبيرة، وحُفر النار الخارجية التي لطالما جعلت مصابيح
سيارة ووك في الدورية المسائية تضيء . اندفعوا عبر بلاطٍ حجريٍّ
مسطَّح . صفٌّ أحجارٍ يشكِّل جداراً رمادياً جافَّ الرِّصْفِ لكنَّه
متماسكٌ بقوةٍ . في الخلف كانت شجرة الأمنيات، وهي شجرة بلوطٍ
هائلةٌ مع دعاماتٍ عريضةٍ جداً تحمل فروعها . لقد فعلت كيب هيفن
العتيقة كلَّ ما في وسعها للبقاء .

تسلَّق ووك ذات مرة تلك الشجرة مع فنسنت كينغ، كان ذلك
في زمنٍ بعيدٍ جداً، حتَّى إنَّ ذلك لم يعد يحتسب الآن . أراح يده

المرتجفة على مسدّسه، والأخرى على حزامه. كان يرتدي ربطة عنق، وكانت ياقته متيبّسةً وحذاؤه يلمع. كان تقبّله للمكان مَثَارَ إعجاب بعضهم، وشفقة آخرين. ووكر قبطان سفينة لم تغادر الميناء يوماً.

وقع نظره على الفتاة تتحرّك عكس الحشد، ويد أخيها في يدها فيما هو يحاول أن يجاري وتيرتها. داتشس⁽¹⁾ وروبن، طفلا رادلي.

وإفاهما في منتصف الطريق، كان يعرف كلّ ما يمكن معرفته عنهما.

كان الصبي في الخامسة، وبيكي دموعاً صامتةً. الفتاة بلغت الثالثة عشرة للتوّ، ولم تلبّ يوماً.

- «والدتك»، قال للفتاة، لا بصيغة السؤال، بل بتصريح عن حقيقةٍ مأساوية. لم تومئ الفتاة برأسها حتّى، بل استدارت وقادت الطريق فحسب.

تحرّكوا عبر الشوارع المعتمدة، وسكون الأسوار الخشبية، والأضواء الشفيفة. في الأعلى لاح القمر مُنقاداً مثيراً للشفقة، كما كان مدّة ثلاثين عاماً. مضى مجتازاً المنازل الكبيرة. زجاجٌ وفولادٌ يحاربان الطبيعة حولهما في مشهدٍ من الجمال المروّع.

نزولاً إلى جينيسي حيث ما يزال ووك يعيش في منزل والديه القديم وصولاً إلى طريق آيفي رانش حيث ظهّر منزل آل رادلي. مصاريع متقشّرة، درّاجة منقلبةٌ والعجلة ملقاةً بجانبها. ربّما كان الظلُّ القابع تحت الكمال في كيب هيفن أسوداً أيضاً.

(1) Duchess بالإنجليزية والاسم يعني دوقة - المترجم.

انفصل ووك عن الطفلين، وركض على الطريق صعوداً. لم يكن هناك أضواءً من داخل المنزل عدا رفرفة شاشة التلفزيون. رأى في الخلف روبن ما يزال يبكي، وداتشس ما تزال تنظر إلى الأمام بقسوة وعدم تسامح.

عَثَر على ستار فوق الأريكة، مع قنينة بجانبها، وبلا أقراص مهدئة هذه المرة. كانت فردة حذاء واحدة في إحدى قدميها، فيما القدم الأخرى عارية. أصابع القدم صغيرة، وأظافرها مَطْلِيَّة.

- «ستار». ركع وربَّت على خدّها. «ستار، استيقظي الآن»، تكلم بهدوء لأنّ الطفلين كانا عند الباب. وضعت داتشس ذراعاً حول شقيقها الذي كان يتكئ عليها بشدّة، كأنّ جسده الصغير ما عاد يحوي عظماً.

طلب من الفتاة أن تتصل بالطوارئ.

- «لقد قمتُ بذلك بالفعل».

فتح عيني ستار ولم ير شيئاً سوى البياض.

- «هل ستكون على ما يُرام؟» جاء صوت الصبي.

تطلّع ووك نحو السماء المضيئة مغمضاً عينيه نصف إغماضية، آملاً في وصول صوت صفارات الإنذار.

- «هل يمكنك الذهاب والبحث عنهم؟».

فهمت داتشس الموقف، وأخذت روبن إلى الخارج.

بعد ذلك، ارتعشت ستار، تقيأت قليلاً وارتعشت، كأنّ الرب أو الموت قد قبض على روحها، ويقوم الآن بتعذيبها قبل أن يحررها. كان ووك قد أعطى الأمر وقته اللازم، إذ مرّت ثلاثة عقود منذ سيسي رادلي وفنسنت كينغ، ولكن بالنسبة إلى ستار فإنّ ازديادها للخلود، وصراع الماضي والحاضر، والقوّة التي تعيد إنتاج المستقبل، كلّها أشياء لن تُصحّح أبداً.

ركبت داتشس سيّارة الإسعاف مع أمّها. ووك سوف يُحضر روبن.

نظرت إلى الممرّض بينما كان يعمل. لم يحاول الابتسام، وهذا أمرٌ كانت ممتنةً له. كان أصلع قليلاً ويتعرق، وكان متعباً ربّما من إنقاذ هؤلاء العازمين جدّاً على الموت.

ظلّوا أمام المنزل بعض الوقت. انفتح الباب ليظهر ووك هناك، كما هي الحال دائماً، ويده على كتف روبن. كان روبن في حاجة إلى ذلك، شعور الراحة الذي يمنحه شخصٌ بالغٌ، الإدراك الحسيّ لحالة الأمان.

تحرّكت الستائر عبر الشارع فيما أصدرت الظلال حكماً صامتاً. بعدها في نهاية الطريق رأث صبيّان من مدرستها يضغطان على دوّاسات درّاجتيهما بقوة، ووجهاهما محمّران. لقد انتشرت الأخبار بسرعة في بلدةٍ صنّعت التقسيم المناطقيّ فيها غالباً العناوين الرئيسة للصفحات الأولى.

توقّف الصبيّان قرب سيارة الدفع الرباعي، وتركّا درّاجتيهما تسقطان. الأطول بينهما كان منقطع النّفس، وقد تدلّت خصلة من شعره بينما كان يمشي ببطء نحو سيارة الإسعاف.

- «هل هي ميتة؟».

رفعت داتشس ذقنها، وثبّتت نظرتها الحادة في عينه: «اغرب من هنا، تيّاً!».

ضجّ المحرّك بينما صُفّق الباب مغلقاً. جعل الزجاج المظلل العالم ضبابياً. تلوّت السيارات على المنعطفات حتى صارت على الجانب الآخر من التل. في الخلف كان المحيط الهادئ، والصخور تشقّ سطح الماء مثل رؤوسٍ على وشك الغرق.

راقبت داتشس شارعها حتى النهاية، إلى أن تسامقت الأشجار

والتَقَّتْ أَغْصَانُهَا فِي بَيْنِ سَاكُولَا ، أَغْصَانٌ مِثْلُ أَيْدٍ مُتَشَابِكَةٍ فِي صَلَاةٍ
لَأَجْلِ الْفَتَاةِ وَشَقِيقِهَا ، وَلِلْمَأْسَاةِ الْمُسْتَمِرَّةِ الَّتِي بَدَأَتْ قَبْلَ وَلَادَةِ أَيٍّ
مِنْهُمَا بِوَقْتٍ طَوِيلٍ .

انضَمَّتْ اللَّيْلَةُ إِلَى قَائِمَةِ لَيَالٍ شَبِيهَةٍ بِهَا تَمَاماً ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا
تُهَيِّنُ وَتُغَيِّظُ دَاتَشْسَ فِي صَمْتٍ ، حَتَّى إِنَّهَا أَدْرَكَتْ تَمَاماً أَنَّهَا لَنْ تَرَى
ضَوْءَ النَّهَارِ مَرَّةً أُخْرَى ، لَيْسَ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يَرَاهُ فِيهَا الْأَطْفَالُ
الْآخَرُونَ . كَانَ الْمُسْتَشْفَى هُوَ فَا نَكُور هِيل ، وَكَانَتْ دَاتَشْسُ تَعْرِفُهُ
جَيِّدًا . حِينَ أَخَذُوا أُمَّهُا ، وَقَفَتْ هِيَ عَلَى الْأَرْضِيَّةِ الصَّقِيلَةِ وَقَدْ
انْعَكَسَ الضَّوُّ عَنْهَا إِلَى الْأَعْلَى ، وَعَيْنُ الْفَتَاةِ عَلَى الْبَابِ بَيْنَمَا وَوَكْ
يَقُودُ رُوبِنْ إِلَى الدَّخْلِ . مَشَتْ وَأَخَذَتْ يَدَ أَخِيهَا ، ثُمَّ قَادَتْهُ نَحْوَ
الْمَصْعَدِ حَيْثُ طَلَبَتْ الطَّابِقَ الثَّانِي . فِي الْغُرْفَةِ الْعَائِلِيَّةِ حَيْثُ
الْأَضْوَاءُ خَافَتُهُ دَفَعَتْ دَاتَشْسُ كُرْسِيِّينَ مَعًا . عَبَرَ الرُّوَّاقَ كَانَ هُنَاكَ
غُرْفَةٌ لَوَازِمَ وَإِمْدَادَاتٍ ، أَخَذَتْ مِنْهَا دَاتَشْسُ بَطَانِيَّاتٍ نَاعِمَةً ، ثُمَّ
جَعَلَتْ مِنَ الْكُرْسِيِّينَ مَا يَشْبَهُ سَرِيرًا لِلْأَطْفَالِ . وَقَفَ رُوبِنْ مُحَرَّجًا ،
وَالْتَعَبَ يَجْرِجُهُ وَيَطَارِدُ الدَّوَائِرَ الدَّاكِنَةَ حَوْلَ عَيْنَيْهِ .
- «تَرِيدُ التَّبَوُّلُ؟» .

هَزَّةُ رَأْسٍ .

اقْتَادَتْهُ إِلَى الْحَمَّامِ ، وَانْتَظَرَتْ بَضْعَ دَقَائِقٍ ، ثُمَّ انْتَبَهَتْ إِلَى غَسْلِ
يَدَيْهِ جَيِّدًا . عَثَرَتْ عَلَى مَعْجُونِ أَسْنَانٍ ، عَصَرَتْ الْقَلِيلَ مِنْهُ عَلَى
إِصْبَعِهَا ، وَفَرَكْتَهُ عَلَى أَسْنَانِهِ وَلَثَّتَهُ . بَصَقَتْ ، فَغَسَلَتْ فَمَهُ .
سَاعَدَتْهُ فِي خَلْعِ حَذَائِهِ ، وَفِي تَسْلُوقِ أَذْرَعِ الْكُرْسِيِّينَ ، حَيْثُ
اسْتَقَرَّ هُنَاكَ مِثْلُ حَيَوَانٍ صَغِيرٍ بَيْنَمَا كَانَتْ تَغْطِيهِ .
حَدَّقَتْ عَيْنَاهُ الصَّغِيرَتَانِ النَّظَرَ فِيهَا : «لَا تَتْرَكْنِي» .
- «أَبَدًا» .

- «هل ستكون ماما بخير؟».

- «نعم».

أطفأت التلفاز. الغرفة معتمة، إنارة الطوارئ تركتهما في إضاءة حمراء ضعيفة بما يكفي لدرجة أنه غرق في النوم لدى بلوغها الباب.

وقفت تحت ضوء المستشفى، ظهرها إلى الباب. ما كانت لتسمح لأحد بالدخول، كان هناك غرفة عائلية أخرى في الطابق الثالث.

ظهر ووك مجدداً بعد ساعة، وتشاءب ملء شذقيه. كانت داتشس تعرف نمط حياته. كان يقود على طريق كابريلو السريع، تلك الأميال المثالية من كيب هيفن إلى ما بعدها، حيث مع كلّ طرفة عين صورة مختلفة لفردوس يقطع الناس البلاد للعثور عليه، وشراء منازل فيه، ثم يتركونها فارغة عشرة أشهر في السنة.

- «هل هو نائم؟».

أومأت برأسها.

- «ذهبْتُ لأنفقُ والدتك، ستكون على ما يُرام».

أومأت برأسها مجدداً.

- «يمكنك الذهاب وإحضار شيء لك، مشروب غازي ربّما، هناك آلة بالقرب من —».

- «أعرف».

ألقت نظرة داخل الغرفة، رأت شقيقها غارقاً في النوم، ولن يستيقظ إلى أن تقوم بهزه.

أخرج ووك ورقة دولار، أخذتها منه على مضض.

سارت عبر الممرّات والأروقة، اشترت زجاجة مشروب غازي، ولم تشربها، كانت ستحتفظ بها لروبن حين يستيقظ.

لاحظتُ داخل المقصورات أصوات ولادة، ودموعاً، وحياءً. رأت
قواقع بشرية خاوية جداً، عرفتُ أنهم لن يتعافوا، ولن يكونوا على
ما يُرام يوماً. اقتاد رجال الشرطة رجالاً أشراراً بأذرع موشومة،
ووجوه مدمّاة. اشتمت رائحة السكارى، والمعقمات، والقيء،
والقذارة.

تجاوزتُ ممرضةً ابتسمت لها ابتسامةً صغيرةً لأنَّ معظمهنَّ كنَّ
قد رأينها من قبل، مجرد طفلٍ آخر من أولئك الذين يعانون ظروفًا
بائسةً.

وجدتُ لدى عودتها ووك قد وضع كرسيين عند الباب. تحقّقتُ
من شقيقها ثمّ جلستُ.

عرض عليها ووك العلكة فهزّت رأسها بالنفي.

أمكنها أن تحزر أنّه يريد التكلّم، أن يهذر بذلك الهراء عن
التغيير، عن تعثرٍ فوق بقعةٍ زلقةٍ على طريقٍ طويلٍ، وكيف أنّ كلّ
شيءٍ سيكون مختلفاً.

- «أنتَ لم تتّصل».

نظر إليها.

- «الخدمات الاجتماعية. أنتَ لم تتّصل بهم».

- «كان عليّ أن أفعل». قالها بحزنٍ كأنّه يخذلها أو يخذل

الشارة، لم تعرف أيّهما يقصد.

- «لكنّك لم تفعل».

- «لم أفعل».

كان له بطنٌ يجعل قميصه البنيّ مشدوداً جداً، وخدّان مكتنزان
لصبيّ لم يقل له والداه المتساهلان «لا» أبداً، ووجهٌ مكشوفٌ جداً
لدرجة أنّها لم تتخيّله يحمل سرّاً واحداً. قالت ستار إنّهُ كان طبيباً
بكلّ ما فيه، كأنّ ذلك يعني شيئاً.

- «يجب أن تحصيلي على قسطٍ من النوم».

جلسا هكذا حتى انحنت النجوم للضوء الأول، ونسي القمر مكانه وظلّ مثل لطحّةٍ على يومٍ جديدٍ، كأنّه تذكيرٌ بكلّ ما قد رحل. كانت هناك نافذةٌ قبالتها. وقفتُ داتشس وضغطت وجهها على الزجاج باتّجاه الأشجار والبريّة الهاجعة. زقزقة عصفورٍ. في البعيد رأت المياه، زوارق الصيد كانت مثل بقع تزحف على الأمواج. تنحج ووك. «والدتك... هل كان هناك رجلٌ —». - «هناك رجلٌ دائماً. كلّما حدث شيءٌ فوضويٌّ في هذا العالم، يكون هناك رجلٌ دائماً».

مكتبة
t.me/soramnqraa

- «دارك؟».

ظلّت صامتةً.

- «لا يمكنك إخباري؟» سألها.

- «أنا خارجةٌ عن القانون».

- «صحيحٌ».

كانت تضع قوساً في شعرها، وقد تعبت به أغلب الأحيان. كانت نحيفةً جدّاً، شاحبةً جدّاً، جميلةً جدّاً مثل والدتها.

- «لقد وُلِدَ طفلٌ للتوّ هناك في الأسفل»، غيّر ووك الموضوع.

- «ما الاسم الذي أطلقوه عليه؟».

- «لا أعرف».

- «أراهن بخمسين دولاراً أنّه ليس داتشس».

ضحك برقّة. «إنّه اسمٌ نادرٌ على نحوٍ غريبٍ. تعلمين أنّك كنتِ ستُسمّين إيميلي».

- «لا بدّ أن تكون العاصفة⁽¹⁾».

(1) عنوان قصيدة للشاعرة الأميركية إيميلي ديكنسون - المترجم.

- «صحيح».

- «هي ما زالت تقرأ هذه القصيدة لروبن». جلست داتشس، صالبت ساقها، دَلَّكَتْ عضلات ساقها، وقد ارتخى حذاؤها الرياضي في قدمها. «هل هذه هي عاصفتي يا ووك؟».

ارتشف القهوة، كأنه يبحث عن جوابٍ لسؤالٍ مستحيلٍ: «أحبُّ اسم داتشس».

- «جربُ أن يكون هذا اسمك فترةً. لو أنني صبيٌّ لكان اسمي سو». أسندتُ رأسها إلى الخلف تراقب الأضواء البعيدة. «هي ترغب في الموت».

- «هي ليست كذلك، حريٌّ بك ألا تفكرى هكذا».

- «لا أستطيع أن أقرر إن كان الانتحار هو الفعل الأكثر أنايةً أم غيريةً».

عند السادسة جاءت ممرضةٌ واصطحبتها.

استلقت ستار، ظلُّ شخصٍ، أقلُّ حتَّى من ظلِّ أم.

- «داتشس دوقه كيب هيفن»، قالت ستار، ابتسامتها حاضرةٌ لكنّها ذابلةٌ، «كلُّ شيءٍ على ما يُرام».

وقفت داتشس تراقبها، ثمَّ انهارت ستار باكيةً فاجتازت داتشس الغرفة، وضغطت خدّها على صدر أمّها، وتساءلت كيف ما يزال قلبها ينبض.

استلقتا معاً وسط خيوط الفجر، يومٌ جديدٌ ولكن من دون نورٍ للوعدٍ لأنّ داتشس كانت تعرف أنّ الوعد زيفٌ.

- «أحبُّكِ. أنا آسفةٌ».

كان هناك الكثير ممّا يمكن لداتشس أن تقوله، لكنّها في هذه اللحظة لم تجد شيئاً أكثر من: «أحبُّكِ. أنا أعرف».

عند قمة التل، انحدرت الأرض لتهوي بعيداً إلى الأسفل. تسَلَّقت الشمس كبد السماء الزرقاء الصافية، فيما ركبت داتشس في الخلف، وفي يدها أخذت اليد الصغيرة لشقيقها الجالس بقربها. خَفَّف ووك سرعة سيارة الكروزر في شارعهم، وركن أمام المنزل القديم، ثمَّ لحق بهما إلى الداخل. حاول أن يُعَدَّ فطوراً لكنَّه وجد الخزائن خاوية تماماً، فهرع إلى مطعم روزي، وعاد بالفطائر المحلَّاة. ابتسم لرؤية روبن وقد تناول ثلاثاً منها.

بعد أن غسَلَتْ وجه روبن وغيَّرت ثيابه، خرجت داتشس إلى الفناء الأمامي حيث وجدت ووك جالساً على الدرج. راقبت الاستيقاظ الصباحي المتواضع في كيب. مرَّ ساعي البريد، وخرج براندون روك من المنزل المجاور وسقى مرجته. حقيقةً أنَّهُم لم يُلْقُوا نظرة ثانية على الكروزر المركونة خارج منزل آل رادلي جعلَ داتشس حزينةً وسعيدةً في الوقت نفسه.

- «هل تريدان أن أوصلكِ؟».
- «لا». استقرَّت بقربه وربطت حذاءها.
- «يمكنني أن أحضر والدتك».
- «قالت إنَّها ستَّصل بدارك».

لم تعرف داتشس الطبيعة الحقيقية للصدقة التي تجمع والدتها مع الرئيس ووكر، ومع ذلك فقد خمنت أنه أراد مضاجعتها، مثل باقي الرجال في البلدة.

أَلَقْتُ نظرةً على فنائهم البالي. كانت في الصيف الماضي قد شرعت مع والدتها في زراعته. اشترى روبن مِرشَّ سقايةٍ صغيراً ونظف الأوساخ، تورَّدت وجنتاه بينما كان يذرع الفناء جيئةً وذهاباً. ملوخيةٌ هنديةٌ، ليلكٌ جبليٌّ، عيونٌ زرقاءُ.

ماتت جميعها بفعل الإهمال.

- «هل قالت ماذا كان الأمر؟» قال ووك بلطفٍ، «الليلة الماضية، هل تعرفين ما السبب؟».

كان نوعاً من الأسئلة القاسية التي لم تكن معتادةً عليها منه، إذ إنه في الغالب لم يكن هناك أيُّ نوعٍ من الأسباب. لكنَّها عرفت هذه المرة لماذا سأل، كانت تعرف عن فنسنت كينغ، عن خالتها سيسي التي دُفِنَتْ في المقبرة عند حافة الجرف شديد الانحدار. الجميع يعرف قبرها، خلف الوتد الخشبي الذي لَوَحَتْهُ أشعة الشمس، مع الأطفال الذين لم يتمكنوا من النجاة.

- «هي لم تقلْ أيَّ شيءٍ».

سمعا روبن قادمًا من الخلف. نهضت داتشس، وسوّت شعره، ومسحت بلعابها لطحمة معجون الأسنان عن خدّه ثمَّ تحقّقت من حقيقته، وتأكدت أنه يحمل كتاب القراءة، ودفتره، وقينة الماء.

وضعت الشرائط على كتيفيه فابتسم، وابتسمت هي في المقابل. وقفا جنباً إلى جنبٍ، وشاهدا الكروزر تברי الشارع الطويل، ثمَّ لَفَّت داتشس ذراعاً حول شقيقها، وشرعا يمشيان.

قطع الجار الماء عن الخرطوم، ومشى نحو طرف فنائه بعرجةٍ خفيفةٍ يحاول جاهداً إخفاءها. براندون روك.

أَسْمُرُ، عَرِيضُ الْمُنْكِبِينَ، حَلَقٌ فِي أُذُنٍ وَاحِدَةٍ، شَعْرٌ كَالرَّيشِ،
وَرْدَاءُ نَوْمٍ حَرِيرِيٌّ. كَانَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَمَارِسُ التَّمَارِينَ الرِّيَاضِيَّةَ
عَلَى أَنْعَامٍ مُوسِيقِيٍّ صَاحِبَةٍ جَدًّا، تَارِكًا بَابَ الْمَرَأَبِ مَفْتُوحًا.

- «أَتُمَكِّ مَجْدِّدًا؟ عَلَى أَحَدٍ مَا أَنْ يَتَّصِلَ بِالْخِدْمَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ».
صَوْتُ كَأَنَّ أَنْفَهُ كَانَ قَدْ كُسِرَ وَلَمْ يَعُدْ لِحَالِهِ أَبَدًا. كَانَ يَحْمِلُ
فِي إِحْدَى يَدَيْهِ أَثْقَالَ التَّدْرِيبِ، وَبَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ يَرْفَعُهَا وَيَنْزِلُهَا.
كَانَتْ ذِرَاعُهُ الْيَمْنَى أَكْبَرَ مِنَ الْيَسْرَى بِشَكْلِ مَلْحُوظٍ.

التَفْتَتُ دَاتَشَسْ نَحْوَهُ.
هَبَّتْ نَسْمَةٌ، فَانْفَتَحَ رَدَاءُ نَوْمِهِ.
غَضَّضَتْ أَنْفَهَا، «أَنْتَ تَتَعَرَّى مَتَحَرِّشًا بِقَاصِرٍ، يَجْدُرُ بِي الْإِتِّصَالُ
بِالْشَّرْطَةِ».

حَدَّقَ بَرَانْدُونٌ مَذْهُولًا بَيْنَمَا كَانَ رُوبِنْ يَسْحَبُهَا بَعِيدًا.
- «هَلْ رَأَيْتَ يَدِي وَوَكَّ تَرْتَجِفَانِ؟» قَالَ رُوبِنْ.
- «الْوَضْعُ أَسْوَأُ فِي الصَّبَاحِ دَائِمًا».
- «لِمَاذَا؟».

هَزَّتْ كَتْفَيْهَا لَكِنَّهَا كَانَتْ تَعْرِفُ. وَوَكَّ وَوَالِدَتَهَا، وَمَشَاكِلَهُمَا
الْمُشْتَرَكَةَ، وَالطَّرِيقَةَ الَّتِي تَعَامَلَا بِهَا مَعَ هَذِهِ الْمَشَاكِلِ.

- «هَلْ قَالَتْ مَامَا أَيُّ شَيْءٍ حِينُ كُنْتُ فِي غُرْفَتِي اللَّيْلَةَ
الْمَاضِيَةِ؟». كَانَتْ تَنْجِزُ فَرَضَهَا الْمَنْزِلِيَّ، مَشْرُوعَهَا عَنْ شَجَرَةٍ
عَائِلَتِهَا حِينِ قَرَعَ رُوبِنْ الْبَابَ بِقُوَّةٍ، وَقَالَ إِنَّ مَامَا مَرِيضَةٌ مَجْدِّدًا.
- «كَانَتْ قَدْ أَخْرَجَتْ صُورَهَا الْعَتِيقَةَ، مَعَ سَيْسِي وَجَدِّي».

دَخَلَتْ إِلَى عَقْلِ رُوبِنْ فِكْرَةَ وَجُودِ الْجَدِّ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى الَّتِي رَأَى
فِيهَا الرَّجُلَ الطَّوِيلَ فِي صُورٍ وَالِدَتَهُمَا الْفُوتُوغْرَافِيَّةِ. حَقِيقَةُ أَنَّهُ لَمْ
يُقَابِلْهُ يَوْمًا، وَأَنَّ سِتَارَ لَمْ تَقُلْ شَيْئًا عَنْهُ تَقْرِيْبًا، لَمْ تَبْدُ أَمْرًا مَهْمًا،
فَقَدْ احْتِاجَ رُوبِنْ إِلَى أَشْخَاصٍ فِي حَيَاتِهِ. وَسَادَةُ مُحْشَوَّةٌ بِأَسْمَاءٍ

فارغة من شأنها حمايته من الشعور بكونه هشاً وغير حصين. كان يتوق إلى أعمام وأبناء عم، وإلى كرة القدم والشواء أيام الأحاد، مثل الأطفال الآخرين.

- «هل تعرفين عن فنسنت كينغ؟».

أخذت داتشس يده بينما عبرا نحو شارع فيشر. «لماذا، ما الذي تعرفه عنه؟».

- «أنه قتل الخالة سيسى قبل ثلاثين عاماً، في السبعينات، حين كان لدى الرجال شوارب، وكانت ماما تصف شعرها بطريقة مضحكة».

- «سيسى لم تكن خالتي، ليس حقاً».

- «بل كانت»، قال ببساطة، «هي تبدو مثلك تماماً، ومثل ماما».

كانت داتشس قد جمعت هيكल القصة عبر السنين، من ستار حين كانت تهذر بها، ومن الأرشيف في مكتبة ساليناس. المكتبة نفسها التي أمضت فيها الربيع الماضي تعمل على شجرة عائلتهم. تعقبت جذور عائلة رادلي بعيداً في الزمن، ثم وقع الكتاب منها على الأرض حين تمكنت من العثور على صلة مع مطلوب خارج عن القانون يدعى بيلي بلو رادلي. كان نوعاً من الاكتشافات جعلها فخورة، وإضافة كبيرة لها حين وقفت في المقدمة وقدمت العرض أمام الفصل. كان ما يزال هناك عبء ثقيل من اللاشيء فيما يتعلق بالدها، علامة استفهام تثير التوتر والغضب في علاقتها بأمها. ليس مرة واحدة بل مرتين، عاشرت ستار رجلاً غريباً. وسمحت لنفسها بالحمل، تاركة طفلين مع حياة كاملة من التساؤل عن الدّم الذي يجري في عروقهما، ولمن يعود. عاهرة، همست مرة بصوت يكاد لا يسمع. جعلها ذلك معاقبة شهراً كاملاً.

- «هل تعرفين أنه سيخرج من السجن اليوم؟» قال روبن بصوت خفيض وهادي كأنه يبوح بسرٍّ خطيرٍ .
- «من أخبرك بذلك؟» .
- «ريكي تالو» .

كانت والدة ريكي تالو تعمل موظفةً في قسم البرقيات لدى دائرة شرطة كيب هيفن .
- «ماذا قال ريكي أيضاً؟» .
نظر روبن بعيداً .
- «روبن؟» .

تلوى وقال بسرعة: «إنه كان يجب أن يُقلى بسبب فعلته، ولكن بعد ذلك صاحت الأنسة دولوريس في وجه ريكي» .
- «كان يجب أن يُقلى، أنت تعرف معنى ذلك؟» .
- «لا» .

أخذت داتشس يده عبر جادة فرجينيا، الأراضي هنا أكبر قليلاً. تتعثر بلدة كيب هيفن في طريقها وصولاً إلى الماء، حيث ترتفع قيمة الأرض بعكس اتجاه التلال. كانت داتشس تعرف مكانتها جيداً، فبيئتهم يقع في أبعد شارع عن المحيط.
حين وصلا إلى البوابة رُتبت شعره مرةً أخرى، وتأكدت أن قميصه مزرّر بشكلٍ صحيح.

تقع حضانة الأطفال بالقرب من هيلتوب ميدل. ستقضي داتشس فترة استراحتها عند السور، تنظر إلى أخيها. سيلوِّح لها ويبتسم، وستأكل شطيرتها وهي تراقبه .
- «كُن فتىً طيباً» .

- «نعم» .
- «لا تقل أيَّ شيءٍ عن ماما» .

عانقته، وقبّلت خدّه، وأرسلته إلى الداخل، وراقبته إلى أن تولّت الأنسة دولوريس الأمر، ثم مضت في طريقها، كان الرصيف مكتظّاً بالأولاد.

أبقت داتشس رأسها مطأطأً بينما كانت تصعد الدرجات، حيث تجمّعت زمرةٌ من الصبية، نيت دورمان وأصدقائه. نيت، ياقةٌ مقلوبةٌ إلى الأعلى، أكمامٌ مطويةٌ فوق عضلات ذراعين نحيلة.

- «سمعتُ أنّ أملك أخفقت مجدداً».

تعالّت الضحكات.

انتفضت ووقفت أمامه وجهاً لوجه.

حدّق بها. «ماذا؟».

تحدّث نظرتّه بنظرةٍ قاسيةٍ. «أنا الخارجة عن القانون، داتشس داي رادلي، وأنت الجبان الرّعيد، نيت دورمان».

- «أنت مجنونة».

أخذت خطوةً إلى الأمام، وراقبته وهو يبتلع ريقه. «تحدّث مرّةً أخرى عن عائلتي، وسوف أقطع رأسك يا ابن العاهرة».

حاول أن يضحك لكنّه لم ينجح في ذلك فعلاً. كانت هناك شائعاتٌ حولها، أنّه وبالرغم من الوجه الجميل والهيئة الهزيلة، فإنّ في وسعها أن تتحوّل ويجنّ جنونها لدرجة أنّ أصدقاءه حتّى لن يتدخّلوا لإنقاذه.

تراجعت، ومضت في طريقها، وسمعته يزفر بقوةٍ فيما كانت تدخل إلى المدرسة، وعيناها تحترقان جرّاء ليلةٍ أخرى من العذاب.

تمتدُّ المنحدرات المتآكلة بفعل عوامل التعرية مسافة ميل شديد التعرُّج قبل أن تدفع الطريقُ الخليجَ بعيداً، وتختفي داخل أشجار البلوط العالية في كليرووتر كوف. قاد ووك على الطريق، دون أن تتجاوز سرعته الثلاثين ميلاً أبداً.

ترك داتشس وروبن ثمَّ توجَّه إلى منزل آل كينغ، جمع أوراق الشجر في أكياس، وألقط القمامة من الفناء. لقد أخذ على عاتقه خلال ثلاثين عاماً الاعتناء بذلك أسبوعياً، كجزء من روتينه الثابت. في المركز قام بتسجيل دخوله مع ليا تالو عند مكتب الاستقبال، هما الاثنان فقط، حيث كان ووك مداوماً في وظيفته كلَّ يوم من أيَّام حياته، يراقب من النافذة تغيُّر الفصول، والمصطافين يأتون ويرحلون. رأته السلال التي أهدوه إياها، المليئة بالنبيد، والجبن، والشوكولاتة يفتح ثقباً جديداً في حزامه كلَّ عام. كان لديهما مُساعِدةٌ احتياطيةٌ اسمها لُوان، تأتي حين يحتاجان إليها، في المسيرات، أو العروض، أو الأوقات التي كانت تشعر فيها بالضجر من الاعتناء بفناء منزلها فحسب.

- «هل أنت جاهزٌ لعودة الملك⁽¹⁾؟».

(1) كينغ بالإنجليزية تعني ملك - المترجم.

- «لقد كنتُ جاهزاً ثلاثين عاماً». حاول أن يُبقي ابتسامته تحت السيطرة. «سوف أخرج الآن. سأحضر المعجّنات في طريق العودة».

تجوّل في منطقة مين، مثلما يفعل كلّ صباح، بمشيئة مُدربة على تقليد خطوة الشرطي الواسعة التي كان قد شاهدها على التلفزيون. حاول أن يطلق شارباً مثل الممثل توماس ماغنوم، وسجّل ملاحظاتٍ حين كان يشاهد مسلسل فورنسيك فايلز، حتّى إنّه اشترى مرّةً معطفاً مطرياً طويلاً باللون البيج. إذا جاءت قضيةٌ حقيقيةٌ يوماً، فسوف يكون جاهزاً.

تدلّت الأعلام من مصابيح الشوارع، رُكّنت سيارات الدفع الرباعي اللامعة قريبةً جداً بعضها إلى بعضٍ حتى كادت تتلامس، وألقت مظلاتٌ خضراءٌ ظلالها على الرصيف الذي لا تشوبه شائبةٌ لشدة نظافته. رأى سيارة المرسيدس الخاصة بعائلة باترسون مركونة بشكلٍ مخالفٍ، لن يحرّر مخالفةً، قد يوجّه تحذيراً وديّاً فحسب إلى كورتيس حين يراه.

حَثّ الخطى عند محلّ الجزارة، لكنّ ميلتون سارع في الخروج، ووقف على المصطبة، البياض في مئزره كأنّه نقطٌ رُشّت على الأحمر الذي يطغى على كل شيءٍ، وفي يده قطعة قماشٍ كأنّه يستطيع التخلص من البقع التي تغطّي كفيّه.

- «صباح الخير ووك». كان ميلتون غزير الشعر، وقد انبثقت من كلّ شبرٍ منه دَوّامات شعرٍ كثيفةٌ، هو نوعٌ من الرجال الذي عليه أن يحلّق وصولاً إلى خط عينه ثلاث مرّاتٍ في اليوم تحسّباً لأنّ يطلق عليه حارسُ حديقة حيوانٍ عابراً سهماً مخدّراً.

بدا الغزال المعلّق خلف النافذة طازجاً جداً حتّى تكاد تراه قبل يومٍ يتجوّل متبخترأ في ميندوتشينو. كان ميلتون يصطاد، في أثناء

الموسم كان يلبس بذلة الصيد التي تحاكي شكل الغزال، ويحمل سيّارة الجيب كومانشي بالبنادق والبطّانيات وبرّاد بيرة. ذهب ووك معه مرّة واحدة.

- «هل تحدّثتَ إلى براندون روك بَعْدُ؟». لفظ ميلتون الاسم كأنّه يبصق، كابدتُ كل كلمة للخروج من فمه كأنّ أنفاسه تتقطّع حين يُجري محادثة لائقة.

- «هو على لائحتي».

كان لدى براندون روك سيارة موستانج تعاني خللاً سيّئاً جداً في الاحتراق لدرجة أنّ نصف الشارع بلغّ عن الأمر في المرة الأولى التي حدث فيها. كانت تتحوّل إلى مصدر إزعاج حقيقيّ.

- «لقد سمعتُ عنها، ستار، مجدّداً». مسح ميلتون العرق عن جبينه بقطعة القماش المدمّاة. أُشيع أنّه لم يأكل شيئاً سوى اللحم، وقد ترك هذا آثاره السيئة على ميلتون.

- «هي بخير. إنّها مريضة، هذه المرة هي مريضة فحسب».

- «لقد رأيت كل شيء، يا للعار والأسف... ذاك الطفلان».

عاش ميلتون قبالة ستار تماماً، وقد أولاها والولدين نوعاً من الاهتمام الناجم عن حياة ملؤها الوحدة أكثر من كونه يؤدّي عمل مجموعة مراقبة الحيّ الآخذة بالتضاؤل، والتي كان يترأسها.

- «أنت ترى دائماً كلّ شيء يا ميلتون. ربّما كان الأجدر بك أن تكون شرطياً».

لوّح ميلتون بيده: «أحصل على ما يكفي في مجموعة مراقبة الحيّ، كان لدينا حالة 10-51⁽¹⁾ تلك الليلة».

(1) حالة تقتضي سحب السيارة، بحسب شيفرة الشرطة - المترجم.

- «مطلوبُ سيارة قَظْرٍ!».

استعمل ميلتون رموز الشرطة بحرّية، وبطريقة سيئة للغاية.

- «من حسن حظّها أنّ لديها أنت، كي تحرسها دائماً». سحب

ميلتون عود أسنانٍ من جيبه، وشرع يعمل على قطعة لحم محشورة بين سنّيه الأماميين: «كنتُ أفكّر في فنسنت كينغ. هل سيحدث ذلك اليوم؟ قال الناس إنّهُ اليوم».

- «إنّهُ كذلك». انحنى ووك، التقط علبة مشروبات غازية،

ورماها في سلّة المهملات، فيما تلقى الشمس دفأها على رقبتة.

- «ثلاثون عاماً يا ووك». صَفَّر ميلتون.

كان يمكن أن تكون عشرة، عشرة في أسوأ الأحوال، لولا

شجارٍ في الداخل. لم يحصل ووك على التقرير الكامل أبداً، بل

عرف فقط أنّ يدي صديق طفولته تحملان وِزَرَ موت شخصين.

عشرة أعوام أصبحت ثلاثين، القتل عن طريق الخطأ أصبح جريمة

قتلٍ كاملة، الصبيّ أصبح رجلاً.

- «ما زلتُ أفكّر في ذلك اليوم، بنا ونحن نذرع الغابة. إذا،

هل هو عائدٌ إلى كيب؟».

- «نعم، بحسب معلوماتي».

- «يمكنك إرساله إلى هنا إذا ما احتاج إلى أيّ شيء. في

الواقع سأقول لك شيئاً يا ووك: ماذا لو احتفظتُ بزوج من كوارع

الخنزير لأجله، كيف يبدو ذلك؟».

بحث ووك عن الكلمات المناسبة.

- «حسنٌ». تنحنح ميلتون، وأطرق برأسه نحو الأرض.

«السماء الليلة... إنّهُ القمر العظيم. سيكون مشهداً مهيباً، ولقد

اقتنيْتُ للتوّ تلسكوب سيليسترون جديداً. أعني أنّني في حاجة

لإعداد بعض الأمور وترتيبها، ولكن إن أردتُ المرور —».

- «لديّ شيءٌ عليّ القيام به، ربّما في وقتٍ آخر؟».
- «بالأكيد، ولكن تعال بعد مناوبتك، يمكنني أن أعطيك الرقبة». أشار ميلتون نحو الغزال.
- «لا أرجوك، يا إلهي». تراجع ووك ثمّ ربّت على كرشه، «أحتاج لخسارة —».
- «لا تقلق، إنّها قليلة الدهن، إنّ طهوّتها جيّداً فهي قطعةٌ ممتازة. كنتُ سأعرض القلب، لكنّه مناسبٌ للشواء، وبمجرّد أن أسفّعه بالنار فإنّ النكهة تصدح بالغناء».
- أغمض ووك عينيه، كان شعورٌ بالغثيان يزحف صعوداً من معدته. ارتجفت يداه. لاحظ ميلتون ذلك، وبدا أنّه يريد قول شيءٍ، فتحرّك ووك بسرعةٍ.
- لم يرَ أحداً حوله، فتناول اثنين من أقراصه الطّيّبة. كان مدركاً تماماً وعلى نحوٍ مؤلمٍ مدى إدمانه عليها.
- مرّاً أمام المقاهي وواجهات المحالّ التجارية، ألقى التحية على بعض المارّة، وساعد السيدة أستور في تحميل البقالة داخل سيّارتها، وأصغى لفيليكس كوك ينقل إليه بحماسةٍ كبيرةٍ أخبار حركة المرور في فوليرتون.
- توقّف عند مقبّلات برانتز، حيث كانت صفوفٌ من الجبن والمعجنات تملأ الواجهة.
- «أهلاً أيها الرئيس ووكر».
- أليس أوين، شعرٌ مشدودٌ إلى الوراء مع ماكياج وجهٍ كاملٍ برغم ملابسها الرياضية. كانت تحمل نوعاً من الكلاب الصغيرة، نحيفاً لدرجة أنّ ووك أحصى أضلاعه بينما كان يرتعش بين يديها. مدّ يده وربّت عليه.

- «هل تمنع الإمساك بليدي ريشما أذهب إلى المتجر وأحضر شيئاً من هناك؟ سأغيب لحظة فقط».
- «بال تأكيد». مدّ يده وأمسك السلسلة.
- «أوه، لا يمكنك أن تضعها أرضاً. لقد خضعت للتدريب⁽¹⁾ للتوّ، وما تزال أظافرها طريّة».
- «المخالب؟».

رمت أليس الكلبة بين ذراعيه واتّجهت إلى الداخل.

راقبها عبر النافذة وهي تطلب أغراضها، ثمّ توقّفت بعدها وتحدّثت مع أحد المصطافين. مرّت عشر دقائق، والكلبة تلهث في وجهه.

حين عادت أليس أخيراً كانت محمّلةً بالأكياس، لذا حمل ووك الكلبة إلى السيّارة الرباعية الدفع، وانتظر ريشما تنتهي من تحميلها. شكرته، ثمّ مدّت يدها داخل كيسٍ ورقيٍّ وناولته معجنات الكانولي. أثار جلبه عبر محاولته عدم أخذها، ثمّ انتظر حتى ابتعد عن مين قبل أن يلتهمها بلقمتين.

مشى على طول شارع كاسيدي ثمّ عبّر وصولاً إلى طريق آيفي رانش. عند منزل ستار، وقف على الشرفة بعض الوقت يصغي إلى الموسيقى التي تصدح من الداخل.

فتحت ستار الباب قبل أن يطرقه، وقابلته بتلك الابتسامة التي لطالما منعه من التخلّي عنها. جوفاء لكنها جميلة، منكسرة لكنّ عينيها ما زالتا تلمعان. كانت ترتدي مِريلةً ورديةً كأنّها تخبز. كان ووك يعرف أنّ خزائن الطعام خاوية.

- «عمت مساءً أيّها الرئيس ووك».

(1) التّدريب: تسوية الأظافر بعد قصّها - المترجم.

لم يستطع مَنَعَ نفسه من الابتسام رغماً عنه .

كانت هناك مروحةٌ تتحرَّك ببطءٍ، جذرانٌ جصِّيَّةٌ عاريةٌ، ستائرٌ مسحوبةٌ من حلقاتها كأنَّ ستار لم تتمكَّن من تصفية حساب اليوم بالسرعة الكافية . صدح صوت المذياع عالياً، كانت فرقة سكاينيرد تغني عن ألاباما فيما كانت ستار ترقص في طريقها إلى المطبخ، وهي تملأ كيس قمامةٍ بزجاجات البيرة وعلب سجائر لاكي سترايك الفارغة . ابتسمت له، وبدت كطفلةٍ حين فعلت ذلك . ما زال لديها تلك الهشاشة المضطربة، والمسببة للمتاعب .

دارت في رقصتها مرَّةً ثمَّ أفرغت منفضة سجائر في كيس القمامة .

فوق المدفأة كانت هناك صورةٌ لهما وهما في الرابعة عشرة، جاهزان وينظران أن يأتي المستقبل إليهما .

- «كيف حال رأسك؟» .

- «لم يكن بحالٍ أفضل أبداً . إنَّ ذهني صافٍ الآن يا ووك، شكراً لك على كلِّ شيء . . . الليلة الماضية . لكن، أتعرف؟ أعتقد أنَّني كنتُ في حاجةٍ لذلك، مرَّةً أخيرةً . الآن أنا أرى بوضوح» .
نقرت على رأسها، ثمَّ أكملت وهي ما زالت ترقص . «لم يرَ الأطفال أيَّ شيءٍ، صحيح؟» .

- «هل ستحدِّث عن ذلك اليوم؟» .

توقَّفت أخيراً عن الحركة مع تلاشي صوت الموسيقى، مسحت العرق عن جبينها، وربطت شعرها إلى الخلف . «كما أتت هذه الليلة فإنَّها ستذهب طيَّ النسيان . . هل داتشس تعرف؟» .

تسأله ستار عن الفتاة التي هي ابنتها .

- «كلُّ البلدة تعرف» .

- «هل تعتقد أنَّه تغيَّر؟» .

- «جميعنا تغيّرنا».

- «أنت لم تتغيّر يا ووك». كانت تهدف بكلامها إبداء الإعجاب لكنّ كلّ ما سمعه هو الازدراء.

هو لم يرَ فنسنت كينغ منذ خمس سنواتٍ، برغم أنّه حاول كثيراً. كانت الزيارات متقاربةً في البداية، وكان يركب مع غرايسي كينغ في سيارة الريغال القديمة. لقد كان أمراً شديداً القسوة، أن يرسل القاضي صبيّاً في الخامسة عشرة إلى سجن الرجال. أخذ والد ستار مكانه على المنصة، وأخبر الجميع عن سيسي، وعن نوع الفتاة الذي كانت ستصبح عليه. أبرزوا صوراً من الموقع: قدمان صغيرتان، دمٌ على يدٍ صغيرة. استدعوا المدير هاتش، وأخبرهم عن طبيعة الفتى الذي كانه فنسنت: كتلةٌ متاعب.

ثمّ جاء دور ووك، وكان والده صاحبُ الوجهِ الصادقِ يشاهدُ مرتدياً قميصاً بنّياً. كان رئيسَ عمّالٍ لدى تالو للإنشاءات التي تملك مصنعاً ضخماً حدّ من أفق بلديتين بالكامل. في ذلك الصيف نفسه، ذهب ووك مع والده لأغراضٍ توجيهيةٍ. وقف هناك مرتدياً الملابس الواقية، يراقب الأنابيب والسقالات شديدة التعقيد كالأمعاء، مثل كاتدرائيةٍ من المعادن.

في قاعة المحكمة تلك التقط ووك نظرة والده الفخورة، وقَدّم نوعاً من الحقيقة غير المختصرة، والتي حسمت مصير صديقه.

- «لستُ في حاجةٍ للنظر إلى الوراء بعد الآن»، قالت ستار. أعدّ القهوة، وخرجا بها إلى طاولة الشرفة. كانت العصافير ترفع أجنحتها وتصفقها بكسلٍ حين استقرَّ ووك على كرسيٍّ قديم. لوّحت ستار بمروحةٍ أمام وجهها. «أنت ذاهبٌ لتحضره؟».

- «هو قال ألا أفعل، لقد راسلته».

- «لكنك ستذهب على أية حال».

- «نعم».

- «لا تخبره... عني وعن كل الأشياء». كانت ركبته تعلو وتهبط بحركة ارتدادية، وكانت تنقر على الكرسي بإصبعها. الهدوء ما قبل العاصفة. الطاقة ما قبل التطهير الحقيقي.

- «سوف يسأل».

- «أنا لا أريده هنا. لا أعتقد أن في وسعي تحمّل ذلك في منزلي».

- «حسن».

أشعلت سيجارة، وأغمضت عينها.

- «حسن، هناك دورة جديدة في —».

- «وقّر عليك ذلك»، رفعت يدها، «قلت لك، لقد أصبح

الأمر ورائي الآن».

كانا قد جرّبا الاستشارة النفسية. كان ووك يقود بها إلى بلير بيك مرّة كلّ شهر طوال حياته، بدا أن المعالج النفسي يصيب نجاحاً، وأنّ التقدّم كان جيّداً. كان ووك يُنزلها هناك، يتركها متّجهاً إلى مطعم وينتظرها ثلاث ساعات أو أكثر قبل أن تتّصل. في بعض الأيام كان الطفلان يصطحبانهما في السيارة، صامتين في الخلف، يراقبان براءتهما وهي تتخلّف عن اللحاق بالكروزر، وتنزلق مبتعدة خلفها أكثر فأكثر.

- «لا يمكن... لا يمكن لهذا أن يستمر».

- «هل ما زلت تتناول الأقراص يا ووك؟».

أراد أن يقول لها إنّ هذا أمرٌ مختلفٌ، لكنّه تساءل بعدها كيف هو مختلفٌ. إنهما المبتليان البائسان. شيءٌ واضحٌ وبسيطٌ.

مدّت يدها، وشدّت على يده. لم تقصد أن تجرحه.

- «أظنُّ أنّ لديك بقعة كريما على قميصك».

نظر إليها، فضحك.

- «انظر إلينا. أتعرف، أحياناً ما زلتُ أشعر بها».

- «ما هي؟».

- «الخامسة عشرة يا عزيزي».

- «نحن نكبر في العمر».

نفثت حلقة دخان مثالية. «أنا لا، يا ووك. أنت تكبر في العمر، أمّا أنا فلقد بدأتُ للتوّ».

ضحك بشدّة، ثمّ ضحك هي أيضاً. وهذا ما كانا عليه، إنهما ووك وستار، ثلاثون عاماً تتحلّل، وتضمحلّ حتى لا يبقى منها سوى طفلين يرثران ويرويان النكات.

أمضيا ساعةً أخرى في صمتٍ مريح، لم يقلّ أيّ منهما شيئاً عن الأمر، ولكنّ كان كلاهما يعرف أنّ أمراً واحداً كان يشغل بالهما.

كان فنسنت كينغ عائداً إلى الديار.

قاد ووك وعينه على المحيط، على الثنايا الذهبية لصفحة الماء، على راكبي الأمواج الهائجة.

مئة ميلٍ شرقاً إلى إصلاحية مقاطعة فيرمونت.
تشكَّلت سُحبُ الخلايا الركامية مثل أخطاءٍ متجمِّعةٍ، توقَّف الرجال في الساحة ونظروا نحو السماء.

ركنَ في قطعة أرضٍ متراميةٍ، وأطفأ المحرك. أصوات طنين الأجهزة الكهربائية، صراخ الرجال، طيفٌ متوحِّدٌ من أرواحٍ محشورةٍ داخل قفصٍ يتوق إلى التدحرج خارجاً نحو أميالٍ من السهول الواسعة.

لم يكن هذا مكاناً لصبيٍّ في الخامسة عشرة، بغضِّ النظر عن أية تفاصيل. جلس القاضي بوجهه الحجري بينما كان يوجِّه تلك الدعوة الإصلاحية المبهرة. إنَّ حقيقة الإصلاح القاسية تتعدَّى حدود العالم الصغير لقاعة محكمةٍ في لاس لوماس. تساءل ووك في بعض الأحيان عن حجم الضرر الذي وقع في تلك الليلة، كان غير قابلٍ للقياس، شبكة عنكبوتٍ منسوجةٍ بخيوط الأذى ألقت بظلالها فوق حياة الكثيرين، مستبدلةً الجديد بالقديم، الطازج بالمتحلل. رأى ذلك في ستار، وكان قد رآه في والدها، ولكن لا

أحد أكثر من داتشس التي أثقلت تلك الليلة كاهلها قبل أن تُولد بوقتٍ طويلٍ.

خرج من السيارة وابتسم لكادي السَّجَّان الطويل والنحيف والمبتسم. انسوا الصورة النمطية الجلفة عن الرجل المتعب متحجّر القلب بسبب نوع الصحبة المفروضة عليه، لطالما كان كادي ودوداً ولطيفاً.

- «صاحبُ فنسنت كينغ»، قال كادي مبتسماً، «أنتم تعتنون بأبناء بلدتكم هناك في كيب هيفن، أليس كذلك؟ كيف هو الوضع هناك، هل ما تزال مثل طيفٍ من الجنة؟».

- «إنَّها كذلك».

- «عليَّ القول إنَّني أتمنَّى لو أنَّ لديَّ مئةَ آخرين مثل فنسنت. في معظم الأيَّام يقول الفتية إنَّهم ينسون أنَّه موجودٌ». تحرَّك كادي ونزل ووك السلالم معه.

عبرا بؤابةً، ثمَّ بؤابةً أخرى، ثمَّ دخلا بناءً قليل الارتفاع مطلقاً بلونٍ أخضرٍ شاحبٍ، قال كادي إنَّهم كانوا يعيدون طلاءه بين الفينة والفينة. «إنَّه أكثر لونٍ مريحٍ للعين البشرية، يوحى بالغفران والتحوُّل الإيجابي على المستوى الشخصي».

وضع كادي يده على كتف ووك. «اسمع. لقد قضى فنسنت كينغ محكوميته، لكنَّ حَمْلَهُ على إدراكِ ذلك لن يكون بالأمر السهل، نادِني إن احتجتَ أيَّ شيءٍ».

وقف ووك في غرفة الانتظار، وأخذ يتفرَّج على المشهد الواسع لباحة السجن وما بعدها، والرجال الذين يجولون مرفوعي الرؤوس كأنَّ كادي كان قد علَّمهم أنَّ الشعور بالعار هو خطيئةٌ بحدِّ ذاتها. لولا الأسلاك الشائكة التي نحتت المناظر الطبيعية بتلك الوحشية لرَبَّما كان المشهد يخطف الأنفاس، شبيه بلوحة أرضنا الطيبة. يهيم

رجالاً بزيّ السجن الموحّد، ليسوا سوى الأطفال الضائعين الذين كانوا عليهم ذات يوم.

مرّت خمس سنوات منذ أن توقّف فنسنت عن استقبال الزوّار، لذلك، ولولا العينان اللتان ما تزالان زرقاوين بما يكفي، لربّما كان ووك سيواجه صعوبةً في التعرّف عليه. طويل القامة، نحيلٌ حدّ الهزال، خدّان شديداً الشحوب، كان بعيداً كلّ البعد عن ذلك الفتى الواثق الصلف ذي الخمسة عشر عاماً الذي دخل إلى هنا ذات يوم.

لكن فنسنت رآه عندها، فابتسم. كانت ابتسامةً أقحمتّه وأنقذته من متاعب أكثر من أن يستطيع ووك تذكّرها. كان ما يزال قابعاً هناك في الداخل، بغضّ النظر عن الإشارات والتحذيرات، وما يقوله الناس عن كيف أنّ السجن يغيّركَ، كان صديقه ما يزال قابعاً هناك في الداخل.

أخذ ووك خطوةً إلى الأمام، فكّر في أن يفتح ذراعيه لكنّه مدّ يده ببطءٍ فحسب.

نظر فنسنت إلى اليد الممدودة كأنّه نسيّ أنّها يمكن أن تكون محمّلةً بالتّحية لا أكثر. صافحها بخفّة.

- «قلتُ لك ألا تأتي»، تكلم بنبرة حيادية وهادئة، «لكن، شكراً لك». كان هناك شيءٌ مهيبٌ في الطريقة التي يتحرّك بها.

- «تسعدني رؤيتك يا فن».

ملاً فنسنت المعاملات الورقية، مع حارسٍ يقف بالقرب منه ويراقب. إنّ رجلاً يُطلق سراحه بعد ثلاثين عاماً لم يكن مشهداً يسترعي الانتباه، بل مجرد يوم آخر في ولاية كاليفورنيا.

نصف ساعة أخرى وكأنا قد أصبحنا عند البوّابة الأخيرة، استدار كلاهما لدى خروج كادي.

- «ستكون الأمور قاسيةً هناك في الخارج يا فنسنت». عانقه

بسرعة وبقوة، شيء ما كان يعتمل بينهما، ربّما هو ذلك الروتين المهدّب الذي ظلّ قائماً ثلاثين عاماً، وانكسر أخيراً للتوّ.

- «أكثر من النصف»، ظلّ كادي ممسكاً بفنسنّت لحظةً، «إنّه عدد الذين يرجعون إليّ. احرص على ألا تكون واحداً منهم».

تساءل ووك عن عدد المرّات التي قال فيها كادي تلك العبارة الموزونة عبر السنين.

سارا جنباً إلى جنبٍ حتى وصلا إلى الكروزر، وضع فنسنّت يده على غطاء المحرك ونظر إلى ووك.

- «أنا لم أركَ أبداً في زيّك الرسمي. لقد رأيتُ الصورة، وكاد يُغمى عليّ، لكنّ ها أنتَ ذا، شرطيّ بشحمه ولحمه».

ابتسم ووك. «أنا كذلك».

- «لستُ واثقاً بأنّي أستطيع أن أكون صديقاً لشرطيّ يا رجل».

ضحك ووك، وشعر فجأة بشيء من الارتياح.

قاد ببطء في البداية، وعينُ فنسنّت تراقب كلّ شيءٍ من النافذة المفتوحة، فيما النسّمات الباردة تتغلغل بينهما. أراد ووك أن يتكلّم لكنّهما قطعاً تلك الأميال الأولى فيما يشبه الحلم.

- «كنتُ أفكّر في ذلك اليوم حين عملنا على متن ال سانت روز»، قال ووك محاولاً أن يبدو غير متكلّفٍ، كأنّه لم يتمرّن في الطريق مراراً على كيفية البدء في محادثة.

رفع فنسنّت نظره، وارتسمت على وجهه نصف ابتسامةٍ جرّاء هذه الذكرى.

التقيا باكراً، كانا في العاشرة، وكان أوّل أيّام الصيف. نزلا بدرّاجتيهما نحو الماء، قاما بإخفاء الدراجتين جيّداً، تسلّلا إلى متن سفينة الصيد، وقبعا يلهثان تحت قماش القنّب بينما كانت الشمس ترتفع في السماء، وضوءها يتسلّل إليهما عبر القماش. ما زال ووك

يتذكّر ذلك، ضجيج المحرّك بينما كان سكيب دوغلاس ورجاله يتّجهون بها نحو المحيط اللامتناهي. هو لم يكن حتّى غاضباً حين خرجا زاحفين من تحت القماش، أبلغ بدلاً من ذلك عن وجودهما معه وأنّه سيبقيهما معه طوال اليوم. لم يعمل ووك في حياته ساعاتٍ أقسى من تلك، فركَ ونظّف الخشب والصناديق، وكانت رائحة دم السمك لا تتناسب مع ما يشعر به، إنّه طعم الحياة خارج الحدود.

- «أتعرف، سكيب ما يزال يعمل. هناك رجلٌ يُدعى أندرو ويلر يُديرُ في كيب الآن مركباً مُستأجراً. لا بدّ أنّ سكيب قد تخطّى الثمانين الآن».

- «لقد كادت أمّي تمزّقني إرباً في ذلك اليوم لشدّة غضبها»، قال فنسنت وهو يتنحج. «أشكرك بشأن الجنازة واهتمامك بالأمر».

أنزَلَ ووك واقِيَ الشمس.

- «إذاً، هل ستخبرني عنها؟» تحرّك فنسنت في مقعده، وقد بانّت حديثاً ركبتيه، وبدا سرواله أطول بمقدار إنشٍ إضافيّ عند الكاحل.

خفّف ووك سرعته عند سكّة الحديد، عبرت من أمامهما حمولة من صناديق فولاذيّة حمراء بلون الصدأ.

تابعا طريقهما ليدخلا في بلدةٍ من النوع الذي ازدهر في فترة عمل المناجم. تكلمّ ووك أخيراً: «هي بخير».

- «لديها أطفالٌ الآن؟».

- «داتشس وروبن. هل تذكر المرّة الأولى التي رأينا فيها ستار؟».

- «نعم».

- «سترجع بالذاكرة مباشرةً إلى تلك اللحظة حين ترى داتشس».

شرد فنسنت عندها، كان ووك يعرف ما الذي يفكر فيه. إنَّه ذلك اليوم الذي اندفعت فيه سيارة والد ستار من نوع ريفيرا لأول مرّة داخل شوارع كيب. اقترب فنسنت ووك بدراّجتيهما، ورأيا حياةً محشورةً في صندوق السيارة، ملابس وحقائب وصناديق تضغط على الزجاج. كان الصبيان جنباً إلى جنب، أيديهما على مقودَي الدراّجتين، والشمس تسفع رقبتيهما بحرارتها. كان الرجل أوّل مَنْ خرج من السيارة، كان ضخماً، عريض المنكبين، ورمقهما بنظرة كأنّه يقول: أنا أعرف نوعكما. كانا مع ذلك مجردّ طفلين تنحصر اهتماماتهما في العثور على بطاقة البيسبول الخاصة بويلي ميز لأنّ كرة الرقم 8 السحرية الخاصة بفنسنت أخبرتهما أنّهما في حاجةٍ إلى بعض الحظّ. هذا ما كان ووك يتذكّره. ثمّ أخرج الرجل فتاةً صغيرةً، ما تزال نائمةً ورأسها يستريح فوق كتفه فيما كان يتفحص شارع الجديد من أوّله حتى آخره. سيسي رادلي. كانا على وشك الاستدارة ليتوجّها عائدين إلى فناء ووك، وإلى بيت الشجرة الذي كانا يعملان عليه حين انفتح الباب الخلفي على أطول ساقين كان ووك قد رآهما في حياته. تلفّظ فنسنت بشتيمة، تدلّى فكّه، وتثبتّ عيناه على الفتاة. كانت في مثل سنّهما وبجمال جولي نيومار. خرجت من السيارة، رمقتهما بنظرة فيما هي تمضغ العلكة. لعنة لعناء، شتم فنسنت مجدّداً. ثمّ اقتادها الأب إلى المنزل القديم لآل كلاينمان، ولكنّ ليس قبل أن تستدير نحوهما، لا ابتسامة، بل مجرد نظرة حفرّت طريقها في روح فنسنت.

- «لقد اشتقتُ إليك. كنتُ سآتي، أنتَ تعرف، لو أنّك سمحتَ لي. كنتُ سآتي لزيارتك كلّ نهاية أسبوع».

لم يرفع فنسنت عينيه عن المناظر الطبيعية، مرّكزاً فيها باهتمام رجلٍ عاش الحياة من خلال شاشة التلفزيون.

على طريق سنترال فالي السريع، توقّفًا عند مطعمٍ قرب هانفورد، وأكلا البرغر. أنهى فنسنت نصف شطيرته، كانت عيناها على النافذة يراقب أمّا وطفلها، رجلاً عجوزاً محنيّ الظهر بشدّة كأنّه يحمل على ظهره كلّ سنةٍ من سني حياته. تساءل ووك ما الذي رآه. سيّارات لم يكن يعرف أسماءها، متاجر رآها على الشاشة فقط. حياةٌ ضائعة من عام 1975 حتى مطلع الألفية الجديدة. كان العام 2005 يبدو لهما آنذاك شيئاً عن سيّاراتٍ طائرةٍ وخدمٍ آليّين، وها هما فيه الآن.

- «المنزل —».

- «أنا أتفقّده بانتظام. يحتاج للعمل، السقف، والشرفة، ونصف الألواح الخشبية تالفة».

- «لا بأس».

- «هناك مطوّر عقاريّ يُدعى ديكي دارك، هو يلهث وراءه في كل شهرٍ قبل الصيف. إن عزمَ يوماً على البيع —».

- «لستُ عازماً على ذلك».

- «حسنٌ». قال ووك الجزء المتعلّق به، إذا أراد فنسنت المال يمكنه بيع المنزل، آخر منزلٍ على الصفّ الأمامي في طريق سنست.

- «هل أنت جاهزٌ للذهاب إلى البيت؟».

- «لقد غادرْتُ البيت للتوّ يا ووك».

- «كلّا يا فنسنت، أنت لم تفعل».

لم تكن هناك جلبةٌ أو نفخ أبواقٍ لدى وصولهما عائدين إلى كيب هيفن، لا وجوه مرحّبة، لا احتفال أو ضجّة من أي نوع. لاحظ ووك أنّ الرجل الآخر أخذ نفساً عميقاً حين أظلا على المحيط الهادئ، على الاتّساع اللانهائي من المياه الممتدّة أمامهما،

على قمم أشجار الصنوبر والمنازل الكبيرة في كيب هيفن وما بعدها .

- «لقد قاموا بأعمال بناء كثيرة»، قال فنسنت .

- «بالفعل» .

كانت هناك مقاومة في البداية، إلا أنها لم تكن كافية لأنّ الوعود بالمال كانت أكثر من صادقة، إذ تمّ الوفاء بها كاملةً، فأصحاب الأعمال مثل ميلتون تكلموا في العلن عن أنهم تعبوا من الصراع الدائم للبقاء . قال إد تالو إنّ شركته للإنشاءات كانت تكافح لإبقاء الأضواء مُنارةً .

حُفِرَتْ كيب هيفن في الجروف كبلدة رُفِعَتْ فوق مدينة أنهايم . كانت وادعةً ومحفوظةً جيّداً . شعر ووك بذلك تماماً، كانت كلُّ طوبةٍ جديدةٍ تُوضَعُ فوق طفولته مباشرةً، فوق الذكريات التي كان في أمسّ الحاجة إلى الاحتفاظ بها .

استرق ووك النظر إلى يدي صديقه، إلى حشدٍ من الندوب العميقة العابرة بين مفاصل أصابعه . لطالما كان فنسنت خشناً .

هبطاً أخيراً المنحدر نحو طريق سنست، حيث وقف منزل آل كينغ كظلٍّ غير مرحّبٍ به في أكثر الأيام ضياءً .
- «لقد رحل الجيران» .

- «لقد سقطت بيوتهم . الجروف تتآكل وتتهدّم، مثل منطقة بوينت ديوم . حدث آخر انهدام بالأمس . منزل آل فيرلون . منزلك بعيدٌ إلى الخلف بما يكفي، كما أنهم وضعوا حائل أمواجٍ منذ ستين تقريباً» .

نظر فنسنت حوله، المشهد محدّدٌ بأشرطةٍ تمنع الاقتراب كأنّه مسرح جريمةٍ . كانت هناك بيوتٌ إلى وراء قليلاً، قريبةً بما يكفي

كي لا يكون الشارع معزولاً تماماً، لكنها أيضاً بعيدة بما يكفي ليكون لمنزل كينغ الإطلالة الأكثر روعةً.

خرج فنسنت من السيارة، وقف أمام البيت، وعينه على الجملونات المتعفّنة والمصاريع المهترئة.

- «لقد جززتُ العشب».

- «شكراً لك».

لحق بفنسنت على طول الممرّ المتعرّج، والسلالم ثمّ إلى الردهة الباردة المعتمدة. الجدران المكسوّة بورقٍ من صور الورود كانت تُذكّر بالسبعينيات وتستحضر آلاف الذكريات المخملية.

- «لقد فرشتُ الملاءات».

- «شكراً لك».

- «كما أنني ملأتُ الثلاجة. يوجد دجاجٌ وبعض —».

- «شكراً لك».

- «ليس عليكِ ترديد ذلك طوال الوقت».

كان هناك مرآة فوق المدفأة، مرّ بها فنسنت من دون أن ينظر. فكّر ووك أنّه بات يتحرّك بشكلٍ مختلفٍ الآن، كلُّ خطوة بمثابة عبْرٍ عن التوظيف المناسب للموارد واتّخاذ القرارات الصحيحة. كان يعرف أنّ السنوات الأولى مرّت قاسيةً جداً، قاسيةً ليس في هيئة بكاءٍ وعدم قدرةٍ على النوم، بل قاسيةً في هيئة صبيٍّ وسيم بين أحلك أنواع الرجال. لقد كتب ووك وغرايسي كينغ الكثير من الرسائل للقاضي وللمحكمة العليا، بل حتّى للبيت الأبيض. طالباً فيها بعزله على أقلّ تقديرٍ. لم يحصلوا على أيّة استجابةٍ.

- «هل تريد منّي أن أبقى بقربك؟».

- «عُدْ أدراجك، وافعلْ ما تفعله في هذا الوقت».

- «سأتفقدك في وقتٍ لاحقٍ».

رافقه فنسنت إلى الباب وصافحه مودّعاً.

جذبه ووك معانقاً إيّاه، صديقه قد عاد الآن. حاول ألا يجفل من الطريقة التي توتّر بها فنسنت.

استدار كلاهما حين سمعا صوت المحرّك. شاهد ووك سيّارة الإسكاليد. إنه ديكي دارك.

صعد دارك السلالم. كان يرتدي بذلة لا تناسب حجمه. كتفاه مرتحيان، وعيناه للأسفل. كان يلبس ثياباً سوداء كل يوم، معطفاً، وقميصاً، وبنطالاً. كان مشتّت الذهن، ويبدو عليه التأثير لسبب ما.

- «فنسنت كينغ»، كان صوته عميقاً، ورصيناً، «أنا ديكي دارك». دون أي ابتسامة على الإطلاق.

- «لقد تلقّيتُ رسائلِك»، قال فنسنت.

- «لا بدّ أنّ البلدة تبدو مختلفة الآن».

- «إنّها كذلك بالفعل. شجرة الأمنيات هي الشيء الوحيد تقريباً الذي ما أزال أستطيع تمييزه. هل تذكر كيف كنّا نخبئ السجائر في الحفرة الموجودة أسفلها، يا ووك؟».

ضحك ووك. «وحزمة العلب الستّ من بيرة سام آدامز».

رفع دارك أخيراً عينيه، والتقتا بعيني ووك بنظرة من النوع الذي جعله يقشعر. ثمّ حوّل دارك نظره نحو المنزل. «الأخير في الخط الأمامي. أنت تملك الأرض خلفه أيضاً».

نظر فنسنت إلى ووك.

- «سأدفع مليوناً. القيمة الحالية هي ثمانمئة وخمسين ألفاً بالوضع الذي هو عليه. والسوق إلى انقلاب».

- «إنّه ليس للبيع».

- «سوف تحصل على سعرٍ جيّد».

ابتسم ووك. «بالله عليك يا دارك. لقد وصل الرجل إلى البيت لتوّه».

تمعن دارك في المنزل قليلاً بعد، ثم استدار، وتركهما متثاقلاً غير متعجل.

لاحقه فنسنت بنظراته، كأنه رأى في دارك شيئاً لم يستطع ووك أن يراه.

كان لدى داتشس ترتيبٌ مع معلّمة الروضة، الآنسة دولوريس. كانت تسمح لروبن بالبقاء ثلاث ساعاتٍ طويلةٍ إلى أن تنهي داتشس صفّها كلّ يوم، وتمّ ذلك الترتيب بشكلٍ رئيسٍ لأنّ ووك تدخل وطلب، وأيضاً لأنّ روبن كان غير مزعج بالحدّ الأدنى من الإزعاج. ربّ روبن أغراضه حين رآها، التقط حقيبتها، وجرى إليها. جثّ داتشس وعانقته، ثمّ لوّحت للآنسة دولوريس قبل أن يستديرا كي يمضيا في طريقهما.

ساعدته داتشس في نزع الأشرطة عن كتفيه ثمّ تحقّقت من وجود كتاب القصص وزجاجة الماء في الداخل.

- «لَمْ تأكل شطيرتك؟». نظرت إليه نظرةً حانقةً.

- «أنا آسف».

مرّت حافلة المدرسة، والأهالي في سياراتهم رباعية الدفع، والمعلّمون يتجاذبون أطراف الحديث فوق مرجة العشب بينما الأولاد يتقاذفون الكرة بالقرب منهم.

- «عليك أن تأكل يا روبن».

- «الأمر فقط...».

- «ماذا؟».

- «أنتِ لم تضعي أيَّ شيءٍ بداخلها»، قال على مضضٍ.

- «هراء».

أطرق برأسه ناظراً إلى حذائه.

فتحتُ داتشس حقييته وأخرجت الشطيرة.

- «اللعنة».

- «لا بأس في ذلك».

- «غير صحيح»، وضعتُ يدها على كتفه، «سأعدُّ الهوت دوغ

عند وصولنا إلى المنزل».

ابتسم روبن لدى سماعه ذلك.

ركلا حجراً صغيراً معاً، واظبا على دحرجته حتى وصلا إلى

نهاية إيست هارني حيث أرسله روبن إلى فتحة صرفٍ صحيٍّ.

- «هل قال الأولاد أشياءً عن ماما؟» قال فيما كانت تمسك يده

ويعبران الشارع.

- «لا».

- «ريكي تالو قال إنَّ أمَّه أخبرته عن أمِّنا».

- «ماذا قالت؟».

توازيًا تحت فروع شجرة صفصاف، واجتازا المسار الفاصل

بين فورد هام ودوبونت.

- «قالت إنَّه لا يمكنه أن يأتي إلى منزلنا لأنَّ ماما لن تقوم

بمراقبتنا كما يجب».

- «يمكنك أن تذهب أنتِ إلى هناك».

- «إنَّ أمَّه وأباه لا يتوقَّfan عن الصياح أحدهما في وجه

الآخر».

مسَّدتُ شعره. «هل تريدني أن أتحدَّث معها لأرى إن كان في

وسعي ترتيب شيءٍ ما؟».

- «نعم».

كانت داتشس تعرف ليا تالو. كانت دائرة شرطة كيب هيفن عبارة عنها وعن ووك ومساعدية أخرى تُدعى لُوان، وهي مجرد عجوزٍ شمطاء. لم تستطع داتشس أن تتخيل أياً منهم يعمل على قضية حقيقية.

- «قال ريكي إنه سوف ينتقل إلى غرفة أخيه حين يغادر إلى الجامعة. قال إنَّ لدى أخيه حوض سمك. هل يمكننا الحصول على حوض سمك؟».

- «لديك قناع غوص. اذهب وشاهد الأسماك في البحر».

حين وصلا إلى شارع مين، رأيا مجموعة فتياتٍ خارج مطعم روزي، إنَّها المجموعة نفسها دائماً، يقمنَ بحجز طاولتين في الشمس، ويشربنَ مخفوق الحليب. كانت هناك أصوات ضحكٍ وهمسٍ لدى مرور الفتاة وأخيها.

دخلا متجر البقالة، كانت السيِّدة أدامز عند صندوق الدفع.

عثرت داتشس على علبة نقانق، وأحضر روبن الخبز. أخرجت محفظتها، وعدَّت ثلاثة أوراقٍ من فئة الدولار الواحد. كان ذلك كلَّ ما تملك.

نظر روبن إلى الأعلى وقال: «هل يمكننا أن نحضر أصابع البطاطس المعدَّة للقلي؟».

- «نحتاج الكتشاب على الأقل، سيكون الهوت دوغ ناشفاً».

رفعت داتشس العلبة والخبز إلى صندوق الدفع.

- «كيف حال أمِّك؟». نظرت السيِّدة أدامز إلى الأسفل من فوق نظارتها.

- «بخير».

- «ليس ذلك ما سمعته».

- «لماذا تسألين إذاً بحقّ الجحيم؟».

شدّ روبن على يدها. لربّما كانت السيدة أدامز ستطلب منها المغادرة، لكنّ داتشس ألقت بالدولارات الثلاثة فوق المنضدة قبل أن تتمكّن من ذلك.

- «لا تشتمي هكذا»، قال لها روبن بينما كانا يمشيان صعوداً في مين.

- «كيف حال أمّك اليوم؟».

التفتت داتشس، ورأت ميلتون خارج محلّ الجزارة خاصّته. مسح يديه بمئزره، فتلّطّخ ببقع من الدم.

مشى روبن نحو زجاج الواجهة، وألقى نظرة على الأراب المعلّقة بالخطاطيف من حناجرها.

- «إنّها بخير»، قالت داتشس.

اقترب ميلتون خطوة، تلك الرائحة قوية ونفاذة جدّاً لدرجة أنّها استقرت في حلقتها.

- «أنت تشبهينها كثيراً، هل تعرفين ذلك؟».

- «نعم، لقد قلت لي ذلك من قبل».

لاحظت نثراتٍ من اللحم غارقة في شعر ذراعيه الكثيف. حملق فيها برهةً، كأنّه نسي أين هو، ثمّ عاد فجأةً عندما رأى كيس بقاتلها وما بداخله.

- «تلك ليست نقانق حتّى. إنهم يُنتجونها في مختبر. انتظري

هنا» قال مستهجنًا.

راقبته وهو يتّجه إلى الداخل، كان يلهث مع كلّ خطوة.

عاد ميلتون بعد دقيقتين، وفي يده كيس ورقّي مطويّ، وملطّخ

بطبعات أصابع حمراء. «نقاتق مورسيلا. أخبرني أمك من أين جئت بها. أرسلها إلى هنا إن كانت تريد أن تعرف الطريقة الصحيحة لطهوها».

- «ألا تقلبها فحسب؟»، سأل روبن.

- «ربما في السجن. إذا كنت تريد تفجير هذه النكهات عليك أن تتعرف إلى الموقد الهولندي. أترى، الأمر كله متعلق بمستوى الضغط وال...».

اختطف داتشس الكيس، أمسكت يد روبن، وشعرت بعيني ميلتون تلاحقناها فيما كانت تسرع مبتعدة.

عند مطعم روزي، أخذت داتشس نفساً عميقاً، وقادت روبن إلى الداخل، متجاهلة الفتيات ونظراتهن. المكان مزدحم في الداخل، والطاولات مملوءة بالمصطافين، ورائحة القهوة عابقة فيه. أصوات عالية لأحاديث عن بيوت ثانية، ومخططات للصيف.

وقفت داتشس قرب المنضدة، ورأت الوعاء حيث وضعت أكياس الكتشاب الصغيرة، إنها مجانية إذا اشتريت شيئاً. ألقت نظرة خاطفة على روزي، كانت مشغولة بالعمل على صندوق الدفع.

أخذت داتشس كيس كتشاب واحد من أجل روبن، وكانت على وشك أن تستدير.

- «أليس عليك أن تشتري شيئاً كي تأخذي الكتشب؟».

رفعت بصرها. لقد كانت كاسيدي إيفانز، فتاة من صفها. بدا على روبن التوتر وهو ينقل ثقل جسمه من قدم إلى أخرى بالتناوب.

ابتسمت كاسيدي ابتسامة متكلفة، مبرطة شفيتها الملمعتين، كأنها تحاول رسم ملامح الانزعاج كرهاً.

- «كان كيساً واحداً فقط».

- «آنسة روزي، أليس عليك أن تشتري شيئاً كي تأخذي الكتشاب؟» قالتها كاسيدي بصوت عالٍ، والبراءة تقطر من صوتها. عمّ الصمت، وشعرت داتشس أنها تحترق بنظرات أعين الغرباء المسلّطة عليها.

وضعت روزي كوباً من يدها، وجاءت إلى المنضدة. دفعت داتشس كيس الكتشاب إلى الوعاء، ثمّ جفلت حين سقط على الأرض وتناثر الزجاج في كلّ مكانٍ.

قبضت على يد روبن بحركة خاطفة واقتادته نحو الخارج، كانت كاسيدي في أعقابها، وروزي تصرخ غاضبةً.

سارا في صمتٍ نزولاً عبر الشوارع الهادئة.

- «لسنا حتّى في حاجةٍ إلى الصلصة»، قال روبن، «سيظلّ الهوت دوغ لذيذاً من دونها».

عبر طريق سنست رأى روبن وداتشس طفلين يتقاذفان الكرة على الرمل في الأسفل. راقبهما روبن باهتمام. كانت داتشس تلعب معه في معظم الأحيان، ألعابٌ، وجنودٌ، وسيّاراتٌ، وعصا لطالما اعتقد أنّه يشبه عصا الساحر. نادى في بعض الأحيان على ستار كي تخرج وتلعب معه، كانت في معظم الأيام مستلقيةً في غرفة الجلوس المعتمة، حيث التلفاز يعمل دائماً لكنّه مكتوم الصوت. كانت داتشس قد سمعتُ كلاماً عن الاضطراب ثنائي القطب، والقلق، والشخصية الاتكالية.

- «ماذا يحدث؟» قال روبن.

إلى الأمام منهما، رأيا ثلاثة صبيةٍ يركضون عائدين باتجاههم. اندفع الصّبية بسرعةٍ كبيرةٍ لدى مرورهم بهما.

- «إنّه منزل آل كينغ»، قالت داتشس. توقّفاً في منتصف

الشارع، ونظرا نحوه. كانت النافذة الأمامية محطّمة، فيها فجوة بحجم صخرة صغيرة.

- «هل يجب أن نبْلِّغ عن ذلك؟».

راقبت داتشس المنزل، رأت ظلّاً يتحرّك في الداخل، فهزّت رأسها. أخذت يدَ روبن، واقتادته بعيداً.

جلس ووك في صف المدرّجات الخلفي، وشاهد الكرة تلتف في الهواء نحو خط الخمسين ياردة داخل منطقة الهدف، حيث أخطأ المتلقّي في التقاطها. رفع الفتى الذي يلعب في مركز الظهير الرباعي يده مبتسماً، ثمّ نفّض عن وجهه تلك الابتسامة. كان عليهم أن يعيدوا المحاولة.

تابع ووك فريق الكوغرز طيلة حياته. لعب فنسنت ذات يوم ملتقطاً في الهجوم. كانت موهبته الفطرية حديث الولاية برمتها. لم يفوزوا كثيراً منذ ذلك الوقت، ليس أكثر من مباراتين على التوالي. مع ذلك، فقد أخذ ووك مكانه ليلة الجمعة بين جماعاتٍ من المراهقات ذوات الوجوه المصبوغة يُهلّلن بالتشجيع والصراخ. بعد كل فوزٍ كانوا يجتمعون في مطعم روزي: اللاعبون، والمشجّعات، وذلك النوع من المشاعر الذي يرسم الابتسامة على وجه ووك.

- «إنّ له ذراعاً جيدة»، قال فنسنت.

- «بالفعل».

التقط ووك علبة بيرة رولينغ روك، لكنّ فنسنت لم يلمس علبته، ولم يشرب قطرةً منها. كان قد مرّ به بعد انتهاء مناوبته، ووجد فنسنت يعمل على المنزل رغم أنّ الضوء كان آخذاً في التلاشي.

كان قد صقل بالفعل معظم السطح الخلفي بورق الصنفرة، وقد تَقَرَّحَتْ يداه، وتغضَّن وجهه بسبب الإعياء.

- «سوف يتحوَّل إلى محترفٍ». راقب فنسنت الفتى بينما كان يعيد الكرة. هذه المرَّة تمكَّن المُلتَقِط من الإمساك بها، وهتف فرحاً.

- «كما كنتَ ستكون».

- «تريد أن تسألني عن الأمر؟».

- «عن ماذا؟».

- «كلُّ شيء».

رشف ووك جعته. «لا يمكنني أن أتخيَّل كيف كان الوضع».

- «يمكنك ذلك، لكنَّك لا تريد فحسب. ولا بأس في ذلك.

أياً يكن الأمر، فقد نلْتُ ما أَسْتَحِقُّ».

- «غير صحيح. ليس بالطريقة التي جرى بها الأمر».

- «لقد ذهبْتُ إلى قبرها، لم... لم أترك زهوراً أو أيَّ شيء».

لا أعرف إن كان عليَّ فَعْلُ ذلك».

هبطت الكرة مرَّةً إثر مرَّةٍ بعد كلِّ تمريرةٍ تحت أضواء الملعب الكاشفة. رأى ووك براندون روك بقبَّعة البيسبول التي يضعها بالمقلوب.

تبع فنسنت عيني ووك. «هل ذاك هو براندون؟».

- «نعم».

- «ظننْتُ أنَّه نجح في أن يصبح محترفاً. أعني أنَّه كان في تلك

الأيام لاعباً جيداً، صحيح؟».

- «الركبة. لقد خرجت من مكانها، ولم تعد أبداً، ليس

بالشكل الصحيح. إنَّه يعمل لدى تالو للإنشاءات، شيءٌ ما في

- المبيعات. هو يعرج في مشيته، والأرجح أن عليه استخدام عكاز، لكنك تعرف كيف هو براندون».
- «ليس بعد الآن».
- «ما زال يملك سيّارة أبيه المستأنف».
- «أذكر اليوم الذي أحضرها فيه والده العجوز. لقد تجمّع نصف الحيّ ليتفرّج عليها».
- «أردت أن تسرقها».
- ضحك فنسنت. «أستعيرها يا ووك. أستعيرها فحسب».
- «هو يحبّ تلك السيارة. أعتقد أنّه يعدّها تجسيداً لأوقات أفضل في حياته. الشَّعر، الملابس، ما زال الرجل يعيش في العام 78. كما ترى، هو لم يتغيّر يا فين. لا أحد منّا تغيّر، ليس حقّاً».
- نزع فنسنت غطاء علبة البيرة لكنّه ما زال عازفاً عن الشرب.
- «ومارثا ماي؟ هل تغيّرت؟».
- تمهّل ووك ثانية لدى ذكر اسمها. «إنّها محاميةٌ في بيترووتر. هي تتعامل مع قضايا الأسرة والطلاق في الغالب».
- «لطالما اعتقدتُ أنّها كانت مقدّرةً لك. أعرف أنّنا كنّا صغاراً، لكنّها الطريقة التي كنتَ تنظر فيها إلى مارثا».
- «شيءٌ يشبه الطريقة التي نظرتَ فيها إلى ستار».
- أخطأ الملتقط، وارتدت الكرة متّجهة نحو المنصّة. نهض براندون على عجل، وتحركَ سريعاً بالنظر إلى عرجه. قبض على الكرة، ولكن بدلاً من يمرّرها إلى الملتقط، أرسلها مسافة أربعين ياردةً إلى الظهير الربيعي، الذي تلقّفها عالياً في الهواء.
- «ما زال يملك الذراع»، قال ووك.
- «ما يجعل الأمر أسوأ على ما أظنّ».

- «هل ستذهب وترى ستار؟» .

- «لقد أخبرتك أنها لا تريدني هناك» .

عبس ووك، وابتسم فنسنت . «أستطيع دائماً أن أقرأك يا ووك . حين قلت إنك تعتقد أنها تحتاج القليل من الوقت . . . اللعنة، ألم يكن كل هذا الوقت طويلاً بما يكفي؟ لكنني بعدها فكرت في أنها على حق . أحياناً يكون الكثير جداً من التاريخ قابلاً هناك فحسب . لكن أنت ومارثا حالة مختلفة» .

- «هي . . . نحن لم نعد نتحدث» .

فتَح ووك علبة بيرة أخرى . «لقد كنّا سوياً، في تلك الليلة بعد النطق بالحكم . لقد حملت» .

شخص فنسنت بنظره نحو الملعب .

- «والدها، ومع كونه كاهناً وكل ذلك» .

- «تَبَّأ يا ووك» .

- «نعم» .

- «أرادت أن تكون كاهنة هي أيضاً، وأن تسير على خطى أبيها المقدسة» .

تنحَنح ووك . «لقد جعلها . . . تجهض . أقصد، إن ذلك كان . . . لقد كنّا طفلين . لكنك لا تستطيع العودة من شيء كهذا . والأمر لم يتعلّق بالطريقة التي نظرَ إليّ بها فحسب، بل بالطريقة التي فعلتُ هي . كأنّها ترى غلطة» .

- «وأنت نظرتَ إليها ورأيتَ —» .

- «كلّ شيء . رأيتُ كلَّ شيء . رأيتُنا مثل والديّ اللذين قضيا ثلاثة وخمسين عاماً معاً . رأيتُ بيتاً، وأطفالاً، وحياة» .

- «هل تزوّجت؟» .

هزَّ ووك كتفيه . «أرسلتُ إليها رسالة . منذ ستّ سنواتٍ تقريباً،

كان عيد الميلاد، وكنتُ قد أخرجتُ صورنا القديمة. لكنّها لم تردّ.

- «لم يفتِ الأوان لإصلاح الأمر».

- «يمكنني قول الشيء نفسه لك».

وقف فنسنت. «أنا متأخّر ثلاثين عاماً عن إصلاح الأشياء».

كانت الحانة في سان لويس، والتي لم تكن أكثر من توسّع عرضيّ للطريق السريع الذي نحت الحقول الجرداء، وانحدر نزولاً نحو وادي ألتانون.

كانت ستار قد استعارت سيارة الكومانشي القديمة من جارها ميلتون. لم يعمل جهاز التكيف فيها، ما جعل داتشس وروبن يمدّان رأسيهما من النافذة كزوج من الكلاب، كانا متعبين كلاهما، لكن هكذا كان يجري الأمر مرّة في الشهر على الأقل.

أحضرت داتشس مشروعها معها، وقبضت على الأوراق بإحكام بينما كانت ستار تركز السيارة بين شاحنتين صغيرتين وباب خلفي. حملت ستار معها حقيبة غيتارٍ مهترئة، وارتدتُ سروال جينزٍ قصيراً يعلو عند مؤخرتها، وكنتُ بلا أكمام تنزلق عند صدرها.

- «ليس على ملابسك أن تكون بهذا الشكل».

- «نعم، حسنٌ، هكذا يكون البقشيش أفضل».

شتمتُ داتشس من بين أسنانها، فاستدارت ستار نحوها. «أرجوك، استرخي فحسب هذه الليلة، انتبهي لأخيك، ولا تقعي في أيّة مشاكل».

أخذت داتشس يد روبن، واقتادته إلى مقصورة في الخلف، جعلته يدخل أولاً ثمّ جلست بجانبه، محيطّة إياه بسورٍ يفصله عن

مكان لا يجب أن يكون موجوداً فيه . أحضرت لهما ستار مشروباً غازياً بينما فتحت داتشس تقريرها ، وأعطت بعض الأوراق لأخيها . أخرجت مقلّمته ، وسحبت الأقلام منها .

- «هل ستغني عن الجسر؟» قال روبن .

- «دائماً» .

- «أحبّ تلك الأغنية . هل ستغنيها معها؟» .

- «لا» .

- «جيدّ . أكره الأمر حين تأخذ في البكاء هناك» .

انسابت خيوط الدخان من منافض السجائر . خشبٌ داكنٌ ، أعلامٌ فوق البار ، الضوء خافتٌ بما يكفي . سمعتُ داتشس أصوات ضحكاتٍ ، كانت ستار تشرب أقداً سريعاً مع رجلين ، كانت في حاجةٍ لها قبل أن تبدأ .

مدّ روبن يده إلى صحن المكسرات الذي على الطاولة ، فدفعت داتشس يده بعيداً . «كلّه بول» .

حملتُ في الصفحة ، في الفراغ المخصّص لاسم والدها ، والأغصان الطويلة العارية لشجرة عائلتها . في اليوم السابق ، كانت كاسيدي إيفانز قد وقفت أمام الصف ، وتحدّثت عن نسبها ، ثمّ تفاخرت بعرض خطّ متعرّج تنضح النبالة منه ، يمتدُّ منها وصولاً إلى أدميرال الحرب الشهير دو بونت ، وكان أسلوبها في الإلقاء حماسياً ومفعماً بالنشاط لدرجة أنّ داتشس كادت تشمُّ رائحة البارود .

- «لقد رسمتك» .

دفع بالورقة إليها ، وابتسمت داتشس . «هل أسناني كبيرةٌ إلى هذا الحد؟» ووكزته في خاصرته حتى ضحك كثيراً لدرجة أنّ ستار نظرت إليهما وأشارت أن يهدأ .

- «احكي لي مجدداً عن بيلي بلو رادلي» ، قال روبن .

- «كان كما قرأتُ عنه لا يعرف الخوف، سطا على أحد البنوك، ثمَّ اختطف العمدة واقتاده ألف ميلٍ بعيداً».

- «يبدو شخصاً سيئاً».

- «كان يهتم بأناسه، كان رجاله بمثابة عائلته». وضعتُ يدها على صدره، «ذلك هو دمنّا الذي يجري هنا، نحن خارجان عن القانون».

- «ربّما أنتِ كذلك».

- «نحن الشيء نفسه».

- «لكنَّ أبي وأباك ليسا الشخص نفسه —».

- «هيه»، أمسكت وجهه بلطفٍ، «دم رادلي، نحن الشيء نفسه. لمجرد أنَّ والدينا لم يكونا جيّدين أبداً فذلك لا يعني... نحن الشيء نفسه، قلّها لي».

- «نحن الشيء نفسه».

عندما حان الوقت، ضعُفت الإضاءة قليلاً، وجلست ستار على كرسيٍّ في الأمام، عزفت وغنّت مجموعةً من الأغنيات المعروفة، وأغنيتين خاصّتين بها. أحد الرجلين اللّذين كانت تشرب معهما أخذ يصفر، ويهتف، ويهلّل بعد كل مقطعٍ.

- «أوغاد»، قالت داتشس.

- «أوغاد»، وافق روبن.

- «لا تقل تلك الكلمة».

ثمَّ وقف الرجل، وأشار نحو ستار. قال شيئاً ما كأنَّ هناك تاريخاً بينهما، ونعتها بمُمتَهنة الإغواء.

نهضت داتشس واقفةً، التقطت زجاجة مشروبها الغازي ورمتها باتجاه البار. لم تصل الزجاجة إلى حيث يجب، وسقطت متكسّرةً عند قدمي الرجل. حدّق فيها بضم مفتوح، فحدّقت فيه بالمقابل،

وجمعت قبضتيها متخذةً وضع القتال، طالبةً منه أن يأتيها بكل ما لديه، مخبرةً إياه أنها لن تستدير مبتعدةً أبداً.

- «اجلسي»، شدّها روبن من يدها، «أرجوك».

نظرت إليه بطرف عينها، ورأت الخوف في عينيه، ثم التفتت إلى أمّها التي حرّكت شفّتيها بالكلمات ذاتها.

حملق الرجل بها منذراً. أعرضت داتشس عنه وجلست في مكانها.

أنهى روبن المشروب الغازي فيما كانت ستار تنادي على ابنتها. داتشس، تعالي إلى هنا. تستطيع صغيرتي أن تغني أفضل من أمّها.

غاصت داتشس في المقعد، نظرت إلى والدتها، وهزّت رأسها رافضةً بغضّ النظر عن كلّ الذين استداروا نحوها، وشجّعوها، وصفّقوا لها. كان هناك وقتٌ كانت لتغني فيه، حين كانت أصغر، قبل أن تعرف العالم. كانت لتغني في المنزل، في الحمام، في فناء البيت.

أعلنت ستار أنّ داتشس ليست مريحةً على الإطلاق، وانتقلت إلى الأغنية الأخيرة، الأغنية التي جعلت روبن يضع أقلامه جانباً، ويتفرّج على أمّه كأنّها آخر القديسين. «أحبّ هذه الأغنية».

- «أعرف».

عندما انتهت، نزلت ستار عن المسرح، جمعت نقودها، وحشرت المغلف في حقيبتها، خمسون دولاراً ربّما. ثمّ عاد الرجل، وهذه المرة أمسك مؤخّرتها ملء قبضته.

كانت داتشس قد نهضت واقفةً قبل أن يتمكن روبن من التوسّل إليها ألا تفعل، تحرّكت بسرعة، ثمّ جثت على الأرض والتقطت قطعةً من الزجاج المكسورة.

دفعْتُ ستار الرجل إلى الوراء لكنَّه ظلَّ ثابتاً في مكانه، أطبق قبضته غاضباً، إلى أن رأى عينيها تنظران ليس إليه، بل إلى ما هو خلفه. استدار، وإذا بها هناك، صغيرةٌ وجاهزةٌ. رفعت قطعة الزجاج عالياً موجَّهةً طرفها المسنن نحو حنجرتِه.

- «أنا الخارجة عن القانون، داتشس داي رادلي. وأنتَ لستَ سوى كرسيٍّ بارٍ مخنَّث، ولسوف أفصل رأسك اللعين عن جسدك». سمعتُ شقيقها ينشج بصوتٍ خافتٍ. أمسكتُ ستار برسغها وأخذتُ تهزُّه بقوةٍ حتَّى أفلتت الزجاج. أتى بضعة رجالٍ آخرين، ووقفوا بينهم، وجعلوا الأمور تهدأ. ثمَّ قُدِّمتَ جولة شرابٍ مجَّانيةٌ. دفعتها ستار حتَّى خرجتُ من الباب، ثمَّ حملتُ روبن ولحقْتُ بها.

كانت الساحة مظلمةً حين ركبوا في الشاحنة. انفجرتُ ستار في وجهها، صرختُ وقالتُ لها إنَّها غبيَّةٌ، وأنَّه كان يمكن لذلك الرجل أن يؤذيها، وأنَّها كانت تعرف ما تفعله، وليست في حاجةٍ إلى طفلةٍ في الثالثة عشرة كي تدافع عنها. جلست داتشس بلا حراكٍ، تنتظر انتهاء نوبة الغضب.

حين انتهت، استدارت ستار لتشغِّل المحرَّك.

- «لا يجدر بكِ القيادة الآن».

- «أنا صاحبةٌ». نظرت ستار في المرأة، ورتَّبت شعرها.

- «لن تقودي السيارة بأخي وأنتِ على هذه الحال».

- «قلتُ إنَّني صاحبةٌ الآن».

- «صاحبةٌ مثلما كان فنسنت كينغ صاحياً؟».

رأت داتشس اليد قادمةً إليها، لم تتبعد عنها، بل تلَقَّت الصفعة على خدِّها فحسب، كأنَّها لم تكن شيئاً.

في الخلف، بكى روبن.

مدّت داتشس نفسها إلى الأمام، سحبت المفتاح من مقبس التشغيل، وزحفت عائدةً إليه. مسحت شعره ودموعه برفق، وساعدته على ارتداء ملابس النوم.

نامت داتشس ساعةً، ثمّ ركبت في المقعد الأمامي وسلّمت المفاتيح إلى ستار. غادروا المكان متّجهين إلى المنزل، الأمّ وابنتها جنباً إلى جنبٍ.

- «تعرفين أنّ عيد ميلاده في عطلة نهاية الأسبوع هذه»، قالت داتشس بهدوءٍ.

مرّت لحظة صمتٍ قبل أن تجيب ستار: «بالطبع أعرف. إنّه أميرى الصغير».

تسبّب ذلك الجواب لداتشس بألم في المعدة. لم تكن تملك المال. لقد عملت في توصيل الجرائد، وتصيّبت عرقاً على درّاجتها كل نهاية أسبوع، لكنّ مردود ذلك العمل لم يكن جيّداً.

- «إنّ كان في وسعك إعطائي بعض النقود فسوف أهتمّ بالأمر».

- «سأجدُ حلاً».

- «لكن —».

- «تبّاً داتشس، قلتُ إنّي سأجدُ حلاً. فلتتحلّي ببعض الإيمان».

قالت داتشس لنفسها إنّها فقدت الإيمان في كلّ مرّة كان يمرّ عيد ميلادها من دون أيّ إشارة له.

ترجّرت السيارة فوق الطريق الفرعية إلى أن أخذوا الطريق السريع.

- «هل أنتِ جائعة؟»، سألتها ستار.

- «لقد أعددتُ الهوت دوغ».

- «هل جلبتِ بعض الصلصة؟ تعرفين أن روبن يحبُّها».
نظرت داتشس إلى أمِّها بعينين متعبتين. مدَّت ستار يدها
وداعبتُ خدَّ داتشس. «كان يجدر بك الصعود على المسرح الليلة».
- «كي أغنيَ لزمرةٍ من السكارى. سأترك هذا للمحترفين».
سحبتُ ستار سيجارةً من حقيبتها، وثبَّتتها بين أسنانها فيما
كانت تحاول إشعال ولأعتها. «إذا شغَلْتُ المذياع، فهل ستغنيين
شيئاً لي؟».

- «روبن نائم».

وضعت ستار يدها حول كتفي داتشس، وجذبتهَا قريباً منها.
قبَلْتُ رأسها فيما السيارة تنزلق فوق الطريق السريع. «كان هناك
شابُّ الليلة، هو يملك استديو تسجيلٍ في الوادي. لقد أعطاني
بطاقته، وطلب مِنِّي أن أتَّصل به. قد تكون هذه هي فرصتي».
تشاءبتُ داتشس، وأصبحت عيناها ثقيلتين، وأضواء الشارع
بدأت تخفت.

- «داتشس دوقة كيب هيفن. هل تعلمين أنني لطالما حلمتُ بأن
يكون لي ابنةٌ. تضع قوساً جميلاً في شعرها».
كانت داتشس تعرف ذلك.

- «هل تعرفين شيئاً عن بيلي بلو رادلي؟».
ابتسمتُ ستار. «كان من عادة جدِّك أن يحكي لي عنه. ظننتُ
أنَّه كان يخلق الأمر».

- «لقد كان حقيقياً، نحن دم رادلي يا ماما». فكَرْتُ داتشس
في أن تسألها عن والدها مجدداً، لكنَّها عدلت عن ذلك، إذ كانت
متعبةً جداً للخوض في هذا الأمر.

- «تعرفين أنني أحبك، اليس كذلك؟».

- «بالأكيد».

- «جدياً، يا داتشس. كلُّ ما أفعله... كل ما لديّ، كلّ من أجلكما أنتما الاثنان».

حدّقت داتشس خارجاً في عتمة الليل. «أتمنّى فحسب...».

- «ماذا؟».

- «أتمنّى فحسب لو كان هناك منطقةٌ وسطى؛ لأنّها المكان الذي يعيش فيه الناس، ليس من الضروري أن يكون الأمر إمّا الكلُّ أو اللّاشيء... غرقٌ أو سباحةٌ بتلك الطريقة. معظم الناس يطفون على الماء فحسب، وهذا كافٍ؛ لأنّك حين تغرقين فإنّك تسحبيننا معك».

مسحت ستار عينيها. «أنا أحاول. سأكون شخصاً أفضل. لقد ردّدتُ عهودي مجدّداً صباح اليوم. سأردّها كل يوم. أريد أن أفعل هذا من أجلكما».

- «تفعلين ماذا؟».

- «أريد أن أكون إيثاريةً. السلوك الإيثاريُّ يا داتشس. إنّه ما يجعلك شخصاً صالحاً».

كان قد حلّ منتصف الليل تقريباً حين وصلوا إلى البلدة، شعرت داتشس بانقباضٍ حين رأت سيّارة دارك الإيسكالييد في الممرّ.

دخلوا عبر البوابة المفتوحة، سيكون دارك على الشرفة، ينتظر، يحدّق في اللّاشيء بتلك الطريقة التي تُشعرها بالخوف، كأنّه يرى شيئاً في الظلال. لم تكن تحبّه. كان هادئاً جدّاً، وضخماً جدّاً، وكان كثير التحديق، لقد رأته عند سور المدرسة، كان جالساً في سيّارته يراقبها.

- «اعتقدتُ أنّك ستعملين الليلة في نوبة منتصف الليل؟» قالت داتشس.

كانت ستار تعمل في تنظيف المكاتب هناك في بيترووتر.

- «لقد... أنا لم أذهب الليلة الماضية، لذلك فقد أخبروني ألا أعود مجدداً. يمكنني أن أهتم بالبار في حانة دارك، هو في الخارج لهذا السبب على الأرجح».

- «لا أحب لك أن تعلمي هناك».

ابتسمت ستار، وأمسكت البطاقة مجدداً كأنها كانت دليلاً على شيء ما. «حظنا يتغير».

سحبت داتشس أخاها. كان خفيف الوزن، نحيل الساقين والذراعين، وشعره يزداد طولاً، ولكن لم يكن في وسعها أن تتحمل كلفة أخذه إلى صالون جو روجرز، حيث يذهب بقيّة الصبية. كانت سعيدة لكونه أصغر من أن ينتبه إلى ذلك، كذلك الأمر كان الصبية الآخرون، لكنّ هذا كان سيتغير قريباً، وكانت تشعر بالقلق حيال ذلك.

في غرفة نومهما المشتركة، حيث علقت داتشس الملصقات عن العلوم والكواكب؛ لأنّه سيكون ذكيّ العائلة. كان هناك كتاب واحد على الرف، ماكس الجائع البرّي، لكنّ ما أحبه روبن كان النهاية، فالعشاء فيها أظهر أنّه تمّ الاعتناء بماكس جيداً. استعارت داتشس الكتاب من المكتبة الصغيرة في ساليناس، وجدّدت استعارته كلّ أسبوعين، قاطعة مسافة ميلين في كلّ اتجاه كي تفعل ذلك.

سمعت كلاماً في الخارج. دارك كان مالك المنزل، وستار لم تستطع دفع الإيجار. كانت داتشس كبيرة بما يكفي لفهم ما يعنيه ذلك، وصغيرة بما يكفي لتجنّب فهم شيء كهذا.

ذهب تفكيرها سريعاً إلى واجبها المدرسي، والورطة التي ستعلق فيها في حال لم تكمله. لا يمكنها أن تعرّض نفسها لعقوبة

الحجز بعد انتهاء الدوام؛ إذ لن يكون هناك أحدٌ ليصطحب روبن. لا يمكن الوثوق بستار.

قرّرت أن تنام حتّى الفجر، وتنكبّ على الواجب المدرسيّ في الصباح الباكر. فتحت داتشس الستائر. كان الشارع غارقاً في النوم، على الجهة الأخرى كان منزل ميلتون، حيث ظلّ مصباح الشرفة الأمامية مضاءً طوال الليل، والفراشات تتجمّع حوله ثم ترفرف مبتعدةً. لمحت داتشس ثعلباً يتبختر برشاقة وهو يغادر الضوء نحو الظلال.

ومن ثمّ، رأت رجلاً بالقرب من منزل براندون روك، وكان يراقب نافذتها. لم يكن قادراً على رؤيتها حيث كانت تقف. كان طويلاً، ليس مثل دارك لكنّه طويل رغم ذلك. قصّة شعير قصيرة، كتفان محنيان، كأنّ الكبرياء انزلق عنهما.

استلقت داتشس في مكانها.

بعد ذلك، ولمّا أخذت عيناها تثقلان، سمعت صرخةً.

كانت صرخة أمّها.

غادرت الغرفة بحذرٍ وبخبرة فتاة اعتادت أهوال الليل، وأمّ تعاشر أسوأ الرجال. أغلقت الباب خلفها، سيظلّ روبن نائماً، وحتى إن استيقظ فلن يتذكّر شيئاً، فهو لا يتذكّر أبداً.

سمعت صوت دارك، رصينٌ كما هو الحال دائماً.

- «اهدئي».

راقبت من طرف الباب الغرفة وكأنّها قطعة من الجحيم، المصباح منقلبٌ على جانبه، يلقي بظلاله على أمّها المرمية فوق السجادة. راقبها دارك بانتباهٍ كبيرٍ، كأنّها كانت مخلوقاً بريّاً قام بتخديره للتوّ. كان ضخماً جداً، ضخماً جداً بالنسبة إلى الكرسي والمزول الصغير، وضخماً جداً بحيث يصعب القضاء عليه.

عرفت داتشس ما يجب القيام به، وأيُّ لوحات خشبية تصدر صوتاً، فتحرّكت عبر الرواق نحو المطبخ. لم تكن لتتّصل بالشرطة، فالمكالمات مسجّلة. سمعتُ - لدى قيامها بطلب رقم هاتف ووك الخلوي - صوتاً وراءها، فاستدارت، ولكن بعد فوات الأوان، إذ أخذ دارك السّماعَة من يدها.

نسبتُ أظافرها في يده، وغرزتها عميقاً حتى شعرتُ به ينزف. اقتادها من المطبخ ويده ثابتةٌ فوق كتفها. حاولت المقاومة، خربشتُ، وضربت الطاولة الجانبية وقلّبتها، وعند صورةٍ لروبن في أوّل يومٍ له في الروضة تثبّت عينيها.

وقف دارك فوقها. «لن أؤذيك، لذا لا تستدعي الشرطة». صوتٌ عميقٌ جداً لدرجة أنّه يكاد يكون غير بشريّ. كانت قد سمعت قصصاً عنه، مقتطفاتٍ صغيرةً فقط، مثل أنّ رجلاً تجاوزه في الطابور في بينساكولا، فسحبه دارك من سيّارته، وهشّم وجهه، وأكثر من ذلك أنّه فعل ما فعله بهدوءٍ سحرٍ المتفرّجين.

راقبها، كما كان يفعل دائماً. درس وجهها، وشعرها، وعينيها، وفمها، مرّكزاً على كلّ التفاصيل، وجعلها ترتجف خوفاً.

نظرتُ إليه، وزمجرت من أنفها الصغير بشراسةٍ. «أنا الخارجة عن القانون، داتشس داي رادلي، وأنت معنّف النساء ديكي دارك».

تراجعت إلى الورااء بسرعةٍ، ووجهها إلى الباب. فوقها كان ضوء الشارع يتساقط عبر الزجاج، غامراً إيّاها بلونٍ برتقاليٍّ فيما كانت تشاهد أمّها تصيح وتصرخ راكضةً نحو دارك.

ما كانت لتنهض وتساعد، عرفت أنّ عليها ألا تفعل. لكنّها بدلاً من ذلك وقفت حين رأت ذلك الشبح خلف الزجاج. وراءها كانت والدتها تلوّح بقبضتيها، فأمسك دارك بيديها وحاول تثبيتهما. اتّخذت داتشس قراراً سريعاً. أيّاً يكن هذا الذي في الخارج،

فلن يكون أسوأ ممَّن هو في الداخل . فتحت الباب ، رفعت رأسها ونظرت إلى وجه الرجل . تنحَّت جانباً وتقدَّم الرجل ، أمسك بخناق دارك ، وشرعا يتصارعان . أنزل لكمَّة واحدة أصابت جانب رأس دارك .

لم يجفل دارك ، لكنَّه تجمَّد في مكانه حين رأى مَنْ كان خصمه . حدَّق وأخذ يقيِّم الخيارات بما يكفي من هدوء . لقد كان أطول منه وأكثر ضخامةً ، لكنَّ الرجل الآخر بدا كأنَّه يتحرَّق شوقاً للقتال .

سحب دارك المفاتيح من جيبه ، ودون تعجُّل مشى خارجاً من المنزل . لحق به الرجل إلى الخارج ، وداتشس خلفه . راقبت الإيسكاليد حتى تلاشت أضواؤها . استدار الرجل ونظر إليها . ثمَّ تجاوزها إلى حيث كانت أمُّها تقف منقطعة الأنفاس على الشرفة القديمة في الخلف .
- «هيا بنا داتشس» .

لم تقل داتشس شيئاً ، لحقتُ بأمِّها إلى داخل المنزل فحسب ، لكنَّها نظرت وراءها إلى حيث بقي الرجل ، وكأنَّه أُرسِل إلى هناك لحمايتها .

تحت ضوء القمر ظهر قميصه وقد تمزَّق جرَّاء المشاجرة . وخطوط الندوب التي تغطَّيه بدت متنفخةً وغاضبةً وطازجةً .

حلَّ بها التعب، فتركته يغمرها بلا مقاومة، تعبٌ في الخطوات، والأنفاس، وحرقة العيون، والآذان المصمومة بأصواتٍ مخنوقةٍ لم تتفاعل معها.

شعرتُ باللمسة الرقيقة على يدها، ملامح وجه أخيها الجدَّة تدلُّ أنَّه قضى ليلته وهو يحلم.

- «هل أنتِ بخير؟» قال بقلقي.

حملتُ داتشس حقيبتها وحقيبتها. كانت هناك كدمةٌ على ذراعها حيث وقعت الليلة الماضية. كانت الورقة الخاصة بشجرة عائلتها نصف مُنَجَزَةٌ داخل حقيبتها. علاماتها كانت متوسِّطةً، عرفتُ كيف تبقِّيها على ذلك الحال. لم تعد تنقطع عن الصفوف، وحاولت عدم الوقوع بأيِّ مشاكل؛ إذ لم يكن في وسعها المخاطرة بأيِّ تدخُّلٍ من قِبَلِ ستار. وفي يوم أولياء الأمور كانت تختلق الأعذار، أمِّي تعمل، تعرفون كيف هي الحال. كانت تأكل وحيدةً خوفاً من أن يرى الأطفال الآخرون ماذا أحضرت. في بعض الأحيان كانت تدهن الخبز بالزبدة فحسب، خبزٌ مضى عليه أيامٌ لدرجة أنَّ قضمه صعبٌ جداً. كانت تعرف أنَّ بعضهم يأكلون أسوأ منها حتَّى، لكنَّها لم ترغب في الانضمام إليهم.

- «لقد نمْتُ في سريرك، لم تتوقَّف عن ركلي طوال الليل»،
قالت داتشس.

- «أنا آسفٌ. اعتقدتُ أنني سمعتُ ضجيجاً. ربَّما كنتُ
أحلم».

شاهدتهُ يركض أمامها نحو فناء الجيران، حيث عثر على عصاً،
وعاد بها كأنه كلبٌ. حملها وأخذ يستخدمها مثل عكازٍ، متظاهراً أنه
رجلٌ عجوزٌ حتى ضحكْتُ داتشس.

بعد ذلك، انفتح الباب الأمامي. كان ذلك براندون روك. كان
يعتني بسيَّارته الموسَّتانغ بنوعٍ من الاهتمام الذي قالت ستار إنه كان
من الأفضل أن يديه تجاه زوجته السابقة.

كان يلبس معطف ليتيرمان شاحب اللون، وضيقاً لدرجة أن
الأكمام تتوقَّف عند منتصف الساعد. حدَّق في روبن. «ابقَ بعيداً
عن السيَّارة».

- «هو لم يقترب منها».

عبر براندون فوق العشب ووقف بالقرب منها. «هل تعرفين
ماذا يوجد تحت هذا الغطاء؟». أشار إلى السيَّارة، كان قماشٌ أزرقٌ
يلفُّها بإحكام. كلَّ ليلة كانت داتشس تشاهده وهو يضعها في الفراش
مثل ولد بكرٍ.

- «تقول أمِّي إنها وصلة تمديد قضيب».

رأت كيف احمرَّ خدَّاه.

- «إنها موسَّتانغ 67».

- «سبعة وستون، السنة نفسها التي صُنِعَ فيها ذاك المعطف».

- «ذلك هو رقمي. أسألي أمَّك عني. الولاية بأكملها كانت
تدعوني باندفاعه الثور».

- «طَفَحُ الخصيتين؟»⁽¹⁾

تراجع روبن إلى الخلف وأمسك يدها. شعرت داتشس أن براندون كان يراقبها على طول الطريق وصولاً إلى الشارع.

- «علام جُنَّ جنونه هكذا؟ أنا لم أقرب من المويستانغ».

- «إنَّه فقط غاضبٌ لأنَّه أراد مواعدة ماما، وقد رفضته».

- «هل مرَّ بنا دارك الليلة الماضية؟».

إلى الأمام منهما، كانت أشعة الشمس تغمر كلَّ شيء. أبواب المتاجر فُتِحَتْ، وأصحابها يستعدُّون لبدء يوم عملٍ جديدٍ.

- «لم أسمع شيئاً».

فضَّلت داتشس كيب هيفن في الشتاء، حيثُ تعرَّيها براءته من المظهر الخادع، ويتركها بلدةً مثل باقي البلدات. كانت تعاني في الصيف، طويلٌ، وجميلٌ، وقيحٌ.

رأت كاسيدي إيفانز وصديقاتها جالساتٍ خارج مطعم روزي، تنايرٌ قصيرة، وسيقان برونزية، وشعورٌ مجعَّدة.

- «دعينا نذهب نزولاً عبر فيرمونت»، قال روبن، وتركث له أن يقودها بعيداً عن مين والفتيات اللواتي سيضحكن إذا مرَّا بقربهنَّ.

«ماذا سنفعل هذا الصيف؟».

- «كما نفعل دائماً. نتسكَّع، ونذهب إلى الشاطئ».

- «أوه».

أبقى عينيه مُطرقتين. «نُوا ذاهبٌ إلى ديزني لاند، وماسون ذاهبٌ إلى هاواي».

وضعت يدها على كتفه وشدَّت عليه. «سوف أتدبَّر لنا شيئاً».

(1) اندفاعة الثور (Bull rush)، طفح الخصيتين (Ball rash)، للعبارتين اللفظ نفسه تقريباً بالإنجليزية، فاستخدمت داتشس ذلك بغرض التهكُّم - المترجم.

ركض روبن إلى الأشجار بجوار فورد هام. راقبته وهو يبعد فروع الصفصاف ويتحرك أسفلها، حاول وتمكّن من تسلّق غصنٍ خفيضٍ.

- «صباح الخير».

استدارت داتشس، كانت متعبّة جدّاً كي تتمكّن من سماع صوت الكروزر، وشاردة الذهن كثيراً كي تستطيع ملاحظة ووك يركن بالقرب منهما.

توقّفت لحظةً، قام ووك بإطفاء المحرّك، خلع نظّارته الشمسية، ونظر إليها عن قربٍ.

- «هل كلُّ شيءٍ على ما يُرام؟».

- «بالطبع»، قالت وهي تطرد من رأسها صورة يد دارك، وصوت صراخ أمّها.

لم يستسلم ووك. «الليلة الماضية، كلُّ شيءٍ كان على ما يُرام؟» قال وهو يعبث بالمذياع، وينقر على باب السيارة. اللعنة، لقد عَرَف دائماً كلَّ شيءٍ. «لقد أجبتُ للتوّ، أَلَمْ أفعل؟».

ابتسمَ عندئذٍ. هو لم يضايقها يوماً بشأن أي شيءٍ على الإطلاق. كان يهتم لأمرها، لكنّ داتشس كانت تعرف أنّ البالغين في بعض الأحيان كانوا يعتقدون أنّ الاهتمام يعني قيامهم بأشياء خرقاء تقود إلى نوع من العواقب التي يمتدُّ تأثيرها أبعد منهم.

- «حسنٌ»، قال ووك.

كانت يده تهتزُّ، وسبّابته تضرب إبهامه مرّة بعد مرّة. رأى أنها لاحظت ذلك، فسحب يده داخل الكروزر. تساءلت عن كمّيّة الكحول التي كان يشربها.

- «تعرفين أنّك تستطيعين التحدّث إلَيَّ يا داتشس».

شعرت أنها متعبَةٌ كثيراً على ذلك، على أن تتعامل مع وجهه السمين اللطيف، وعينيه المثقلَتين. لقد كان ليناً مثل حلوى الجيلي والبودينغ. ابتسامةٌ لينةٌ، جسدٌ لينٌ، طريقةٌ لينةٌ في النظر إلى عالمها. لم تكن الليونة لتفيدها في شيء.

حين وصلا إلى المدرسة، تابعت بعينيهما روبن وهو يدخل روضة الأطفال، ثم لَوَّحَتْ للآنسة دولوريس واستدارت. إنها أيامُ المدرسة الأخيرة، وتحتاج إلى أن تبقى خفيفةً ولا تلفت الانتباه إليها، لكنَّ ورقة العمل كانت تمثل مشكلةً، وشجرة عائلتها ستضعها في مشكلةٍ. كان الأفضل لها ألا تفوَّت واجباتها. شعرت بألم في معدتها ووضعت يدها هناك، شعرت بها كعقدةٍ مشدودةٍ وكأنَّ شيئاً سيئاً على وشك الحدوث. لم تكن قادرةً على الوقوف أمام الفصل، والقول إنها لا تعرف مَنْ هو والدها. لا تستطيع أن تفعل ذلك.

في الأروقة، فتحتُ خزانتها، حاولت أن تبتسم للفتاة التي بقربها، لكنَّها لم تحصل على شيءٍ بالمقابل. كان الأمر على هذا النحو منذ زمن طويل، وكأنَّ الأطفال الآخرين عرفوا كلَّ ما هي عليه، وما مرَّت به، والمسؤوليات والعواقب وقلة الوقت؛ لم يكن فيها شيءٌ ممَّا يريدونه في الصديق.

جلستُ على مقعدها في الفصل، بجوار النافذة مع إطلالةٍ على الحقل المجاور. كانت مجموعةٌ من العصافير تحرث التراب.

فكَّرتُ في روبن، مَنْ الذي سيصطحبه إذا تعرَّضتُ لعقوبة الحجز بعد انتهاء الدوام. لم يكن هناك أحدٌ. لا أحد. بلعتُ ريقها، وشعرتُ بحرارةٍ في عينيها. لكنَّها لم تبك.

فُتِحَ الباب، ولم يكن السيد لويس، بل دخلتُ سيِّدةٌ عجوزٌ مع نظاراتٍ مُعلَّقةٍ بخيط، وتحمل كوب قهوةٍ تتصاعد منه أعمدة الدخان. إنها معلِّمةٌ بديلةٌ.

غاصت داتشس في مقعدها حين طلبت السيدة منهم أن يُخرجوا كتاب النصوص، ويُمضوا بعض الوقت في هدوء تام.

عثر عليه ووك في قطعة الأرض التي أصبحت شاغرة الآن، إذ منزل آل فيرلون كان أكثر بقليل فقط من مجرد أنقاض. أخلى الرجال الموقع، وجعلوه آمناً. ونقلت الحفّارات الأخشاب والصخور وحملت شاحنات الذكريات بعيداً.

كان دارك يراقبهم، حضوره وحده كان كافياً لرؤيتهم يرفعون وتيرة العمل. حين لمح ووك عدل وقفته بعض الشيء، ووك بالمقابل لم يملك إلا أن يأخذ خطوة إلى الوراء.

- «يومٌ جميلٌ في الخارج. قالت ليا إنك اتّصلت بالمركز، مشاكل في النادي مجدداً؟».

- «لا».

لا أحاديث جانبية أبداً، مهما بذل ووك من جهد. لم يكن من الممكن حمل الرجل على قول أكثر ممّا هو ضروريّ جدّاً، وبأكثر الصيغ اقتضاباً.

أقحم ووك يده المرتعشة في جيبه. «إذا؟».

أشار دارك إلى منزلٍ في الخلف. «أنا أملك ذلك المكان».

المنزل الصغير في الخلف، ذو المصاريع الصدئة والشرفة المتعفّنة، كانت هناك محاولة للحفاظ عليه لكنّه بدا جاهزاً كي يُهدم ويُستبدل.

- «ذاك محلّ إقامة دي لين». رآها ووك تقف قرب النافذة.

لوح لها لكنّها كانت تحدّق إلى الأمام منه مباشرة. لقد أصبحت مياه المحيط هنا الآن، والإطالة التي تساوي مليون دولارٍ تنفتح في ذلك النفس الجبّار للطبيعة الأم.

- «هي مستأجرة للمكان، وتأبى المغادرة. لقد قدّمتُ
المستندات في وقتها».
- «سوف أتحدّث إليها. أنتَ تعرف أنّها عاشت هناك وقتاً
طويلاً».

لا جواب.
- «كما أنّ لديها البتّين».
أشاح دارك بنظره نحو السماء، لرّبّما يهبط شيءٌ ما في نهاية
الأمْرِ.

انتهز ووك الفرصة كي يشكّل انطباعاً عنه. بذلّة سوداء. ساعة
بسيطةٌ تلتفّ حول رسغ في ثخانة كاحل ووك.
- «ماذا ستفعل به الآن، أقصد المنزل؟»
- «أبني».

- «هل تقدّمتَ بطلب الترخيص؟»
تابع ووك طلبات واستمارات التراخيص، واعترض على التغيير
في كلّ مرّة. «سمعتُ أنّه كان هناك مشكلةٌ صغيرةٌ الليلة الماضية.
منزل آل رادلي».

حملق دارك فحسب.
ابتسم ووك. «إنّها بلدةٌ صغيرةٌ».
- «ليس لوقتٍ طويلٍ. هل تحدّثتَ مع فنسنت كينغ مجدّداً؟»
- «لقد قال... أعني أنّه خرج للتّوّ، لذا في الوقت
الحالي...».

- «يمكنك أن تقولها».
سعل ووك. «قال لي أن أطلب منك أن تغرب عن وجهه».
استحال وجه دارك إلى قناعٍ من الحزن، أو ربّما خيبة الأمل
فحسب. طقطق بأصابعه، كان الصّوت مثل طلقٍ ناريٍّ. حاول ووك

أن يتخيَّل فقط حجم الضرر الذي يمكن أن يحدثه بحذائه من قياس ثمانية عشر.

تحرك ووك نحو أعلى الموقع، الأرض متصدّعة، الرجال في ألياتهم، سجاثرُ تتدلى من الأفواه، وعيونٌ شاخصةٌ نحو الشمس.

- «أيُّها الرئيس ووك».

التفت ووك إلى الخلف.

- «يمكن للآنسة لين أن تأخذ أسبوعاً آخر. كما أن لديّ مستودعاً. إذا كان عندها أيُّ شيءٍ ترغب في تخزينه، أخبرها أن تتركه في الخارج، وسوف أجمعه وأحتفظ لها به، بلا تكلفةٍ».

- «ذلك لطفٌ منك».

في فناء دي لين كانت هناك مصطبةٌ صغيرة، محدّدةٌ بصفٍّ من الأزهار الأنيقة التي توحى بنوع من الفخر بالمكان بغضّ النظر عن مدى كونه صغيراً. عرفها ووك عشرين عاماً، قضتُها في المنزل الذي في جادة فورتونا. لقد كانت متزوّجةً، إلى أن فقَدَ زوجها صوابه، وتركها مع الفواتير وطفلتين لتُعيِّلَهُما.

لاقتُهُ دي عند الباب الأمامي. «يجدر بي قتله وإرساله إلى الجحيم». كانت ضئيلة الحجم، بطول متر وخمسة وخمسين ربما، جذابةً بطريقةٍ حادّةٍ، كأنّ السنين الماضية قد أردتِ الشخص الذي كانت عليه ذات يومٍ. هي ضدّ دارك، كان عدم التكافؤ بينهما لا يُصدّق.

- «يمكنني أن أعثر لك على مكان لـ —».

- «اغربْ عني يا ووك».

- «هل دارك على حقٍّ؟ هل هو اليوم؟».

- «إنّه اليوم، لكنّ هذا لا يجعله محقّقاً مع ذلك. استأجرتُ

هذا المكان منه ثلاث سنوات، بعد أن فكَّ رهنه وعالج مسألة البنك. ثمَّ انهار منزل آل فيرلون، فانفتحت إطلاّتي وتلقّيتُ هذه بالبريد». بحثتُ عبر كومةٍ من الأوراق، ودفعتُ بالرسالة إليه. قرأها بعناية. «أنا آسفٌ حقًّا. هل يمكنكُ التحدُّثُ إلى أحدٍ ما؟».

- «أنا أتحدّثُ إليك».

- «لا أعتقدُ أنّه، قانونياً...».

- «لقد قال لي إنني أستطيع البقاء هنا».

قرأ ووك الرسالة مرّةً أخرى، ثمَّ قرأ الإنذارات بالإخلاء. «يمكنني مساعدتكُ في توضيب الأشياء. هل عرفت الفتاتان بالأمر؟».

أغمضتُ دي عينيها، هزّتُ رأسها، وفتحتهما للدموع. أوليفيا ومولي، كانتا في السادسة عشرة والثامنة.

- «قال دارك إنَّ في وسعك البقاء أسبوعاً آخر».

تنفّستُ دي الصعداء عندئذٍ. «هل تعرفُ أنّنا تواعدنا ذات يوم... بعد رحيل جاك».

كان ووك يعرف.

- «ظننتُ... أقصد دارك، إنّه وسيّم، لكنّه غريب أطوارٍ لعينٍ

يا ووك. هناك شيءٌ مفقودٌ فيه. لستُ متأكدةٌ ما هو حتى، هناك برود في ذلك الرجل فحسب. مثل إنسانٍ آليٍّ. كما أنّه لم يلمسني».

عبس ووك.

- «تعرف ما يعنيه ذلك».

شعر بوجنتيه تحترقان.

- «أنا لستُ متعطشةٌ أو ما شابه، لكنك تخرج في مواعيد

خمس مرّاتٍ أو ستّاً وهذا شيءٌ طبيعيٌّ. ولكن ليس معه. ما من شيءٍ طبيعيٍّ فيما يتعلّق بديكي دارك». لدى رؤيته الصناديق في الفناء الأمامي تحرّك لإحضارها، لكنّها طلبت منه أن يتركها. «إنّها قمامةٌ كلّها. لقد بدأتُ هذا الصباح في توضيب حياتي داخل صناديق. أتعرف ما الذي أدركته؟». بكّت، من دون جلبةٍ أو نحيبٍ، بل كان انهماراً مستمراً للدموع فحسب.

- «لقد خذلتُهما يا ووك».

اقترب ليتكلّم لكنّها رفعت يدها. «لقد خذلتُ ابنتيّ، ليس لديّ بيتٌ لهما الآن، ليس لديّ شيءٌ».

في تلك الليلة، وبينما كان روبن ووالدتها نائمين، تسلّقت من شبّاك غرفة نومها، وقادت درّاجتها خارجةً من المنزل. عتمةٌ، يومٌ كئيبٌ انقضى، حاويات القمامة في الخارج، ورائحة الشواء. كانت داتشس جائعةً، لم يحدث أن كان هناك طعامٌ كافٍ حتى تشبع. حرصتُ دائماً أن يأكل روبن كلّ ما في وسعه. استدارت نحو ماير، التل الذي ينحدر نزولاً جعل الدراجة تنزلق من تلقاء نفسها. كانت تلبس سروالاً قصيراً، من دون خوذةٍ على رأسها، مع قميصٍ بسحابٍ، وصندلٍ في قدميها. أبطأت سرعتها عند منعطف طريق سنست. لطالما كان منزل آل كينغ المفضّل لديها، بالكيفية التي يقف فيها، مهذباً جزئياً، رافعاً لكلّ ما يحيط به إصبعاً وسطى. رآته على الفور.

كان باب الكراج مرفوعاً، والرجل على سلّمٍ ينزع أحد ألواح

السطح برفقٍ . كان قد أزال نصفه ، وبالقرب منه كانت هناك لفّةٌ من ورق القار ، وأدواتٌ مثل مطارق ، ومعاول ، وعربةٌ يدويّةٌ مليئةٌ بصخورٍ جافّةٍ ومتربةٍ . كان لديه مصباحٌ ، وكان ينشر ما يكفي من الضوء تماماً .

كان قد سبق لداتشس أن شاهدتُ صوراً لسيسي ، كانتا من صنف الفتيات نفسه ، بالشعر الفاتح ، والعيون الزرقاء ، والنمش فوق الأنوف الصغيرة .

عبرتُ إلى الداخل ببطءٍ ، ساقاها للخارج ، ومقعد الدراجة يؤلمها وهي تحاول البقاء متوازنةً بطريقةٍ أو بأخرى .

- «لقد كنتُ في منزلي» .

التفتَ إليها . «اسمي فنسنت كينغ» .

- «أعرفُ ذلك» .

- «كنتُ ذات يوم أعرفُ أمّك» .

- «أعرفُ ذلك أيضاً» .

ابتسم فنسنت عندئذٍ . لم تكن ابتسامةً حقيقيةً ، بل أقرب إلى ابتسامةٍ مستدعاةٍ ، كأنّه يتعلّم أن يكون شيئاً ما من جديدٍ . لم تبتسم له بالمقابل .

- «هل والدتك بخير؟» .

- «هي دائماً بخير» .

- «ماذا عنك؟» .

- «لستُ في حاجةٍ أن تسأل هذا السؤال . أنا خارجةٌ عن القانون» .

- «هل يجب عليّ أن أقلق؟ الخارجون عن القانون أشرار ، أليس كذلك؟» .

- «لقد قام بيل هيكوك المتوحش بقتل رجلين قبل أن يصبح عمدة. قد أرجع إلى جادة الصواب يوماً ما، وقد لا أفعل».

تحركت بدرّاجتها أقرب قليلاً. كان متعرّفاً، وقميصه استحال داكناً عند الصدر وتحت الإبطين. كانت هناك أعلى الكراج حلقة لكرة السلة لكنها بلا شبكة. تساءلت داتشس إن كان يذكر اللعب، إن كان يذكر أيّ شيء عن ذي قبل.

- «الحرّية»، قالت داتشس، «هل هي أسوأ شيء يمكن أن يُسلَب؟ أسوأ من أيّ شيء، ربّما هي كذلك».

نزل فنسنت عن السُلّم.

- «لديك ندبة على ذراعك».

نزل بنظره نحو ساعده، كانت الندبة تمتدّ على طول الساعد، لم تعطِ إيحاءً بالغضب، بل كانت هناك فحسب.

- «كما لديك ندبٌ تغطّي كامل جسدك. هل تعرّضت للضرب هناك؟».

- «تبدّين مثل أمّك».

- «لا تدع ذلك يخدعك».

رجعت بالدّرّاجة إلى الوراء قليلاً، وعدّلت وضع القوس الصغير في شعرها فيما هو يراقب. «إنّها خدعة صغيرة، يرى الناس فتاةً، ولا شيء آخر».

دحرجت الدّرّاجة جيئةً وذهاباً.

عثر على مفكٍّ ومشى نحوها ببطء. «الفرامل عالقة، لذلك تجدّين صعوبة في استعمال الدّوّاسات».

راقبته بعناية.

جثا على ركبتيه قرب ساقها، حريصاً على ألاّ يلمسها، وعبث قليلاً بالفرامل، ثمّ نهض وتراجع إلى الخلف.

جَرَّبَتِ الدَّوَّاسَاتِ مَجْدَدًا، فشعرت بالعجلات تتحرَّك بسهولة. استدارت، فرأت القمر الآخذ في الغياب، والسماء المرصَّعة بالنجوم خلف فنسنت والبيت القديم.

- «لا تأتِ إلى منزلنا مجدِّداً. نحن لسنا في حاجة أحدٍ».

- «حسنٌ».

- «لا أرغب في أن أضطرَّ إلى إيدائك».

- «لا أرغبُ في ذلك أيضاً».

- «ذلك الصبي الذي حطَّم نافذتك، اسمه نيت دورمان».

- «من الجيِّد معرفة ذلك».

استدارت، وقادت الدَّرَاجَة ببطءٍ، مبتعدةً عنه باتجاه المنزل. رأت السيَّارة حين وصلت إلى شارعها، كان غطاء محرَّكها طويلاً لدرجة أنه كان يبرز خارج الممرِّ. لقد عاد دارك مجدِّداً.

ضغطت على دوَّاساتها بسرعةٍ وقوَّة، ثمَّ رمَتْ درَّاجتها على العشب مهتاجةً، وهي تفكِّر في أنه ما كان يجدر بها أن تترك البيت. تحرَّكتْ نزولاً على جانب المنزل، ثمَّ دخلت عبر باب المطبخ بهدوءٍ، وقطرات العرق تنزلق على عمودها الفقري. التقطت الهاتف المعلَّق على الحائط، ثمَّ سمعت صوت ضحكةٍ. ضحكة أمِّها.

راقبت عبر العتمة حتى لا يتمكَّن من رؤيتها. كانت هناك زجاجة نصف فارغة على الطاولة الصغيرة، وياقة زهورٍ حمراء من النوع الذي يبيعه في محطة وقود بينساكولا.

تركتُهما وخرجت إلى الفناء، ثمَّ تسلَّقتْ عائدةً عبر النافذة، وتحقَّقت من أن باب غرفة نومهما ما يزال مقفلاً. خلعت سروالها القصير، قبَّلت رأس روبن، ثمَّ فتحت الستائر واستلقت أسفل سريره. ما كانت لتنام حتى يرحل الرجل العملاق.

- «أخبرني عن الفتاة»، قال فنسنت.

جلسا في المقاعد الخلفية للكنيسة القديمة. عبر النافذة كان يمكن رؤية المقبرة، وما وراء ذلك كان المحيط، وعلى كليهما طغت الألوان الترابية. توقّف الرجلان عند قبر سيسى، حيث ترك ووك صديقه هناك وحدّه بعضَ الوقت. أحضر فنسنت الزهور، جثا على ركبتيه وقرأ الشاهد. ظلّ هناك ساعةً كاملةً، إلى أن جاء ووك ووضع يده برفقٍ على كتفه.

- «داتشس، إنّها أكبر ممّا ينبغي أن تكون عليه». خَمَّن ووك أنّ فنسنت يعرف معنى ذلك أكثر من معظم الناس.

- «وروبن؟».

- «هي تعتني به. إنّ داتشس تقوم بما يجب على أمّها القيام

به».

- «والأب؟».

نظر ووك إلى المقاعد القديمة التي طُلِيَتْ مؤخّراً باللون الأبيض، ونجحت بعض قطرات الطلاء في الوصول إلى الأرضية الحجرية. كان السقف عالياً، وذا قناطر متشابكة بطريقةٍ شديدة

التعقيد، وهو نوع الجمال الذي دفع المصطفائين لالتقاط الكثير من الصور، وجعل المكان يمتلئ عن آخره كلَّ يومٍ أحدٍ.

- «في المرّتين لا شيء عن هذا الأمر. كانت تواعد رجلين في تلك الأيام، وكانت تخرج كثيراً، كنتُ أراها ترجع في الصباح مشياً».

- «مشية العار».

- «لم يكن هناك عارٌ في حالتها. هل سبقَ لك أن عرفتَ ستار تهتمُّ أو تلقي بالاً لشيءٍ؟».

- «لستُ واثقاً بأنني أعرف ستار أصلاً».

- «بل تعرفها. هي الفتاة نفسها التي اصطحبَتْها إلى حفل التَّخرُّج في المدرسة المتوسطة».

- «لقد كتبتُ إلى هال. والدها».

- «هل كتبَ لكَ بالمقابل؟».

- «نعم».

مرّت عشر دقائق، تساءل ووك فيها لكنّه لم يُردّ أن يعرف. كان والد ستار شخصاً قاسياً، يعيش ويملك هكتاراتٍ من الأراضي في مونتانا، إذ كانت زيارة كيب مؤلمةً أكثر من أن يستطيع احتمالها. هو لم يلتقِ بأحفاده قطّ.

- «في البداية قال لي أن أقتل نفسي».

نظر ووك إلى الحائط المقدّس، والرسوم التصويرية للمحاكمة الأخيرة والغفران.

- «ربّما كنتُ لأفعل ذلك. ثمّ غيّر رأيه. الموت كان رحيماً جداً. لقد أرسل لي صورةً لها». بلع فنسنت ريقه. «سيسي».

أغمض ووك عينيه حين اقتحمت أشعة الشمس المكان، وصعدت على المنبر.

- «هل ذهبتَ إلى المدينة بعد؟» .
- «أنا لم أعد أعرف هذا المكان» .
- «سوف تتعرَّف عليه من جديد» .
- «توجَّب عليَّ الذهاب إلى جينينغز لأحضر بعض الطلاء» .
- رأيت أن إيرني بات يملك المكان الآن» .
- «هل تسبَّب لك في وقتٍ عصيبٍ؟ يمكنني أن أتحدَّث إليه» .
- كان إيرني أحد المشاة في تلك الليلة قبل وقتٍ طويلٍ . كان أول من رأى ووك يرفع يده، وأوّل من ركض إلى هناك ثمَّ تجمَّد في مكانه عند موقع الحادث، انحنى ماذاً رأسه إلى الأمام وهو يمسك بمعده، وتقياً لدى رؤية منظر الفتاة الصغيرة .
- نهضاً سوياً واتَّجها إلى الخارج، عبر العشب الأخضر، وفوق شواهد القبور المحنية . شاهداً عند حافة الجرف المياه تتكسَّر على الصخور الحادة تحتها بمئتي قدم .
- شعر ووك بالدوار من هذا المشهد . «أنا أفكِّر في الأمر غالباً . كيف كنَّا . أرى أطفال كيب هيفن مثل داتشس، وأفكِّر بي وبك وستار ومارثا . قالت لي ستار إنَّها تشعر في بعض الأيام أنَّها ما تزال في الخامسة عشرة . يمكننا أن نجتمع معاً، نحن الثلاثة . ومع الوقت، يمكننا أن نستعيد كلَّ شيء، ونستعيد أنفسنا . كانت الأشياء أبسط، صحيح؟ كانت —» .
- «ووك، اسمع، ما تعتقد أنَّك تعرفه بشأنِ ما حدث على مرِّ السنين، أيّاً يكن الذي كنْتُ عليه، أنا لستُ كذلك الآن» .
- «كيف لم تسمح لي بزيارتك بعد وفاة والدتك؟» .
- أبقى فنسنت عينيه على المشهد أمامه كأنَّه لم يسمع شيئاً .
- «لقد كتب هال إليَّ كلَّ سنَةٍ . في عيد ميلاد سيسي» .

- «لا ينبغي أن —».

- «في بعض الأحيان كانت الرسائل قصيرة، كي تذكّرني فقط، وكأنّني في حاجةٍ إلى تذكيرٍ. وفي أحيان أخرى كانت تطول حتى عشر صفحاتٍ، لم تكن كلّها تنفيساً عن الغضب، بعضها كان عن التغيير، وما الذي يمكنني فعله، وكيف لي أن أدع الآخرين يعيشون حياتهم من دون أن أهدمها فوق رؤوسهم».

فهم ووك عندئذٍ، بالطريقة التي ساق بها فنسنت الأمر، أنّ الغاية من ذاك الكلام لم تكن تتمحور حول حفظ الذات بأي شكلٍ من الأشكال.

- «إذا لم تتمكّن من تصحيح خطأ، إذا عجزتَ تماماً عن فعل ذلك...».

شاهدا معاً سفينة صيد ذا صن دريفت، ميّزها ووك من طلائها الأزرق وبقع الصدأ، وخطوط الفولاذ المنحنية والأسلاك. من حيث كانا، بدا أنّها تتحرّك في صمتٍ، لا أمواج عدا تلك التي تُنَحّت من بدنّها نفسه.

- «بعض الأشياء صحيحةٌ فحسب. هناك سببٌ لذلك دائماً، لكنّ الكلام لن يغيّر شيئاً فيها».

كان هناك الكثير ممّا أراد ووك أن يسأل عنه بشأن الثلاثين سنةٍ الأخيرة من حياة صديقه، لكنّ الندوب على رسغي فنسنت أخبرته أنّها قد تكون أسوأ مما كان يتصوّر.

سارا عائدين إلى البلدة في صمتٍ. ظلّ فنسنت ملتزماً بطرف الطريق، مطرّقاً رأسه طوال الوقت. «ستار»، قال، «لقد رأت الكثير من الرجال آنذاك؟».

هزّ ووك كتفيه، وخطر له لحظةً أنّه سمع أخفّ وقعٍ للغيرة في صوت فنسنت.

راقب صديقه يمشي مبتعداً باتجاه سنست، كي يعمل على ترميم المنزل القديم الفارغ.

بعد الغداء، قاد ووك إلى مستشفى فانكور هيل.

ركب المصعد إلى الطابق الرابع، أخذ مكانه في غرفة الانتظار، وجلس يقرأ صفحات لامعة عن بيوت شاحبة مثل القيمين عليها. أبقى رأسه منخفضاً، رغم أن الشخص الآخر في الغرفة كان شابة عازمة بقدره، لكن في الداخل كان هناك جسد خائن، وعقل مهجور.

نودي على اسمه، فهبّ مسرعاً، فهو لا يبدي أية أعراض خارجية بغض النظر عن الآلام والأوجاع، فقبل ساعات قليلة فقط لم يكذ يستطيع الوقوف.

- «الأقراص لا تُجدي نفعاً»، قال وهو يجلس. كان المكتب موحّداً، اللمسة الشخصية الوحيدة فيه كانت صورة مؤطرة تواجه الجالس خلف المكتب. إنها الطيبة كيندريك.

- «يدك مجدّداً؟» قالت كيندريك.

- «كل شيء». أحتاج في كل يوم إلى نصف ساعة كي أتمكّن من النهوض.

- «لكنك لم تتباطأ بطرق أخرى؟ المشي؟ الابتسام؟».

ابتسم رغماً عنه. ردّت له الابتسامة.

- «اليدان، والذراعان فقط. حالة من التصلّب لا أكثر، وأشعر بها قبل أن تأتي».

- «وما زلت لم تخبر أحداً؟».

- «هم يعدّونني مدمن كحول».

- «ولا بأس في ذلك بالنسبة إليك؟».

- «إنّها سمعة تتناسب مع مجال عملي، أليس كذلك؟».

- «أنتَ تعلم أنه سيتعين عليك إخبار شخصٍ ما».

- «وماذا بعد؟ لن أجلس خلف مكتبٍ».

- «يمكنك تجربة شيءٍ آخر».

- «أقول لك، إن حدث ورأيتني أهدر أيامي على متن قارب

صيدٍ، عندها تعالي وأطلقني النار عليّ فحسب. إن كوني شرطياً هو... أنا أحب مكاني. أحب حياتي، وأريد أن أحتفظ بكليهما».

ابتسمت كيندريك ابتسامة حزينة. «هل من شيءٍ آخر؟».

حدّق إلى الخارج، كانت النافذة عندئذٍ أكثر من مجرد إطلالةٍ

على العالم الخارجي، كانت طريقةً ليغادر نفسه فيما يضع التفاصيل على ما يجب الحديث عنه. صعوبةً في التبوّل، صعوبةً في التغوُّط.

وصعوبةً أكبر في النوم. قالت كيندريك إن ذلك كان طبيعياً، وقدّمت

الاقتراحات، مثل خسارة بعض الوزن، الحمية، العلاج، تغيير

الجرعة الدوائية. لا شيء لم يكن يعرفه. هو لم يكن ذاك الشخص

الذي يَمْضي في رحلة العلاج بشكلٍ أعمى. لقد قضى وقت فراغه

يقرأ في المكتبة المراحل الستّ، فرضية براك، حتى إنّه عاد رجوعاً

إلى جيمس باركنسون⁽¹⁾.

- «اللعة»، قال، ثمّ رفع يده، «آسفٌ على الشتم. هذا ليس

من شيمي».

- «اللعة»، وافقته كيندريك.

- «لا يمكنني أن أفقد وظيفتي. لا يمكنني فحسب. الناس

يحتاجونني». تساءل إن كان هذا صحيحاً. «إنّه الجانب الأيمن

فقط»، كذب بهذا الشأن.

(1) جيمس باركنسون: طبيب وجراح بريطاني كان أوّل من وصّف «الشلل

الرعاشي»، ثمّ صار هذا المرض يُعرف باسمه «باركنسون» - المترجم.

- «هناك مجموعة —».

همّ بالوقوف.

- «أرجوك»، قالت، فأخذ الكتيب منها.

جلست داتشس على الرمال. ضمت ركبتيها إلى صدرها فيما كانت تراقب روبن الذي يجمع الأصداف وقد غاص كاحلاه في المياه. كان معه مجموعة منها، معظمها من القطع المتكسرة، وكانت جيوبه على وشك الانفجار.

على اليسار منها، كانت مجموعة أطفالٍ من مدرستها، الفتيات في ملابس السباحة، والصبية يتقاذفون الكرة. طاف ضجيجهم في الهواء ومرّ عبرها مباشرة. كانت تملك تلك القدرة، أن تشعر بوحدة تامّة على شاطئٍ مليءٍ بالناس، في فصلٍ مليءٍ بالأولاد. لقد أخذت هذه الخصلة عن أمّها، لكنّها قاومتها بكلّ ما أُوتيت من قوّة. كان روبن في حاجةٍ إلى الاستقرار، لا إلى أختٍ مراهقةٍ غاضبةٍ تتدمّر طوال الوقت من حياتها القذرة.

- «واحدةٍ أخرى»، نادى روبن.

وقفت ومشّت إليه، استشعرت برودة الماء لحظةً، كان الشريط الساحلي الوعر يمتدّ بعيداً في الاتجاهين كليهما. عدّلت وضع قبعة روبن الشمسية، وتحسّست ساعديه، كانا دافئين، ولم يكن بمقدورهما تحمّل كلفة كريم واقٍ للشمس. «لا تُصبّ بحرق».

- «أعرف ذلك».

ساعدته في البحث، التقطت له قنّذ بحرٍ رملياً من المياه الصافية، وشاهدته يبتسم.

رأى روبن رفيقه ريكي تالو وركض إليه، تبادلا التحية بعناقٍ حارٍّ جعلها تبتسم.

- «مرحباً داتشس». إنَّها ليا تالو. كان جمالها عادياً، وهو نوع السمات الذي كانت داتشس في بعض الأحيان تتمنَّاه لوالدتها. أن تكون مجرد أمّ، لا مغنيّة في حانةٍ مع مؤخّرةٍ وثديين بارزين، لا نوع النساء الذي يحملق فيه الرجال حين يمشين على الشاطئ.

- «علينا أن نذهب قريباً». بدا على روبن عدم الرضا، لكنّه لم يقل أيّ شيءٍ.

- «يمكننا أن نعيده إذا كنتِ تريدين الذهاب، أين تقطنون؟».

- «في طريق آيفي رانش». كان ذلك والد ريكي، ذا الشعر الذي ضربه الشيب قبل أوانه بوقتٍ طويلٍ، مع ذلك النوع من الأكياس تحت العينين، والتي بدا أنَّها تزداد ثقلًا في كلّ مرّة ترى فيها داتشس الرجل.

رمقت ليا زوجها بنظرةٍ قاسيةٍ.

نظرَ الرجل بعيداً، وأفرغ كيساً مليئاً بالألعاب الشاطئ، وذهبت عينا روبن نحو تلك الألعاب على الفور، وبقيت هناك. ما كان ليطلب من داتشس، وقد كرهت ذلك، أحبَّته لأجل ذلك لكنّها كرهت أنّه لا يطلب مع ذلك.

زانتِ الفكرة برهةً. «متأكّذ؟».

- «بالطبع. سينضمُّ شقيق ريكي إلينا لاحقاً. يمكنه أن يُعلِّم الصبيّين كيفية قذف الكرة».

نظر روبن إلى الأعلى نحو داتشس بعينين مفتوحتين على اتّساعهما.

- «سوف نعيده قبل وقت العشاء».

أخذته داتشس جانباً، جثت فوق الرمل وأمسكت وجهه بيديها كليهما. «أنت تعرف أن تكون فتى طيباً».

- «نعم»، نظر من فوق كتفها إلى حيث كان ريكي قد بدأ في حفر قناة، «نعم، سأكون فتى طيباً، أقسم على ذلك».

- «لا تتركهم، لا تركض بعيداً، كن مهذباً. لا تقل شيئاً عن ماما».

أوماً روبن برأسه، وعلى وجهه ارتسمت أكثر الملامح جدية، قبلت رأسه عندئذ، ثم لَوَّحت لليا تالو وعبرت فوق الرمال الحارة كي تحضر دراجتها.

كانت تتعرق عند وصولها إلى طريق سنست، نزلت عن الدراجة، وأخذت تدفعها في الخمسين قدماً الأخيرة، إلى حيث توقفت خارج منزل آل كينغ.

على الشرفة كان فنست يحف الأرضية بورق الصنفرة، محني الظهر والعرق يقطر من ذقنه. تفرجت عليه بعض الوقت. كانت له عضلات منخفضة ومشدودة، لم تكن من النوع المنتفخ الذي رآته على الشاطئ. عبرت الشارع ووقفت عند نهاية ممر السيارة.

- «هل تريدين المساعدة؟». توقفت فنست عن العمل، وجلس في مكانه، في يده ورقة صنفرة، وعرض على داتشس ورقة أخرى.

- «لَمْ قد أريد فعل ذلك بحق الجحيم؟».

عاد إلى العمل. أسندت الفتاة دراجتها على السياج واقتربت منه.

- «هل تريدين مشروباً أو شيئاً من هذا القليل؟».

- «أنت غريب عني».

لاحظت أن لديه وشماً حين مد ذراعه على طولها، فظهر الوشم من تحت كم القميص. تابع العمل عشر دقائق أخرى.

اقتربت منه أكثر.

توقّف، وجلس من جديد. «ذاك الرجل... في تلك الليلة، هل تعرفينه؟».

- «هو ينظر إليّ كأنّه يعرفني جيّداً».

- «هل يمرُّ بكم بشكلٍ متكرّرٍ؟».

- «أكثر فأكثر مؤخّراً». مسحَ بظاهر ذراعها العرق عن جبينها.

- «هل تريدان منّي أن أخبر ووك؟».

- «لا أريد أيّ شيءٍ منك».

- «هل لديك أيُّ أحدٍ آخر يمكنك الاتصال به؟».

- «أنا خارجةٌ عن القانون، هذا ما تقوله السّجلات».

- «هل تريدان الاتصال بي إن حدث ذلك مجدّداً؟».

- «لقد قتل دالاس ستاودماير ثلاثة رجالٍ بظرف خمسِ ثوانٍ».

أعتقد أنّ في وسعي التعامل مع واحدٍ». نقلت وزن جسمها إلى أحد الفخزين، ثمّ اقتربت منه أكثر وجلست على الدرجة السفلى، بعيدةً عنه خمس درجات.

استدار، انحنى وشرع يصقل الأرضية من جديد، وهو يمرُّ عليها يده الممسكة بورق الصنفرة بثباتٍ وبشكلٍ متساوٍ. مدّت يدها وأخذت قطعة الورق الأخرى، وبدأت تعمل على درجتها.

- «كيف لم تقم ببيع هذا البيت المقرف؟».

ركع كأنّه يصليّ أمام المكان العتيق.

- «يقول الناس... أقصد أنّي سمعتهم في مطعم روزي يقولون

إنّه يمكنك الحصول على مليون دولارٍ أو شيءٍ جنونيّ كهذا، وأنّك تريد البقاء هنا».

نظر خلفه نحو المنزل، نظر مطوّلاً كأنّ في وسعه رؤية شيءٍ كانت تعجز عن رؤيته. «لقد بنى والد جدّي هذا المنزل. حين قاد بي ووك عائداً إلى هذه البلدة، كيب هيفن، كنتُ سعيداً لأنني ما زلتُ أعرف أجزاءً منها. ليس المصطافون فقط الذين غيروها، إنّه...». سكتَ كأنّه لا يعرف ماذا يريد أن يقول. «لا أعتقد أنني كنتُ سيئاً بالمطلق في ذلك الوقت. حين أنظر للأمر، حين أرجع للوراء إلى ذلك الحد أرى شخصاً لم يكن سيئاً بالمطلق».

- «والآن؟».

- «للسجن طريقته في إطفاء النور. وهذا المنزل هو... شعلةٌ صغيرة ربّما، لكنّها ما تزال متّقدةً. إنّ تركّته يذهب، إنّ تركتُ ذاك الضوء الأخير يرحل، فستغمر الظلمة كلّ شيءٍ، ولن أكون قادراً على رؤيته بعد الآن».

- «رؤية ماذا؟».

- «هل فكّرت يوماً في أنّ الناس ينظرون إليك لكنّهم لا يرونك حقّاً؟».

لم تُعِرِ الجملة الأخيرة اهتماماً، انشغلت أكثر بالقوس في شعرها، وبرباط حذاءها الرياضي. «ماذا حدث لسيسي؟».

توقّف مجدّداً، وجلس إلى الوراء هذه المرّة، كانت إحدى ذراعيه في الشمس، وعيناه تحدّقان إليها. «ألم تخبرك أمك؟».

- «أريدك أنت أن تخبرني».

- «أخذتُ سيّارة أخي وخرجتُ بها».

- «أين كان؟».

- «ذهب إلى الحرب. هل تعرفين عن فييتنام؟».

- «نعم».

- «أردتُ أن أثير إعجاب فتاةٍ، فاصطحبتها في السيارة».

- كانت تعرف مَنْ هي تلك الفتاة .
- «بعد أن أوصلتها إلى منزلها ، قدتُ إلى كابريلو - هل تعرفين المنعطف قرب لافتة المدينة الترحيبية؟» .
- «نعم» .
- تحدّثَ بهدوءٍ . «لم أعرف أنني قد صدمتها ، حتّى إنني لم أبطئ سرعتي» .
- «لماذا كانت في الخارج؟» .
- «كانت تبحث عن أختها . كان جدُّك يعمل في المناوبات الليلية أحياناً في ذلك المصنع ، تالو للإنشاءات . هل ما يزال موجوداً؟» .
- هزّت كتفيها . «إلى حدّ ما» .
- «لذا فقد كان يقضي أيام عطلته في النوم . كانت ستار المسؤولة عنها» .
- «لكنّ ستار لم تكن هناك» .
- «اتّصلتُ بها ، شربنا بعض البيرة . أنا ، وهي ، ووك ، ومارثا ماي . هل تعرفينها؟» .
- «لا» .
- «لقد فقدتُ الإحساس بالوقت . كانت قد تركتُ سيسي أمام جهاز التلفزيون» . لم يكن في صوته أيُّ عمقٍ . جعلها ذلك السرد البيّغائي تتساءل ما الذي تبقي منه .
- «كيف عثروا عليك؟» .
- «أظنّ أنّ ووك كان شرطياً حتّى في ذلك الوقت . أتى إلى منزلي في الليلة نفسها ، عاينَ السيّارة ، ورأى الضرر» .
- تابعا العمل في صمتٍ ، صرّتا على أسنانها وهي تصقل الخشب بقوة جعلتها تشعر بالألم في كتفها .

- «ينبغي عليك أن تنتهي لنفسك»، قال لها، «أنا أعرف ذلك النوع، نوع دارك. لقد رأيت رجالاً على شاكلته، شيء ما في أعينهم ليس صحيحاً».
- «لست خائفة. أنا قوية».
- «أعرف».
- «بل لا تعرف».
- «لديك أخ لتعتني به. إنها مسؤولة كبيرة».
- «أقفل باب غرفة نومنا كي لا يرى شيئاً، كما أنه يُحيل أي شيء قد يسمعه إلى الأحلام السيئة».
- «تجسّبه في الداخل، هل هذا آمن؟».
- «أكثر أماناً ممّا هو موجود في الخارج».
- راقبته بعدئذٍ لحظاتٍ، كان ذهنه في مكانٍ بعيدٍ، كأنه يقيس وزنَ حملٍ ثقيلٍ.
- أخذ الأمر وقتاً قبل أن ينظر في عينيها. «أنتِ خارجةٌ عن القانون؟».
- «أنا كذلك بالفعل».
- «أعطني دقيقةً إذاً، لديّ شيءٌ من أجلك».
- راقبته وهو يدخل إلى المنزل، وفكّرتُ في مسألة الغفران. عرفتُ أنّ أيَّ إرجاءٍ لها سيكون إلى أجلٍ، وهكذا استحالت تلك اللحظة العابرة حين رآته يعود وكأنها تشاهد رجلاً ميتاً يمشي على الأرض.

- «في بعض الأحيان أعتقد أنها تكرهني».

نظر ووك إلى ستار، لكنّها لم تنظر إليه. كان الهدوء سِمَتَهَا العامة ذاك الصباح، لكنّ ووك كان يعرف أنّه لن يدوم.
- «إنّها مراهقة».

- «هل تعتقد حقّاً أنّ هذا كلّ ما في الأمر يا ووك؟ أنا لستُ في حاجةٍ إلى الهراء، ليس منك».

رأى ووك الستائر تنفتح لدى مرورهما بمنزل براندون روك، ومن ثمّ خرج براندون. قاوم العرج بفم مشدودٍ فيما كان يعبر الفناء. تمهّل ووك بعض الشيء، وتنهّدت ستار.

- «صباح الخير»، قال براندون مبتسماً لستار.

- «لقد أيقظتَ نصف الشارع مجدّداً يا براندون. الأفضل لك أن تصلح هذا المحرّك، أو ستخرج داتشس وتقوم بذلك نيابةً عنك».

- «هذه طراز 1967 —».

- «أعرف ما هو نوع السيارة. إنّها سيارة والدك، السيارة نفسها التي كنتَ تعمل عليها على مدار العشرين سنةً الماضية، حتى إنّني رأيّتك تتحدّث للصحف المحليّة عن الشيء اللعين».

كانت طريقة النشر فظة، حيث دُفِنَتْ فقرة الإضاءة على حياة السُّكَّان المحليين بالقرب من الإعلانات المبوبة. استغرق براندون نصف صفحة للحديث عن الأسطوانات والمكابس، وتحت ذلك صورة له مستلقياً فوق غطاء المحرك، مع شعره المَسْرَّح بعناية وشفثيه العابستين. قامت داتشس بتشويه نسختهم من الجريدة بواسطة قلم تلوين، ثم ألصقتها على بوابة براندون الأمامية.

- «ستكون مسألة إصلاحها منجزة في الوقت المناسب من أجل عيد الرابع من يوليو⁽¹⁾. لذلك فقد كنتُ أتساءل إن كنتِ ترغبين في الذهاب إلى كليرووتر كوف. يمكنني أن أرتب نزهةً لنا، توينكيس، صحيح؟ أنتِ تحبين كعك توينكيس بالكريما، دجاج بالأناناس، حتّى إنني حصلتُ على وعاء فوندو» قال، وحمل بيده أثقال التدريب، وأخذ يرفعها نحو الكتف، ما جعل أوردة ذراعه اليمنى تنفر بارزة إلى الخارج.

- «لا أريد مواعدتك يا براندون. أنتِ تطلب مني الخروج معك منذ الثانوية، وقد أصبح هذا متعباً».

- «أتعرفين؟ في يومٍ من الأيام سوف أفقد الأمل منك فحسب يا ستار».

- «هل يمكنني أن أحصل على تعهدٍ مكتوبٍ بذلك؟».

أمسكت يد ووك، واستأنفت السير.

- «هو ما يزال يعتقد أننا في الثانوية»، قالت ستار.

- «وما يزال يتألم من خسارته لكٍ لصالح فنسنت».

عندما وصلا إلى آخر شارع آيفي رانش نظر ووك إلى الورا، ورأى براندون روك ما يزال واقفاً هناك، يحدّق فيهما.

(1) عيد الاستقلال في الولايات المتحدة الأمريكية - المترجم.

كانا يمشيان، وهو طقسٌ أسبوعيٌّ مضى عليه حوالي عقدٍ كاملٍ. كان ووك يمرُّ بها صباح يوم الاثنين، ويحرص على أن تخرج ستار وتتحدَّث إليه. لم يكن هذا بالشيء الكثير، لكنَّه فُكِّر أحياناً أنَّ بعض السلوكات الروتينية قد تكون مفيدةً لها. إذا كانت لن تتحدَّث إلى طبيبٍ نفسيٍّ، ففي وسعها أن تتحدَّث إليه.

- «إذاً، كيف حاله؟».

- «إنَّه بخير».

ضَيِّقَتْ عينها وهي تنظر إليه. «ما الذي يعنيه ذلك بحقِّ الجحيم يا ووك؟ حسنٌ، أعطني شيئاً ما».

- «لقد سمعتُ عمَّا حدث تلك الليلة».

- «أه، إنَّه بطلي، أليس كذلك؟ لقد كنتُ مسيطرةً على الوضع. لستُ في حاجةٍ إلى أن يظهر فنسنت كينغ اللعين ليخوض معاركي».

- «لقد اعتاد أن يخوض كلَّ معاركنا. تذكّري حين ظنَّ الصبي من عائلة جونسون أنَّني سرقتُ درَّاجته».

ضحكت ستار. «كأنَّك قد تسرق أيَّ شيءٍ!».

- «لقد كان ضخماً».

- «ليس بما يكفي ليهزم فنسنت. أحببتُ ذلك فيه. كان قاسياً، لكنَّنا فقط من رأينا ما تحت تلك القسوة. كانت سيسي تحبُّه. كنَّا حين نجلس على الأريكة تأتي وتنحشر بيننا. كان يقضي وقتاً معها. حتَّى إنَّه أخذ رسوماتها إلى بيته واحتفظ بها».

- «أذكر ذلك».

- «أنت تتذكر كلَّ شيءٍ يا ووك».

- «لماذا تتركينه حائماً حولك؟ دارك. إنَّه ليس سويّاً».

- «ليس ذلك بشيء، ليس كما تظنّ. صبيّت عليه جام غضبي، أنا من بدأ كلّ ذلك. لقد نُسيّ الأمر الآن. سأؤدي الليلة نوبة عملٍ في النادي».

تمهّل قليلاً عند زاوية سنست، فنظرْتُ بعيداً نحو منزل آل كينغ. ترك لها أن تقودهما، فابتعدتُ بهما نزولاً نحو الشاطئ. مرّت سيّاراتٌ بالقرب منهما، ثمّ سيّارة دفع رباعيّ. رأى أنّه كان إد تالو، فرفع يده لكنّ عيني إد لم تتزحزح عن ستار في أثناء مروره.

حلّ ووك ربطة عنقه في الوقت الذي خلعت فيه ستار صندلها وخطّت فوق الرمال الساخنة. لحق بها، كان حذاؤه يمتلئ بالرمل بينما هي تندفع نحو الماء قفزاً على كعبيها المحترقين بفعل سخونة الرمال. توقّفت حين غمرت المياه كاحليها، وضحكّت فيما كان يشقّ طريقه إليها.

سارا على خط الماء.

- «أعرف أنّي فاشلةٌ يا ووك».

- «أنتِ لستِ —».

- «أعرف أنّي أفسد الشيء الوحيد الذي يفترض أن أبرع فيه».

- «داتشس تحبّك. هي صعبة المراس، لكنّي أرى كيف تهتمّ

بك. وروبن —».

- «روبن سهل. إنّهُ كلّ شيء... إنّهُ أفضل ما فيّ. إنه أمير».

جلسا على الرمال.

- «ثلاثون عاماً يا ووك. ثمّ فجأةً، يعود إلى البلدة التي خلفها وراءه. لقد فكّرتُ فيه، فكّرتُ فيه كثيراً على مرّ السنين. وأنا أعرف أنّك تحبّ ذلك، أنت تريد أن تتحدّث عنه كأننا جميعاً الأشخاص أنفسهم».

شعر عندها بالحرّ، والعرق يتصبّب من ظهره. «أنتِ تفعلين هذا، تسكرين أو تنتشين، وتموتين تقريباً، ثمّ بعد ذلك نتمشّى، ونتحدّث، ولا شيء يتغيّر».

- «أنتِ مصابّةٌ بلعنة الإخلاص المرضيّ يا ووك. أنتِ تحمل عبثاً لا تراه حتّى. لستُ أنا من تتطلّع إليه داتشس، إنّه أنت».

- «لا، ليس الأمر كذلك —».

- «أنتِ تذكّرها بكلّ ما هو جيّد. أنتِ الرجل في حياتها، الشخص الذي لا يكذب أو يغشّ أو يخدع الناس. هي لا تصرّح بذلك، لكنّها تحتاج إليك. ولا يمكنك أن تخذلها أبداً، لأنّ ذلك سيكون بمثابة إطفاء النور في حياتها».

- «سوف تكونين على ما يرام، يمكنك أن تكوني ذلك الشخص بالنسبة إليها».

حرّثت الرمل ثمّ غرّفته بيدها، وتركته ينسلّ من بين أصابعها. «ماذا أفعل؟ كيف أتوقّف عن كوني أنا؟».

- «التقي به».

- «أغفر له؟».

- «ليس هذا ما أقوله».

- «في كلّ مرّة هويّت فيها أو انزلقتُ إلى حضيض، كان هو من أفكّر فيه. أنا لستُ قويّة بما يكفي للتعامل مع الأمر. ما الذي يعنيه كلّ ذلك، ما الذي تعنيه إعادته إلى حياتي. وهي ليست حياتي وحدي».

- «هو أفضل من ديكى دارك».

- «اللعنة يا ووك، أنتِ مثلُ الأطفال، أفضلُ وأسوأ، سيّئٌ وجيّدٌ. لا أحد منا يُختزل في شيء واحد. نحن توليفةٌ من أفضل

وأسوأ الأشياء التي فعلناها في حياتنا . فنسنت كينغ قاتل ، لقد قتل أختي». ارتعش صوتها . «كان يجب أن أغادر، كان يجب أن أغادر مثلما فعلتُ مارثا، وأترك كيب ورائي».

- «لطالما كنتُ حريصاً عليكِ وعلى الطفلين».

أمسكتُ يده . «وأنا أحبُّك لذلك السبب . أنتَ أفضل صديقٍ حظيتُ به على الإطلاق . هناك خطةٌ كبرى يا ووك، غايةٌ عظيمةٌ، هناك قوىٌ كونيةٌ، سببٌ ونتيجة».

- «هل تؤمنين بذلك حقاً؟».

- «يجد الكون دائماً طريقةً لإحداث التوازن بين الخير والشر» . نهضتُ ونفضتُ الرمل عنها . «حين يسأل، أخبره أنني انتهيتُ منه منذ زمنٍ بعيدٍ، ولا تأتِ على ذكره أمامي مرةً أخرى يا ووك . أمّا بالنسبة إلى داتشس وروبين، فهما كلُّ ما يهم، وسأفعل كلَّ ما في وسعي كي أثبت ذلك لهما».

راقبها وهي تغادر، ثمَّ عاد ليستدير نحو المحيط . كانت تلك كلماتٍ سمعها من قبل مراراً، كلماتٍ صُلِّيَ أنَّها هذه المرة تعنيها بحقّ .

* * *

الوقت منتصف الليل، أصواتُ الخارج ضعيفةٌ، والضوء من أعمدة الإنارة يخترق الغرفة، خزانة الملابس ليس لها بابٌ، ودرجها مكسورٌ .

لا يوجد ملصقاتٌ تخصُّها أو عملٌ فنيٌّ يعطي تلميحاً عن سنواتها الثلاث عشرة . سجادةٌ رقيقةٌ باليةٌ نسلتُ خيوط النايلون فيها إلى حوافٍّ عاريةٍ، وسريرٌ صغيرٌ قرب سرير أخيها حيث كانت تنام ساعات العذاب .

تحَقَّقْتُ من روبن، صوت تنفُّسه، وملاءاته. أغلقتُ باب الغرفة
بإحكام، ثمَّ اتَّجَهِتُ إلى باب الشارع وفتحتُه بواسطة السلسلة.
كَانَتْ ستارٌ مستلقيةٌ على العشب الذابل.
ذهبتُ داتشس إليها بحذرٍ.

أعلى الشارع، تلالأت أضواء مكابح الإيسكاليديد بينما كانت
تنعطف مبتعدةً.

قلبتُ داتشس والدتها، كانت تنورتها مرفوعةً بصورةٍ غير
محتشمةٍ.

- «ستار».

كانت هناك علامة بالقرب من عيناها، شفتها متورَّمةٌ حيث شكَّل
الجلد حاجزاً لخيوط الدم النازل من وجهها.

رأت عبر الشارع ستائرٌ تتحرَّك، إنَّه ظلُّ الجزَّار الذي لا يكفُّ
عن المراقبة، وبالقرب منه الوهج القوي لأضواء براندون روك
الكاشفة، والمسَّطَّعة على الموستانج المغطَّاة.

تطلَّبتُ الأمر عشر دقائق طويلةٍ لإيقاظها، وعشر دقائق أخرى
لسحبها إلى المنزل. تقيَّأت ستار في الممرِّ، ذاك النوع من التقيؤ
العسير كأنَّها تُخرج روحها المتفحَّمة.

وضعتُها داتشس في السرير، وكما كانت تعرف فقد جعلتها
تستلقي على بطنها، جرَّدتها من حذائها ذي الكعب العالي، شقَّت
لها النافذة لتخرج دخان السجائر، ورائحة الكحول والعطر. كان
يحدث أن توقظها أمُّها في وقتٍ متأخِّرٍ من الليل، حين ترجع مترنَّحةً
بعد نوبة عملها ساقيةً في حانة دارك. لكنَّ هذه كانت المرَّة الأولى
التي تتعرَّض فيها للضرب.

ذهبتُ إلى المطبخ وملأت دلواً، نظَّفت القيء حتى لا يراه
شقيقها، ثمَّ اغتسلتُ، وارتدتُ الجينز والحذاء الرياضي.

في غرفة نومهما، وجدتُ شقيقها جالساً في السرير، وفي عينيه نظرةٌ جوفاء. جعلته يستلقي مجدداً، فهددته إلى أن عاد للنوم. أطفأت النور، وأقفلت باب غرفتهما، رفعتِ الشباك وتسلّقت خارجةً.

كانت كيب هيفن نائمةً، جابت داتشس الشوارع بحذر بعيداً عن مين وسنست، حيث كان ووك أحياناً يجلس ويقوم بالمراقبة. فكّرت في أمّها، وفي ووك، وذاك الانجرار خلف الكحول والمخدرات الذي اختزل العالم بالنسبة إليهما.

على بعد ميل، وعلى امتداد كابريلو، كانت عضلات فخذيها تحترق بعد نصف ساعةٍ من قيادة الدراجة.

ظهر النادي في المشهد أمامها، ذي أيت، كانت داتشس تعرفه لأنّ جميع الأطفال كانوا يعرفونه. كانت تُمارسُ ضغوطَ خفيفةٍ لإغلاقه كلّ بضع سنواتٍ لدى افتتاح الانتخابات التمهيدية، حيث يلهث العمدة المنتخب وراء جميع الأصوات المفيدة.

إنّها ليلة الاثنين، والوقت متأخراً بما يكفي ليكون المكان الغارق في الظلام خالياً.

على امتداد كابريلو رأت داتشس الجرف العظيم، صخورٌ غير محدّدة الأشكال، ومجموعةٌ من الأشجار تتمايل مع هبّات النسيم، مياه المحيط في الليل، بعيدةٌ جداً وحالكةٌ، وتصلح لأن تكون حافةً لعالمها. لا قارب يعبر أو سيّارة، هناك هي فحسب، تركتُ درّاجتها وعبرت محاولةً فتح الأبواب الخشبية الكبيرة، لكنّها كانت تعرف أنّها ستكون مقفلةً. النوافذُ سوداءٌ، حوافّها متقشّرةٌ. ولافتةٌ تعدُّ بأسعار مخفضة من الثانية وحتى السابعة كلّ يوم.

في الأعلى، صورةٌ جانبيةٌ لمؤخرةٍ وساقين من أضواء النيون،

لكنّها مطفأة الآن. عثرت بالقرب منها على حجر كبير، أمسكت به وألقته على لوح زجاجي، رآته يتصدّع فحاولت مجدّداً. انقطعت أنفاسها في اللحظة التي انكسر فيها بصوت يصمّ الأذان، ثمّ حلّ صمت مطبق. لحظات إلى أن انطلق الإنذار، كان عالياً جدّاً، الأمر الذي جعلها تسرع في النهاية. كانت في حقيبتها علبة أعواد الثقاب، خَطَّتْ إلى الداخل عبر الزجاج المكسور، من دون أن تصرخ حين جُرَحَتْ ذراعُها فيما كانت تعبر. تحرّكت بانتباه، وجدت نفسها في غرفة خلفية خافتة الإضاءة: مرايا، ومقاعد، وماكياج، وأنواع من الأزياء لم تكن تعرفها، رائحة عرق غُطِيتْ بأنواع المزيلات.

كانت هناك خزائن، الكثير منها، كلُّ منها تحمل صورةً. نظرت داتشس في الوجوه، والتعابير، والشعر المربوط إلى الخلف. بجانب الصور كانت هناك أسماءٌ تُعدُّ بالبراءة والنقاء. تقدّمت ومرت بيدها على الريش والمشدّات.

في البار، اصطققت الكؤوس أمام جدارٍ عاكسٍ. أخذت زجاجةً من كونياك كورفوازييه، وأفرغتها في أحد الأكشاك الجلدية، ثمّ أخرجت أعواد الثقاب من حقيبتها، أشعلت العلبة كلّها وأفلتتها، وهي تراقب اللهب يزحف بلونٍ أزرق هادئٍ.

وقفت تحدّق في النار لوقتٍ طويلٍ حتّى إنّها لم تنتبه عندما احمرّ خدّاها بفعل الحرارة، وعندما ضاق صدرها وبدأت في السعال. تعثّرت وهي تتراجع إلى الخلف بينما كانت النار تتجمّع وتمضي زاحفةً ببطءٍ. تشبّثت بواسطة ذراعها، كان الدم يقطر من أصابعها فيما ألسنة اللهب تتصاعد وتنطلق نحو الطاولات والمصاييح.

كانت على وشك الخروج، ثم تذكّرت. ركضت عائدةً عبر الدخان الكثيف، ثبّتت طرف قميصها فوق

أنفها فيما كانت تفتح باباً بعد باب إلى أن عثرت على المكتب.
طاولةً من خشب الماهوغاني مغطاةً بجلدٍ أخضر اللون، بارٌّ آخر
لكنه أصغر، كأس كريستال وصندوق سيجارٍ. عثرت على مجموعةٍ
من الشاشات قرب المكتب، ففتحتُ الخزانة التي تحتها، وانتزعت
شريط المراقبة الأمني من آلة التسجيل وحشرته داخل حقيبتها.
تحركت بسرعة كبيرة ورأسها للأسفل، في الوقت الذي اندفعت
فيه النيران وراءها.

تشبّثت بدرّاجتها وهي تلهث في هواء الليل. على قميصها
كانت نجومٌ ونصف قمرٍ بوجهٍ مبتسم. سمعت الأصوات وراءها،
فرقةٌ وتحطّمٌ، ومن ثمّ جاءت أخيراً الاستجابة للإنذار.
ضغطت على دوّاستي درّاجتها بقوة، نزولاً في كابريلو ثمّ
صعوداً. مرّت بسيّارة، فأبقت رأسها منخفضاً، ثمّ سارت بمحاذاة
خطّ الأشجار بعيداً عن الطريق وصولاً إلى كيب هيفن. عبرت طريق
سنست إلى فورتونا، حيث وقفت قرب كومةٍ من الخردة، طاولةٌ
عتيقة، صناديق وأكياس قمامةٍ جاهزةٌ لتحميلها في الشاحنة. تركتِ
الدراجة، وهرعت عبر الكومة وحشرت الشريط في أحد أكياس
القمامة.

لقد غطّت آثارها، كانت ذكيّةً كفايةً لتفعل ذلك.

الآن هي في شارعها، وفنائها الأمامي، تحركت بهدوءٍ قدر
استطاعتها، أسندت درّاجتها وتسلّقت عائدةً إلى الداخل عبر
النافذة. كان البيت ما يزال نائماً. تجرّدت من ملابسها في الحمام،
ولم تلقِ بالاً للجرح في ذراعها، تسلّلت عاريةً إلى الغسّالة، وبدأت
تعمل على ثيابها.

حين انتهت، دخلت في حوض الاستحمام، فتحت الماء في
الدشّ ونظّفت نفسها. بعد ذلك سحبتُ أمام المرأة من ذراعها قطعة

زجاج بطول نصف إنشٍ، وشاهدت الدم وهو يتدفّق منها. تمعّنتُ في ذلك الأحمر القاني، في التاريخ القابع هناك، في أسلافها الخارجين عن القانون وهم يبيّثون فيها القوة.

لم يكونوا العائلة التي تملك خزانة أدوية، أو صندوق إسعافات أوليّة، لكنّ داتشس تمكّنت من العثور على مجموعة من ضمادات الأطفال، اختارت أكبرها وألصقتّها بقوة، ثمّ راقبتها وهي تتلوّن.

استلقت أسفل سرير شقيقها، تكوّرت على نفسها مثل قطّة تنتظر نوماً لم يأت.

إنّهُ الضوء الأول، والليلة الساخنة في خلفية المشهد، تساءلت داتشس عمّا هو قادمٌ.

سيكون الوضع سيّئاً.

لقد أنزلت بنفسها لعنةً نهائيةً.

عشر ووك عليه عند حافة الجرف .

كان سياج بيته الخلفي قد سُوي بالأرض . وقف فنسنت وقد برزت أصابع قدميه خارج الصخرة ، وأقل هبة ريح كانت سترمي به مئة قدم نحو الأسفل . كان يرتدي بنطال جينز وقميصاً عتيقاً ، وعيناه يكسوهُما التعب . كان ووك يعرف هذا الشعور ، فقد أَوْقَظَ من النوم بعد الساعة الواحدة بقليل ، الاتصال كان بشأن نادي دارك . ارتدى لباس الشرطة ، وقاد المسافة إلى هناك تحت سماءٍ مضاءةٍ بالأحمر . إنَّه الرابع من يوليو مجدداً . لحق بالجلبة والأضواء ، تاركاً الكروزر على مسرب الطوارئ . كانت هناك حركة سيرٍ خفيفةٍ آخذةٌ في التشكُّل ، لكنَّ معظم السيارات كانت قد بدأت في الالتفاف والعودة . وقف دارك بعيداً عن المتفرِّجين في الوقت الذي كان فيه الدخان يرتفع إلى كبد السماء ، ويحيلها رمادية اللون . وقف هناك ، لا مشاعر ، لا انفعالات .

- «هل يمكنك أن تأخذ خطوةً إلى الوراء بعيداً عن الحافة يا فين؟ أنتَ تسبِّب لي التوتر» .

سارا معاً عائدين إلى ظل المنزل .

- «هل كنتَ بوقوفك هناك هكذا تصلِّي أو تفعل شيئاً من هذا القليل؟ لقد شعرتُ بالقلق من أنك سوف تقفز».
- «هل هناك فرق بين صلاةٍ وأمنية؟».
- خلع ووك قَبَّعته. «أنتَ تتمنَّى ما ترغب فيه، وتصلِّي من أجل ما تحتاج إليه».
- «أنا متأكد بأنَّه في حالتي هما الشيء نفسه ولا فرق بينهما».
- جلسا معاً على درجات الشرفة الخلفية. أُسِنِدْتُ ألواحَ جديدةٍ لم تتلَطَّخَ بَعْدُ بالقرب منهما. سيحتاج الأمر حياةً كاملةً لإعادة تأهيل المكان.
- «هل تعرف ذاك الرجل، ديكي دارك؟».
- «أنا لا أعرف أحداً يا ووك».
- انتظر ووك قليلاً، ولم يضغط عليه.
- «لقد كان يضايق الطفلة رادلي، وستار. لذا تدخَّلْتُ، إذ لم يبدُ أنَّ أحداً سيفعل».
- التقطَ ووك الإشارة. «تقول ستار إنَّهما صديقان، سوف لن توجَّه أيُّ تَهَمٍّ».
- «صديقان».
- سمع ووك ذلك مجدِّداً، تلك النعمة الطفيفة جدًّا من الغيرة. فنسنت ما زال يهتَّمُّ.
- «لقد احترق ناديه الليلة الماضية».
- لم يقل فنسنت شيئاً.
- «هو يملك نادياً في كابريلو. لقد ذكرك دارك بالاسم، لذا عليَّ أن —».
- «لا بأس يا ووك، لا تقلق بشأن ذلك».
- «إذا كنتَ في المنزل الليلة الماضية».

- «أتخيّل أن رجلاً كهذا لديه عددٌ لا بأس به من الأشخاص المستائنين منه».

- «لديّ فكرةٌ واضحةٌ إلى مَنْ يجب أن أتحدّث».

نظر إليه فنسنت.

- «تلقّينا مكالمَةً من سائقٍ رأى طفلاً على درّاجة».

- «هل يمكنك أن — أقصد أن تغضّ النظر فحسب؟ أعرف ما

الذي أقوله، لا يحق لي أن أتدخّل، لكنّها طفلةٌ. إنّها ابنة ستار».

- «هي كذلك. على أيّة حالٍ، أيّاً كان مَنْ فعل ذلك فقد كان

ذكياً ومنتبهاً كفايةً كي يأخذ شريط المراقبة، لذا طالما أنّه يلتزم

الصمت...».

- «صحيح».

وهكذا كان. لم يقل فنسنت شيئاً آخر وتركه ووك مع أفكاره.

لقد أجرى المحادثة بشكلٍ رسميٍّ، كان يؤدّي عمله، لطالما كان

يؤدّي عمله.

غادر ووك، ثمّ عثر على الفتاة والصبي في سائر، وهو الطريق

الطويل الذي يتفرّع مبتعداً عن مين. كانا يمشيان، روبن في الأمام،

يركض عبر الأفنية، وبين الحين والآخر يلتفت إلى الورااء كي يتحقّق

من أنّه ليس بمفرده، وداتشس بطريقتها الحذرة في التحرك، كأنّها

تصيخ السمع، وتتوقّع حدوث المتاعب في كل لحظة. استدارت

نحوه لدى وصوله، ونظرت إليه برباطة الجأش نفسها التي كان يراها

في فنسنت.

أطفأ ووك المحرّك، ونزل من السيارة. في ذلك الصباح لم

تكن يده تترعشان، إنّهُ الدوبامين، الدواء الجديد.

- «صباح الخير، داتشس».

كانت لها تلك العينان المتعبتان أيضاً. حملت حقيبتها وحقيبة

شقيقها. كانت تلبس الجينز، وحذاء رياضياً عتيقاً، وقميصاً به ثقب صغيرٌ تحت إبطها. شعرها أشعث، أشقر مثل شعر والدتها، القوس في شعرها كما هو الحال دائماً. كانت جميلةً جداً لدرجة أنَّ الصبية كانوا سيقفون في الصف، لو أنَّهم كانوا لا يعرفون، لو أنَّ الجميع كانوا لا يعرفون.

- «هل تعلمين بأمر مكان دارك؟».

بحث عن ردِّ فعلٍ انعكاسيٍّ، لم يبدُ عليها أيُّ شيءٍ على الإطلاق، كان سعيداً بذلك، فقد أراد لها أن تلعب اللعبة بشكلٍ صحيح، أن تُعطي الإجابات التي كان يحتاج إليها.

- «لقد احترق الليلة الماضية، أحدهم رأى طفلاً على دراجة، في الوقت ذاته تقريباً، هل تعرفين؟».

- «لا أعرف».

- «ألم يكن ذلك أنتِ؟».

- «كنتُ في المنزل طوال الليل. يمكنك التحقق من ذلك مع والدتي».

أراح يديه على بطنه المنتفخ. «لقد تغاضيتُ عن الكثير لسنوات، وفي كلِّ مرَّةٍ كنتُ أشكُّك في نفسي. المرَّات التي قبضَ عليك فيها تسرقين —».

- «طعامٌ»، قالت بحزنٍ، «كان مجرد طعام».

- «هذا شيءٌ مختلفٌ. الكثير من المال على المحكِّ، ولو وُجدَ شخصٌ ما هناك كان يمكن أن يموت. بعض الأشياء لا أستطيع حمايتك منها».

وقفاً معاً عندما مرَّت سيارةُ جارٍ عجوزٍ، رمقهما بنظرةٍ سريعةٍ ثمَّ ابتعد. ابنة ستار، لم يبدُ متفاجئاً ولو قليلاً.

- «أنا أعرف بأمر دارك وما هو عليه».

غَطَّتْ عَيْنِيهَا بِكَفِّهَا مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ، وَقَدْ تَشَنَّجَتْ كُلُّ عَضَلَةٍ فِي جَسْمِهَا. «أَنْتَ لَا تَعْرِفُ أَيَّ هَرَاءٍ، يَا وُوكْ». قَالَتْهَا بِهَدْوٍ لَكِنَّهُ تَلَقَّاهَا بِقَسْوَةٍ. «لَمْ لَا تَذْهَبْ فِي جَوْلَةٍ عَلَى طَرِيقِ مِينِ وَتَسَاعِدِ الْمَصْطَافِينَ مَعَ كَلَابِهِمْ؟».

بَحِثْ عَنْ شَيْءٍ لِيَقُولَهُ، لَكِنَّهُ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ نَزَلَ بِعَيْنِيهِ نَحْوَ الْعُشْبِ، وَأَخَذَ يَعْثُ بِشَارْتِهِ، إِنَّ الْإِسْهَابَ يَنَاسِبُهُ مِثْلُ جَلْدِ ثَانٍ. اسْتَدَارَتْ وَمَضَتْ مِنْ دُونِ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الْوَرَاءِ. عَرَفَ وُوكْ أَنَّهُ لَوْلَا وَجُودُ رُوبِنِ الَّذِي كَانَ يُبْقِيهَا عَلَى جَادَةِ الصَّوَابِ، لَكَانَ سَيَبْقَى مَشْغُولًا جَدًّا بِسَبِيحِهَا.

رَأَتْ سَيَارَةَ الْإِسْكَالِيدِ عِنْدَ بَوَابَةِ الْمَدْرَسَةِ، سُودَاءَ مَعَ نَوَافِذٍ مَظْلَلَةٍ تَحْجِبُ الْعَالَمَ. قَبِعَتْ هُنَاكَ خَامِلَةً، وَحَافِلَاتٌ صَفْرَاءَ وَقَفَتْ مِثْلَ صَفٍّ مِنَ الزَّهْوَرِ.

كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ سَيَحْدُثُ، لَطَالَمَا تَحَدَّثَتْ سِتَارَ عَنِ التَّوَازَنِ، السَّبَبِ وَالنَّتِيجَةِ. لَوَحَتْ لِأَخِيهَا وَرَاقِبَتِهِ يَدْخُلُ عِبْرَ الْبَوَابَةِ الْحُمْرَاءِ.

كَانَ مَا يَزَالُ هُنَاكَ نَارًا فِي الْهَوَاءِ، جَذَوَاتٌ طَافِيَةٌ أَحْرَقَتْ ذَرَاعِيهَا، وَعَلِقَتْ فِي أَنْفِهَا. تَسَاءَلَتْ مَنْ كَانَ قَدْ رَأَاهَا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، تِلْكَ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ حَيْثُ مِنَ الْمَفْتَرَضِ أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ الطَّبِيعِيُّ اجْتِمَاعِيًّا نَائِمًا فِي مَنْزِلِهِ. حَظٌّ سَيِّئٌ، هَذَا كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ. جِزْءٌ مِنْهَا كَانَ سَعِيدًا: سَحَقًا لِدِيكِي دَارِكِ.

عَبَرَتْ الشَّارِعَ وَاتَّجَهَتْ إِلَى الشَّبَاكِ الْخَارِجِيِّ لِمَدْرَسَتِهَا، حَيْثُ كَانَتْ بِأَمَانٍ مَعَ الْمَدْرُسِينَ الَّذِينَ تَعَهَّدُوا بِالْإِهْتِمَامِ بِأَمْرِ الْغُرَبَاءِ. أَنْزَلَتْ نَافِذَةَ الْإِسْكَالِيدِ. كَانَتْ عَيْنَا دَارِكِ مَتَوَرِّمَتَيْنِ مُتَفَخِّخَتَيْنِ،

كأنَّه سُحِبَ من المحيط، باستثناء أنَّه بدل أن يكون محيطاً من الماء، كان مملوءاً بالمال والجشع.

وقفتُ ساكنةً، اصطكَّكتُ ركبتيها خلف بنطال الجينز، لكنَّها ثَبَّتَتْ بعينيها عبر نظرة قاسية.

- «اركبي»، قال لها. لا أثر للغضب، لا صوت عالٍ.

- «تبّاً لك».

مرّت بقربها مجموعة من أولاد صفّها ولم ينتبهوا إليها، كانوا ممتلئين حماسةً، فهذا آخر أسبوع من العام الدراسي. تساءلت أحياناً كيف سيكون الأمر إذا كانت حياتها اعتياديةً أكثر بقليل.

- «أطفئِ المحرّك واسحبِ المفتاح».

فعلَ ذلك.

اقتربت. «سأترك الباب مفتوحاً».

أمسك عجلة القيادة، أصابع غليظة، وبراجم⁽¹⁾ هائلة.

- «كلانا يعرف».

كانت تنظر إلى السماء. «أجل».

- «هل تعرفين مبدأ السببية؟». بدا حزيناً جدّاً، وضخماً لعيناً،

وخشناً، وبائساً. كائنٌ ليس من هذا العالم.

- «نورني».

- «أنتِ لا تعرفين ماذا فعلت».

على الأرضية ثمة عقب سيجارة بدا أنَّه دُهِسَ للتوّ، وكان من النوع نفسه الذي تدخّنه أمّها.

- «أنتِ لا تشبهين أمّك»، قال لها.

راقبتُ داتشس طائراً يحلّق بشتاتٍ وهدوءٍ، بدا مثالياً تماماً.

(1) جمع برجمة وهي مفصل الإصبع - المترجم.

مرّر دارك يده على طول العجلة. «لديها مخرج. إنها مدينة لي بالإيجار، وأنا أحتاج معروفاً».

- «هي ليست بعاهرة».

مكتبة

t.me/soramnqraa

- «هل أبدو لك مثل قوادي؟».

- «تبدو لي مثل وغد».

مكثت الكلمة هناك برهةً.

- «لا بأس، طالما أنني لا أبدو مثل الرجل الذي أنا عليه

بالفعل». تحدّث بسطحية وحياد جعلها بدنها يقشعر.

- «لقد أخذت شيئاً الليلة الماضية».

- «لديك ما يكفي».

- «من يقرّر كيف يبدو هذا الذي يكفي؟».

حملت به.

- «في وسع والدتك أن تجعل هذا الأمر ينقضي. يجب عليك

أن تطلبي ذلك منها. من شأن هذا أن يوازن الأمور بعض الشيء».

- «اللعنة عليك يا دارك».

- «شريط المراقبة يا داتشس. أحتاج إلى شريط المراقبة».

- «لماذا؟».

- «ترينتون سيفين. هل تعرفين ما هو؟».

- «شركة التأمين. أرى اللوحات الإعلانية».

- «لن يدفعوا المال لأنّ الشريط مفقود، ويعتقدون أنّ لي

علاقة بالحريق».

- «أنت كذلك بالفعل».

أخذ نفساً طويلاً وعميقاً.

كزّت على أسنانها.

- «لن أنسى» .
- قابلت نظرة عينيه . «لا يجدر بك ذلك» .
- «أنا حقاً لا أريد أن أؤذيكَ» . شيء ما في صوته جعلها تصدّقه .
- «لكنّكَ ستفعل» .
- «نعم» .
- مدّ يده أمامها إلى درج السيارة وأخرج نظّارته الشمسية ، ولكن ليس قبل أن ترى داتشس المسدّس بالداخل ، وفوّته موجّهة نحوها .
- «سأعطيك فرصة اليوم . سوف تخبرين أمّك بما فعلت . يمكنها أن تصلح الأمر ، أو سيكون عليّ أن أفعل ذلك . وأنتِ عليك أن تعيدي الشريط» .
- «سوف تعطيه لوك» .
- «لا» .
- «رجال التأمين سوف يشركون الشرطة في الأمر» .
- «ربّما . لكن يجب أن تطرحي على نفسك سؤالاً يا داتشس» .
- «وما هو يا دارك؟» . ربّما يكون دارك قد التمس راحة صوتها في تلك اللحظة .
- «هل تفضّلين أن يأتي رجال الشرطة بحثاً عنك؟ أم أن آتي أنا؟» .
- «سمعتُ أنّكَ ضربتَ رجلاً حتى الموت» .
- «لم يمت» .
- «لماذا فعلتَ ذلك؟» .
- «مسألة عمل» .
- «الشريط . ربّما سوف أحفظ به» .

حدَّق بها بعينين تحفران عميقاً.

- «ابقَ بعيداً عن أمِّي، وربَّما سوف أعيده لك يوماً ما».

قفزت من السيارة، واستدارت مبتعدةً. راقبها، درسها، تشربَّ كل ملامحها، ملزماً ذاكرته بها. تساءلتُ ما الذي رآه فيما كانت تدخل مبنى المدرسة، إلى جانب أطفالٍ آخرين حيواتهم خفيفةٌ لدرجةٍ أذهلتها.

مرَّ اليوم ببطءٍ. كانت تتحقَّق من الساعة طوال الوقت، عيناها على النافذة، وكلمات المدرِّس لا تصل إلى أذنها. تناولتِ الغداء وحيدةً، راقبت روبن عبر السياج، وشعرت بأن قدرتها المحدودة على التحكُّم في مجرى الأمور أفلتت من قبضتها تماماً. قد يتسبَّب دارك بضررٍ لا يمكن تصوُّره. كانت في حاجةٍ إلى الشريط. وثقتُ أنَّه لن يأخذه إلى ووك. فكَّرتُ في أنَّ هناك نموذجين من البشر في هذا العالم، النوع الذي يتَّصل بالشرطة، والنوع الذي لا يفعل ذلك.

حين قُرع الجرس، شاهدتِ الأطفال الآخرين وهم يدخلون، وأطفالاً يلعبون الكرة في محاولةٍ أخيرةٍ لإحراز هدفٍ، وكاسيدي إيفانز تقود زمرتها.

تسلَّلتُ داتشس بمحاذاة المبنى الرئيس، ثمَّ ركضت عبر موقف السيارات، وانسلَّت بخفَّة بين سيارات الفورد، والفولفو، والنيسان. سوف يُكشَف أمرُ هروبها، لا شكَّ في ذلك، لكنَّها ستخبر أمها أنَّها كانت مريضةً؛ الدورة الشهرية، وهو أمرٌ لا تتشدَّد المدرسة حياله. مشَّت بسرعةٍ كبيرةٍ، وهي تشعر بعيون كلِّ مَنْ مرَّت بهم مسلَّطةٍ عليها. تجنَّبتِ المرور في مين خشية أن يكون ووك يراقب خارج مركز الشرطة. كان الطقس حارّاً، حارّاً جداً لدرجة أنَّها تكاد لا تستطيع التنفُّس. تصبَّبت عرقاً، وتبلَّل قميصها بالكامل.

عندما وصلتُ إلى فورتونا، عثرتُ على المنزل القديم، ولمرّة كانت سعيدةً لأنها لم تنجز الأمور على النحو الأمثل، إذ لم تخصص وقتاً لإتلاف الشريط.

لكنّها حدّقتُ بعد ذلك في الفناء، كل القمامة كانت قد أُزيلتْ، وشاحنة القمامة قد أتت بالفعل. اختفى الشريط.

أخذتُ تنظر أعلى وأسفل، وتتنفس بصعوبةٍ كبيرة، كأنّ أملها الأخير قد تخلّى عنها.

أمضتُ فترة الظهر جالسةً على الشاطئ تتفرج على المحيط. أمسكتُ بطنها، كان الألم شديداً ومتواصلاً، وقد لازمها طيلة الطريق في أثناء عودتها لاصطحاب روبن.

ظلاً يتكلّم طوال الطريق إلى المنزل، عن عيد ميلاده، عن كونه في السادسة وما يقتضيه ذلك. طالب بنسخة له من مفتاح البيت، ابتسمتُ ومسّدتُ شعره، كان عقلها في مكانٍ آخر، مكان تمنّت ألاّ يتبعها إليه أبداً.

في المنزل الفارغ، أعدّدتُ بعض البيض المخفوق، وأكلا معاً أمام التلفزيون. وعند المغيب اصططحبته إلى السرير، وقرأتُ له. - «هل يمكننا مرّة أن نتناول البيض الأخضر⁽¹⁾؟».

- «بالأكيد».

- «مع لحم الخنزير؟».

قبّلتُ رأسه، وأطفأتُ مصباحه، ثمّ أغمضتُ عينيها لحظةً لتستيقظ بعدها على ظلام دامس. مشّت عبر المنزل، أضاءت مصباحاً، وسمعتُ موسيقاً قادمةً من الخارج.

(1) البيض الأخضر: نسبةً إلى كتاب الأطفال الشهير البيض الأخضر ولحم الخنزير لدكتور سوس - المترجم.

عثرْتُ داتشس على ستار جالسةً على المصطبة، كان المقعد العتيق بحاجةً إلى طلاءٍ. غمر القمر والدتها بنوره بينما هي تعزف أغنيتهما على الغيتار القديم. أغمضتُ عينيها، لم تُسَعِفْها الكلمات. كان عليها أن تخبر والدتها بما فعلته، بأنّها أخذت عود ثقابٍ، وأحرقَت ذاك الجسر الذي أبقاهم خارج المياه المضطربة. الآن هم في المياه الضحلة، لكنَّ الأعماق ستأتي إليهم، سبتلعهم نزولاً إلى أغوارٍ لا يمكن حتى لضوء القمر أن يسبرها.

تقدّمتُ داتشس بضع خطواتٍ بقدمين حافيتين. صوتٌ رقيقٌ يداعب الأوتار الناعمة. «غنيّ معي».

- «لا».

انزلقت داتشس مقربةً حتى استقرَّ رأسها على كتف والدتها. بغض النظر عمّا فعلته، بغض النظر عن كونها قاسيةً وخارجةً عن القانون، كانت تحتاج إلى والدتها.

- «لماذا تبكين حين تغني؟»، سألتُ داتشس.

- «آسفة».

- «لا تتأسفي».

- «اتّصلتُ بذلك الرجل من الحانة، ذاك الذي يعمل في مجال الموسيقى. أراد أن نلتقي ونأخذ مشروباً».

- «هل ذهبت؟».

أومأت ستار ببطءٍ. «الرجال».

- «ما الذي حدث الليلة الماضية؟». لم تكن تسأل في

الغالب، لكنّها في هذه المرة كانت في حاجةٍ إلى الوضوح.

- «بعض الناس يفقدون صوابهم عندما يشربون». نظرت ستار

نحو المنزل المجاور.

- «براندون روك؟ لقد ضربكِ؟».

- «كان حادثاً» .
- «لم يستطع تقبُّل الإجابة بـ'لا'» .
- هزَّت ستار رأسها .
- راقبت داتشس الأشجار السامقة تتمايل تحت سماء الليل . «إذاً دارك لم يفعل شيئاً هذه المرَّة» .
- «آخر شيءٍ أتذكره أنَّه كان يساعدني في ركوب السيارة» .
- كان إدراك ذلك قاسياً ، ولبعض الوقت عجزت تماماً عن الكلام . ومن ثمَّ فكَّرت في دارك ، في يديه على جسد ستار . صرَّت على أسنانها ، وتماسكت . الأمور السيئة تحدث للرجال السيئين .
- «تعرفين أنَّه عيد ميلاد روبن ، هذا الصباح» .
- بدت ستار حزينَّة لحظتها ، ليست مكسورةً ، بل قريبةً من ذلك ، كانت شفتها ما تزال متورِّمةً بعض الشيء ، وعينها ما تزال داكنة اللون . إنَّها تلك الهيئة التي تجعل الألم أسوأ . لم تكن هناك من هديَّة لأخيها ، لم تتذكَّر أمُّها الأمر برمته .
- «لقد فعلتُ شيئاً سيِّئاً يا ماما» .
- «كلُّنا نفعل أشياء سيِّئة» .
- «لا أعتقد أنَّ في وسعي إصلاحه» .
- أغمضت ستار عينيها ، وهي ما زالت تعزف وتغنِّي بينما اتَّكأت عليها ابنتها برفق .
- أرادت داتشس بشدَّة أن تنضمَّ إليها ، لكنَّ صوتها بدأ يتكسر .
- «سوف أحملك ، هذا ما تفعله الأمَّهات» .
- لم تبك داتشس يوماً ، لكنَّها كانت على وشك البكاء آنذاك .

10

كابد ووك ذلّ السقوط وحيداً.

نعمة صغيرة. في دقيقة كان يسير، وفي الدقيقة التالية كان على ظهره ينظر نحو السماء. كأنّ رجله اليسرى غادرت من تحته فحسب.

جلس داخل الكروزر في ساحة فانكور هيل. قالت كندريك إنه قد يواجه مشاكل في التوازن، ومع ذلك فإنّ فقدان السيطرة ذاك كان مخيفاً.

كان الراديو واطئاً، تشويش وكلام، حالة 11-2 في برونسون، حالة 54-11 في سان لويس. كان هناك فنجان قهوة من مطعم روزي، وغلاف شطيرة برغر على أرضية السيارة. كان بطنه يضغط على القميص حيث أراح يديه. نوبة عمل بطيئة ومملّة. قاد باتجاه فنسنت، كان المنزل يُرمّم شيئاً فشيئاً. كانت المصاريع وأطر الأبواب والنوافذ قد أُزيلت، وجُردت من قشرتها العتيقة، وباتت جاهزة للطلاء.

بحث عن نجمة الليل، وأسهب التفكير في المرض، شعر به في عظامه، ودمه، وعقله. المشابك العصبية تحترق ببطء، الاستجابة لم تُفقد لكنها تتأخر.

قبل منتصف الليل بقليل، أيقظه الراديو من نوم خفيف.
طريق آيفي رانش.

لعق جفاف شفثيه.

ثمَّ جاء النداء مرَّةً أخرى.

شغل المحرِّك والأضواء، أضواء الشارع أمامه وهو يتَّجه عائداً
إلى كيب هيفن. لم يعطِ المتَّصل أيَّة تفاصيل، عليهم الحضور فقط.
صلَّى ووك من أجل ألا يكون هناك خطبٌ جللٌ، ربَّما تكون ستار
سكِّرى مجدِّداً فحسب.

مرَّ عبر أديسون، الجانب الهادئ من مين، لا أضواء على
الإطلاق.

أبطأ لدى وصوله إلى آيفي رانش، لم يرَ شيئاً سوى بيوتٍ
نائمة، فتنفَّس الصعداء.

وصل إلى الرصيف خارج منزلها. ظلَّ هادئاً حتى رأى باب
الشارع مفتوحاً، عندها راوده ذلك الإحساس، كأنَّ هناك سكينا في
أحشائه، وكأنَّ الهواء أُفْرِغ من رثتيه. خرج من السيارة وسحب
مسدَّسه، الأمر الذي لم يفعله منذ وقت طويل جداً.

نظرة سريعة على منزل براندون روك، ثمَّ على منزل ميلتون، لم
تكن هناك أيُّ علاماتٍ حياةٍ. صوت بومةٍ، حاوية قمامة تتدحرج
وتسقط بعيداً، ربَّما كانت حيوانات الراكون. قطع ووك الشرفة
بخطوة واحدة، ودفع الباب.

الرواق أمامه، طاولة جانبية مع دليل هاتفٍ. أحذية رياضية
مصفوفة بطريقة فوضوية. رسومات على الحائط، أعمالٌ فنيَّة أنجزها
روبن، وعلَّقَتْها داتشس.

كانت المرأة متصدِّعة، رأى فيها عينيهِ، مفتوحتين على

أُتساعهما، ومذعورتين. قبض على المسدّس بإحكام، نزع عتلة الأمان، وفكّر في أن يُطلق نداء لكنّه بقي صامتاً.

شق طريقه عبر الرواق، مرّ بغرفتي النوم، أبواب مفتوحة على ملابس مبعثرة، وطاولة تبرّج مقلوبة.

في الحمّام، كان الماء يجري ضعيفاً من الحنفية، الحوض ممتلئ والماء يفيض منسكباً منه. أغلق الصنبور بعد أن غاص حذاؤه في الحوض.

في المطبخ، لا شيء سوى عقرب الثواني في الساعة يكسر الصمت. مسح المكان برويّة، الفوضى نفسها التي لطالما كانت موجودة هناك، سكين زبدية، أطباق في المغسلة؛ كانت داتشس ستعامل مع ذلك، لطالما فعلت.

لم ينتبه للرجل في بداية الأمر. كان يجلس عند الطاولة الصغيرة، رافعاً يديه، كأنّه يقول إنه لا ينوي أيّ ضررٍ على الإطلاق.

- «ينبغي عليك الذهاب إلى غرفة المعيشة»، قال فنسنت.

لاحظ ووك العرق على رأسه، كما أدرك أنّ مسدّسه كان مصوّباً على صديق طفولته، لكنّه لم يخفضه.

- «ماذا فعلت؟».

- «لقد تأخّرت كثيراً كي تتمكن من تغيير الأمور يا ووك. لكنّ عليك أن تذهب وتُجري اتّصالاتك. سأكون هنا. لن أتحرك البتّة». ارتعش المسدّس في يده.

- «ينبغي عليك أن تقيّدني. هذا ما هو متوقّع. عليك أن تتصرف حيال هذا بالطريقة الصحيحة. إن رميت إليّ الأصفاد فسوف أفعل ذلك بنفسِي».

ووك، لقد كان فمه جافاً لدرجة أنه كاد لا يستطيع الكلام. «أنا لا —».

- «مرّز لي الأصفاد، أيّها الرئيس ووكر».

الرئيس. لقد كان شرطياً. مدّ ووك يده إلى الأصفاد في حزامه، وألقى بها على الطاولة.

انتقل إلى غرفة المعيشة.

العرق ينزف إلى داخل عينيه.

أطلّ المشهد عليه.

- «اللعة، ستار». ركض بسرعة وجثا على ركبتيه.

- «أوه، يا يسوع، ستار».

كانت مستلقية على ظهرها. للحظة اعتقد أنها فاقدة الوعي، الأمر الذي حدث من قبل. لكنّه سقط إلى الخلف حين انتبه لحقيقة الوضع، وشمّ مجدداً.

دم في كلّ مكان، الكثير منه حتى إنه فقد السيطرة على جهازه اللاسلكي إذ انزلقت أصابعه بينما كان يحاول نقر الأزرار.

- «يا إلهي». كان يتحسّس ثيابها بطريقة خرقاء محاولاً أن يستوعب الأمر، قبل أن يعثر على الجرح، الفجوة، اللحم الممزّق فوق قلبها.

مسّد وجهها مبعداً الشعر عنه، كان ممتنعاً، غائباً، راحلاً. حاول أن يعثر على نبض، لم يجد شيئاً لكنّه بدأ في إجراء الإنعاش القلبي الرئوي. نظر حوله فيما كان يقوم بذلك. مصباح ملقّى على الأرض، صورة فوق السجادة، خزانة كتب صغيرة مقلوبة رأساً على عقب.

تسلّقت بقع الدم الجدار.

- «داتشس»، نادى.

استمرّ في محاولة الإنعاش، كان يتعرّق بشدّة، وعضلاته تحترق.

وصل المسعفون ورجال الشرطة، وأبعدوه برفق. كان من الواضح أنّها ميتة.

سمع صراخاً قادماً من المطبخ، كان فنست على الأرض، ومن ثمّ اقتيدَ خارجاً.

وقف ووك، مذهولاً، العالم يدور في الاتجاه الخاطئ فيما كان هو يحثّ السير نحو الشارع حيث تجمّع الجيران. رأى كلّ شيء باللونين الأحمر والأزرق لدى جلوسه على الشرفة ليلتقط أنفاسه. فرك رأسه وعينيّه، وضرب صدره عدّة مراتٍ ليتأكّد أنّ الأمر حقيقيّ.

أخذوا فنست قبل أن يتمكّن من الوصول إلى السيارة، هرّول قليلاً لكنّ أنفاسه انقطعت وسقط على ركبتيه، كل سنةٍ من سنوات حياته تفكّكت وانهارت أمامه.

استلم فريق زمام الأمور منه، قاموا بتطويق المنطقة وتحديدها بالشريط العازل، وأبعدوا الناس مسافةً كافيةً. عربات أخبار، أضواء ومراسلون. عربة الوسائل التقنية مركونةً على الرصيف. كان مسرح جريمة، وقد سيطروا عليه جيّداً، كان الأمر كذلك إلى أن سمع ووك ضجيجاً في الداخل.

وقف وهو ما يزال مذهولاً، شقّ طريقه عبر الشريط العازل، ثم داخل المنزل رأى بويد من سلطة الولاية، واثنين من رجال شرطة مقاطعة سوتلر.

- «ما الأمر؟».

استدار الشرطي وعينه تشتعلان غضباً. «الطفل . . . الصبي».
تراجع ووك حتى ارتطم بالحائط، شعر بساقيه تعجزان عن
حملة، وحاول الاستعداد لما سيراه حين ينكشف أمامه مجال
الرؤية.

أبعدهم بويد بيده قليلاً.
ثم رآه ووك، كان يحدّق في الفراغ، وبطانية تلفّ كتفيه.
- «هل هو بخير؟» قال ووك.
تفحّصه بويد بعناية. «كان باب غرفة النوم مقفلاً. أعتقد أنّه
كان نائماً».
جثا ووك قرب الصبي، الذي كان ينظر أينما كان إلّا إليه.
«روبن، أين هي شقيقتك؟».

قطعت داتشس ثلاثة أميالٍ على درّاجتها، ذرعت الشوارع
المظلمة التي تقود نحو أطراف بلديتها. حبست أنفاسها لدى اقتراب
السيارات منها وقد عثمت أضواءها الأمامية أو شغلت الكشّافات أو
أطلقت الأبواق. كان يمكنها أن تسلك الطرقات الجميلة، كان ذلك
سيكلّفها ميلاً إضافياً، وقد كانت متعبة بما فيه الكفاية.
اليافطة المرورية في بينساكولا، إشارة زرقاء على أعمدة رمادية
تشير إلى محطة وقود. هناك أسندت درّاجتها على صندوق فحم،
وشقّت طريقها عبر الساحة. كانت هناك سيارة قديمة مركونة بشكلٍ
سيئٍ، وكان مالکها يمد أنبوب المضخة نحوها.
سوف يستيقظ روبن وقد بلغ السادسة من عمره، ولن تجعله
يستيقظ على لا شيء.
أحد عشر دولاراً، أخذتها من حقيبة ستار. كرهتها داتشس

معظم الوقت، أحبَّتها بين الحين والآخر، وكانت تحتاج إليها طوال الوقت.

داخل محطة الوقود، وقف شرطيٌّ عند آلة القهوة، بنطالٌ أسود وربطة عنقٍ سوداء، شاربٌ مشدَّب، وسترةٌ واقيةٌ على صدره. رمقها بنظرة فتجاهلته، ثم بدأ مذياعه يقطع، رمى عندئذٍ بضعة دولاراتٍ على المنضدة واتَّجه خارجاً.

مشَّت في أروقة السوبرماركت، مرَّت بالثلاجات الضخمة ذات اللوحات الإعلانِية عن البيرة والمشروبات الغازية ومشروبات الطاقة.

لم يكن هناك كعكات عيدٍ، بل مجرد رزم من الكعك المكوَّب، ذاك النوع الذي تعلوه زينةٌ زهرية اللون. سيثير ذلك حنق روبن، داخلياً على الأقل، هو لن يقول شيئاً يمكن أن يصنَّف جحوداً.

التقطت علبةً وعثرت على بعض الشموع. تبقت ستة دولارات. كان هناك فتىٌ خلف منضدة البيع، في عمر التاسعة عشرة ربَّما، بوجهٍ يعلوه حُبُّ الشباب، والكثير من الأخاديد.

- «هل لديك ألعاب؟».

أشار إلى الرف حيث قبعَت أكثر المجموعات البلاستيكية الباعثة على الأسف التي كانت داتشس قد رأتها في حياتها. تفحصت بعناية أدوات السحر، أرنباً محشواً، مجموعةً من عصابات الشعر الملونة، وشخصيةٌ تشبه كابتن أمريكا إلى حدٍ كبيرٍ وفاضح. أمسكتها بإحكام، لقد كانت كنزاً. كانت أيضاً بسبعة دولارات.

أخذت الدمية، وأدارت ظهرها للكعكات، مدركةٌ أنَّ لديها العلبة الوحيدة التي يمكنها العبور كهديَّةٍ مميزةٍ، وشتت أمَّها مرةً أخرى. وقفت تحت شريط الضوء الأصفر، كان ضوءاً شاحباً

لدرجة أنه استنزف طاقتها على القتال. فكّرت في سرقة الشموع لكنّها رأت الفتى خلف المنضدة يراقبها، كأنّه يستطيع قراءة تلافيف عقلها الملوّعة. ضغطت على رزمة الكعك المكوّب بما يكفي لتخريبها.

عند منضدة البيع جادلت في الأمر، وأظهرت للفتى الكعكة التالفة، وطلبت منه أن يقطع دولاراً من الثمن. في البداية رفض، ثم بدأ الصف بالتزايد فأخذ منها المال عابساً.

ربطت حقيبتها فوق مقود دراجتها، وانطلقت نحو المنزل، محرّكةً الدواسات ببطءٍ بينما مرّت بها سيارة شرطيٍّ أخرى، وأضاءت صفارات الإنذار الليل الدافئ.

لاحقاً، عندما عرفت، كانت ستنظر إلى الوراء، إلى تلك الجولة الأخيرة وتمنّت لو أنها امتلأت بإحساسها كما يجب، الليلة الأخيرة من أي شيءٍ على الإطلاق. تمنّت لو أنّها سلكت الطريق الطويل، على طول الساحل، وانتبهت للمياه السرمدية، وأغاني الليل، والتوهج المثالي لكل مصباح في مين. كانت تمنى لو أخذت نفساً عميقاً، وحبسته، تلك اللحظة الأخيرة من حياتها الطبيعية؛ لأنّها إنّ كانت سيّئة من قبل، وقد كانت كذلك في الغالب، إلّا أنّ الأمر كان مختلفاً كلياً عندما قفلت عائدةً إلى حيّها، وشاهدت الجيران يتفرّقون أمام دراجتها، كأنّها أمرتهم بذلك، كأنّها شديدة البأس والسطوة.

عندما رأت سيارات الشرطة، أخبرتها غريزتها الأولية أن تنعطف، فقبل ساعة من كلّ هذا، لمّا أخذت درّاجتها وقادتها نزولاً بجانب البيت، توقفت خارج منزل براندون روك. عثرت على حجرٍ حادّ بما فيه الكفاية، مشت عبر الممرّ المخصص لسيارته، رفعت غطاء المويستانع، وأخذت تسحب طرف الحجر المدبّب أسفل الباب

والمِصَدُّ، بقوة وعمقٍ إلى أن تمكَّنت من رؤية اللون الفضي أسفل
الطلاء. لقد ضرب والدتها. اللعنة عليه.

لكن هذا كان عدداً كبيراً من السيارات، والكثير من الجلبة،
أكثر من ووك ومن تلك النظرة التي رمقها بها.

أسقطت دراجتها، وأوقعت حقيبتها، وركلت شرطياً عندما
حاول التحرك أمامها. تراجع مبتعداً، كانت تعرف أن هذا ليس
وضعاً طبيعياً.

ركضت إلى المنزل، أزاحت الشريط العازل، ظهر أمامها
شرطي آخر، شتمتهم جميعاً بكل ما عرفته من كلماتٍ بذيئة.

وجدت أخاها فهدأت بعض الشيء. كان ووك يراقب فحسب،
فمه بلا تعابير لكنَّ عينيه قالتا كلَّ شيء، كلَّ شيء. لم يسمحوا لها
بالدخول إلى غرفة المعيشة، بغضَّ النظر عن كمِّية تلويحها بذراعيها
نحو ووك، وكيف نظرت إليه محاولةً لفت انتباهه، والكلمات التي
استخدمتها، وصراخ شقيقها الباعث على الذعر.

حملها ووك نصف حملٍ إلى الفناء، حيث لا يتمكن الناس من
رؤيتها. وضعها فوق التراب، نعتته بابن العاهرة، وبجانبيهما كان
روبن يبكي كأنَّ الغد لن يحلَّ مرَّةً أخرى.

غرباء في كل مكان، رجالٌ بالزي الرسمي، رجالٌ يرتدون
بِزَاتٍ.

عندما اعتقدوا أنها هدأت، انطلقت، ركضت وابتعدت عنهم.
كانت سريعةً بما يكفي لتتجاوزهم. عند الباب وإلى الداخل، وعبر
منزلٍ تقلَّص إلى مشهدٍ واحدٍ.

رأتها.

رأت أمها.

لم تقاوم عندما التفت الذراع حولها، وتوقَّفت عن الرفس

والشتم، بل سمحت لـووك أن يحملها فحسب مثل الطفلة التي كانت عليها.

- «يمكنكما أنتِ وروبن المكوث عندي الليلة».

أمسك روبن يدها بقوةٍ إذ مضياً نحو سيارة ووك الكروزر. كان الجيران يحدقون، سَلَطْتُ كاميرا تلفزيونيةً ضوءها عليهم، لم يكن لدى داتشس القوة لتتنظر. رأت ميلتون عند نافذته، والتقت عيونهما قبل أن يستدير ويعود إلى الظل.

التقطتِ الحقيبة من الفناء، رأت داخلها الكعك، والدمية، والشموع.

جلسوا هناك وقتاً طويلاً، مرت الساعات ثقيلةً جداً على روبن، إلى أن غرق في نومٍ مضطربٍ بجانبها، يئنُّ، وينادي وهي تمسّد شعره.

قاد ووك سيارته ببطءٍ خارج شارعهم، بينما داتشس تراقب الضوء الساطع الذي كان منزلها، المشهد المعتم الذي كان حياتها.

القسم الثاني

سَمَاءٌ شَاسِعَةٌ

قاد ووك مع ذراع تحت الشمس فيما السهول اللامتناهية تصعد وتهبط عبر المروج والسهوب والمراعي . شرقاً كان النهر الذي ينساب عبر أربع ولاياتٍ قبل أن يصبَّ في المحيط الهادئ .

أبقى المذيع مُطفأً . أميالٌ وأميالٌ من لا شيءٍ سوى أزيز صراصير الليل ، ومرورٍ عرَضِيٍّ لشاحناتٍ بسائقينَ عراةِ الصدور ، بعضهم أخفض رأسه لدى مروره ، وبعضهم الآخر نظر أمامه مباشرةً كأنَّ لديهم الكثير لإخفائه . حافظ ووك على سرعةٍ منخفضةٍ . هو لم يَذُقْ طعم النوم منذ وقتٍ طويلٍ . كانوا قد قضوا الليلة في نُزُلٍ ، كانت الغرفتان متّصلتين ببابٍ تركه ووك مشقوقاً طوال الليل . عرض أن يذهب معهما بالطائرة ، لكنَّ الصبي كان خائفاً ، الأمر الذي أسعد ووك ، فهو لم يكن يحبُّ الطيران أبداً .

جلسا في الخلف ، كلاهما يحدِّقُ في الأرض كأنَّها شيءٌ غريبٌ بالكامل . لم يقل روبن أيَّ شيءٍ عن تلك الليلة ، ليس لووك أو لشقيقته ، أو لرجال الشرطة الخاصّة الذين أتوا . مسلّحين بالتعاطف ، أنزلوه في غرفةٍ مليئةٍ بألوان الباستيل ، واللوحات الجدارية ، وحيواناتٍ بوجوه مبتسمةٍ . أعطوه ورقةً وأقلاماً ، تكلّموا حوله وفي أعينهم نظرةٌ غائبةٌ ، كأنَّه كان مجموعة قطعٍ هشّةٍ متناثرةٍ أبعد من أن

تكون كُلاًّ متكاملًا. كانت شقيقته تراقب غير متأثرة، ذراعاها مطويتان إلى صدرها، وأنفها متغضّضٌ كأنّها لم تُبالِ كثيراً بالهراء الذي كانوا يهذرون به.

- «أنتما بخير هناك في الخلف؟».

لم يتلقَ جواباً.

مرّوا ببلداتٍ، أبراج خزانات مياهٍ، سقالاتٍ صدئةٍ. لخمسين ميلاً رافقتهم سكة الحديد على طول الطريق، نمت حشائش بنية فوق عوارض السكة المحترقة كحال القطار الأخير الذي غادر المحطة قبل دهرٍ كاملٍ.

خَفَّفَ سرعته بالقرب من كنيسةٍ ميثوديةٍ.

- «أنتما جائعان؟». كان يعرف أنّهما لن يجيبا. كانت رحلةً طويلةً من ألف ميلٍ. الامتداد الملتهب لصحراء نيفادا، على طريق 80 السريع الذي لا ينتهي، الغبار جافٌ مثل الهواء. لقد استغرق العالم دهرًا كي يتغيّر. من البرتقالي إلى الأخضر. كانت أيداهو إلى الأعلى قليلاً، ويلوستون ووايومنغ بعدها مباشرةً. أثارت هذه الاهتمامات الجغرافية فضول داتشس في وقتٍ ما.

في توين ريفر ميلز توقفوا عند حافلة طعام.

من المقصورة المتهالكة طلب ووك البرغر ومخفوق الحليب للجميع، وجلسوا يراقبون محطة وقودٍ على الجانب الآخر من الطريق. كانت ثمة عائلةٌ شابةٌ مع شاحنة نقل الأثاث U-Haul، كانت الفتاة الصغيرة عبارةً عن فوضى من دبق الشوكولا، والأُم تلاحقها بفوطيّة مبلّلةٍ وابتسامةٍ.

توقّف روبن عن الأكل وأخذ يتفرّج. وضع ووك يداً على كتفه فأطرق الصبي محدّقاً في مخفوق الحليب.

- «سيكون كل شيءٍ على ما يُرام».

- «كيف اكتشفت ذلك؟» رشقته داتشس سريعاً كأنها كانت تتوقع شيئاً ما.

- «أنا أذكر جدك، كنتُ صغيراً حينذاك. إنه رجلٌ طيبٌ. سمعتُ أنه يعيش في مزرعةٍ تبلغ مساحتها مئة فدانٍ، قد يعجبكما الأمر. هواءٌ نظيفٌ وكلُّ ذلك». لم يكن يعرف ما الذي يقوله، تمنى لو أنه استطاع التوقُّف فحسب. «تربةٌ خصبةٌ». لقد زاد الوضع سوءاً فقط.

قلبت داتشس عينيها.

- «هل تحدّثتَ إلى فنسنت كينغ؟» قالت من دون أن ترفع بصرها.

مسح ووك شفّتيه بمنديلٍ. «أنا... سوف أساعد شرطة الولاية».

كانوا قد أزاحوا ووك من القضية في الصباح التالي، وتركوه لترتيب حماية مسرح الجريمة إلى أن ينتهوا. يومان. الشاحنات التقنية والأشخاص المشغولون. نسّق ووك مع السكان المحليين، وأغلق نصف الشارع. انتقلوا بعدها إلى منزل آل كينغ. مرّةً أخرى تُرك ووك لمهمّة الحماية. عدّوه شرطيّ بلدةٍ صغيرةٍ جداً، ودائرة شرطة كيب صغيرةٍ جداً على التعامل مع الأمر. هو لم يجادل.

- «سوف يرسلونه إلى حتفه».

نظر روبن إلى أخته، عيناه متعبتان لكنّهما حادثتان، مثل آخر جمرات نارٍ محتضرةٍ.

- «داتشس —».

- «هذا ما سوف يفعلونه. بالنسبة إلى رجلٍ مثله ليس هناك خطُّ رجعةٍ. إنه إطلاق نارٍ على امرأةٍ غير مسلّحةٍ. هل تؤمن بمبدأ العين بالعين يا ووك؟».

- «لا أعرف».

غمّست داتشس قطعة بطاطس مقلية في الكاتشاب خاصتها، وهزّت رأسها كأنّ أملها قد خاب به. لقد تحدّثت عن فنسنت معظم الوقت، الرجل الذي أردى والدتها وترك شقيقها مختبئاً في الخزانة. - «كلّ شطيرتك البرغر»، قالت داتشس لروبن، ففعل ذلك. «والخضار أيضاً».

- «لكن —».

نظرت إليه نظرة حازمة.

التقط ورقة خس، وقضم طرفها.

ساعة أخرى على الطريق، رأى ووك بعدها لافتة ديرمان. ربع ميل من الأسلاك الشائكة أبقت الناس داخل حيوات متشظية وخارجها.

حارس في برج، عينان تحت قبعة عريضة الحواف، ويد على البندقية. في المرأة رأى ووك أنّه قد بات مذيلاً بعمود غبار كثيف، كأنّه أثار حفيظة السكون.

نام روبن في مقعده، كانت عضلات وجهه متشنجة كأنّ أحلامه تسير جنباً إلى جنب مع أيّامه.

- «ذاك سجن»، قالت داتشس.

- «إنّه كذلك».

- «من النوع الذي وضعوا فنسنت كينغ فيه».

- «نعم».

- «هل سيتعرّض للضرب هناك؟».

- «السجن ليس مكاناً لطيفاً».

- «ربّما سوف يتعرّض للاغتصاب».

- «لا يجدر بكِ التحدُّث هكذا».

- «اغرب عني، ووك».

لقد كان أكثر من متفهِّم لهذه الكراهية، لكنَّه كان قلقاً ممَّا ستفعله بها، ذاك الجمر أسفل الرماد، أخفُّ نسيمٍ سيكون كفيلاً بإضرام النار به.

- «آمل أنَّه سيلقى ضرباً مبرحاً. أتعرف، حين أستلقي في الليل أراه، أرى وجهه. آمل أن يتعرض للضرب بشدَّةٍ حتى لا يتبقَّى منه شيءٌ».

دفع نفسه إلى الخلف في مقعده، ألمٌ في العظام، ورعشةٌ في اليدين. في ذلك الصباح كان عاجزاً عن الحركة لدرجة أنَّه شعر بالقلق من أنَّ الأمر لن يمرَّ، وقد تضطر الفتاة لطلب المساعدة. حاول أن يبسط التفكير في الأمر، ألمٌ في كتفه، مجرد ألمٍ في كتفه. - «أنا قلقةٌ من أنَّني لن أتدَّكر كيب هيفن»، قالت للمناظر الطبيعية التي كانوا يمرُّون بها.

- «يمكنني أن أكتب إليك. يمكنني أن أرسل صوراً».

- «هي لم تعد ديارنا الآن. وحيث نحن ذاهبون ليست الديار أيضاً. لقد سلب كلَّ شيء».

- «سيكون...» أسكت نفسه.

استدارت في مقعدها، ظلَّت تنفِّرج على ديرمان حتى تلاشى في الأفق، ثمَّ أغمضت عينيها على ووك، والعالم المتغيَّر.

كانت الحرارة ترتفع في موجاتٍ متتاليةٍ قبيل ساعةٍ من أكثر أوقات اليوم حرّاً، بينما كان الطفلان كلاهما غارقين في النوم. عينا داتشس غائرتان، منتفختان جرَّاء الإعياء حيث إنَّها لم تبك. كانت

ترتدي سروالاً قصيراً، يكشف عن ركبتين مخدوشتين، وفخذين شاحبين .

لمئة ميلٍ كانت الأرض تهبط منخفضةً، وما كان قاحلاً هو الآن خصبٌ، والعطش يُروى من جهة الغرب التي تأتي بالفرج عبر المياه الوفيرة. تُطلُّ مونتانا مع استقبالٍ صغيرٍ، مجرد لافتةٍ وكلمات ترحيبٍ بالأزرق والأحمر والأصفر. فرك ووك رقبتَه وتثائب، وحكٌ وجنتيه. هو لم يأكل كثيراً منذ ذلك اليوم. وقد خسر خمسة أرطالٍ من وزنه.

ساعةٌ أخرى، ثمَّ التفَّ عند نهر ميسوري. كانت هيلينا وراءهم، السماء تبدو كلوحةٍ قماشيةٍ كبيرةٍ جداً، لكن حتى إبداع الخالق كان غير قادرٍ على صرف الانتباه عن كآبة تلك الظهيرة. طرقاتٌ وطرقاتٌ، ومن ثمَّ دربٌ واحدٌ، بدتِ المزرعة كأنها لوحةٌ مرسومةٌ بضربات ريشةٍ دقيقةٍ، مندمجةٌ، ومتداخلةٌ مع المشهد الطبيعي، ثلاث حظائر طينيةٍ حمراء بقببٍ بيضاء، صومعتان متشابكتان مع شجر الأرز. كان المنزل واسعاً، التفَّتْ حوله الشرفة مع مقاعدٍ وأرجوحةٍ وخشبٍ ملتوٍ جميلٍ. انتبه ووك إليها وقد باتت تراقب الآن، تريد أن تستفسر ولكنها تُبقي فمها مقللاً.

- «هذه هي»، قال موضحاً.

- «هل يوجد أناسٌ في أي مكانٍ هنا؟».

- «كوبر فولز، على بعد أميالٍ قليلةٍ فقط. لديهم دار سينما».

لقد تحقَّق من كل شيءٍ الليلة الماضية.

تشابكت أشجار الصمغ من الجانبين، وألقت ظلالها عليهم، سياجٌ أبيضٌ بحاجةٍ إلى الطلاء. تبعَ انعطافة السياج حتى لمح هال، واقفاً يراقب بثباتٍ، بلا أدنى ابتسامةٍ أو تلويحةٍ أو أي شيءٍ على الإطلاق.

رفعت داتشس رأسها فوق كتف ووك وهي تزلق حزام الأمان .
عندما توقفوا ، قفز ووك من السيارة بينما داتشس لم تفعل .
- «هال» ، قال ووك ، ثم تقدم نحوه ومد يده .

هزّها هال بقوة ، بيده الغليظة الخشنة . كانت له عينان زرقاوان
تزدادان تألقاً مع تقدم العمر لكن دون أي ظلّ لابتسامية ، إلى أن
خرجت حفيدته من الكروزر ، وتسمرت ثابتة في مكانها ، كأنّها نسخة
عن أمها .

كان ووك يراقب كليهما ، يتطلعان أحدهما إلى الآخر ،
ويتبادلان إطلاق الأحكام بصمت . حاول أن يدعوها للاقترب ،
لكن هال هزّ رأسه . سوف تأتي حين تكون جاهزة .
- «كانت رحلة طويلة . روبن نائم ، لم أعرف إن كان علي
إيقاظه» .

- «سوف يستيقظ مبكراً بما فيه الكفاية غداً . للمزرعة ساعاتها
الخاصّة» .

تبع ووك بهال حتى المنزل .

كان الرجل العجوز طويل القامة ، مفتول العضلات ، صرامته
تنضح مع كل خطوة . مشى رافعاً رأسه ، وذقنه إلى الأعلى قليلاً ؛
هذه أرضي .

في الخلف ، تجوّلت داتشس ، تنظر إلى الامتداد الشاسع للعالم
حولها ، حياة جديدة تنضج وتنضج بالفعل . انحنى ولمست
العشب ، شقّت طريقها نحو الحظيرة ، وتمعنّت في الظلمة الرطبة .
كانت الرائحة قوية ، حيوانات وقذارة لكنها لم تستدرّ مبتعدة .

أحضر هال بيرة باردة لم يكن في وسع ووك أن يرفضها حتّى
وهو يرتدي زيّه الرسمي . جلسا على كراسيّ خشبيّة صلبة .

- «لقد مضى وقتٌ طويلٌ»، قال ووك.

- «بالفعل».

مونتانا، إنها لوحةٌ لمنظرٍ طبيعيٍّ، ذاك النوع من الرحابة الذي كان كثيراً جداً ليتمكّن المرء من استيعابه وتنشّقه بالكامل.

- «يا لها من فوضى»، قال هال. كان يرتدي قميصاً منقوشاً، أكمامه ملفوفةٌ فوق ساعديه.

كلمة فوضى لم تكن صحيحةً، لكنها كانت أقرب، وأنسب من أي كلمةٍ أخرى.

- «هل رأيت ما حدث؟».

نظر ووك إلى هال، لكن الرجل العجوز ظل يحدق في امتداد الأرض أمامه. «أعتقد ذلك». بعد حدوثه. ركضت نحو رجال الشرطة، وتمكّنت من دخول غرفة المعيشة.

قطّقت هال أصابعه، يدان كثيرتا الندوب، صوتٌ أجشٌّ. «ماذا عن الصبي؟».

- «لا». ربما سمع شيئاً، صراخاً، طلقاتٍ ناريةً، لن يتحدث عن الأمر. كان محبوساً في غرفة نومه. لقد رأى أحداً بضع مرّاتٍ، طبيباً. ينبغي أن يرى شخصاً هنا، يمكنني أن أصلك به، روبن يحتاج إلى ذلك. ربما يتذكر، وربّما يكون من الأفضل ألا يفعل».

شرب هال نصف الزجاجاة برشفةٍ واحدةٍ. كان يرتدي ساعةً بسيطةً حول معصمٍ ثخينٍ أسمرٍ بفعل سنواتٍ من العمل تحت السماء المفتوحة. «أنا لم أرهما... داتشس... لقد كانت طفلةً عندما رأيتُ ابنتي آخر مرّةٍ. ثمّ روبن...». لم يكمل كلامه.

- «كلاهما طفلان طيّبان». بدت الكلمات مُبتذلةً وفارغةً، في حين إنها لم تكن كذلك، كأنّه كان هناك نوعٌ آخر من الأطفال في العالم.

«أردتُ أن آتي إلى الدفن . لكنني قطعت وعداً» . لم يقدم هال أي تفسير آخر .

«لقد حدث ذلك بسرعة . بمجرد أن حرّروا . . . حرّروا جثمان ستار . مراسم صغيرة في ليتل بروك . بجانب أختها» . أمسكت داتشس يد أخيها . لم تبك ، نظرت فحسب إلى التابوت كما يستحق أن يُنظر إليه : الفصل والمُسوّي العظيم والنهائي .

راقبا داتشس تخرج من الحظيرة ، تلحق بها دجاجةٌ . نظرت إلى الخلف ، كأنّها كانت تتبعها .

- « تبدو مثل أمها» .

- «نعم» .

«لقد جهّزتُ غرفةً . سوف يتشاركناها . هل يحبُّ الصبي اليسبول؟» .

ابتسم ووك ، لكنّه لم يكن يعرف .

- «اشتريت كرةً وقفازاً» .

راقبا داتشس وهي تحديق داخل الكروزر ، تطمئنُ على روبن ، ثم تقفل راجعةً إلى الحظيرة ، وتتفحص الدجاجات .

تنحني هال . «فنسنت كينغ . لم أنطق هذا الاسم منذ زمنٍ بعيدٍ . كنت أتمنى ألا أضطر إلى فعل ذلك مرةً أخرى» .

- «لم ينطق بكلمةٍ واحدةٍ بعد . لقد وجدته هناك في المطبخ ، كان هو الشخص الذي أجرى الاتّصال . لديّ شكوكي حول الأمر» .

قال ووك ذلك باقتناع . تساءل إن كان هال قد استطاع إدراك حقيقة الأمر ، وأنّ ووك بعيدٌ كل البعد عن خبايا القضية ، حتى إنّ شرطة الولاية بالكاد أطلعت عليه .

- «إنهم يحتجزونه» .

- «لا اتهام رسمي حتى الآن. لقد قبضوا عليه بتهمة خرق إطلاق السراح المشروط».

- «لكنّ، فنسنت كينغ».

- «أنا لا أعرف، لا أعرف ماذا فعل فنسنت، ولا أعرف ما هذا الذي نحن فيه».

- «أذهب إلى الكنيسة ولكنني لا أؤمن بالرب. وهو يذهب إلى السجن لكنه ليس مجرمًا».

وجه هال، خطوطه المحفورة العميقة تروي قصة بدأت قبل ثلاثين عاماً.

تقطع هال مفاصل أصابعه مرةً أخرى. «نبدأ حيث النهاية، هكذا قال الكاهن. كان من المفروض أن تجعل هذه الكلمات السنوات أسهل، لو أنني اعتقدت ثانيةً واحدةً أن سيّسي في مكان ما أفضل من صندوق خشبيّ صغير. أحاول رغم ذلك، أحاول كل يوم أحد».

- «أنا آسف».

- «لم يكن ذلك —».

- «ليست سيّسي فقط. زوجتك أيضاً. لم يُتَح لي المجال لأقول ذلك بعد ما حدث».

لقد شغلت الأخبار المحلية. فالمرّة الأولى التي رأى فيها أيّ منهم والدته ستار كانت في اليوم الأول للمحاكمة. دخلت ماغي داي، واحتلّت قاعة المحكمة. كان لديها الشعر والعينان والنظرات الجذابة، لكنّ مسحةً من السحر الذابل كانت تفترس الجمال منها.

- «كانت حزينّة على فنسنت. قالت أن مشاهدة طفلٍ ينفذ عقوبة رجلٍ كفيلةٌ بكسرها مرةً أخرى».

صفى هال آخر قطرة من جعته. «عندما وجدتها ستار، في تلك الليلة. كانت لدينا لوحة فنية، تميرير، هل تعرفها؟».

- «القارب».

- «كانت جالسةً تحتها، ورأسها مائلةً إلى الخلف. كأنها كانت جزءاً من كل تلك السماء المسكونة».

- «أرادت أن تكون مع سيسي»، قالها ببساطة، كأنه يمكن أن يكون هنالك أي بساطة في انتحار الزوجة والأم. «فست كينغ هو سرطانٌ عائلي».

قرب ووك الزجاجاة الباردة إلى جبهته. «اسمع، يا هال. كان هناك رجلٌ، ديكي دارك. كان... هو وستار. لقد كان قاسياً معها».

راقب ووك الرجل العجوز، كان فمه مزموماً. «ولا أعرف ما الذي حدث مع داتشس، لقد قام أحدهما بإحراق ناديه الليلي. نادي تعري».

نظر هال إلى حفيدته، تقف هناك صغيرةً فوق مساحةٍ لا نهاية لها. «لا أعتقد أنه سيحاول العثور عليك، ليس بعد كل ما حدث».

- «قد يأتي إلى هنا؟».

- «لا أعتقد ذلك، لكن داتشس تعتقد أنه سيفعل».

- «هي قالت ذلك؟».

- «هي لا تقول أي شيء حقاً. لقد سألت فقط، إذا كان بإمكان دارك العثور عليهما هنا. لم تقل السبب بالضبط. لا يمكنني استبعاد أن له علاقة بما حدث مع ستار».

- «وماذا لو كان له؟».

أخذ ووك نفساً وهو ينظر إلى السيارة، حيث كان الصبي نائماً. قد يكون هو الشاهد الوحيد.

- «لن نجدنا هنا . أنا لست مدرجاً في قوائم السكان المحليين، والأرض... هناك حجزٌ عليها . لقد مررتُ ببعض السنوات الصعبة . يمكنني إبقاؤها في مأمنٍ . هي والصبي . هذا هو الشيء الوحيد الذي أنا متأكدٌ من أنه يمكنني القيام به» .

تبع ووك حدَّ البيت، نزولاً إلى السياج . كان هناك تجمعٌ مياهٍ كبيرٌ جداً بالنسبة إلى بركةٍ، وصغيرٌ جداً بالنسبة إلى بحيرةٍ . رأى فيها انعكاساتٍ : سماءً، وأشجاراً، وتموجاتٍ وجهه المرسوم على صفحة الماء .

- «لا أريد أن أبقى هنا» .

التفت إلى داتشس .

- «ذاك الرجل عجوز . أنا لا أعرف حتى مَنْ هو بحق الجحيم» .

«لا يوجد مكانٌ آخر . إما هنا أو الخدمات الاجتماعية، هذا... هل يمكنكِ فعلُ ذلك من أجل روبن؟» .

أراد أن يمدَّ يده، ويمسك يدها، ويخبرها بأكاذيب حمقاء .

«لا تُجرِ اتصالاتٍ إلى هنا يا ووك . يمكنكِ الكتابة ربما . لقد قال المعالج النفسي إنَّ روبن يحتاج إلى النسيان، لفترةٍ من الزمن ربّما . ما حدث سيئٌ للغاية بالنسبة إليه . إنه كثيرٌ جداً بالنسبة إلى طفلي» .

أراد أن يقول لها إنها طفلةٌ أيضاً .

بعد ذلك، جثا فوق التراب، مسدَّ شعر روبن والتفت عيناها بعيني الصبي الخائفتين . نظر روبن بعد ووك إلى هال، والمنزل القديم .

ثمَّ وقف ووك قبالة داتشس وأخذ يبحث عن كلمات .

- «أنا خارجةٌ عن القانون»، قالت داتشس.

أخذَ نفساً عميقاً، وشعر بالحزن يغسله.

- «وأنتَ رجل قانونٍ».

هزَّ رأسه. «أنا كذلك».

- «لذا اغرب من هنا الآن».

ركب الكروزر، وقادها مبتعداً عنهم.

غابت الشمس، خَفَّفَ السرعة قرب الماء، وحين أصبح تحت

أشجار الصمغ شاهدها تضع يدها على كتف شقيقها، فيما هما

يمشيان نحو الرجل العجوز ببطءٍ، وحذرٍ.

لم تأكل داتشس في تلك الليلة الأولى في المزرعة.
راقبت روبن بدلاً من ذلك، وتأكدت من أنه أنهى صحنه. كان
العشاء نوعاً من اليخنة. نظر روبن إلى أخته بعينين أخبرتاه أنه يريد
أن يبكي. أطعمته اللقيمات الأخيرة بنفسها.

وقف هال محرّجاً، راقب بعض الوقت ثم ذهب إلى حوض
الغسيل، وسرح بنظره نحو الأرض. كان ضخماً بالنسبة إلى
داتشس، عريض المنكبين، قوياً، ومهيئاً. أمّا بالنسبة إلى روبن فقد
بدا مثل عملاق.

رفعت داتشس طبقيهما.

- «أنت في حاجة إلى أن تأكلي هذا»، قال لها.

- «أنت لا تعرف ما الذي أنا في حاجة إليه». رمّت طعامها في
سلة القمامة، ثم اقتادت أخاها من المطبخ خروجاً إلى الشرفة.
غروب، سديمٌ مشتعلٌ يغسل الهكتارات الممتدة إلى لا نهاية.
في البعيد، تجمّعت الحيوانات، وواجه قطعاً من الأياثل ضوء
المغيب.

- «اذهب واركض في الأرجاء»، قالت وأعطته دفعة.

تركها روبن، سار فوق التلّة الواطئة، عثر على عصاً وراح
يجرجرها على التراب. في يده الأخرى، أمسك بكابتن أميركا.
هو لم يجعل تلك اللعبة تغيب عن ناظريه منذ أن استيقظ ذاك
الصباح في منزل ووك.

كانت داتشس قد سألته بالفعل، حين تأخّر الوقت وغفا ووك،
سألت عن تلك الليلة وأخبرته أنّه لا بأس في أن يقول إنّ كان قد
سمع شيئاً. لم يخبرها بأيّ شيءٍ على الإطلاق، ربّما يقبع ذاك
المكان الذي كانت الذكرى فيه في ظلمة دامية.

كان ما يزال عليها أن تتعامل مع موت أمّها، الجنازة، القبر
الجديد الذي برز بجانب قبر سيسي على جرف ليتل بروك. أرادت
أن تبكي، لكنّها عرفت أنّها إذا فعلت ذلك، فإنّ الحزن سيستقرّ
هناك في صدرها، ولن يسمح لها بالتنفّس في الوقت الذي كانت فيه
بأمسّ الحاجة إلى القوّة. ستكون حاضرةً من أجل أخيها. كانا معاً.
الخارجة عن القانون وشقيقتها.

- «لديّ كرةٌ من أجله».

لم تستدر ولم تعترف بهال. لم تفكّر فيه كفرّد من العائلة، وأنّ
دمه يجري في عروقها. هو لم يكن موجوداً عند الحاجة إليه، الأمر
الذي كان يتكرّر كثيراً جداً. بصقت أمامها في التراب.

- «أعلم أنّ الأمر كان قاسياً».

- «أنت لا تعرف أيّ هراء». تركّت الكلمات معلقةً في هواء
الغسق، كانت العتمة تهجم نحوهما كأنّ الألوان بهتت بطريقة عين.

- «لا أحبّ الشتم في منزلي».

- «منزلي. قال ووك إنّ بيتنا».

بدا أنّه تألّم عندها. كانت مسرورةً.

- «غداً سيكون الوضع مختلفاً من نواحٍ كثيرة. بعضها سوف يعجبك، وبعضها الآخر قد لا يفعل».

- «أنت لا تعرف ما أحب وما لا أحب. الأمر نفسه ينطبق على شقيقي».

جلس هال على مقعد الأرجوحة، أشار إليها أن تنضمَّ إليه لكنَّها لم تفعل. شدَّت سلاسل الأرجوحة وثُبَّتْ على عوارض خشب الأرز، كأنَّها ستنتزع الروح من بيت المزرعة القديم. كانت أمُّها قد حدَّثَتْها عن الأرواح، من الخرافة إلى المنطق. تساءلت ما الذي قد يكون منطقياً بشأن أكثر أشكال الحياة تجريداً.

دخن سيجاراً واتَّجه الدخان نحوها، أرادت أن تبتعد لكنها لم تفعل، تسمَّر صندلها في الأرض. أخبرتها غريزتها أن تسأله عن والدتها، عن خالتها، وعن فنسنت كينغ. وعن هذا المكان الغريب من العالم، ذاك الذي كانوا فيه، حيث الأرض مختلفة جداً، والسماء شاسعة جداً. لكنَّها أدركت أنه سيستمع بذلك، أن يتحدث مع حفيدته كأنَّ رابطاً سينشأ بينهما. بصقت في التراب مرةً أخرى.

أرسلهم هال قبل ساعةٍ من موعد النوم. تصارعت داتشس مع حقيبتهما. لكنها لن تسمح له بالمساعدة.

غيَّرت لروبن ملابسه، ألبسته ملابس النوم، ثم غسلت له أسنانه في الحمام الصغير الذي كان يقود إلى غرفة نومهما الضئيلة.

- «أريد العودة إلى المنزل»، قال روبن.

- «أعرف ذلك».

- «أنا خائفٌ».

- «أنت أميرٌ».

سحبت داتشس المنضدة عبر الأرضية الخشبية المكسورة ثم دفعت حتى ضمَّت السريرين إلى بعضهما.

«ستلوان صلاتكما الآن»، قال من عند الباب.

«سردّد اللعنات»، ردّت بحدّة. راقبته وهو يسمع الجواب، وأملت في رؤيته يجفل لكنّه لم يفعل. وقف هناك، بفم مزموم تماماً. تتبّعُ قسّات وجهه بحثاً عن سمّةٍ تذكّر بها، بأخيها، بأمّها. ربّما رأت القليل منهم جميعاً، أو ربّما كان مجرد عجوزٍ غريب.

بضع دقائق فقط وكان روبن قد انتقل إلى سريرها بالكامل. شدّ ذراعها حوله حتى غطّ في النوم.

في لحظة، شق طنينٌ ثابت طريقه إلى أحلامها. مدّت يدها وضربت المنبه، ثم جلست بسرعة، وبقِيَتْ كذلك بعض الوقت، لحظاتٍ قليلةٍ وقاسيةٍ؛ فكّرت في مناداة أمّها.

كان روبن نائماً بجانبها، مدّت يدها وغطّته، ثمّ سمعت هال في الأسفل، صافرة الغلاية وخطوات الحذاء الثقيل.

استلقت وحاولت أن تعود للنوم، لكنّها رأت ضوء الردهة ينسلّ إلى الغرفة بينما صعد هال السلالم، وفتح الباب.

- «روبن». تحرّك شقيقها لدى سماعه صوت الرجل العجوز، «الحيوانات تحتاج إلى فطورها، هل تريد أن تأتي للمساعدة؟».

راقبت داتشس شقيقها، من السهل توقّع سياق الأمور. كانت قد رأت بأيّ فضولٍ نظر إلى الحظائر، والدجاج، والأبقار الكبيرة، والخيول. نزل من السرير، والتفت ناظراً إليها إلى أن ذهب وأحضرت فرشة أسنانه.

في الأسفل كان هناك أطباقٌ من العصيدة. أفرغت داتشس طبقها في القمامة. عثرت على السكر، وغرفت بعضاً منه في وعاء روبن. أكل بهدوءٍ.

ظهر هال عند الباب، وخلفه ضبابٌ خفيفٌ على شكل بخارٍ،
كأنَّ هناك ناراً مشتعلةً تحت الأرض.
«مستعدٌ للعمل». لم يكن هذا سؤالاً.

أنهى روبن عصيره وقفز عن الكرسي. مدَّ هال يده وأخذها
روبن. راقبتهما داتشس من النافذة وهما يسيران باتجاه الحظيرة،
الرجل العجوز وطريقته البطيئة في الكلام، وروبن يحدق إلى الأعلى
كأنَّ السنوات الست الماضية لم تعد محسوبةً.
ارتدت معطفها، وربطت حذاءها الرياضي، ومضت في هواء
الفجر.

خلفها، كانت شمس الجبل تزحف نحو السماء، كان الوعد
بحياةٍ جديدةٍ يثقل صدرها.

قاد ووك سيارته ليلاً، الولايات والمناظر كلها متشابهةً في
الظلام. لافتاتٌ تقوم بعدد الأميال فحسب، وتطلب منه أن يأخذ
قسماً من الراحة، فالتعب قاتل. عندما وصل إلى المنزل، قام بفصل
الهاتف، سحب ستائره، واستلقى من دون أن يغفو، يفكر فقط في
ستار، وداتشس، وروبن.

كان الإفطار عبارةً عن قرصي أدفيل، وكوب ماءٍ. أخذ حماماً
سريعاً من دون أن يحلق ذقنه.

في الثامنة وصل إلى المركز حيث وجد كيب دانييلز، مراسل
جريدة سْتلر كاونتي تريبيون واقفاً في الساحة. بجانب كيب وقف
بضعةٌ من المصطافين والسكان المحليين. كان ووك قد سمع في
الرحلة القصيرة إلى هنا، أنَّ ولاية كاليفورنيا تستعد لاتهم فنسنت

كينغ بقتل ستار رادلي. لم يصدق الخبر، إنها المحطات، تحاول صنع الأخبار فحسب.

- «أخشى أنه ما من جديد لأخبرك به».

- «أي شيء عن السلاح؟» ناداه كيب.

- «لا شيء».

- «الاتهامات؟».

- «لا تصدق كل ما تسمعه».

عاد فنسنت إلى إصلاحية فيرمونت. حقيقة أنه لم يتكلم، وأنه كان في موقع الحادث، جعلاً من اللغز بسيطاً وسهل الحل. لم يكن هناك أي أحد آخر في الصورة. احتلّ رجال شرطة الولاية المكتب الخلفي، بويد ورجاله، يُبعدون المحليين، ويُحدثون الكثير من الجلبة.

وجد ليا تالو داخل المركز عند مكتب الاستقبال. كانت أضواء الهاتف تومض بشكلٍ محموم. «الوضع جنونيّ هنا هذا الصباح. هل سمعت الأخبار؟».

راقبها ووك وهي تتلقّى اتصالاً آخر، وتمتنع عن الإدلاء بأيّ تعليق.

استدعيا لوان ميلر للمساعدة، وهي أكبر من ووك بعقدٍ. جلست خلف مكتبها تأكل المكسّرات، وهناك كومة أنيقة من القشور قرب الهاتف، خرساء حدّ الصخب.

- «صباح الخير ووك. لقد أحضروا الجزّار إلى هنا».

- توقّف ووك وحكّ وجنته. «أين؟».

- «غرفة التحقيق».

- «لماذا أحضروه إلى هنا؟».

- «أتظنُّ أنهم يخبرونني بأيِّ شيءٍ؟». أكلتُ لوان حبةً مكسَّراتٍ أخرى، اختنقتُ بها قليلاً، ثم جرفتها برشفةٍ كبيرةٍ من القهوة. «أنت بحاجةٌ إلى قسطٍ من النوم يا ووك. وربَّما إلى حلاقةٍ».

نظر حوله، المشهد النمطي نفسه. كانت أخت ليا تملك محل بيع الزهور في مين، وكانت ترسل كلَّ أسبوعٍ باقةً من أزهار الكوبية الزرقاء، والستروميريا، والأوكالبتوس. ظنَّ في بعض الأحيان أنَّ المركز ليس إلَّا موقع تصويرٍ نهاريٍّ لبرنامج شرطة، وأنهم كانوا يؤدُّون أدوارهم ليس أكثر، مع كلِّ تلك الإضافات في الخلفية.

- «أين بويد؟».

هزَّت كتفها. «قال ألا نتحدَّث مع الجزَّار حتى يعود».

عثر على ميلتون داخل الغرفة الصغيرة في القسم الخلفي من المركز، والتي ربَّما كانوا يستخدمونها للتحقيق، في حال اضطرُّوا إلى أخذ إفادة. كان ميلتون ممسكاً ب صدره، يدلُّكه كأنَّ قلبه في حاجةٍ إلى إنعاش. كان ووك ما يزال يشمُّ رائحة الدم، برغم أنَّ ميلتون متجرَّد من مئزره، وكأنَّ الرائحة معشَّشةٌ في كل شعرةٍ غطَّت جسده.

دفع ووك يديه عميقاً في جيبه. انتبه أنَّه بات يفعل ذلك أكثر فأكثر الآن، العقاقير مجدِّداً، ولكن لا شيء يساعده حقاً.

وقف ميلتون. «لا أعرف لِمَ طلبُوا مِنِّي البقاء هنا. عليَّ أن أمضي قدماً، فأنا من أتيت إليهم في نهاية الأمر».

- «بماذا؟».

نظر ميلتون إلى حذائه، كان قد فكَّ زرَّ ياقته الأعلى، وشدَّ

أَكْمام القميص لتظهر من تحت المعطف. كان متأثراً للمناسبة. «لقد تذكّرتُ شيئاً».

- «ما هو؟».

- «أحبُّ أن أسرِّح نظري في الفلاء. أتفرَّج على المياه، السماء، لديّ الآن تيليسكوب سيليسترون، إنّه مُحوسَّب بالكامل. ربّما تأتي ذات يومٍ ويمكننا —».

رفع ووك يده، كان متعباً جداً لسمع ذلك.

- «قبل إطلاق النار في تلك الليلة، أظنُّ أنّي سمعتُ صراخاً. إذ كانت نافذتي مفتوحة، كنتُ أشوي أرنباً صغيراً، أتركه طوال الليل كما تعلم، كي تلين العظام».

- «تظنُّ أنّك سمعت؟».

نظر ميلتون إلى الأضواء فوقه. «سمعتُ صراخاً. صوت شجار».

- «وقد تذكّرتَ هذا الآن فقط؟».

- «يجوز أنّي كنتُ في حالة صدمة. ربّما بدأتُ في الانحسار الآن».

حدّق فيه ووك. «هل رأيتَ دارك في تلك الليلة؟».

كانت مجرد لحظة قبل أن يهزّ رأسه، ربّما ثانيتان ليس إلا، لكنّ ووك التقطها. كانت هناك إشارة إلى ديكي دارك في السياق، لكن الإشارة جاءت من ووك نفسه. ما كانت داتشس لتقول شيئاً عن الرجل. تساءل ووك إن كانت خائفةً.

- «براندون روك»، أطلق ميلتون زفرة طويلة، «السيارة... هذا الصباح. أنا أستيظ باكراً، وذلك الرجل يعود إلى المنزل في جميع الأوقات. أحتاج إلى نومي يا ووك».

- «سوف أتحدث إليه» .

- «تعرف أنه لدينا شخص آخر قد غادر مجموعة المراقبة، كأنَّ أمر الحيِّ لم يعد يهمُّهم» .

- «كم نقص عددكم حتى الآن؟» .

- «لم يتبقَّ إلَّا أنا وإيتا كونستانس . لكنَّها لا تستطيع القيام بالكثير من المراقبة بعينٍ واحدة» . لَوْح بيده ليضفي بعض المؤثرات .
- «أنام بشكلٍ أفضل لدى معرفتي أنَّ كليكما يقوم بأعمال المراقبة» .

- «أنا أوثِّقُ كلَّ شيءٍ . هناك حقيبةٌ كبيرةٌ تحت سريري لهذا الغرض» .

استطاع ووك أن يتخيَّل نوع الملاحظات التي يحتفظ بها هذا الرجل .

- «كنتُ أتابع برنامجاً حيثُ يأخذ شرطيٌّ مدنيّاً في جولةٍ . هل فكَّرت يوماً في ذلك يا ووك؟ يمكنني أن أحضر نقانق الكوتيتشينو . . . ولتفُح رائحة التوابل في المقصورة . وبعد ذلك يمكننا —» .

سمع ووك جلبةً في الخارج فاستدار، وإذا ببويد يسدُّ المدخل عريضَ المنكبين، بشعرٍ قصيرٍ جداً، أقرب إلى أن يكون جندياً من كونه شرطياً .

لحق ووك به .

قاده بويد إلى مكتبه الخاص، ثم جلس متثاقلاً فوق كرسيِّه .

- «هل تريد أن تخبرني ما الذي يحدث؟» قال ووك .

انحنى بويد إلى الورااء ومَطَّط أطرافه، بدت كتفاه ضخمتين وهو يطقق أصابعه خلف رقبته .

- «لقد عدتُ للتَّوَّ من مكتب المدَّعي العام. سوف نوجَّه الاتِّهام لفنست كينغ بقتل ستار رادلي».

كان ووك يعرف أنَّ ذلك قادم، لكنَّ سماعه من بويد هزَّه رغم ذلك.

- «لقد أخبرنا الجزَّار أنَّه رأى فنست كينغ ينخرط في شجارٍ مع ديكي دارك قبل بضع ليالٍ. قال إنَّ الأمر بدا كأنَّ فنست يحذِّره. غيورٌ. حدث هذا خارج منزل آل رادلي مباشرة».

- «وماذا يقول دارك عن ذلك؟».

- «لقد أكَّد القصة. جاء مع محاميه. وغدٌ كبيرٌ، صحيحٌ. يبدو أنَّه كان يرى الضحية، رغم أنَّه قال إنَّهما كانا مجرَّد صديقين».

- «ميلتون، الجزَّار، لقد كان يتَّصل ويُبلغ مراراً على مرِّ السنين، هو يحبُّ أن يراقب البلدة. يشعره ذلك... بالإثارة. هو يرى أشياء قد لا تكون موجودة حقاً».

لعق بويد أسنانه وزمَّ شفّتيه. كان دائم الحركة، كأنَّ الوقوف بثباتٍ سيُظهر انتفاخ كرشه وخط شعره المتساقط. رائحة كولونيا قوية. نظر ووك إلى النافذة، وأراد أن يفتحها.

- «لقد قبضنا على فنست في مكان الحادث، بصماته. حمضه النووي عليها. لديها ثلاثة ضلوع مكسورة، ويده اليسرى متورّمة. لن يُنكر ذلك ولن يقول أيَّ شيءٍ. إنها قضية سهلة، يا ووك».

«لا بقايا طلاقاتٍ»، قال ووك. «المسدّس. لا بقايا طلاقاتٍ ولا مسدّس».

فرك بويد ذقنه. «قلتُ إنَّ الصنوبر كان مفتوحاً والماء جارٍ منه. غسل يديه. أمّا عن المسدّس، فلدينا في الخارج أشخاصٌ يبحثون في كل مكانٍ، وسوف نجده. الأمر كالتالي: هو يقتلها، ثمَّ يتخلّص من المسدّس، ثمَّ يعود ويُبلغ عن الأمر».

- «هذا يبدو بلا معنى».

- «لقد أرسلوا لنا تقرير المقذوفات. الرصاصة التي قاموا بسحبها من عيار ماغنوم 357. وهنا هي الضربة الكبيرة. فقد تعقبنا السلاح، واتضح أن والد فنسنت كينغ كان لديه المسدس نفسه مُسجلاً في منتصف السبعينيات».

راقب ووك الرجل، ولم يعجبه المكان الذي كان يريد الوصول إليه بكلامه. تذكر ووك ذلك، لقد وُجِّهت بضعة تهديداتٍ إلى عائلة كينغ، وكانت خطيرة بما يكفي لأن يحتفظ والد فنسنت بمسدسٍ.

- «لنر ما إذا كان بإمكانك أن تخمّن العيار، يا ووكر».

بقي ووك هادئاً، رغم الانقباض المفاجئ في معدته.

- «المدعي العام يريد المزيد. لدينا الدافع الآن ونوع سلاح الجريمة. ستتجه نحو عقوبة الإعدام».

هز ووك رأسه. «ما يزال هناك أشخاصٌ نحتاج التحدث إليهم. أريد أن أطرّق إلى حُجّة غياب ديكي دارك مرةً أخرى، ومن ثمّ هناك ميلتون وأنا لست متأكّداً —».

- «انس الأمر، يا ووكر. إنها قضية واضحة. أريد تسليمها إلى المدعي العام بحلول نهاية الأسبوع. لقد حصلنا على ما يكفي، بعد هذا ستوقف عن مضايقتك».

- «لكنني أعتقد حقاً —».

«اسمع. أنا أفهم ما يحدث معك هنا. لدي ابن عمّ يعمل في ألسون كوف وهو يحب العمل هناك، الإيقاع بطيء والعمل سهل. لا شيء خطأ في ذلك. ولكن متى كانت آخر مرة عملت فيها على قضية حقيقية، أعني شيئاً أكثر من مجرد جنحة؟».

لم يعمل ووك على أكثر من مجرد مخالفة.

اقترب بويد منه وأمسك كتفه بقوة. «لا تُفسد هذا الأمر علينا».
ابتلع ووك ريقه، كانت الأفكار تتزاحم في رأسه بشكلٍ جنونيٍّ.
«إذا قدَّمَ التماساً. إذا كان بإمكانني حمله على الترافع؟».
التقت عيناه بعيني بويد، لم يقلها ولكنه لم يكن مضطراً إلى ذلك.

فنسنت كينغ سوف يموت من أجل هذا.

تعاقت الغيوم سابحةً من جهة الجبل في الخلف لتضع بيت
المزرعة داخل إطارٍ كأنَّه ينتمي إلى رسمٍ ما .
كانت تعمل ، ساقاها ثقيلتان ، وجلد يديها قد تشقَّق تحت
القفَّازات .

مهما كان العمل الذي يُوكِّله إليها : الجرف ، قطع فروع الكرم
الطويلة قرب المنزل ، إزاحة الأغصان من الممر المتعرَّج ، كانت
تقوم به بكراهيةٍ هادئةٍ . هال يقوم بدور الجدِّ الآن في الوقت الذي
تستلقي فيه والدتها عميقاً داخل الأرض .

كانت الجنازة هادئةً على نحوٍ مُخجِّلٍ . كان ووك قد نبش ربطة
عنقٍ قديمةً من أجل روبن ، وهي نفسها التي ارتداها عندما توفيت
والدته . أمسك روبن يدها خلال المراسم ، فيما كان الكاهن يحاول
أن يمضي بهم بعيداً عن حياتهم المحطمة ، حديثٌ عن حاجة الرب
إلى ملائكةٍ آخر ، كأنَّه لا يعرف شيئاً عن الروح المعذَّبة التي تمَّ
أخذها .

- «سوف نستريح لتناول طعام الغداء الآن» . انتزعها الرجل
العجوز من ذكرياتها .
- «أنا لست جائعةً» .

- «عليك أن تأكلي».

أدارت ظهرها له، مدَّت يدها والتقطتِ المكنسة، وجرفت الأوساخ من الممرِّ المُتصدِّع بضرباتٍ قويةٍ.

عشر دقائق أخرى، ثمَّ رَمَتْ داتشس المكنسة، وعادت ببطءٍ. في المنزل، صعدت إلى الشرفة ونظرت عبر النافذة. كان هال يُدير ظهره لها، وشقيقها يأكل شطيرةً، يرفع رأسه فوق الطاولة، ويشرب كوباً من الحليب.

دخلت من الباب الخلفي إلى المطبخ، وقد احمرَّ خدَّاها بشدَّةٍ. التقطت كوب روبن عن الطاولة، وأفرغت الحليب في المغسلة وشطفته، ثمَّ سحبت علبة عصيرٍ من الثلاجة.

- «يمكنني شرب الحليب على الغداء، ولستُ أمانع ذلك حتى»، قال روبن.

- «لا، لا يمكنك ذلك. اشرب العصير، كما كنتَ تفعل في —».

- «داتشس» قال هال.

- «أنتَ اخرسُ». التفتت إليه، «لا تلفظ اسمي، لا تجرؤ على التفوُّه به بحق الجحيم. أنت لا تعرف أي شيءٍ عنيَّ أو عن أخي».

بدأ روبن بالبكاء.

- «كفى الآن»، قال هال بلطفٍ.

- «أنت لا تقول لي "كفى"». أخذت تلهث، وترتجف، انفجر الغضب بشدَّةٍ وعنفٍ حتَّى إنها كادت لا تستطيع السيطرة عليه.

- «قلْتُ —».

- «اللعة عليك».

عندها وقف، رفع يده وأنزلها بقوة على الطاولة، ما جعل
صحنه يطير ويسقط متحطماً فوق الأرض، فجفلت داتشس،
استدارت وشرعت تركض. مرّت بالماء، والممر، وعبر العشب
الطويل باتجاه الأشجار.

لم تتوقّف حتّى لم يعد بإمكانها المتابعة، حتّى جثت على
ركبتها، وابتلعت شهقاتٍ من الهواء الثقيل الدافئ. شتمته، وركلت
شجرة بلوطٍ ثخينّة، فشعرت بالألم يرتدّ عبرها. صرخت على
الأشجار، صراخاً عالياً مريراً جعل الطيور ترتفع وتبّقع السماء.

فكرت في الديار. في اليوم التالي للجنازة، حزم ووك على
الفور الأشياء القليلة التي كانوا يمتلكونها في صناديق. لا شيء في
الحساب الجاري، ثلاثون دولاراً في محفظة والدتها، ولا شيء
لنقله أو تحويله.

سارت لمسافة ميلٍ قبل أن تتناقص أشجار التّوب. كانت مبلّلةً
لشدة ما تعرّقت، شعرها رطبٌ ومتشابكٌ. أبطأت مشيتها قليلاً وهي
تمشي في منتصف الطريق، وتعدّ الخطوط المتقطعة.

لاح عند أطراف الأعشاب والغابة في البعيد نهرٌ متدفّق،
وكانت السماء زرقاء بلون الغفران. في بعض الأحيان كانت تتوقّع
المزيد، إشارةً ما، شيئاً ذاوياً أو شيئاً يستحيل رمادياً أو غير
مستدام، شيئاً يخبرها أن العالم مكانٌ مختلفٌ الآن بموت والدتها.

لأفّةً تعلن عن اسم البلدة. كوبر فولز، مونتانا. صفٌّ من
المتاجر، طوبٌ برتقاليّ جديدٌ جداً بالنسبة إلى المشهد العام، أسقفٌ
مستوية ومظلات باهتة، أعلامٌ متدلّية ترفرف، لافتاتٌ انتحائيةٌ منسيّةٌ
بهتَ لونها منذ زمنٍ طويلٍ، بوش وكيري، نجومٌ وشرائط. مطعم،
مرحاضٌ عموميّ، صيدليّة، مغسلة ملابس. مخبِزٌ جعل لعبها
يسيل. وقفت ونظرت إلى الداخل، رأت أزواجاً من كبار السن، كل

زوج جلس إلى طاولة، يأكلون المعجنات، ويشربون القهوة. في الخارج جلس رجلٌ يقرأ جريدةً. مرّت بحلّاقٍ على الطراز القديم مع عمودٍ زجاجيٍّ وعرض حلاقة، بجانبه صالون تجميلٍ، نساءٌ على الكراسي، والحرارة تصل إلى الخارج عبر الباب المفتوح.

في نهاية الشارع، لاح جبلٌ كبّح جماح الأفق، كان شاهقاً مثل تحدّ أو تذكيرٍ بأن هناك دائماً ما هو أكبر

مرّت بصبيٍّ صغيرٍ أسودٍ نحيفٍ كان يقف على الرصيف، معطفٌ يغطّي ذراعيه رغم الحرّ، كان يراقبها باهتمام. ارتدى بنطالاً وربطة القوس، ورفعت الحمالات البنطال بما يكفي لإبراز الجوارب البيضاء.

لم يشح بنظره مهما حدّقت به بنظراتٍ شرسة. «ما الذي تنظر إليه بحقّ الجحيم؟».

- «نوعٌ من الملائكة».

حدّقت في ربطة القوس وهي تهزّ رأسها.

- «أنا توماس نوبل».

ظلّ ينظر، وفمه مفتوحٌ قليلاً.

- «توقّف عن الحملقة أيّها الشاذّ». دفعته، فسقط على مؤخرته.

نظر إليها عبر عدساتٍ سميكّة. «كان الأمر يستحق ذلك، كي أشعر بلمستك فقط».

- «يا للقرف، هل جميعُ مَنْ في هذه البلدة متخلّفون عقلياً؟».

شعرت بعينه تلاحقها طوال الطريق وصولاً إلى أعلى الشارع. جلست على مقعدٍ وأخذت تراقب الحركة، كانت بطيئةً لدرجة أنّها شعرت بعينيها تزدادان ثقلًا.

توقفت بالقرب منها سيّدةٌ في الستين من عمرها ربّما، كانت

متألّفة جداً حتّى إنّ داتشس أخذت تسترق النظر إليها . كعبٌ عالٍ، أحمر شفاهٍ، عطرٌ قويّ، وشعرها المتموّج يوحى بأنّها خرجت للتوّ من صالون التجميل .

وضعتْ حقيبتها، كانت من طراز شانيل، وانحشرت بجانب داتشس .

- «هذا الصيف» .

كانت لهجّة من نوع لم تعرفه داتشس .

- «لا أنفك أطلب من بيل أن يصلح مكيف الهواء، لكن هل تعتقدين أنّه فعل؟» .

- «أعتقد أنّي لا أبالي البتّة . وربّما بيل كذلك» .

ضحكت المرأة على ذلك، أقحمت سيجارة في مشرب وأشعلتها . «يبدو كأنك تعرفينه، أو ربّما لديك أب مثله . يبدأ عملاً ثم يفقد الاهتمام به سريعاً . أولئك هم الرجال يا عزيزتي» .

زفرت داتشس، على أمل أن تتمكّن من إبعادها من خلال سلوكها .

مدّت السيدة يدها داخل حقيبة التسوّق خاصّتها، وأخرجت كيساً ورقياً . سحبت قطعة دونات وعرضتها على داتشس .

حاولت داتشس أن تتجاهلها، لكنّ السيدة هزّت الكيس قليلاً، كأنّها تُغري حيواناً حذراً . «هل سبق لك أن تناولت دونات من عند تشيري؟» قالت بالحاح وهي تهزّ الكيس حتى أخذت داتشس واحدةً .

تناثر السكر على بنطالها بينما أخذت تقضم الكعكة بحرصٍ .

- «أفضّل دونات سبق لك أن تناولتها؟» .

- «عادية» .

ضحكت السيدة كأنّها سمعتْ نكتةً . «يمكنني أن أكل دزينة منها ربّما . هل سبق أن حاولت أكل واحدة من دون أن تلقي شفتيك؟» .

- «لَمْ قَد أَفْعَلْ ذَلِكَ بِحَقِّ الْجَحِيمِ؟».

- «دَعِينَا نَجْرُبْ إِذَا، الْأَمْرُ أَصْعَبُ مِمَّا يَدُو».

- «رَبِّمَا عَلَى سَيِّدَةٍ عَجُوزٍ».

- «أَنْتِ عَجُوزٌ فَقَطْ بِقَدَرِ مَا تَشْعُرِينَ أَنَّكَ كَذَلِكَ».

- «كَمْ عَمْرُ بَيْلٍ؟».

- «خَمْسَةٌ وَسَبْعُونَ». ضَحَكَتْ بِشِدَّةٍ.

أَكَلْتُ دَاتَشْسَ، شَعَرْتُ بِالسُّكَّرِ عَلَى شَفَتَيْهَا لَكِنَّهَا لَمْ تَلْعَقْهُ. شَاهَدَتِ السَّيِّدَةُ تَفْعُلُ ذَلِكَ أَيْضاً، قَاوَمَتْ بَعْضَ الْوَقْتِ، كَأَنَّهَا كَانَتْ تَشْعُرُ بِحِكْمَةٍ، ثُمَّ لَعَقَتْ شَفَتَيْهَا، وَأَشَارَتْ دَاتَشْسَ نَحْوَهَا فَضَحَكَتِ السَّيِّدَةُ ضَحْكَةً صَاخِبَةً جِداً جَعَلَتْ دَاتَشْسَ تَكَادُ لَا تَسْتَطِيعُ مَنَعَ نَفْسَهَا عَنِ الْإِبْتِسَامِ.

- «أَنَا دَوْلِي بِالْمُنَاسِبَةِ، مِثْلَ دَوْلِي بَارْتُون⁽¹⁾، دُونَ الصَّدْرِ

الْعَامِ فَقَطْ».

لَمْ تَقُلْ دَاتَشْسَ شَيْئاً بَعْضَ الْوَقْتِ، أَبْقَتْ الْجَوَابَ مَعْلَقاً فَحَسَبَ، بَيْنَمَا كَانَتْ تَشْعُرُ بِدَوْلِي تَسْتَرْقِ النَّظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ تَلْتَفَتَتْ بَعِيداً.

- «أَنَا خَارِجَةٌ عَنِ الْقَانُونِ. الْأَرْجَحُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي رُؤْيَاكَ

تَتَحَدَّثِينَ مَعِي».

- «لَدَيْكَ شَيْءٌ مِنَ الْغَطْرَسَةِ. لَيْسَ لَدَى الْكَثِيرِينَ ذَلِكَ».

- «كُتِبَ عَلَى شَاهِدِ قَبْرِ كَلَايَ أَلَيْسون⁽²⁾؛ هُوَ لَمْ يَقْتُلْ رَجُلًا لَا

يَجِبُ قَتْلُهُ. هَذَا مَا يُدْعَى غَطْرَسَةً».

(1) دَوْلِي بَارْتُون: مَغَنِيَّةٌ وَمُمَثِّلَةٌ أَمْرِيكِيَّةٌ شَهِيرَةٌ - الْمُرْجَمُ.

(2) كَلَايَ أَلَيْسون: الْمَعْرُوفُ بِفَتَى نِيُو مَكْسِيكُو الشَّقِيّ، مُقَاتِلُ مَشْهُورٍ فِي الْغَرْبِ الْأَمْرِيكِيِّ، حَارَبَ إِلَى جَانِبِ الْكُونْفِيدِرَالِيَةِ أثنَاءَ الْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ - الْمُرْجَمُ.

- «إِذَا هَلْ لِلخارجة عن القانون اسمٌ؟» .

- «داتشس داي رادلي» .

نظرتُ إليها، ليس بشفقةٍ، لكن بما يشبه ذلك. «أعرف جدّك. أنا آسفةٌ حقاً من أجل والدتك» .

شعرتُ داتشس عندئذٍ بضيقٍ في صدرها، كأنّها عاجزةٌ عن التنفّس. نظرتُ نحو الشارع، شعرتُ بعينيها ساختين جداً.

أطفأتُ دوللي سيجارتها، لم تأخذ منها نفساً واحداً حتّى. - «أنتِ لم تدخّنيها» .

ابتسمتُ دوللي كاشفةً عن صفٍّ من الأسنان ناصعة البياض. «التدخين سيئٌ لك. اسألي حبيبي بيل» .

- «لماذا إذاً؟» .

- «ذات مرةٍ قَبَضَ والدي عليّ وأنا أدخّنُ، فضربني بشدّةٍ، لكنّني واطبْتُ على التدخين خِفيّةً، برغم أنّي لم أحبّ طعمه حتّى. لا بدّ أنّك تنظرين إليّ كخفّاشٍ عجوزٍ مجنونٍ» .

- «نعم» .

شعرتُ داتشس بيدٍ على كتفها. وقف مبتسماً ابتسامةً عريضةً، تجعّدتُ خصل شعره وتشابكت بفعل العرق، وتجمّعت الأتربة تحت أظافره.

- «أنا روبن» .

- «سعيدةٌ بلقائك يا روبن. أنا دوللي» .

- «مثل بارتون؟» .

- «لكن من دون الثديين»، أضافت داتشس.

- «أحبّت أمّي دوللي بارتون. اعتادتُ أن تغنيّ تلك الأغنية عن العمل من التاسعة حتّى الخامسة» .

- «ذلك مثيرٌ للسخرية، بالنظر إلى أنها لم تتمكّن أبداً من الاحتفاظ بوظيفة».
- صافحته دوللي، وأخبرته أنه كان الفتى الأكثر وسامةً الذي رآته على الإطلاق.
- لمحت داتشس هال على الجهة الأخرى من الشارع، متّكئاً على غطاء محرك الشاحنة العتيقة.
- «أمل أن أراكما قريباً». ناولت دوللي روبن قطعة دونات، وتركتهما متّجهتاً نزولاً عبر الشارع، وأومأت برأسها لهال لدى مرورها به.
- «لقد كان الجدُّ مذعوراً. أرجوك لا تفتعلي المشاكل».
- «أنا خارجةٌ عن القانون يا فتى. المشاكل تعثر عليّ».
- حدّق بعينين حزينتين.
- «جرّب أن تأكل قطعة الدونات تلك من دون أن تلعق شفتيك».
- نظر إلى الكعكة. «سهلٌ جداً».
- «أبدأ إذاً».
- أخذ قضمَةً ولعق شفتيه على الفور.
- «لقد لعقتُهما للتوّ».
- «لم أفعل».
- سارا عائدين جنباً إلى جنب على الرصيف، وفي السماء غطاءً من الغيوم المتدحرجة التي تطارد بسرعةٍ كبيرةٍ ما تبقى من ساعات اليوم.
- «أنا أفقدها».
- شدّت على يده. لم تكن قد قرّرتْ بعدُ إن كانت تشعر بالمثل.

ثلاثون عاماً في الغرفة نفسها، مرحاضٌ وحوضٌ فولاذيان، جدرانٌ محفورةٌ مليئةٌ بالخربشات. بابٌ يفتح ويُغلق في أوقاتٍ محدّدةٍ كل يوم.

وقف ووكٌ خارجَ مرافقٍ إصلاحيةٍ مقاطعة فيرمونت، وتلقّى أشعة الشمس العالية عديمة الرحمة دائماً بغض النظر عن الشهر. انتبه إلى الكاميرا في الأعلى. راقب الرجال في الفناء، كانت حلقات السلاسل تحوّلهم إلى قطع أحجية لا تلائم أي مكانٍ على الإطلاق.

- «لا أستطيع أبداً أن أعود على الألوان. كل شيء يبدو باهتاً».

ضحك كادي. «أفتقد اللون الأزرق الخاص بك، يا ووك».

أشعل كادي سيجارةً، وقَدّم واحدةً إلى ووك لكنّه لوّح رافضاً.

- «ألم يسبق لك أن دخنت؟».

- «أبداً، حتّى إنّي لم أجرب».

شاهدًا رجالاً يلعبون كرة السلة، صدورهم عاريةً، متعرّقةً. سقط رجلٌ، نهض متحفّزاً، لكنّه لمح كادي فلجم نفسه سريعاً. استمرّت اللعبة، ضراوةً، حياةً أو موتٌ، لا مكان بينهما.

«لطالما قضّ هذا مضجعي»، قال كادي.

استدار ووك لكنّ كادي أبقي عينيه على اللعبة.

- «اعتدت على الاعتقاد أنّه لا يُفترض لبعض الناس أن يكونوا

في هذا المكان. عندما بدأت العمل الميدانيّ رأيتهم يسوقون ذوي الياقات البيضاء، محامياً أو مصرفياً أو شيئاً من هذا القبيل، واعتقدتُ أنّهم لا ينتمون إلى هنا. ولكن بعد ذلك بثُّ أرى أنّه ربّما لا توجد درجاتٌ للسوء. ربّما لا يهم مقدار تجاوزك للحدود».

- «معظم الناس يقتربون من ذلك . مرة واحدة على الأقل في حياتهم» .

- «ليس أنتَ ، يا ووك» .

- «ما زال هناك وقتٌ» .

«فنسنت تجاوزها عندما كان في الخامسة عشرة من عمره . كان والدي في عمله تلك الليلة التي جلبوه فيها . كانت فرق عمل الأخبار هنا . أتذكّر أنّ هيئة المحلفين أصدرت قرارها في وقتٍ متأخرٍ» .

تذكّر ووك ذلك أيضاً .

- «قالها والدي ، كانت أسوأ ليلةٍ في حياته . ويمكنك فقط تخيل الأشياء التي رآها . احتجاز طفلٍ . رؤية أولئك الرجال ، الأذرع الممتدة من خلال القضبان ، النداءات . عدد قليل فقط من السجناء كانوا مقبولين ، بل داعمين حتى . لكنّ الأغلبية ، كما تعلم . واصلوا افتعال الضجيج ، مرّحين به بهذه الطريقة» .

أمسك ووك بالسيّاح ، ومرّر أصابعه من خلال المعينات ، كان الهواء الذي وراءها عصياً على الاستنشاق .

- «كنتُ في التاسعة عشرة في يومي الأول هنا» . أطفأ كادي سيّجارتته وبقي ممسكاً بعقبها . «كنتُ أكبر من فنسنت بأربع سنواتٍ ، وقد جاء تعييني للعمل في وحدته . اللعنة ، كنتُ أنظر إليه وأرى طفلاً صغيراً ، حالي كحال الجميع . طفلٌ من مدرستي ربّما ، ربّما أخٌ صغيرٌ ، أياً كان . لقد أحببته على الفور» .

ابتسم ووك .

- «كنتُ أفكّر فيه ، عندما كنتُ أقضي إجازةً في الديار ، عندما كنتُ أشاهد فيلماً مع فتاةٍ تعجبني» .

- «حقاً؟».

- «حياته وحياتي ليستا مختلفتن إلى هذا الحد، باستثناء خطأ واحد. وهكذا كان. حياة طفل... يا يسوع. طفلان إذا ما حسبت فنسنت. إن عاد إلى هنا، إذا آلت الأمور إلى اللاجدوى، فسيكون الوضع أكثر مأساوية. مزيد من الضياع».

كانت قد اعتملت في رأس ووك تلك الأفكار نفسها.

- «كنت سعيداً، عندما أتيت وأخذته. كان الأمر بمثابة نهاية فصل طويل جداً، وبداية فصل جديد. كان لا يزال لديه الوقت يا ووك. فنحن لسنا كباراً جداً في نهاية الأمر».

- «أعلم ذلك». ففكر ووك بالمرض، وكيف حوَّله إلى شخص لم يكن مستعداً أن يكونه.

- «في بعض الأحيان كان الناس يتذمرون بسبب تفضيلي له، وقالوا إنني كنت أعطيه وقتاً في الساحة وما شابه من هذا الهراء. لقد قمتُ بذلك حقاً. فعلتُ كل ما بوسعي لأمنحه إيَّاه. الحياة... حياة مُجتزأة على أية حال. ليس من المفترض أن نشكك في الحكم بكونه مذنباً، فنحن نؤدي وظائفنا، أليس كذلك؟».

- «نحن كذلك».

- «أنا لا أطرح هذا السؤال أبداً. لم أسأله مطلقاً، ليس مرة واحدة طيلة ثلاثين عاماً هنا».

- «هو لم يفعلها، يا كادي».

تنفس كادي بعمق، كأنه كان يحتفظ بهذا السؤال فترة طويلة. ثم استدار وفتح البوابة.

- «لقد تدبَّرتُ لك غرفة».

- «شكراً لك». كان ووك يمقت التحدث عبر الهواتف، من الأسهل البقاء على مسافة منه، مع وجود زجاج عازل بينهما.

قاده كادي إلى غرفة مكتبٍ خالٍ من كلِّ شيءٍ عدا طاولةً معدنيةً وكرسيَّين. كان هذا المكان المخصَّص للمحاميين والموكَّلين، حيث تجري فَبركة الطعون، والأمل، واستنفاد الخيارات. جاء فنسنت، فكَّ كادي أصفاده، ثمَّ نظر إلى ووك وتركهما سويًّا.

- «ما الذي تفعله بحقِّ الجحيم؟» قال ووك.
جلس فنسنت على الكرسي المقابل، ووضع ساقاً فوق الأخرى. «لقد خسرتَ بعض الوزن يا ووك».

رطلان إضافيان. كان يتناول طعام الفطور ولا شيء آخر، يشرب القهوة فقط. كان يعاني ألماً في معدته، ليسَ حادثاً، لكنَّه ثقيلٌ ومستمرٌّ، كأنَّ جسده كان ينقلب عليه مجدداً. كانت حبوبه الجديدة ما تزال تقوم بعملها، وتساعد على البقاء ثابتاً، وعلى الوقوف والمشي، وعلى عَدِّ هذين الأمرين من المسلَّات تقريباً.

- «هل تريد أن تخبرني ما الذي يحدث؟».

- «أرسلتُ لك رسالةً».

- «لقد استلمتها. أنا آسفٌ».

- «لقد عنيتُ ما قلتُ».

- «وكلُّ شيءٍ آخر في الرسالة؟».

- «عنيتُ ذلك أيضاً».

- «لن أجهِّز المنزل للبيع، ربَّما بعد المحاكمة حالما نعرف

شكل المستقبل».

بدا فنسنت متألماً، كأنَّه طلب معروفاً لكنَّه وجد ووك بعيداً تماماً عن إسدائه له. لقد كان واضحاً في الرسالة، وأسلوبه الأنيق في الكتابة جعل ووك يقرؤها مرتين. بع المنزل. اقبل العرض، المليون دولار من ديكي دارك.

- «لدي الشيك بالفعل . أحتاج منك فقط أن تهتمَّ بالأعمال الورقية» .

هزَّ ووك رأسه . «فقط انتظر وسوف نقوم —» .

- «تبدو في حالةٍ مزريّةٍ» ، قال فنسنت .

- «أنا بخير» .

لاذا بالصمت .

- «داتشس وروب . . . والصبي . الصبي الصغير» ، قال الاسمين

بهدهوءٍ ، كأنَّه لا يستحقُّ أن يتلفَّظَ بهما .

- «أنتَ تحتاج شيئاً ما يا فنسنت . يمكننا التحدُّث عنه ، يمكننا

ترتيب شيءٍ ما لكنني أعتقد أنَّكَ تحتاج إلى أن تأخذ وقتك فيه» .

- «الوقت ؛ ذلك شيءٌ أملكه بالفعل» .

أخرج ووك من جيبه علكةً وقَدَمَ واحدةً له .

- «مُهرَّبَةٌ» ، قال فنسنت .

- «صحيحٌ» .

حدَّق ووك به باحثاً عن شيءٍ عجز عن رؤيته . لا شيء يوحى

بالإحساس بالذنب ، أو بتأنيب الضمير . للحظةٍ فكَرَّ في أنَّ فنسنت

فقد روحه ، وأصبح مدجَّناً . لم يقتنع بالفكرة ، لم تبدُ مناسبةً على

الإطلاق . كان فنسنت ينظر بعيداً طوال الوقت ، لم يتمكَّن ووك من

النظر في عينيه لأكثر من طرفة عينٍ .

- «أنا أعرف يا فين» .

- «ماذا تعرف؟» .

- «أَنَّكَ لم تفعلها» .

- «إنَّ الذنب يتقرَّر قبل وقتٍ طويلٍ من ارتكاب الفعل . الناس

لا يدركون ذلك فحسب . هم يظنُّون أنَّهم يملكون الخيار . ينظرون

إلى الراء، ويلعبونها بطريقة مختلفة، يفتحون أبواباً جديدةً، لكنهم في الحقيقة لا يفعلون ذلك أبداً.

- «أنت لا تتكلّم لأنك تعرف أنني سأكشفك. لا تستطيع أن تحافظ على كذبة مقنعة أمامي».

- «هذا ليس —».

- «إذا كنت قد فعلتها فأين المسدّس؟».

ابتلع فنسنت ريقه. «أحتاج منك أن تعيّن لي محامياً».

زفر ووك، ابتسم وربّت على الطاولة براحة يده. «نعم، هذا جيد. أعرف شخصين، إنهما محاميان بارعان».

- «أريد مارثا ماي».

توقف ووك عن النقر على الطاولة. «عذراً؟».

- «مارثا ماي، أريدها هي، وليس أيّ شخصٍ آخر».

- «هي مختصّة في قوانين الأسرة».

- «إنّها المحامية الوحيدة التي أريد».

ترك ووك الجوّ يهدأ بعض الوقت. «ما هي وجهة نظرك هنا؟».

بقي فنسنت مُطرقاً برأسه إلى الأسفل.

- «ما مشكلتك بحق الجحيم؟ لقد ظللتُ أنتظرُك ثلاثين عاماً».

ضرب ووك الطاولة بيده. «بربك يا فنسنت، أنت لم تكن... حياتك، لم تكن حياتك هي الحياة الوحيدة المعلقة».

- «هل تعتقد أن حياتينا كانتا قريبتين من أن تكونا الشيء ذاته؟».

- «ليس هذا ما قصدته. لقد كان الوضع صعباً علينا جميعاً».

ستار —».

وقف فنسنت.

- «انتظر».
- «ما الأمر يا ووك؟ ماذا تريد أن تقول؟».
- «بويد والمدّعي العام. هما يتّجهان لطلب حكمٍ بالإعدام».
- علقت الكلمة في الهواء فوقهما.
- «أخبرُ مارثا أن تأتي لرؤيتي. سوف أوقّع الأوراق».
- «سوف تكون قضيةَ إعدام. يا للهول، فنسنت، فُكّر فيما تفعله».
- طرق فنسنت الباب وأشار إلى الحارس. «سأراك يا ووك».
- رأى مرةً أخرى نصف الابتسامة تلك، الابتسامة التي عادت به ثلاثين عاماً إلى الوراء، وهي التي حمت ووك من أن يقع في اليأس من أمر صديقه.

ناموا حتى الثامنة في أوّل يومٍ أحَدٍ لهم هناك.

استيقظت داتشس أولاً، انحشر شقيقها بالقرب منها، كانت الشمس قد لفحتُه سريعاً، فبدا وجهه مغسولاً بماء الذهب.

مشت من السرير إلى الحمام، استوقفها شكل وجهها في المرآة. كانت قد فقدت وزناً، نحيفةٌ حدّ الهزال، وجنتاها مجوّفتان الآن، وعظام الترقوة بارزةٌ بفخريّ. كانت تزداد شبهاً بوالدتها كلّ يومٍ، حتى إنّ روبن أخبرها أنّه يجدر بها أن تأكل شيئاً.

عندما خرجت من الحمام، ودخلت الرواق رأته. فستانٌ مطبّعٌ بالزهور، أقحوانٌ ربما، بجانبه كانت هناك علّاقةٌ عليها قميصٌ قطنيٌّ أنيقٌ، وبنطالٌ غامق اللون، بطاقات السعر ما زالت هناك، والمقاس من أربع سنواتٍ إلى خمسٍ.

صعدت الدرج ببطءٍ، وهي لا زالت تحاول اعتياد أصوات المنزل العتيق. وقفت تراقبه عند باب المطبخ. حذاءٌ لامعٌ، ربطةٌ عنقيّ، ياقةٌ صلبةٌ. وبرغم أنّها كانت متأكدةٍ من عدم إصدارها أيّ صوتٍ، استدار نحوها.

- «تركت لك فستاناً. نحن نذهب إلى الكنيسة يوم الأحد. إنها كنيسة كانيون فيو، لا نفوّت ذلك أبداً».

- «لا تقل 'نحن' كأنك تعيننا أنا وأخي».

- «الأطفال يحبون الأجواء في الكنيسة، لديهم كعكة بعد أداء الطقوس، لقد أخبرت روبن بالفعل وكان موافقاً».

روبن، الخائن، كان ليفعل أي شيء من أجل كعكة.

- «اذهب أنت إلى الكنيسة، نحن سنبقى هنا».

- «لا يمكنني ترككما لوحدكما».

- «لقد فعلت ذلك طوال ثلاثة عشر عاماً».

فهم تلميحها.

«لم تشتري القياس المناسب حتى. روبن في السادسة من عمره، وأنت اشتريت قياس أربع إلى خمس سنوات، أنت لا تعرف حتى كم عمر حفيدك».

بلع هال ريقه. «أنا آسف».

مشت، وصبت قهوة لنفسها. «ما الذي يجعلك تعتقد أنه يوجد إله على أي حال؟».

أشار باتجاه النافذة. استدارت ونظرت.

- «لا أرى أي شيء على الإطلاق».

- «بل ترين يا داتشس. أنت ترين كل شيء، أعرف أنك ترين».

- «أنا أعرف ما أراه».

نظر إلى أعلى، بدا عليه بعض التوتر، كأنه كان مستعداً لذلك.

- «أرى قوقعة رجل جعل حياته عبارة عن فوضى عارمة، ليس لديه أصدقاء ولا أسرة، لا أحد يهتم به عندما يسقط ميتاً». ابتسمت ببراعة، «من المحتمل أن يحدث له ذلك في حقله، في أرضه المميّزة الملعونة. سوف يرقد هناك حتى يخضر جلده، حتى يأتي صهريج الوقود ويرى عامل التوصيل الغربان، مئات الغربان بين القمح».

ستكون الحيوانات قد مرَّقته بحلول ذلك الوقت، لكنَّ هذا لا يهمُّ لأنهم سوف يحشرونه مباشرةً داخل الأرض، لا أحد ليحزن عليه». رأت ارتجافاً طفيفاً في يده فيما هو يلتقط قهوته. أرادت أن تستمر، ربما تتحدَّث عن خالتها، خالتها الجميلة الحبيبة التي ذوى قبرها غير معتنىٍّ به، لأن والدتها لم تستطع مواجهة الأمر، فيما تركها هال وحدها بالكامل. فلولاها، لو لم تعتد أن تصعد التل، وتقطف الأزهار البرية، لكانت سيسي قد تعفَّنت وحيدةً. لكنها نظرت إلى أعلى ورأت أخاها عند الباب.

صعد روبن على الكرسي المقابل لهال. «لقد حلمت بالكعكة».

نظر هال إلى داتشس.

- «ستأتين إلى الكنيسة، أليس كذلك؟». حدَّق روبن بها، ورأت في عينيه تلك الحاجة إليها. «أرجوك داتشس، ليس من أجل الصلاة، فقط من أجل الكعكة».

صعدت الدرج، انتزعت الفستان من حيث كان معلقاً فوق باب غرفة النوم، متأرجحاً على الإطار، فتحت الخزانة في الحمام، بحثت بين الضمادات، والصابون، والشامبو، وجدت مقصّاً، وشرعت في العمل.

قصَّت الفستان، جعلته قصيراً، فانتصبت الأقحوانات عالياً على فخذيهما الشاحبين. بضع فتحاتٍ عشوائيةٍ تكشف ظهرها، وأعلى بطنها. لم تمرّر فرشاةً في شعرها، بل شعَّته حتى بدا همجياً، أخرجت حذاءها الرياضي القديم من تحت السرير، وركلت الصندل الجديد بعيداً. كانت مُصابةً بجرح في ركبتها، وخدوشٍ من المحاصيل التي كانت بطولها، وندبةً على ذراعها كانت تعلم أنها لن تلتئم. لو أنَّ لديها نهدين، لكانت قصَّت الفستان من الأمام أيضاً.

كانا في الخارج حين نزلت. كان هال قد غسل الشاحنة في اليوم السابق، وساعده روبن، غسلها تحت أشعة الشمس بالصابون، ثم شطفها بالماء، ومسحها بقطعة ممزقة من قماش الشامواه. «أوه، يا يسوع»، قال روبن عندما رآها.

توقف هال، حدّق بها، تلقّى الصدمة، ثمّ صعد إلى الشاحنة. مرّوا بمزرعة أخرى، صفّ من أبراج البث لونها أبيض موشّع بصدأ بنيّ. ضاع الأزيز الثابت الصادر عن الأبراج وراء ضجيج محرّك الشاحنة القديمة. إلى الشرق منهم برز من الأرض أنبوبٌ أشبه بدودةٍ استشعرت أول قطرات المطر، كان يمتدّ فوق سطح الأرض بطول خمسمئة ياردةٍ ثمّ يعود ليدفن نفسه داخل الأرض. بعد عشر دقائق مرّوا بلافتةٍ وحيدةٍ مغروزةٍ في التراب، كُتِبَ عليها: ولاية الكنز.

- «هل كُتِبَ عليها 'كنز'؟».

ربّتت على ركبة روبن. كانت تقرأ معه عشر دقائق كلّ ليلة. كان ذكياً، تمكّنت بالفعل من رؤية ذلك. كان ذكياً جداً بالنسبة إليها وإلى ستار. كانت قلقةً من أن يتقهقر، من أن تستحيل الحياة القديمة كرمّة ملتفةً حول قدميه وتأخذ بجره إلى الورا.

- «معادن». أبقى هال يده على عجلة القيادة، لكنّه استدار ورفع حاجبيه لروبن، «ذهبٌ وفضة».

جرب روبن أن يصفر، لكنّه عجز عن إصدار صوت صغير فعليّ.

إلى الغرب كانت أراضي الهنود الحمر، لم تنجح داتشس حتى الآن في رؤية جاموس البوفالو. استطاعت رؤية المروج، وربّما قطعان الماشية.

- «والينايع، تلك المياه التي تجري عبر بقية البلاد، كلها تبدأ من هنا».

لم يصفر روبن عندئذٍ.
انعطفوا، قابلتهم لافتة تشير إلى أنهم عند كنيسة كانيون فيو المعمدانية. كان الشيء الوحيد الذي رآته هو المزيد من اللون البني.

كنيسة متواضعة من خشب كان أبيض، الجمelon الأمامي متشقّق، وبرج الجرس قليل الارتفاع لدرجة أنه يمكن رمي الحجارة عليه.

- «ألم تستطع العثور على كنيسة أكثر قرفاً؟».

كانت هناك سيارات وشاحنات في الساحة الصغيرة. خرجت داتشس إلى ضوء الشمس، وأخذت تنظر حولها. عنفات رياح توربينية على امتداد خمسين ميلاً.

تجولت سيدة عجوز في الأرجاء، وعلى وجهها ابتسامة عريضة، وبقع من الطفح الجلدي، وبشرة مترهلة، كأن الأرض تدعو الجسد كي يُدفن فيها لكن عقلها كان عنيداً جداً ليسلم بذلك.

- «صباح الخير، أغنيس»، قال هال. «هذان داتشس وروبن».
مدّت أغنيس يدها المتعظّمة. صافحها روبن بحرص شديد، كأنه كان قلقاً من أنها قد تتحرّر من مكانها، ومن ثم سيُكلّفونه بإصلاح الضرر.

- «يا إلهي، إنه فستان جميل»، قالت أغنيس.

- «هذه الخرقة القديمة. ظننت أنها قصيرة بعض الشيء، لكن هال قال إن الكاهن سيستمع برؤيتها كثيراً».

أبقت أغنيس على ابتسامتها برغم أن الارتباك حاول جاهداً أن يحلّ محلّها.

اقتادت داتشس روبن نحو الكنيسة. كانت هناك مجموعة من الأطفال قرب النافذة الجانبية، شعرهم مُصَفَّف، وعلى وجه كل واحد منهم ابتسامة عريضة.

- «لا بدَّ أنَّهم متخلِّفون عقلياً»، قالت داتشس.

- «هل يمكننا أن نذهب ونلعب معهم؟».

- «لا. سوف يحاولون سرقة روحك».

نظر روبن إلى الأعلى نحوها، وهو يحاول البحث عن ابتسامة على وجهها. لكنَّها بقيت ثابتة.

- «كيف سيسرقونها؟».

- «سوف يلهونك بمثلٍ وقيمٍ لا تمتُّ للواقع بصله».

فركت شعره بعصبية ودفعته نحوهم، ثمَّ أومأت له برأسها حين استدار محاولاً العودة.

- «فستان أختك مقرفٌ»، قالت فتاةٌ صغيرة. اقتربت داتشس

منهم، وأعين كلِّ الأولاد تراقبها باهتمام. نظرت الفتاة الصغيرة وراء داتشس، ولوَّحت لسيدةٍ ضخمةٍ تضع ظلَّ عيونٍ بنفسجي اللون.

- «هل هذه أمُّك؟» نصبت لها الفخ.

أومأت الفتاة برأسها.

نظر روبن إليها بعينين متوسِّلتين.

- «ينبغي بنا أن نذهب إلى الداخل»، قالت داتشس وهي تبتلع

ما كانت تنوي عليه.

تنفَّس روبن مجدداً.

جلسوا على مقعدٍ في نهاية الكنيسة.

تبخترت دوللي بكعبٍ عالٍ و نفحةٍ من العطر، غمزت لداتشس.

جلس روبن بينهما، وأخذ يطرح على هال أسئلة عن الرب لا يمكن للأحياء الإجابة عنها.

ترأسهم الكاهن، تحدّث عن أماكن بعيدة، عن الحرب، والمجاعة، وانحلال الأخلاق. مرَّ كلُّ شيءٍ مرور الكرام بالنسبة إلى داتشس حتى أتى على ذكر الموت، والبداية الجديدة التي تشكّل الذروة في غاية كبيرة وعظيمة الاتّساع لدرجة أنّه لا يجدر بنا أن نحاول فهمها أو التشكيك فيها. راقبت روبن، كان سارحاً بأفكاره، وقد عرفت على وجه اليقين إلى أين ذهبت به تلك الأفكار.

إذ أحنوا رؤوسهم للصلاة، رأت وجه ستار خلف عينيها، وكان واضحاً ومطمئناً لدرجة أنّها أرادت الصراخ. شعرت بالدموع على وشك الانهمار، لذا أبقت عينيها مغلقتين بإحكام. ولمّا تحدّث الكاهن العجوز من جديد، ظلت منحنية، وأبقت البوّابة مُغلقة خوفاً من أن تفقد تلك الصورة الأخيرة التي لم تكن مستعدة لها بعد.

شعرت بيدي عليها، يدٌ كبيرة امتدّت فوق أخيها محاولة أن تقدّم لها العزاء حين لم تكن تحتاج إليه.

- «اللّعة عليك»، همست، «اللّعة عليكم جميعاً».

وقفت، وركضت خارجة من الكنيسة بسرعة كبيرة، وبعيداً جداً حتى إنّها ما كادت تسمع نداء اللّعة الأبدية يحاول سحبها إلى التراب.

جلست على العشب الطويل، وجربّت أن تتنّفس لتهدئ نفسها.

لم تنتبه إلى دوللي حتى جلست بجانبها.

- «فستانٌ جميلٌ».

قطّعت داتشس حفنةً من العشب، ورمتها للنسيم الخفيف.

- «لن أسأل إذا كنتِ على ما يرام».

- «جيدٌ».

سُرقت داتشس نظرةً إليها، شفتان لامعتان، عيانان مظللتان
بالأسود، شعرٌ مموجٌ. كانت ترتدي تنورةً بلون الكريمة، وقميصاً
أزرق داكناً من دون أكمام يكشف الكثير من صدرها، ووشاحاً
حريرياً. كانت امرأةً بكل معنى الكلمة، حتى إن داتشس شعرت أنها
طفلةٌ أكثر.

- «إنهما ثديان مكشوفان جداً».

«ما إن أخلع حمالة صدري حتى يتدحرجان في الممر بين
المقاعد».

لم تضحك داتشس. «كلُّ شيءٍ هناك عبارةٌ عن هراءٍ».
أشعلت دوللي سيجارتها، وغطت رائحة الدخان رائحة العطر
تقريباً. «أنا أفهمك يا داتشس».
«ما الذي تفهمينه؟».

- «لطالما كنتُ أكره بهذه الحدة، السنة اللهب تصبح حارقةً
أحياناً، أليس كذلك؟». أضواء طرف السيجارة قليلاً مع هبوب
النسيم.

عادت داتشس لتقطيع العشب. «أنتِ لا تعرفين عني أيَّ هراءٍ
لعين».

- «أعلم أنكِ ما زلتِ صغيرةً. لم أدرك حقيقة الأمور حتى
أصبحتُ عجوزاً».

- «أيُّ حقيقة؟»

«أنتِ لستِ وحيدةً في هذا العالم».

وقفت داتشس على قدميها. «أعلم أنني لست وحيدة، لديَّ
أخي، ولست بحاجةً إلى أي شخصٍ آخر، لا هال، ولا أنتِ، ولا
الكاهن».

كانت بيترووتر عبارةً عن تمذدٍ لكتلٍ من الإسمنت والفلواذ. واجهات المحلات مغطاةً بمنشوراتٍ إعلانيةٍ للحانات، والفرق الغنائية، والمشروبات الكحولية الرخيصة. عشرون ميلاً بعيداً عن كيب، كانت نوعاً من الأمكنة حيث أخذ شيءٌ ما منحىً خاطئاً في أثناء اجتماعات التخطيط.

اجتاز ووك صفوف الوحدات الصناعية، وحاويات الشحن المكدّسة، والتخزين الذاتي، والإمدادات التجارية قبل أن يعثر على المكان.

كان مكتب مارثا ماي للمحاماة جزءاً من مُجمّع تسوّقٍ على طرف المدينة، كان المكتب محشوراً بين مصبغةٍ ومطعمٍ مكسيكيٍّ يروّج لسندويتشات التاكو بثمانية وتسعين سنتاً. ركن ووك الكروزر وعبر موقف السيارات.

عيادة بيترووتر لطب الأسنان، متجر سبيريت للإلكترونيات، ريد للألبان والأجبان، صالون تجميلٍ تُلَمّع فيه امرأةٌ آسيويةٌ ملثّمةٌ أظافر أمّ متعبةٍ تهزّ عربة أطفالٍ بقدمها.

فوقه، استحالت السماء رمادية اللون، وبجانب نيونٍ وامضٍ لافتةٌ كُتِبَ عليها تاكوس. دفع الباب وقُوبِلَ بحشدٍ يملأ المكان من الجدار إلى الجدار، جميعهنّ نساءً، جميعهن مع أطفالٍ، وعيونٌ من نوعٍ يحكي قصصاً متشابهةً ومؤسفةً. كان هناك مكتبٌ وسكرتيرةٌ تناهز السبعين، بشعرٍ أزرقٍ ونظارةٍ وردية. تمطّقت⁽¹⁾ بالعلكة وهي تكتب. وضعت الهاتف بين أذنها وكتفها، وغمزت لفتاةً صغيرةً كانت تصرخ في المكان.

خرج ووك مرةً أخرى.

(1) تمطّقت: أحدث بلسانه وشفثيه صوتاً ليستطيب طعم الشيء - المترجم.

جلس في السيارة حتى الساعة السادسة، قام بعد المغادرين، راقب السكرتيرة تصعد إلى سيارة بونكو مهلهلة، وتقضي دقيقة كاملة في تشغيل المحرك. حين غادر، عبر موقف السيارات مجدداً. كانت الأجواء في المطعم المكسيكي تزداد حرارة مع عمال مكاتب مرهقين يحتسون البيرة عند النافذة.

جرب فتح الباب لكنه وجده مغلقاً، لذلك طرقة عدة مرات. أتاه صوتها على الجانب الآخر من الزجاج المُصنَّفَر. «لقد أغلقنا، عليك العودة غداً، آسفة».

- «مارثا. إنه أنا ووك».

وما هي إلا لحظة حتى سمع القفل يُفتح.
وها هي ذي أمامه.

نظرا أحدهما إلى الآخر لحظة. مارثا ماي، شعرٌ بنيّ يُحيط بوجهٍ ناعم. كانت ترتدي بدلة رمادية، نسقت معها حذاء تشاك تايلورز الرياضي، والذي كاد ووك يبتسم حين رآه.

فكر في أن يقترب ليعانقها، لكنها استدارت من دون أن تبتسم. قادته إلى مكتبها الذي بدا أجمل ممّا كان يتوقع. طاولة مكتب من خشب البلوط، نباتات في أصص، كتب قانون من الجدار إلى الجدار. جلس، وأشارت له أن يفعل المثل.

- «لقد مرّ وقتٌ طويلٌ يا ووك».

- «بالفعل».

- «كنت سأعرض عليك بعض القهوة لكنني مُتعبة جداً».

- «سررتُ برؤيتك يا مارثا».

ابتسمت أخيراً، ابتسامة تمكّنت منه كما كانت تفعل دائماً.

- «آسفة جداً بشأن ستار. أردتُ الحضور، ولكن كان لديّ

موعد جلسة لم أستطع تأجيله».

- «لقد استلمتُ الزهور».

- «هذان الطفلان، يا للمسيح».

كانت هناك ملفّاتٌ مكدّسةٌ بشكلٍ أنيقٍ على مكتبها، لكنّها كانت شاهقة الارتفاع. تحدّثنا بعض الوقت عن ستار، والصدمة الناجمة عن الأمر برمّته، والطريقة التي تولّى بها بويد زمام القضية. جعل ووك الأمر يبدو كأنّه كان مُنخرطاً فيها أيضاً. كان في الأجواء نوعٌ من التوتر الذي يمكن أن ينشأ فقط حين يجتمع مجدّداً شخصان كانا قد رأيا بعضهما عارَين.

- «وفنسنت؟».

- «هو لم يفعلها».

مشتٌ إلى النافذة، ونظرت إلى مشهد الطريق السريع في الخارج. سمع ووك صوت السيارات العابرة، وأبواقها بين الحين والآخر، وهدير الدراجات النارية.

- «لقد أبلّيتِ حسناً يا مارثا».

مالت برأسها بعض الشيء. «لماذا؟ أشكرك على أيّ حال يا ووك. استحسنانك يعني لي الكثير».

- «لم أقصد —».

- «أنا متعبَةٌ جداً كي أخوض أحاديثَ جانبيةً. هل تريد أن تخبرني ما الذي تريده؟».

شعر بجفافٍ في فمه. هو لم يُردّ أن يكون هناك، يطلب معروفاً لم يكن بإمكانه رده.

- «فنسنت يريدك».

استدارت. «يريدني كيف؟».

- «يريدك أن تكوني محامية. أعرف كيف يبدو وقّع ذلك».

ضحكت. «هل تعرف فعلاً يا ووك؟ إذ يبدو من الطريقة التي

أسمعك بها أنه ليست لديك أدنى فكرة». أخذت نفساً عميقاً
وهدأت. كانت هناك لوحةً جدارية تصوّر الجنوب الغربي، وبجانبيها
بطاقاتٌ وصوّرٌ لأُمَّهاتٍ مبتسماتٍ مع أطفالهنّ.

- «أنا لستُ محاميةٌ جنائيةٌ».

- «أعرف ذلك. لقد أخبرته».

- «لا. هذا هو جوابي».

- «لا بأس. لقد سألت».

ابتسمتُ. «ما زلتَ تفعل ما يطلبه فنسنت كينغ».

- «سأفعل أي شيءٍ لمنع قتل رجلٍ بريء».

- «هل هي قضيةٌ إعدام؟».

- «نعم».

تراجعت في كرسيّها، ورفعتُ حذاءها الرياضي فوق المكتب.
«يمكنني أن أوصي بأحدٍ ما».

- «لقد جرّبْتُ ذلك بالفعل».

التقطتُ بعض قطع حلوى من وعاءٍ أمامها، حباتُ M&Ms
بالفول السوداني. «لماذا يريدني بحقّ الجحيم؟».

- «ثلاثون عاماً هناك، من السهل نسيان ذلك، أنتِ وأنا كلُّ ما
لديه الآن».

- «أنا لا أعرفه حتى، ولم أعد أعرفك أنتِ حتى يا ووك».

- «أنا لم أتغيّر كثيراً».

- «هذا ما أخشاه».

ضحك. «هل تريدان أن نأكل شيئاً ما، ونتبادل الأخبار؟».
تكلّم بهدوءٍ فيما بدأ خدّاه بالاحمرار. «إن كنتِ تملكين تسعةً
وثمانين سنتاً فأنا أعرف مكاناً يصنع الذّ شطيرة تاكو».

- «هل يمكنني أن أكون صديقةً معك يا ووك؟».

- «بالتأكيد».

- «لقد قضيتُ وقتاً طويلاً حتى تمكنتُ من ترك كيب هيفن

ورائي. أنا لا أرغب في العودة إلى هناك».

وقف، ابتسم، وخرج من الباب.

راقب ووك الاستيقاظ البطيء لمين .

وقف ميلتون ملطخاً بالدماء ، وقد جهَّز قطع اللحم بطريقة فنية بارعة ، لحم الصدر ، لحم الخاصرة ، ولحم المتن . اشترى ووك شريحة اللحم الخاصة به هناك ، بسعر لا يحلم به المصطافون .

كان قد أغلق الهاتف للتو مع هال . كان يتصل أسبوعياً للاطمئنان ، وليتفقد حال روبن ، الذي ربّما كان الشخص الوحيد الذي سمع شيئاً في تلك الليلة . قال هال إنهم عثروا على طيبة نفسية ، سيدة تعمل من منزلها على بُعد عشرين ميلاً من مزرعة آل رادلي . لم يذكروا أسماء أشخاص أو مدن . كان ووك شديد الحذر .

- «هل تريد قهوة؟» ، قالت ليا من الباب .

هزّ ووك رأسه . «هل أنت بخير يا ليا؟» .

- «مرهقة» .

كان واضحاً في بعض الأيام أنّها كانت تبكي ، عينان حمراوان ومتفختان . خَمَّن ووك أنّ إد هو السبب ، لطالما كان يقدر الجمال . فقد استنتج ووك منذ زمن أنّ الرجال مُبرمجون بطريقة مختلفة ، معيون ، مغفلون لعينون .

- «أحتاج إلى تنظيم هذه الملفات، تلك الموجودة في الغرفة الخلفية».

كانت تلحّ عليه لسنواتٍ من أجل إحداث بعض التغييرات في النظام، واستحداث استثمارات جديدة. لم يكن سرّاً أنّ ووك أحب الأشياء بالطريقة التي كانت عليها. كلّ مرة قُدّم فيها طلبٌ لهدم منزل قديمٍ واستبداله، كان يقُدّم اعتراضاً.

كان رجال شرطة الولاية قد غادروا، تاركين بقايا أغلفة الهمبرغر، وأكواب القهوة، مع وعدٍ من بويد بإبقائه على اطلاعٍ دائمٍ.

- «هل تعتقد أنه يمكنني تأدية بعض نوبات العمل الإضافية؟ أعني، أعلم أنني أوّدي أيام عملي العادية، لكنني تساءلت إن كنت بحاجةٍ إليّ كي أكون موجودةً بعد ذلك».

- «هل كل شيءٍ بخيرٍ يا ليا؟».

- «أنت تعرف كيف هي الأمور. لدي واحدٌ يذهب إلى الكلية، وريكي يريد بعض ألعاب الفيديو».

- «بالتأكيد. سأدبّر شيئاً ما». كان لديهم ميزانيةٌ محدودةٌ لكنّه سيضفي عليها بعض المرونة من أجلها. امتلك إد شركة تالو للإنشاءات، وكانت تعمل هناك في السابق، ولكنّ السوق انقلبت عليهم. تساءل برغم ذلك عن كونِ هذا كلّ ما في الأمر؛ إذ بدا أنّها موجودةٌ في المركز كثيراً، على الشاطئ أيضاً، وفي أي مكانٍ باستثناء المنزل مع زوجها.

كان الملف مفتوحاً، وستار تحدّق منه. التقارير باتت موجودةً الآن.

بجانب ذلك كان لديه ملف فنسنت. أمضى الليلة السابقة وهو

ينظر ثلاثين عاماً إلى الوراء. قرأ السجلات، اطلع أولاً على وفاة سيسى رادلي. ثم على شجار السجن الذي خرج عن السيطرة. كان اسم الرجل الميت باكستر لوغان، وحسب ما قرأه ووك، كان ذلك النوع من الأشخاص الذين أصبح العالم أفضل حالاً بالتخلص منهم. كان بالفعل يقضي حكماً بالسجن المؤبد لاختطاف سمساره عقارات شابة تدعى آني كلافرز وقتلها. قرأ ووك محضر التحقيق، بدا صوت فنسنت واضحاً في ذهنه.

لقد فعلتها. انخرطنا في شجار، ضربته فسقط أرضاً ولم يقم مرة أخرى. لا أتذكر أي شيء آخر. لا أعرف ما الذي أخبرك به أكثر يا كادي. أعطني شيئاً لأوقعه وسأوقعه.

في ثلاث صفحات أخرى شرح كادي الوقائع، محاولاً المداينة والتوجيه بهذه الطريقة المراوغة والتي كانت واضحة جداً بالنسبة إلى ووك. دعونا نسمها دفاعاً عن النفس، لأن الجميع يعرف أن هذا هو ما كانت عليه.

لم يكن دفاعاً عن النفس. بل مجرد شجار. لا يهم من الذي بدأه.

أخذت القضية منحىً متشابكاً مرة أخرى، مستقرة على تهمة القتل من الدرجة الثانية، وسُجن فنسنت عشرين سنة.

التقط ووك الهاتف واتصل بكادي، وتمكّن من الوصول إليه بعد خمس دقائق.

- «أنا أبحث في ملف فنسنت كينغ».
أخذ كادي نفساً عميقاً كأنه يحارب نزلة برد. «اعتقدت أن بويد انتهى من ذلك».

- «لقد فعل».

- «حسن».

- «التقرير الذي حصلت عليه، فنسنت كينغ وباكستر لوغان. ليس هناك الكثير من التفاصيل في تشريح الجثة».

- «أخشى أن هذا كل ما لدينا. لقد مات لوغان نتيجة اصطدامه بالأرض الحجرية. حدث هذا قبل أربعة وعشرين عاماً يا ووك. التقارير لم تكن مفصلة آنذاك».

- «كيف حال فنسنت؟».

سمع صوت الرجل الضخم وهو يرجع بكرسيه إلى الوراء. «إنه لا يتكلم، حتى معي».

- «هل رأى نفسه في الأخبار؟». كان السكان المحليون يصعدون الضغط على المدعي العام لتوجيه الاتهامات ضده.

- «ليس لديه جهاز تلفزيون».

عبس ووك. «لكنني اعتقدت —».

- «أوه يمكنه الحصول على واحد، لقد عرضت عليه ذلك عدة مرات».

- «ماذا يفعل هناك إذا؟».

صمت طويل. «كادي؟».

- «لديه صورة للفتاة، سيسي رادلي. لقد علّقها على الحائط، وهذا هو الشيء الوحيد في تلك الزنانة».

أغلق ووك عينيه بينما كان كادي يطلب منه البقاء على اتصال.

قام بفحص التقرير. كانت الجثة قد شُرّحت على يد ديفيد يوتو، دكتور في الطب الشرعي. كان عنوانه ورقم هاتفه مرفقاً.

اتصل به، ردّ المجيب الآلي فترك له رسالة. أربعة وعشرون عاماً، شك في أن الرجل ما يزال هناك، وإن كان كذلك، فماذا سيسأله بحق الجحيم؟ كان يحاول أن يكون شرطياً، أن يعمل على القضية

بأفضل ما يمكن. لقد مضى قدماً على الرغم من تحذير بويد. هو فقط لم يكن يعرف أيّ اتجاه يسلك.

جاءت لوان ميلر، جلست في الجهة المقابلة، لا تتحدث، بل تراقب النافذة فحسب، كما هو الحال دائماً.

قلب ووك صفحةً وحدث في ستار، شعرها يتدلّى إلى الخلف، وذراعها مطويةً بزاويةٍ كأنّها تمُدُّ يدها إلى شخصٍ ما لمساعدتها.

- «أنت في حاجةٍ إلى ترتيب هذا المكتب». نظرت لوان إلى الأوراق المكدّسة، والفوضى التي تعمّ المكان.

- «أريد التحدث إلى دارك بنفسي».

- «لأنك ستقوم بذلك أفضل من رجال شرطة الولاية؟ هل أنت بهذه القوّة؟».

- «أنا أعرف دارك منذ —».

- «لا شيء، يا ووك. هذا ما تعنيه معرفتك، لا شيء. أنظرُ إلى فنسنت كينغ، فأجدك تراه بطريقةٍ كأنك تتوقّع أنّه ما يزال ذاك الطفل الذي غادر هذا المكان قبل ثلاثين عاماً. لقد رحل، أيّاً كان ما تعرفه عنه، فقد تركه في اليوم الذي دخل فيه إلى إصلاحية فيرمونت».

- «أنت مخطئة».

- «جديّاً، يا ووك. أعلم أنّك لم تتغيّر، لكنّ الجميع قد تغيروا».

خارج النافذة، رأى ووك الألوان برّاقة جداً، الأزرق والأبيض، الزجاج الملمّع، والأعلام الباهتة.

- «حسنٌ، ماذا يوجد هناك أيضاً؟» قالت.

- «السرقة. كان المكان مقلوباً رأساً على عقب».

- «لكن لا شيء مفقودٌ. الأمر أشبه بمعركةٍ خرجت عن السيطرة».
- «ميلتون يكذب».
- «ما من سببٍ وجيهٍ لذلك».
- «دعينا نفترضُ أنها سرقةٌ. يمكن أن تكون ستار قد أربكتهم»، قال، مدركاً أنه ذهب بعيداً في افتراضاته مرةً أخرى، حتى كاد يتلعثم بكلماته.
- «كل هذا الذي تقوله يقتضي بالضرورة أن تستبعد حقيقة أننا وجدنا رجلاً، جالساً في المنزل، دمها على قميصه، بصماته على كل شيءٍ، ودافعٌ محتملٌ».
- «مستحيلٌ»، ردَّ بسرعةٍ.
- «وبرغم ذلك ها نحن ذا. لا شيء لدينا سوى حدسٍ داخليٍّ».
- «لن ينطق فنسنت بكلمة. لن يقول لماذا، لن يقول كيف دخل، أو في أي وقتٍ حدث ذلك. اللعنة، لقد قام بالتبليغ بنفسه. من هاتفهم».
- «لقد كان شرساً. ستار... كم ضلعاً كسرَ لها؟ لديك الصور أمامك».
- تفحص الصور مرةً أخرى، الكدمات تنتشر غاضبةً على طول صدرها، زرقاء إلى أرجوانية، فوق العظام المكسورة. كانت المشاعر متورّطة في الأمر، نوعٌ من الكراهية المشتعلة حتّى إنّ ووك أمكنه الشعور بلهيبها.
- «والتورّم بالقرب من عينها».
- «إنّه هناك، أيّاً كانت الطريقة التي دخل بها، لا تُوجدُ علامةٌ

على حدوث اقتحام. هي تدعوه إلى الدخول، يحدث شيء ما. يضربها. يطلق النار عليها حتى تموت. يركض، يخفي السلاح، ثم يعود ويجلس في المطبخ، يبلغ، وينتظرنا. والطفل روبن محبوس في غرفة نومه لحسن الحظ، ولكن هناك احتمالاً أنه سمع شيئاً ما.

وقف ووك وفتح النافذة لاستحضار صباح مثالي آخر. ساعة أو ساعتان على مكتبه، هذا كل ما أمكنه يوماً أن يتحمّل.

- «أحتاج التحدث إلى دارك»، قال مرةً أخرى. «لديه تاريخٌ مع ستار. إنه عنيفٌ».

- «حجة الغياب مُحكمةٌ».

- «لقد استدعيتها لهذا السبب».

- «قال بويد أن نترك الأمر. لا تعبت بقضية للولاية».

أخذ ووك نفساً عميقاً، كلُّ شيءٍ غائمٌ، لا شيء واضحٌ على الإطلاق، ما عدا حقيقة أنه يعرف فنسنت. لا يهم ما قالت لوان. كان يعرف فنسنت كينغ. فلتحلّ اللعنة على الثلاثين عاماً، لقد كان يعرف صديقه جيّداً.

- «أنت في حاجةٍ إلى حِلاقةٍ، يا ووك».

- «أنت أيضاً».

ضحكت على ذلك. ثم اتصلت ليا وأخبرته أن دي لين تنتظر. وجدها عند مكتب الاستقبال، ثم قادها إلى المكتب الصغير في الخلف. طاولةٌ صغيرةٌ وأربعة كراسيّ ومزهيةٌ كبيرةٌ مليئةٌ بورود الفينديلا. مع إطلالةٍ إلى الخارج على مين، كانت هذه الغرفة تبدو كغرفة استقبال الجدة أكثر من كونها غرفة استجوابٍ.

بدت دي أفضل من آخر مرةٍ كان قد رآها فيها. كانت ترتدي فستاناً صيفياً أصفر بسيطاً وكان شعرها مصفّفاً. القليل من الماكياج

بما يكفي لإعطاء الرّقة دفعةً صغيرةً في مواجهة القسوة. كانت تحمل كيساً ورقياً، ناولته إيّاه.

- «فطائر الدراق»، قالت على سبيل التحيّة، «أنا أعرف كم تحبها».

- «شكراً لك».

لم يكن لديه جهاز تسجيل، ما مِنْ كَرَّاسٍ أو قلم.

- «لقد تحدّثْتُ بالفعل إلى ضباطٍ من شرطة الولاية».

- «أنا فقط أراجع بعض الأشياء. هل ترغبين ببعض القهوة؟».

أحنت كتفها قليلاً. «بالتأكيد، يا ووك».

تركها بمفردها، عثر على ليا وطلب منها أن تشغل الغلاية. عندما عاد، كانت دي واقفةً بجانب النافذة.

- «يبدو المنظر في الخارج مختلفاً»، قالت له، «مين. المتاجر الجديدة، والوجوه الجديدة. أعني أنّ ذلك حدث بالتدريج من دون أن نشعر. هل تعرف عن طلب ترخيص بناء المنازل الجديدة؟».

- «لن يمرّ».

استدارت، وجلست مجدّداً، وصالت بين ساقها. «تعتقدُ أنّي ضعيفةٌ... حيال دارك».

- «أحاول فهم الأمر فحسب».

- «ظهرَ واشترى لي الزهور، وقال لي إنه آسف. وشيءٌ قاد لآخر».

- «أخبريني كيف بدأ الأمر معه».

- «جاء إلى البنك، وفتح حساباً جارياً. اعتقدتُ أنّه...

لطيفٌ هي ليست الكلمة المناسبة لوصف الرجل. هادئٌ لكنّه قاسٍ. تَبّاً يا ووك، لا أعرف ماذا أقول. لقد جاء بضع مرّاتٍ أخرى، وكلّ

مرّة كان يقف في صفّ الانتظار الذي أعمل على خدمته . طلبتُ منه الخروج في موعدٍ، فوافق . هكذا تجري الأمور، صحيح؟» .
- «لقد قلتُ قبلاً إنّهُ ليس هناك شيءٌ طبيعيٌّ حين يتعلّق الأمر به» .

- «كنتُ غاضبةً جداً، بشأن المنزل . لذلك كنتُ أكثرُ من الانتقاد . أستطيع أن أخبرك شيئاً واحداً عنه» .
- «ما هو؟» .

- «لقد كان طبيّاً مع ابنتيّ . منتهٍ ومراعٍ . اعتاد أن يراقبهما، ويدفعهما على الأراجيح . أن يكون معهما فحسب . ذات يوم دخلتُ من الفناء ووجدته مع مولتي وهي جالسةٌ في حضنه . يشاهدان فيلماً لـديزني . ليس هناك الكثير من الرجال الذين قد يحبّون أطفال رجلٍ آخر» .

أحضرتُ ليا القهوة وتركتهما . حين أمسك بفنجانها، ارتعشتُ يده بشدّةٍ لدرجة أنّه وضعه مجدّداً .

- «هل أنتُ بخير يا ووك؟ تبدو متعباً . وربّما أنتُ في حاجةٍ إلى حلاقةٍ . أعني، لا أقصد الإهانة أو شيئاً من هذا القبيل» .

- «إذاً، فقد بقي دارك طوال الليل؟» .

- «طرّدته باكراً قبل أن تنهض البتان» .

غاص ووك داخل كرسيّه، وقد غمره التعب . جفافٌ في عينيه، وألمٌ في عضلاته .

- «أعلم أنّك لا تريد رؤية الأمر على حقيقته يا ووك . فنسنت وستار وكلّ ما إلى ذلك، ولكن بالنسبة إلى دارك، لربّما يكون الرجل حقيراً، لكنّه ليس ما تعتقد أنّه عليه، أو ربّما ليس ما تريده أن يكون عليه» .

- «ما الذي أريده أن يكون عليه؟» .
 - «الرجل الذي يجعل من فنسنت كينغ بريئاً» .

حين انتهت من الحظيرة انتقلت إلى الإسطبل، لم تعد رائحة الروث كريهة كما كانت من قبل. كان هناك حصانان، واحد أسود، وآخر رمادي أصغر منه. لم يكن لهما أسماء، هذا ما قاله هال عندما سأله روبن. حيّره ذلك، فالجميع بحاجة إلى أسماء.

كانت تقوم بالتخلّص من الروث والقش الرطب، وجرفه، وتعبّثه في أكياس، وتُحضر رُزماً ملفوفة من القش الجاف من المخزن، ثم تفكّها وتذروها فوق أرضية الإسطبل. تعلّمت أن تترك البقع المبلّلة، تنتظرها حتى تجف، ثم تقوم بتغطيتها. كانت تملأ المياه للحيوانات، وتقدّم لها الحبوب مرّتين في اليوم. كانت تقتاد الحصانين إلى مكانهما وتغلق البوّابة، وفي بعض الأحيان تتفرّج عليهما يركضان بسرعة، ويركلان كأنّهما على وشك أن يُلجّما. أحبّت داتشس الخيول كما يجدر بكل خارج عن القانون أن يفعل. طلق ناري.

هزّ الدويّ هدوء داتشس بعنف جعلها تسقط على ركبتيها. رفعت الأياكل قدماً واحدة، ومالت برؤوسها إلى لأمام، ثم تفرّقت، وركضت بسرعة كبيرة في مختلف الاتجاهات حتى إنّها كانت قد اختفت جميعاً بحلول الوقت الذي وقفت فيه داتشس على قدميها مجدداً.

هرعت إلى المنزل، وقلبها يضرب بشدّة مع ذهاب أفكارها نحو دارك.

هدأت قليلاً لدى رؤيتها هال على الشرفة، لكنّ القلق كان مرتسماً على وجهه.

- «إنَّه في الطابق العلوي، داخل الخزانة».

صعدت الدرج بسرعة كبيرة نحو غرفتهما، ورأته هناك على الأرض، والبطانية فوق رأسه.

- «روبن»، قالت ولم تكن قد لمستهُ بعد، زحفت بدلاً من ذلك باتجاهه حتى كادت تلتصق به.

- «روبن»، قالت برقّة، «كلُّ شيءٍ على ما يُرام».

- «لقد سمعته»، قال بصوتٍ يكاد لا يُسمع.

- «ماذا سمعتَ؟».

- «المسدّس. لقد سمعته. سمعته مجدّداً».

اقتادهم هال بعد ظهر ذلك اليوم إلى الحظيرة الحمراء، وطلب منهما الانتظار خارجاً في الشمس. مشّت داتشس نحو الباب، اختلست النظر عبر الشق، ورأت هال يلفّ الحصيرة.

- «قال الجدُّ أن ننتظر هنا».

أسكتت داتشس شقيقها.

سحب هال باباً في الأرضية، ونزل إلى الأسفل. عاد ومعه مسدّس، حمله بيده مرتخية، وصندوق معدنيّ في اليد الأخرى. وقفت داتشس بجانب شقيقها.

- «هذا سبرينغفيلد 1911. إنَّه مسدّس يدويّ، خفيف ودقيق».

كلُّ مزارع يحتاج إلى سلاح. ما سمعته قبلاً كان مجرد صيّادين، من المهمّ بالنسبة إليك أن تعتاد الصوت. لا أريدك أن تشعر بالخوف». جثا على ركبتيه، ومدّ يده بالمسدّس نحوهما. تراجع روبن خطوة إلى الوراء خلف ساق داتشس.

- «إنَّه ليس ملقَّمًا، كما أنَّه في وضع الأمان».

مدَّت داتشس يدها بعد دقيقةٍ وأمسكته، كان أبرد ممَّا اعتقدت،
وثقيلًا بينما قال إنَّه خفيفٌ.

تفحَّصتهُ بعنايةٍ، ثمَّ خرج روبن من ورائها، وألقى نظرةً. مرَّرَ
إصبعه فوق المقبض.

- «هل تودَّين أن تجرَّبي إطلاق النار يا داتشس؟».

نظرت داتشس إلى الأسفل نحو المسدَّس، عقلها مع والدتها،
مع تلك الفجوة التي مرَّقت صدرها. فكرت في فنست كينغ.
- «نعم».

في الخارج باتجاه الحقل الأخضر، مزروعاتٌ تكاد لا تعلو
حتَّى كاحل داتشس. بعيداً في الخلف، وصلوا إلى أول أشجار
الأرز، سامقةً وكأنها سلالٌ تصل إلى السماء.

على جذعٍ أعرض منهما مجتمعين كانت هناك بعض العلامات،
والبثور المصطقة إلى جانب بعضها. الأوراق ميتةٌ ومستقرَّةٌ هناك منذ
وقتٍ طويلٍ. تسلَّلت الطحالب الخضراء إلى الأغصان المتساقطة،
وبرك الماء الصغيرة تتلألأ مع العرائش فوقها.

عاد بهما هال إلى الورااء خمسين خطوةً، أزال أربع رصاصاتٍ
وأراهما المخزن في أثناء تلقيمه. مضى في شرحٍ سريعٍ عن الأمان
والتصويب، الوضع الصحيح لليدين، وكيفية التنفس بهدوءٍ وانتظامٍ،
ثم سلَّم كلاً منهما زوجاً من واقيات الأذن.

في المرة الأولى التي أطلق فيها هال النار، قفز روبن إلى
الخلف وأمسكته داتشس. في المرة الثانية فعلَ الشيء ذاته، في
الثالثة والرابعة أقل بقليلٍ.

لقَّمت داتشس المسدَّس بعد ذلك، بينما يقوم هال بتوجيهها.

تعاملت مع الرصاص بحذرٍ كما علّمها، لكنّ قلبها ظلّ يخفق بشدّة، والذكريات تتدفق، وترخي بثقلها العظيم فوق كاهلها. ووك ورجال الشرطة الآخرون، شقيقها، الشريط العازل، عربات الأخبار، والضجيج.

أخطأت ست مراتٍ على التوالي، في كل مرةٍ كانت يدها تنخلع بعنفٍ إلى الخلف بفعل قوّة الارتداد بدلاً من تثبيت قدميها في الأرض. أصبح روبن أكثر جرأة، كان ما يزال ممسكاً بيد هال لكنّه لا يدير رأسه.

لقّمت مرةً أخرى، هذه المرة كانت معها أصوات الغابة فقط، وكان هال يراقب عن كثبٍ لكنّه تركها لتكتشف الأمر بنفسها.

في المرة الأولى التي أصابت فيها الشجرة، انتزعت الرصاصة قطعةً من لحائها.

ثم تمكّنت من وضع رصاصتين في المنتصف، فأخذ روبن يهلّل ويصفق.

- «تعلمت إطلاق النار»، قال هال.

استدارت قبل أن يتمكن من رؤية تلك الابتسامة الصغيرة.

عملت على تصويبها في حقل الرمي ذاك، حتى تمكّنت من زرع الرصاصات في منتصف جذع الأرز، وإلى الأعلى قليلاً أو إلى الأسفل قليلاً. ثم أرجعها هال عشرين خطوةً إلى الوراء وشرعت تتعلّم من جديد. تصحيح الزاوية، إطلاق النار وهي راكعة، ثمّ منبطحةً على بطنها. التجرد من المشاعر، تدفّق الأدرينالين، السمات البشرية التي تفسد البراعة.

في طريق العودة نحو المزرعة، اندفع روبن نحو بيت المزرعة لتفقد طيوره، الدجاج. كان يجمع البيض كل صباح، كانت هذه وظيفته وحده، وقد عاش من أجلها.

كانت داتشس تتفرّج على الأرض عندما بدأت الشمس بالغروب، لم تكن قد انخفضت بما يكفي لتتداخل الألوان وتتكسّر، لكنها أحسّت بانخفاض درجات الحرارة. كان الصيف يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقال هال إن الخريف مذهل.

انتصبت واقفةً بالقرب من الفرس الرمادية التي جاءت صوبها. داعبتها داتشس برفقٍ.

- «هي لا تأتي إليّ»، قال هال، «إنّها تحبّك، وهي لا تحب الكثير من الناس».

لم تقل داتشس شيئاً، لم ترغب في خوض حديثٍ معه، لم ترغب في أن تفقد تلك النار التي تبقىها قادرةً على المضيّ قدماً كل يومٍ.

في تلك الليلة، تناولت العشاء بمفردها على الشرفة، وانقبضت معدتها لدى سماعها هال يضحك على شيء قاله روبن. كانت لحظاتٌ مثل تلك تؤثر فيها، وتجرّها إلى الوراء رجوعاً إلى كيب. كان الرجل العجوز يضحك ويبتسم بعد ما مرّ به أحفاده، والرابط مع شقيقها كان آخذاً في التشكّل.

عادت إلى المطبخ، فتحت الخزانة وسحبت زجاجة ويسكي من نوع جيم بيم من الرف العلوي.

أخذتها إلى البحيرة، فكّت الغطاء وشربت. لم يجعلها الطعم اللاذع تحجم عن الشرب. فكَرَّتْ في فنسنت كينغ، شربت أكثر، وشربت مرةً أخرى. شربت، وشربت حتى خفّ الألم، شعرت بعضلاتها ترتخي، وبدأ العالم يدور. ذابت المشاكل، وأصبحت الحوافّ أقلّ قسوةً. استلقّت على ظهرها وأغمضت عينيها، وهي تستشعر حضور والدتها.

مرّت ساعةٌ حتى تقيّأت .
وساعةٌ أخرى حتى وجدها هال .
عبر الغشاوة فوق عينيها تمكّنت من رؤية عينيه ، تَيْنِكَ العينين
الزرقاوين الدامعتين فيما هو يهْمُ في رفعها بلطفٍ .
قالت بصوتٍ خافتٍ . «أكرهك» .
قَبَّلَ رأسها وهي تضغط خدها على صدره وتترك للظلمة أن تعثر
عليها .

مكتبة

t.me/soramnqraa

لو أنَّ للمنازل أرواحاً، لكانت روح منزل ستار سوداء مثل ليلة من ليالي ديسمبر.

ظنَّ ووك أنَّ دارك سوف يبدأ العمل بمجرد أن يفرجوا عن المنزل، ربّما يُجري عليه بعض التحسينات من أجل مستأجرٍ جديدٍ، أو قد يُسوِّي المكان بالأرض فحسب ويبدأ من الصفر. لكنّه بقي من دون أن يُمسّ، بل استُبدِل الباب الرئيس بغطاءٍ من الخشب الرقائقي، وانتزعتِ النافذة وغطّي مكانها. العشب كان طويلاً وأصفر.

- «أعرف أنَّك تفتقدها يا ووك. أنا أيضاً أفتقدها، وأفتقد الولدين أيضاً».

لم يكن ووك يحتاج أن يلتفت، فقد شمَّ رائحة الدم على الفور.

- «هل من أخبار عن فنسنت كينغ؟ ظننتُ أنَّهم سيكونون قد وجَّهوا له الاتِّهامات بحلول هذا الوقت. الصحف تقول إنّه سوف يُعدم إذا ما وُجدَ مذنباً».

شعر ووك ببعض التوتر. آخر ما سمعه كان أنَّ المدَّعي العام قد طلب من بويد أن يعيد النظر في مسألة سلاح الجريمة. مع مخالفة

انتهاك إطلاق السراح المشروط، فإنَّ فنسنت ما كان ليذهب إلى أيِّ مكانٍ، والوقت كان في مصلحتهم.

- «تُعجبني اللحية بالمناسبة. جميلة، جميلة حقاً. إنها تصبح سميكَةً. يمكنني أن أُطلق لحيّتي. يمكن أن نصبح ملتحيينِ سوياً. سيكون ذلك مسلياً، أليس كذلك يا ووك؟».

- «بالتأكيد يا ميلتون».

كان ميلتون يلبس سترةً وقميصاً، وخصلات شعره الكثيف تلتف نزولاً من كتفيه حتى أسفل ذراعيه.

- «ما حدث في هذا المكان شيءٌ مخيفٌ، صحيح. الدُم وكلُّ شيءٍ. حين يكون الأمر متعلّقاً بحيوانٍ، فلا بأس في ذلك. حسنٌ، النباتيون يَرون الأمر من منظورٍ مختلفٍ، لكنّهم سيأكلون اللحم الأبيض طالما أنّه عبارةٌ عن شرائح رقيقةٍ بما يكفي».

حكَّ ووك رأسه عندئذٍ.

- «لكن حين أفكّر في ستار مستلقيةً هناك»، أمسك ميلتون معدته، «لا تقلق على أيّة حالٍ، لقد كنتُ أراقب المكان. إذا رأيتُ أطفالاً أو أيّ شيءٍ، فسوف أبلّغ عن الأمر. الرمز 54-10».

- «إنّه رمز قطعٍ سائبٍ على الطريق السريع».

استدار ميلتون وقفل راجعاً عبر الشارع، وهو يجرجر قدميه بثاقلٍ، وتلك الرائحة المعدنية تقتفي أثره.

دخل ووك عبر الممرِّ، وطرق على باب مرأب براندون روك.

انفتح الباب على ضوءٍ ساطعٍ، كانت موسيقا فرقة فان هالين تصدح بصوتٍ عالٍ. رائحةٌ نفاذةٌ من العرق والكولونيا. كان براندون يرتدي سروالاً من الليكرا، وقميصاً ضيقاً ينزل حتّى أسفل صدره فقط.

- «ووك، أنت الذي كنتَ تتحدَّث مع الساسكواتش⁽¹⁾ للتو؟» .
- «هل أصلحتَ ذاك المحرِّك؟» .
- «هل كان يتذرَّم مجدِّدًا؟ هل تعلم أنَّني تقدَّمتُ بطلبٍ للقيام بالقليل من الأعمال في المنزل، أردت أن أفتح القسم الخلفي منه وأن أضيف غرفةً صغيرةً مخصَّصةً للرياضة . خَمْنُ من الذي تقدَّم باعتراضٍ؟» .
- فتح براندون زجاجة ماءٍ، وسكب نصفها فوق رأسه . «أنا بحاجة إلى ذلك بعد التمرين» .
- «أصلح السيارة، يا براندون» .
- «هل تتذكَّره أيام المدرسة يا ووك؟ كنت أواعد جوليا مارتين في ذلك الوقت، وقد قالت إنَّ ميلتون كان يلحق بها إلى منزلها . لقد أثار الذعر اللعين في نفسها» .
- «كان ذلك قبل ثلاثين عاماً» .
- خطا براندون خارج المرأب، وحدَّق في منزل آل رادلي القديم . «أتمنَّى لو أنَّني كنتُ هنا تلك الليلة . لربَّما تمكَّنتُ من فعل شيءٍ، لا أعرف» .
- كان ووك قد قرأ الاستجواب . مختصرٌ جداً . لقد استجوبوا الجميع منتقلين من بابٍ إلى آخر . «إذاً فقد كنتَ بعيداً في تلك الليلة» .
- «تماماً كما أخبرتُ السيدة من شرطة الولاية، أخذني إد تالو مع بعض العملاء الذين يتطلَّعون إلى البناء على أطراف المدينة . هل سمعتَ بذلك؟ إنَّهم يابانيُّون، وأنتَ تعرف كيف يحبُّون الاحتفال» .

(1) ساسكواتش: أو بيغ فوت، مخلوق خرافي لا يزال البعض يعتقدون بوجوده في غابات الغرب الأوسط - المترجم .

- «صحيح».

شدَّ براندون ذراعه اليمنى. «أنا أحافظ عليها قويةً. عندما أجري العملية الجراحية في الركبة، سأعود للرمي (يتحدث عن اليبسبول) مجدداً».

لم يلقِ ووك بالاً للجملة الأخيرة.
لَكُمْ براندون ذراعه بلطفٍ، ثُمَّ اتَّجه عائداً إلى المرأب. أغلق الباب، أطفأ الضوء، وأسكت ضجيج الموسيقى.

تقدَّم ووك إلى فناء ستار الأمامي، وهو يحاول أن يتماسك بينما كانت ذكرى تلك الليلة تجتاحه. شعر بالعرشة تسري في جسده، تهوي به إلى الذكريات ولا شيء غيرها، ومن ثُمَّ وجد نفسه يسير على أطراف المنزل.

فتح البوابة الجانبية. لم تُقفَل يوماً، ليس في كيب هيفن، ثُمَّ تجمَّد في مكانه حين سمع صوتاً في الداخل. اقترب بحذرٍ، استرق النظر من النافذة فرأى ضوء مصباح يدويٍّ.

على الشرفة، سحب ووك مسدَّسه، وكان على وشك التحرك.
تراجع ووك خطوةً إلى الوراء، إذ رأى الرجل الذي يزيده طولاً بكثير.

- «دارك».

حدَّق فيه من دون أن يقول شيئاً.
- «لقد أفرعتني». أعاد ووك المسدَّس إلى قرابه بينما جلس دارك على المقعد.

انضمَّ ووك إليه، وجلس بجانبه من دون أن يُدعى إلى ذلك.
«ما الذي تفعله هنا؟».

«إنَّه منزلي».

- «صحيح».

كان ووك أكثر من معتادٍ على الحرِّ لكنه ظلَّ يمسح العرق عن رأسه. «سمعت أنك تحدّثت مع رجال شرطة الولاية. قرأت التقرير لكنني أردت التحدّث معك بنفسي، كنت على وشك الاتصال، لكنك وفّرت عليّ العناء الآن».

- «الطفلان. كيف حالهما؟».

- «هما...» بحث ووك عن الكلمات.

- «أردتُ التحدّث إلى الفتاة».

نظر إليه ووك عندها وقد تبيّس جسده. «لماذا؟».

- «لأقول لها إنني آسف».

- «على ماذا بالضبط؟».

- «لقد فقدتُ أحد والديها. إنها صعبة المراس، أليس كذلك؟».

كان يتكلّم ببطء، كأنَّ كلَّ كلمةٍ قد اختيرت بعنايةٍ شديدةٍ.

- «إنها طفلة».

تسلل ضوء القمر إليهما عبر الأشجار.

- «أين ذهبا؟».

- «إلى مكانٍ بعيدٍ جداً من هنا».

استراحت اليدان العملاقتان فوق الفخزين العملاقين. فكّر

ووك في كيفية المضيّ قدماً في حياةٍ كهذه؛ حشودٌ تتفرّق، وأناسٌ يحدّقون.

- «أخبرني عنها».

- «داتشس؟».

أوماً دارك برأسه. «إنها في الثالثة عشرة، صحيح؟».

تنحج ووك. «تلقينا عدة مكالماتٍ من منطقة هيلتوب ميدل.

قال الناس إنهم كانوا يرون سيارةً قابعةً بجوار سور المدرسة. سيارةٌ

سوداء. لم يأخذ أحدٌ رقم اللوحات أبداً».

- «أنا أملك سيارةً سوداء، أيُّها الرئيس ووكِر».
- «أعرف».
- «هل فكَّرتَ يوماً في الأشياء التي فعلتها؟».
- «بالتأكيد».
- «والأشياء التي تعرف أنه سيتعيَّن عليك فعلها».
- «لست متأكداً من أنني أفهم ما الذي تعنيه».
- نظر دارك إلى القمر.
- «أنت تعرف أنَّ هناك شائعاتٍ حولك يا ديكي».
- «نعم».
- «يقول الناس إنَّك شخصٌ عنيفٌ».
- «أنا عنيفٌ. قلْ لهم ذلك».
- شعر ووك بحلقه جافاً فيما ظلَّ الرجل الضخم شاخصاً بعينه نحو السماء.
- «أنا أراك في الكنيسة»، قال دارك.
- «أنا لا أراك».
- «أنا لا أدخل. ما الذي تصلِّي من أجله؟».
- وضع ووك يده على مسدَّسه. «نهايةٌ لائقةٌ وعادلةٌ».
- «الأمل دنيويٌّ. والحياة هشةٌ. وفي بعض الأحيان نتشبَّثُ بها بكلِّ قوَّتنا، برغم معرفتنا أنَّها آيلةٌ إلى الانكسار». نهض دارك على قدميه، تاركاً ووك في ظلِّه.
- «إذا تحدثتَ إلى الفتاة فأخبرها أنني كنتُ أفكِّر فيها».
- «ما يزال لديَّ أسئلةٌ».
- «لقد أخبرتُ رجال الشرطة أولئك بكلِّ شيءٍ، يمكنك الاتصال بمحامِيَّ إذا كنت في حاجة إلى أي شيءٍ آخر».

- «وفنسنت؟ هل تعرف بأمر المنزل؟ هو يفكر في البيع،
أليكَ أيَّة فكرةٍ ما الذي جعله يغيّر رأيه؟».

- «ربّما حصل على السعر الذي يريده. المأساة تأتي بجلاء
الفكر وصفاء الذهن. أنا أتواصل مع البنك، سأحصل على المال
قريباً».

استدار وغادر. وقف ووك، اقترب من الزجاج ومدّ يده إلى
مصباحه اليدوي.

كلُّ جزءٍ من المطبخ كان قد خُرب. نُقِبَت ألواح السقف،
والجدران الجصية. أيّاً كان ما يفعله دارك، فهناك شيءٌ واحدٌ
مؤكدٌ، وهو أنّه كان يبحث عن شيءٍ ما.

كان الصيف ينتهي في مونتانا أسرع ممّا كان عليه الأمر في
كيب، على شكل قطراتٍ صغيرةٍ متساقطةٍ في البداية، ثمّ بوابلٍ من
الصباحات الغائمة، والغسق الكثيب.

تلقّت داتشس بطاقةً بريديّةً من ووك، مجرد صورةٍ مأخوذةٍ من
طريق كابريلو السريع. كتب مخربشاً بيدٍ مرتجفةٍ على ظهر البطاقة
بقلم أزرق، كان خطّه سيّئاً للغاية لدرجة أنّها قرأته بصعوبةٍ.
أفكر فيكما أنتما الاثنين.

ووك.

قامت بتهيئة البطاقة على الحائط خلف سريرها.

كانت لا تزال لا تتحدّث إلى الرجل العجوز، وتتمتم مع
الفرس الرمادية عوضاً عن ذلك. أصبح هذا روتيناً بالنسبة إليها،
كانت تتحدّث إليها عن الأشياء التي لا ترغب في الحديث عنها،
عن دارك وفنسنت، عن المرّة التي أخرجت فيها القيء من فم

والدتها بأصابعها، والمرّة التي استلقت فيها مع روبن بوضعية التعافي تحت شجرة الكرز في ليتل بروك.

جلست على الدرج في بعض الليالي، واسترقت السمع حين كان هال يتحدّث إلى ووك عبر الهاتف.

روبن يحرز تقدماً، هو يحب الحيوانات. ينام جيداً. يأكل جيداً. قالت تلك الطيبة إنه يتحسن. تراه نصف ساعة كل أسبوع، وهو لا يشتكي من ذلك.

بعد ذلك تتغيّر النبرة، يصل النّوّاس إلى أعلى نقطة ثمّ يدخل طور الهبوط، معدّلاً مكاسب الطور السابق. هي... لا تزال هنا، يا ووك. إنّها تقوم بعملها ولا تتذمر. في بعض الأيام أفقدها في الأرض، إنّها تعبر أكوام الشعير وتختفي فحسب. في البداية، أصبت بالذعر، وركضت خارج السياج، قدت الشاحنة في الأرجاء. وجدتها على ركبتها، هناك بقعة مخبأة قرب بيدر القمح، وبعيداً عن الماء. إنّها عبارة عن حفرة، مساحة صنعتها لحظيرة لكنني لم أحتجها أبداً. كانت هناك جاثية على ركبتها، لم أستطع رؤية وجهها لكنّي أعتقد أنها كانت تصلي.

لقد حرصت على عدم العودة إلى ذلك المكان. كانت قد وجدت بالفعل مكاناً جديداً، قطعة أرض داخل غابة كثيفة، مدركة أنّ هال لن يجدها مرة أخرى.

كانت ترجع إلى الليلة التي ماتت فيها والدتها. اعتقدت أنّها كانت في حالة صدمة كل يوم منذ ذلك الحين. لكنّ الحزن حلّ الآن، إنّهُ يتغلغل ببطء، كل ساعة، شيئاً فشيئاً، يثبتها ويجعل منها عاجزة في الوقت الذي تحتاج فيه أن تكون قوية.

كانت تصرخ في بعض الأيام.

عندما كانت بعيدة، على بعد نصف ساعة من بيت المزرعة،

من شقيقها ووجنتيه الورديتين، بينما كان يساعد في حفر التربة، كانت تميل برأسها للخلف وتصرخ باتجاه السحب، هذا النوع من الصراخ الذي يجعل الرمادية تنتصب واقفةً، مشرّبة الرأس، ممطوطة الرقبة الطويلة والرشيقة جداً. عندما تنتهي من ذلك، كانت ترفع يدها إلى الفرس. وتشير إليها أن تمضي، وتتناول بعض العشب.

في الليل، في العتمة، تحدّثا.

- «رجال الشرطة أولئك»، قال روبن.

- «نعم».

- «ظنّوا أنني كنت أكذب عليهم».

- «هذا ما يبدو عليه رجال الشرطة».

- «ووك لا يبدو هكذا».

لم تجادل. لكن أياً يكن الأمر، فالرجل الذي كان يأتي ويملاً ثلاثتهم ويأخذهم إلى السينما، ما يزال شرطياً في النهاية.

- «كيف سار الأمر اليوم؟» قالت له، كما كانت تفعل كل أسبوع.

- «إنها لطيفة. لقد سمحت لي أن أناديها كلارا. لديها أربع قطط وكلبان، تخيّلني».

- «يبدو أنّها لم تجد الرجل المناسب. هل تحدّثت عن تلك الليلة؟».

- «لم أستطع. الأمر فقط... أنا أحاول، لكن لا شيء هناك على الإطلاق. أتذكرك تقرئين لي، ثمّ أعط في النوم، ثمّ أستيقظ في سيارة ووك على ما أظن».

مالت متكئة على مرفقها قريباً منه بينما كان مستلقياً على ظهره.

«إذا حدث أن تذكَّرتَ سماعك لأيِّ شيءٍ تلك الليلة، يجب عليك أن تخبرني أولاً. سوف أقرِّر ما سنفعله حيال ذلك. لا يمكنك الوثوق برجال الشرطة أولئك الآن. أو حتى بهال. ليس لنا لأحدنا إلا الآخر».

كانت تطلق النار من المسدَّس كلَّ يومٍ بعد الظهر. أخذها هال إلى تلك البقعة حيث الشجرة العريضة، وبات روبن يقودهما الآن غير خائفٍ. كانت ما تزال لا تتحدَّث إلا عندما تضطر إلى ذلك، وحين تفعل كانت تضرب في الصميم، كلامٌ عن الرب أو الهجران، لكنَّ هال كان يأخذ الأمر بشكلٍ مختلفٍ الآن، لم يدع الأشواك تنغرز، والخطاطيف كانت تنزلق عن جلده من دون أن تلحق به الأذى.

أخبرته أنَّها لا تحبُّه وأنَّها لن تفعل أبداً، ولن تناديه بغير اسمه المجرَّد، ولن تفكِّر في شيءٍ سوى أن تأخذ روبن وتتركه ليموت وحيداً في اللحظة التي تصبح فيها كبيرة بما يكفي. ردُّ هال كان تعليمها القيادة.

كانت الشاحنة القديمة تتخبَّط بعنفٍ، وشهدتِ الهكترات المستوية، أكثر من غيرها في أرض هال، على داتشس وهي تزيد من سرعتها فيما يدا هال متشبَّتان بالمقعد. وفي الخلف جلس روبن في المقعد المخصص للأطفال يراقبهما، مرتدياً خوذة الدراجة ووسادتي الأكواع، فقد كان هال قلقاً من أنَّها ستجعل الشاحنة تنقلب. تمكَّنت من تعليق عصا التعشيق من دون أن تطحن التروس كثيراً، وشعرَتْ بعضَّة التروس كما قال لها هال. في بعض الأيام كانت تصل إلى سرعة ستِّين ميلاً قبل أن يوبَّخها هال. في ظرف أسبوعٍ كان باستطاعتها أن توقف السيارة من دون أن يرتطم هال

بالزجاج نتيجة الاندفاع الناجم عن الاستعمال المفرط للفرامل ، ومن دون أن يضطر للشتم لأنه نسي أن يربط حزام الأمان .

كانوا بعد ذلك يعودون إلى المنزل مشياً ، تُمسك داتشس يد روبن اليسرى ، وهال يده اليمنى . سيخبرها هال أنها أبلت حسناً ، وستخبره أنه معلّم سيّئ . سيقول لها إنَّها تعاملت مع السيارة بسلاسة ، وستقول له إنَّ سيارته كانت عبارةً عن قطعة من الخردة . سيعدها أنه سيصطحبها كي تقودها مجدّداً في اليوم التالي ، ولن تقول شيئاً ردّاً على ذلك لأنها . . . حسنٌ ، لقد كانت تحبُّ القيادة .

في بعض الصباحات كانت تضبط الرجل العجوز يراقب روبن وهو يأكل ، أو يراقبه يلعب مع الدجاجات ، أو يتسلّق جرّار الحراثة ، وكانت تلتقط في عينيه تلك النظرة التي كانت مزيجاً من الحبّ والندم . وفي تلك اللحظات كانت تحارب كي تتمكّن من كرهه ، وهي معركةٌ كانت تفوز فيها بسهولةٍ عندما وصلا إلى هذا المكان ، أمّا الآن فقد تحوّلت إلى معركةٍ يتوجّب عليها أن تحشد لها المزيد والمزيد .

كانت لا تزال تحتفظ بثيابها داخل حقيبةٍ ، مطويةً ونظيفةً . في بعض الأحيان كان يقوم بغسل الثياب ، فكانت تصرخ عليه أن يترك أغراضهما اللعينة وشأنها . كانت تجد ملابسهما معلّقةً في الخزانة ، فتنتزعها من هناك وتعيدها إلى الحقيبة . كان يشتري النوع غير الصحيح من معجون الأسنان لروبن ، فتصرخ عليه ، نوع الشامبو غير الصحيح ، العلامة التجارية غير الصحيحة من حبوب الإفطار . كانت تصرخ بشدّة حتّى تتأدّى حنجرتها . كان روبن شاهداً على كل ذلك . في بعض الأحيان كان يطلب منها الهدوء فتهدأ ، فتخرج لتمشي عبر الأرض الشاسعة ، تلعن وتشم مثل فتاةٍ لعينةٍ مجنونةٍ أمام الشمس الآيلة للسقوط .

لم تعد تفكر كثيراً في فنسنت كينغ، وديكي دارك، باتا
صفحات مطوية من أحلك فصول حياتها. كانت تعرف أنهما
سيعاودان الظهور، مثل المفاجآت واللدغة في حكايتها.
أكثر من كل شيء، كانت تشعر بالتعب. ليس بسبب العمل أو
النوم، بل بسبب الكراهية المعشّشة عميقاً في داخلها.

- «أحتاج أن أحمل مسدساً إلى المدرسة».

- «لا». كان هال قلقاً في صباح ذلك اليوم الأول.

روبن كان قلقاً أيضاً، كانت لديه أسئلة عن المدرسة، وعن المكان الذي س يلتقي بها فيه، وما الذي سيحدث إذا لم تظهر. لم تكن هناك حافلة تنتقل لمسافة بعيدة وصولاً إلى أراضيهم، لذا قال هال إنه سيقوم بتوصيلهما وإعادةتهما. تذر في البداية من أن ذلك سيستنزف الكثير من وقته الثمين خلال النهار، إلى أن قالت له داتشس إنهما سيستقلان بدلاً من ذلك شاحنة عن الطريق، سائقها مغتصب أطفال، أو ربّما يمكنها أن تبيع جسدها لتجمع المال من أجل سيارة أجرة.

- «هل سيحبّني الأطفال الآخرون؟».

- «أنت أمير».

- «بالأكيد»، قال هال، «وإن لم يفعلوا فسوف يكون عليهم أن يتعاملوا مع شقيقتك».

- «مع ذلك، ما زلت لا تسمح لي أن أحزم حقبتك». أنهت حبوب إفطارها، ثم تحققت من حقيبة روبن المدرسية، وتأكدت من أنه يحمل مقلّمته وقارورة مياهه.

سمح لها هال بقيادة الشاحنة، فقط إلى النقطة التي تطوي فيها أشجار الصمغ خطَّ الأفق. تركتِ التعشيق على وضع الحياض بينما كانت تخرج من مقعدها وهال يخرج من مقعده هو الآخر. التقيا عند صندوق السيارة، فأوماً هال برأسه مرّةً، وأومأت داتشس له في المقابل.

- «انتبها إلى بعضكما»، قال وعيناه على الطريق.

- «ماذا لو أخذ الأولاد الكبار نقود غداً؟»، قال روبن، وقد اشرباً عنقه وفتحت عيناه على اتساعهما.

- «يمكنهم أن يحاولوا فعل ذلك. أنا الخارجة عن القانون داتشس داي رادلي، سأضع رصاصةً بين أعينهم».

- «إذا كنتِ تريدين حقاً أن تكوني خارجةً عن القانون، فعليكِ إذاً أن تتعلّمي امتطاء الرمادية»، قال هال.

- «أنت لا تعرف شيئاً. أستطيع ركوب الخيل، إنه شيءٌ في دمي».

- «لقد قرأتُ القليل عن بيلي بلو رادلي ذات مرّة».

نظرتُ داتشس إليه، وقد تبدّل عبوسها إلى اهتمام.

- «يمكنني أن أخبرك عنه ذات يوم إن كنتِ ترغبين في ذلك».

«حسنٌ». لم تكن تلك هدنةً أو اقتراحاً لهدنةٍ.

توتّر روبن إذ انعطفوا نحو المدرسة، الحافلة، الأهالي، الجلبة، وسيارات الدفع الرباعي. رأت سيارة فوردي بعجلاتٍ موحلة، وسيارة مرسيدس شديدة اللمعان. فكَرَّتْ في دارك، وسيّارته الإسكاليدي.

- «هل تريدان أن أمشي معكما إلى الداخل؟». ركن هال الشاحنة عند الرصيف.

- «لا. قد يعتقد الناس أنك والدنا. ستعترض لتتّمّر لا يرحم».

أخذت حقيبة روبن، وأمسكت يده، ونزلا إلى الشارع.

- «سأكون هنا عند الثالثة»، قال هال من النافذة.

- «نحن لا نخرج حتى الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة»،

قال روبن.

- «سأكون هنا مع ذلك».

تحركا بين مجموعاتٍ من الأطفال المُسَمَّرين بفعل الصيف،
يحكون بعضهم لبعض قصصاً صاخبة ومبالغاً فيها. التقطت داتشس
الأجزاء التي شكّلت صورةً عامةً، إجازاتٍ وشواطئٍ ومُنْتَزَهاً.
رمقوها بنظراتهم فرمقتهم بالمقابل.

اقتادت روبن إلى صفه وأدخلته إليه، حيث ركع حشدٌ من
الأمهات كي يقبلن أطفالهنّ ويداعبنهم. كان هناك طفلٌ صغيرٌ
يبكي.

«سيكون الولد الضعيف في الصف، لا تتسكع معه»، قالت

داتشس.

كانت المعلمة شابة في مقتبل العمر، تتجول بين الأطفال
مبتسمةً، تجثو على ركبتَيها وتصافح الأيدي الصغيرة. قادت داتشس
روبن إلى اللوحات الاسمية، وعثرت على اسمه وصورة حيوانه
أعلاه.

- «ما هذا الحيوان؟».

حدّقت داتشس. «إنّه جرد».

«هذا فأر»، قالت المعلمة وهي تظهر بالقرب منهما.

هزت داتشس كتفَيها. «القوارض هي القوارض».

ركعت المعلمة، أمسكت يد روبن وصافحتها برفق. «أنا
المعلمة تشايلد، لا بدّ أنك روبن. لقد كنت أتطلّع بشدة لمقابلتك».
لكزته داتشس.

- «أشكر لطفك»، قال لها .

- «وَأَنْتِ لَا بَدَّ أَنْكِ دَاتَشْس» .

- «أنا الخارجة عن القانون داتشس داي رادلي». هزّت داتشس يد المعلمة بقوة كبيرة لدرجة أنها حين تركتها كانت قد أصبحت بيضاء اللون .

- «حسنٌ، أتمنى أن تحظي بيوم جميل، آنسة داتشس»، قالت الآنسة تشايلد، تاركة أثراً لطيفاً . «أنا وشقيقك سنقضي وقتاً ممتعاً جداً اليوم، أليس كذلك يا روبن؟» .
- «نعم» .

تركتهما الآنسة تشايلد وعادت إلى الصبي الباكي .
انحنت داتشس نحو أخيها، ونظرت في عينيه، أمسكت وجهه بإحكام حتى أصبح قريباً جداً منها . «إن حدثت أي متاعب على الإطلاق، أيُّ هراءٍ مهما كان نوعه، تعال واعثر عليّ . تعال فحسب إلى الردهة، واصرخ باسمي . سأكون قريبة جداً» .
- «اتفقنا» .

- «اتفقنا؟» .

«نعم»، قال بلباتٍ أكثر، «اتفقنا» .

وقفت على قدميها .

- «داتشس» .

التفتت إليه .

- «أتمنى لو كانت ماما هنا» .

خارجاً في الردهات، أولادٌ يبدون ليّني العريكة مع أولادٍ يبدون معزولين، صبيةٌ يحملون كرة القدم، ووجوههم حمراء متعرّقة . وجدت صفها وجلست بجوار النافذة، بعيدة بما يكفي عن أن يقوم أحد بمناداتها .

- «أنتِ تجلسين في مقعدي» .
كان صبيّاً طويلاً، بملامح تفتقر إلى التناظر، قميصه صغير
المقاس، وسرواله القصير قصيراً جداً .
«استعرتَ سروال أختك القصير؟ اغرب من هنا، تابع السير
أيها اللعين» . مكتبة سُر من قرأ
احمرَّ خجلاً، استدار وذهب إلى مقعدٍ في الجانب الآخر من
الغرفة .

كان بجانبها صبيٌّ أسود، نحيفٌ لدرجةٍ خَمَنَتْ معها أنَّه يحمل
ديداناً أو طفيلياً آخر . كان لديه يدٌ تحوّل شكلها إلى شيءٍ لم يعد
يشبه اليد . انتبه الصبي إلى داتشس وهي تتفرّس فيه فحشر اليد في
جيبه .

ابتسم .

نظرتُ بعيداً .

- «أنا توماس نوبل ، هل تتذكّريني؟» .

دخلت المعلمة .

- «ما اسمك؟» .

- «اهدأ الآن ، أنا هنا لأتعلّم» .

- «هذا اسمٌ مضحكٌ» .

تمنّت في سرّها أن تندلع فيه النيران .

- «رأيتك تلك المرة في البلدة . أنتِ الملاك ذات الشعر

الذهبي» .

- «إذا كنت تعرف أي شيءٍ على الإطلاق، فستعرف أنني أبعد

ما أكون عن الملاك، والآن اخرس، وانظر أمامك» .

جلس ووك في موقف السيارات، نافذة مفتوحة على رائحة الطعام المكسيكي.

كان الوقت متأخراً، حلّ الضباب النديّ وضوء القمر محلّ الشمس، فيما اصطبغت السماء بالأرجواني فوق امتداد بيترووتر. كان قد ذهب لرؤية فنسنت مرةً أخرى، انتظر ثلاث ساعات في غرفة الانتظار الخالية من الهواء، من دون أي شيء سوى محطة سي إن إن، ومروحة محطمة للمؤانسة. ثمّ جلس معه مدة أربع عشرة دقيقة. قضى كل دقيقة منها يتوسّل ويناشد الرجل أن يقوم بتوكيل محام جنائيّ قد يستطيع اكتشاف الحقيقة على الأقل، لكنّ فنسنت قال إنّما مارثا ماي أو لا أحد. وعلى الرغم من أن ووك قال إنّها لا تريد أي شيء يربطها بهما، أو بكيب هيفن والذكريات التي تثيرها، فإنّ فنسنت لم يقل شيئاً أكثر من الذي قاله سابقاً. ثمّ نادى الحارس، وراقبه ووك وهو يغادر.

كان النور ما يزال مُضاءً في مكتب مارثا مع أنّ الوقت كان قد تأخّر، وسكرتيرتها كانت قد غادرت قبل ساعتين. حاول ووك الخروج من السيارة، لكنه شعر بالدوار فعاد وجلس وأغمض عينيه بعض الوقت. حاول الاتصال بكيندريك، وترك رسالة ثمّ تفحص النشرة المرفقة مع دوائه. كانت الآثار الجانبية طويلةً بما يكفي لملء صفحتين.

حين رآها تخرج من المكتب، نزل من السيارة ومشى ببطء عبر موقف السيارات الذي كان على وشك أن يصبح فارغاً تماماً، حيث بقيت فقط سيارتا سيدان مهترئتان خارج المطعم المكسيكي، وسيارة مارثا الرمادية اللون من طراز بريوس مع ملصق WWF (الصندوق العالمي للحياة البريّة). تذكّر ووك أنّها تحبّ الحيوانات. في عيد ميلادها الخامس عشر، تخلّفاً عن المدرسة مع فنسنت وستار وذهبوا

جميعاً إلى حديقة الحيوانات الأليفة في كليرووتر كوف. كانت مكتظة بالأطفال الصغار، لكنّ مارثا ظلتّ تبسم طوال اليوم.

- «مارثا»، ناداها.

رأته، ألقّت بحقيبتها في صندوق السيارة، ثمّ وقفت تنتظره فيما كان يمشي إليها. كانت يدها على خصرها، وكأنّها تقول إنّها أكثر من جاهزة.

- «أنا لا أراك لسنواتٍ، والآن مرّتان في شهرٍ واحدٍ».

- «أريد أن أشتري لكّ العشاء». قالها بثقةٍ فاجأته، وريّما فاجأتها أيضاً، إذ إنّ ابتسامه أخذت ترسم ببطءٍ على محيّاها.

جدرانٌ صفراءُ، وقناطرٌ خضراءُ، وطاولاتٌ صغيرةٌ مع أغطيةٍ مربّعةٍ، ومروحةٌ تدور ببطءٍ، وتُحرّك رائحة الفلفل الحار إلى ما وراء البار المهلهل. أخذوا طاولة في الزاوية، قرب النافذة مع إطلالةٍ على موقف السيارات. طلبتْ مارثا لهما شطائر التاكو مع البيرة. لم تفقد ابتسامتها الجذابة. وحين أنهت الطلب، أسرع النادل لإحضاره.

ارتشف ووك البيرة الباردة، وشعر بعضلاته تنبسط، ويكتفيه المتشنجتين تسترخيان فيما هو يغوص داخل كرسيه. انسابت أنغامٌ لاتينيةٌ هادئةٌ في الأرجاء.

شربا في صمتٍ. أفرغت مارثا البيرة في جوفها ثم أشارت طلباً لواحدةٍ أخرى. «سأذهب إلى المنزل في سيارة أجرة».

- «لم أقل أيّ شيء».

- «يا للهول، أنا أشرب مع شرطيّ».

ضحك ووك. أحضر النادل الطعام وأكلا. كانت الشطائر لذيذةً، أكثر ممّا كان ووك يأمل، لكنّه كان مع ذلك يجافي الطعام، ويكاد لا يأكل.

سكبت مارثا نصف علبة الصلصة الحارة فوق طعامها. «هل تريد المشاركة في هذا أيُّها الرئيس؟».

- «ليس إلَّا إذا كنتِ ترغبين في متابعة هذا الحديث داخل الحمام».

- «هل رأيتِ الحمامات هنا؟».

- «أنا واثقٌ بأنني سأفعل لاحقاً».

- «أعجبتي اللحية».

قلبَ عينيه.

- «أنا آسفةٌ»، قالت له، «بشأن تلك الليلة. لقد كان يوماً طويلاً، ولم أكن أتوقَّع قدومك».

- «حريٌّ بي أن أكون أنا مَنْ يعتذر».

- «حريٌّ بك ذلك بكلِّ تأكيد».

ضحك ووك.

- «إذاً، هل تريد الانتهاء من الأمر الآن أم تريد الانتظار حتى أشرب بيرةً أخرى؟».

- «سوف أنتظر».

ضحكتُ هذه المرَّة، وكان ذلك أجمل صوتٍ سمعته ووك منذ وقتٍ طويلٍ.

أخذ نفساً، وأخبرها بكلِّ شيءٍ. من إطلاق سراح فنسنت إلى ستار، إلى ديكي دارك، وداتشس وروبين. أخبرها عن رجال شرطة الولاية، وكيف أزاخوه عن القضية. كما أخبرها بالتفاصيل التي لم يُفصَّح عنها في القضية. الأضلع المكسورة، العين المتورَّمة، عدم وجود سلاح الجريمة، وفنسنت الراضٍ للتحذُّث. مسحتِ الدموع من عينيها، مدَّت يدها وأمسكت يد ووك حين أخبرها عن الجنازة.

- «تَبّاً»، قالت حين انتهى.

- «يا لها من فوضى. تلك الطريقة التي انقلبت فيها حياة ستار. في تلك الأيام كنتُ أظنُّ أننا سنبقى صديقتين إلى الأبد».
- «لستُ ألوَمِكِ على عدم النظر إلى الوراء».
- «هل هذا ما تظنُّه؟».
- «آسف، لم أقصد —».
- «لقد نظرتُ كثيراً إلى الوراء، أنا لم أستطع العودة فحسب».
- «صحيح».
- «وفنسنت ما زال يقول إنَّه لا يريد أحداً غيري؟».
- «هو يثق بكِ. المحامي الوحيد الذي عمل معه كان فيليكس كوك. وانظري إلَامَ آلت الأمور».
- «هل تعرفُ نوع القضايا التي أتعامل معها يا ووك؟ زوجاتٌ معنَّفاتٌ. تبني الأطفال. القليل من قضايا الطلاق. أبذل قصارى جهدي كي أدفع فواتيري كلَّ شهرٍ، وبعد ذلك أختار مَنْ يحتاج إليَّ أكثر. لديَّ طابورٌ من النساء اللواتي لا هدف لهنَّ في الحياة سوى استعادة أطفالهنَّ».
- «فنسنت بحاجة إليك».
- «فنسنت بحاجة إلى محام جنائي».
- تحرك كي يمسك البيرة، شعر بالعرشة في يده فأعاد الزجاجاة مجدداً.
- «هل كلُّ شيءٍ على ما يُرام، يا ووك؟».
- «مرهقٌ. لم أنم كثيراً مؤخراً».
- «هذا كثيرٌ جداً لاحتماله».
- «أرجوكِ قومي بذلك يا مارثا. أعرف كيف يبدو الأمر. يمكنني رؤية ذلك، أن أظهر بعد كل هذا الوقت وأطلب معروفاً. صدِّقيني، هذا مؤلم».

- «أصْدَقَكَ».

- «لا يمكنني أن أتخلَّى عنه. تعالي إلى المحكمة فحسب،
قفي بجانبه في أثناء تلاوة لائحة الاتِّهام. وبعدها يمكننا ترتيب شيء
ما، سوف نجعله يرى الأمر بشكلٍ منطقيٍّ. أنا أعرف فحسب...
أنَّه لم يفعل ذلك. كما أنَّني أعرف كيف هو وقع هذا الكلام، مثل
كلمات رجلٍ يائسٍ، لكن ذلك لا يجعل منِّي مخطئاً. أنا في حاجة
إلى أن أكشف النقاب عن الأشياء. أحتاج أن أنظر في الأمور
بعمق.

لقد فكَّرْتُ فيكَ على مرَّ السنين. كلَّ يوم أفكر فيكَ وفينا، وفي
كل ما حدث في ذلك الوقت. أعلم أنَّه ليس في وسعي إصلاح
الأمور، أو إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، ولكن يمكنني أن
أساعد فنسنت الآن. لكنني لا أستطيع فعل ذلك من دونك». تهالك
متكئاً على الكرسي، مرهقاً، خائر القوى.

- «متى سيوجَّهون الاتِّهام؟».

- «غداً».

- «يا للمسيح، ووك».

كانت قاعة المحكمة في لاس لوماس مكتظة أكثر من المعتاد. كان يوم الثلاثاء من شهر أيلول، فكّ القاضي رودس ياقته بسبب تعطل مكيف الهواء، وقام بتهوية نفسه بواسطة أحد الملفات أمامه. جلس ووك في الصفوف الأمامية، تماماً كما فعل قبل ثلاثين عاماً.

- «لا أمل في الكفالة، ليس في قضية إعدام كهذه»، قالت مارثا. كانت قد قابلت ووك باكراً في الخارج، عبرا الشارع وشربا القهوة معاً. بدت أنيقة: بذلة وحذاء بكعب عالٍ، مكياج خفيف يكفي لجعل ووك يشعر بالغباء لمجرد الظنّ أنّه كان بإمكانه الاحتفاظ بها.

نظر حوله: محامون مع عملائهم، بزّات زرقاء داكنة قبالة بزّات برتقالية، التماسات، صفقات، وعود ناقصة. قاوم القاضي رودس رغبته في التثاؤب.

هدأت قاعة المحكمة حين اقتيد إلى الداخل. الناس يطلبون حكماً بالموت، كانت قضية رأي عام.

اعتدل القاضي رودس في جلسته قليلاً، وأعاد تزيير ياقته. كان ثمة مراسلون في الخلف، لا كاميرات، أقلام وكراسات فقط.

تركت مارثا ووك، واتَّجهت إلى المقعد، حيث جلس فنسنت بجانبها.

كانت المدَّعية العامَّة إليز ديشامب مباشرةً وصارمةً، دفعت إلى الأمام سريعاً، ومضتْ تعرض التُّهم. حاول ووك قراءة وجه صديقه، ولكن من حيث جلس لم يتمكَّن من رؤية وجهه بوضوح. عندما انتهت إليز، وقف فنسنت. شعر ووك بالحشد يميل إلى الأمام، إلى حواف المقاعد؛ عيونهم مصوَّبة على الرجل الذي قتل طفلةً، ثم عاد بعد ثلاثين عاماً من أجل أختها. ذكر فنسنت اسمه.

قام القاضي رودس بتفصيل التُّهم مرَّةً أخرى، ثم أضاف أن الولاية تعرض حكماً بالسجن مدى الحياة من دون الإفراج المشروط مقابل الإقرار بالذنب.

تنهد ووك مرَّةً أخرى. لقد عُرِضَت الصفقة. عندما سأله القاضي رودس عن ردِّه على التُّهم الموجَّهة إليه، استدار فنسنت حتَّى التفت عيناه بعيني ووك.

- «غير مذنب».

همهماتٌ وثرثرةٌ لم تتوقَّف حتَّى أسكَّتْها رودس. نظرت مارثا إلى القاضي، وفي عينيها مسحةٌ من اليأس جعلته يدعوهُ للاقتراب. «سيد كينغ، إنَّ محاميتك تشعر بالقلق من أنَّك لم تفهم التُّهمة والعرض»، قال رودس.

- «أنا أفهم».

لم ينظر فنسنت إلى الوراء بينما قاده الحارس خارج القاعة. خرج ووك إلى شمس الصباح. لاس لوماس، الساحة الجميلة مع التمثال الشاهق، امرأة راکعة، محنية الرأس أمام المحكمة المقدسة.

حُدِّدَ موعد المحاكمة في الربيع الآتي .

قاد ووك عائداً، كان جسده يتصبَّب عرقاً بارداً، والرعدة سيئةً لدرجة أنها أجهدت دماغه . نظر إلى عينيه في مرآة الرؤية الخلفية لكنه لم يستطع أن يفرك الدم منهما . كانت لحيته طويلةً، وقد أحدث ثقباً جديداً في حزامه . كان زيُّه الرسمي كبيراً عليه الآن، وانزلت الكتفان فوق عضلات يديه الأمامية .

دخل متجر بيترووتر للخمور مسرعاً واشترى ستَّ علبٍ من البيرة .

عاشت مارثا في منزلٍ صغيرٍ على طريق بيلنجتون، بعيداً بما يكفي عن المدينة . بؤابةٌ بيضاءٌ تؤدِّي إلى ممرٍّ تحدُّه صفوفٌ متقنةٌ من الأزهار بالقرب من العشب الأخضر المورق . سلالٌ معلقةٌ من خطافاتٍ مزخرفةٍ . كان منزلاً من النوع الذي كان سيجعله يتسم في يومٍ آخر .

في الداخل، كان المنزل مزدحماً بالأوراق، كل شبرٍ من المنزل يتحدث عن العمل، وعن الدفاع عن أولئك العاجزين . وجد طريقه إلى الشرفة، أخرج زجاجتي بيرةٍ في الوقت الذي خرجت فيه مارثا مع وعاءٍ من رقائق الذرة . أكل واحدةً فضحكَتْ بينما كانت النكهة تنفجر في حلیماته الذوقية .

- «أنتِ كالحيوان» .

- «بعضهم يحبُّونه حارّاً» .

جلسا متقاربين، جنباً إلى جنبٍ وهما يشربان البيرة . لم يهدأ ووك إلا بعد أن انقضى اليوم . زجاجتان من البيرة، هذا كل ما سمح به لنفسه . أراد أن يسكر، أن يصرخ ويلعن، أن يهزَّ فنسنت كينغ ويوقظ فيه الإحساس .

رشت مارثا النبيذ . «عليك أن تجعله يقبل العرض» .

فرك ووك التشنج في رقبتة، لقد أصبح دائماً الآن.

- «قضية فنسنت من غير الممكن كسبها، أنت تعرف ذلك». قالت له.

- «أعرف ذلك».

- «مما يعني شيئاً واحداً فقط».

نظر إليها ووك متفحّصاً.

- «فنسنت كينغ يريد أن يموت».

- «إذاً ماذا يجب أن أفعل؟».

- «تجلس هنا، وتشرب معي بينما نندب أسوأ حالٍ آلت إليه الأمور».

- «خيار مغرٍ. والخيار الآخر؟».

- «أن تعمل على القضية».

- «أنا أفعل ذلك بالفعل».

تنهّدت مارثا. «إنّ طرق الأبواب، والصلاة أن يكون أحدٌ قد رأى شيئاً، ليسا عملاً على قضية. ينبغي بك أن تخرج وتعثر على منظورك الخاص، وإن لم تعثر عليه، فيمكنك أن تخلقه بنفسك. الجرأة أيّها الرئيس. الأمر كلّهُ متعلّق بالجرأة الآن».

على الطريق السريع، هبّت الريح وصعّدت من الأرض سحباً من الغبار. الوقت ما يزال مبكراً في المساء، لم يكن هناك سوى شاحنتين في الخارج، لكنّ ووك سمع الموسيقى قبل أن يصل إلى الباب. توقّف لحظةً، نظر حوله إلى الامتداد العريض لسان لويس، وفكّر في ستار وهي تجرّ الطفلين معها إلى هنا.

في الداخل كان الضوء باهتاً، ورائحة التبغ القويّة والبيرة الرخيصة تعمّ المكان. كانت المقصورات فارغةً، بضعة رجال فقط

عند المشرب، ومجموعة صغيرة حول مسرح مبني بصناديق خشبية مَطلية. كان المغني عجوزاً، غنى موسيقا البلوجراس بطريقة رهيبة، لكن الرجال كانوا يضربون على أفخاذهم مع الإيقاع بينما هم يشربون.

كان لديه وصف للرجل من داتشس، أعطته إياه في إحدى المرّات حيث كان يجعلها تجلس ليخوضاً معاً ببطء في ذلك النوع من الأشهر والسنوات التي جعلت رأسه يصبح مثقلاً بالكثير. لطالما تحدّث الفتاة بحياديّة عدّبت روحه، كأنها لا تعرف أي شيء عن الطفولة.

وجده على الفور، شعر قصير، ولحية كثيفة، ذراعان قويّتان توحيان أنهما تمارسان عملاً ميدانياً. بد موريس. اقترب ووك نحوه فيما كان بد يقلب عينيه وكأن مشكلة مع القانون كانت نتيجة منطقية لطريقته.

- «هل يمكنني التحدث إليك؟».

نظر بد إليه من أعلى إلى أسفل، ثم ضحك. شرب ووك مشروباً غازياً فقط. لم يكن رجلاً يحبّ المواجهة برغم التدريبات، والشارة وما تعنيه. تردّد صدى الكلمات عالياً في أذنيه. اترك الأمر للولاية. أمسك كأسه بقوة. تردّدت كلمات مارثا بصوت أعلى.

ذهب بد إلى الحمام. نهض ووك ولحق به إلى الداخل، أخذ نفساً عميقاً، وسحب مسدّسه بينما كان الرجل يتبول. ضغط فوهته على مؤخرة رأس بد.

تدفّق الأدرينالين، كانت يدها ترتجفان، وركبته كذلك.

- «تبّاً». تبول بد على سرواله الجينز.

ضغط ووك بقوة أكبر. كان العرق يقطر عن أرنبة أنفه.

- « يا إلهي، لا بأس. ما مشكلتك بحق الجحيم؟ ».
أخفض ووك مسدّسه. «كان في وسعي أن أفعل هذا عند
المشرب، أمام أصدقائك، أن أجعلك تتبول في ملابسك أمام
جمهور».

نظر إليه بد، ثم أخفض عينيه، لقد هُزِمَ سريعاً. سمعا الهاتف
في الخارج بينما كان العجوز ينتقل إلى أغنية «رجل الحزن الذي لا
ينتهي».

- «ستار رادلي»، قال ووك.
بدا على بد الارتباك، ثم عاد إلى صوابه سريعاً.
- «سمعتُ أنك تشاجرت معها هي وابنتها. كانت تعزف،
وأنت لم تستطع أن تُبقي يديك لنفسك».
هزّ بد رأسه. «لا ضير في ذلك».

شعر ووك بالغرابة. تساءل إن كان عقله ما يزال سليماً، وهو
يشهر مسدّساً على رجلٍ في دورة المياه بحثاً عن منظوره الخاص.
- «لقد خرجتُ معها مرّة أو اثنتين».

- «ثمّ؟».
- «لم ينجح الأمر، هذا كلُّ شيء».
مدّ ووك يده إلى المسدّس مجدّداً، فتراجع بد. «أقسم إنه لم
يحدث شيء».

- «هل كنت قاسياً معها؟».
- «لا، على الإطلاق. لا شيء من هذا القبيل. لقد عاملتها
بلطف. اللعنة، حتّى إنّي أخذتها إلى ذلك المكان في بليكر. شريحة
اللحم هناك بعشرين دولاراً. وحجزتُ غرفةً في فندقٍ... فندقٍ
جميل».
- «قالت لا».

نظر بد إلى قدميه، وسرواله المبلل بالبول، والمسدّس. «لم تكن مجرد "لا". أنا لست رجلاً لا يقبل الرفض. تبّاً، هناك الكثير من النساء، اسأل في الأرجاء. أنا على ما يرام. لكنّ ستار خلقت الوهم بأنّها معجبة بي. لكنّها لم تكن مجرد "لا، ليس الآن"، بل كانت "لا، أبداً". هذا ما قالته. أبداً. ما هو ذلك بحقّ الجحيم؟ أبداً! كان الأمر كأنّها تحاول جاهدة أن تكون شخصاً ليست عليه. تمثيلٌ ربما. كلّ ذلك كان تمثيلاً».

- «تمثيلٌ؟».

- «أظنّ أنّها فعلت الشيء نفسه مع الرجال الآخرين. كنتُ أقلّها ذات يوم فجاء جارها إليّ، وأخبرني ألاّ أضيّع وقتي».

- «أيّ جارٍ؟».

- «الجار في المنزل المجاور تماماً. رجل ذو هيئة السبعينات».

- «أين كنت في الرابع عشر من يونيو؟».

ابتسم بد عندئذٍ. «أعرف متى كان ذلك. كان إلفيس كادموور يعزف لنا. كنتُ هنا بالضبط، اسأل أيّاً كان».

تركه ووك هناك، اندفع عبر الحشد الصغير، ومضى خارجاً إلى هواء الليل، فيما قلبه ما يزال يقفز داخل قفصه الصدري.

عبر موقف السيارات، قرفص بجانب حاوية القمامة، وتقيّاً.

تناولت غداءها تحت شجرة بلوط، وعيناها على أخيها .
مرَّ الأسبوع الأول بهدوء، لم تتحدث إلى أحدٍ . قام توماس
نوبل ببعض المبادرات، ورفضته باقتضاب .

كان روبن في الصف الأول التحضيري، وكان لديهم منطقتهم
الخاصة المعزولة بسورٍ منخفضٍ . لعبَ في كلِّ يوم مع الفتاة والصبي
نفسيهما . وقفوا في المطبخ الطيني، روبن والفتاة طبأخا الوجبات
السريعة، والصبي الآخر يستلمها، ويسلم للأطفال الآخرين .

لم تلاحظ أنها لم تكن وحدها إلى أن قُطِعَ الضوء بظلمة نزل
فوقها بينما كانت ترفع رأسها لتتنظر إلى الأعلى .

- «اعتقدتُ أنني قد أستمتع بالجلوس تحت شجرتك» . حمل
توماس نوبل غداءه في كيسٍ منتفخٍ بيده السليمة .
تنهَّدت .

جلس، وتنحنح . «كنت أراقبك» .

- «حسنٌ، هذا ليس مريباً على الإطلاق» . تنحَّتْ أبعد ما يكون

عنه .

- «كنت أفكر . هل تريدان أن —» .

- «أبدأ» .

- «قال والدي إنّ والدتي رفضته في المرة الأولى . لكن عينيها قالتا نعم لذلك فقد أصرّ» .

- «تحدّث مثل مغتصبٍ حقيقيّ» .

فرشَ بالقرب منها منديلاً سميكاً وكبيراً من القماش، ثمّ وضع كيساً من رقائق البطاطس، كعك توينكي الإسفنجي، أكواباً من حلوى ريس بزبدة الفستق، كيساً من المرشملو، وعلبة مشروبات غازية . «من العجيب أنّ قليلين فقط يعرفون هذه البقعة» .

- «من العجيب أنك لم تُصَبِّ بداء السكري» .

كان يأكل بهدوءٍ، يدفع بإطار نظّارته السمكة إلى أعلى أنفه فيما هو يقضم بصمتٍ . أبقى يده المصابة في جيبه . كانت مشاهدته وهو يفتح علبة المرشملو بأسنانه مؤلمةً .

- «يمكنك استخدام اليد الضعيفة» ، قالت أخيراً ، «لا تخفِها

في حضوري» .

- «قصرُ والتصاقُ في الأصابع . إنه عندما —» .

- «أنا لا أهتم» .

أكل قطعةً من المرشملو .

ركض روبن نحو السياج، وأراها طبقاً أرجوانياً عليه كتلةٌ من التراب . قال إنّها «هوت دوغ» ، فابتسمت له .

- «إنه لطيفٌ» ، قال توماس نوبل .

- «ألديك نوعٌ من الانحراف؟» .

- «لا . . . بالطبع لا ، أنا فقط . . .» لم تسعفه الكلمات فترك

الأمر عند هذا الحد .

في الخلف كان هناك غابةٌ خارج حدود المدرسة ، وكان يمكن رؤية أكداسٍ من أخشابٍ طويلةٍ استُعِمِلت كسياجات .

- «سمعتُ أنَّك من غولدن ستيت . إنها جميلةٌ في هذا الوقت من العام . أعتقد أن لدي ابن عمٌ في سيكويا» .
- «الحديقة الوطنية» .

عاد لتناول الطعام .

- «قولي لي ، هل تحبين الأفلام؟» .

- «لا» .

- «ماذا عن التزحلق على الجليد؟ أنا في الواقع جيدٌ جداً

في —» .

- «لا» .

خلع سترته . «أحب هذا القوس في شعرك ، هناك صورةٌ لي مع قوس في شعري عندما كنت طفلاً» .

- «هل لديك مونولوجٌ داخليٌّ؟» .

- «كانت والدتي تحب التظاهر بأنني الابنة التي لطالما رغبتُ

فيها» .

- «ولكن بعدها بدأ كل ذلك التستوستيرون في التدفُّق وحطَّ

أحلامها» .

قدَّم لها كوباً من زبدة الفول السوداني .

تظاهرت بعدم الانتباه .

شاهدا مجموعةً من الأولاد يمرون . قال أحدهم شيئاً ما

فضحكوا . دفع توماس نوبل يده أعمق في جيبه .

اعتدلت داتشس قليلاً في جلستها عندما رأت صبيّاً ينتزع الطبق

من روبن . ذهب روبن لإعادته لكن الصبي الآخر ، الذي كان أطول

منه ، أبقاه بعيداً عن متناول يده ، ثمَّ رماه على الأرض . عندما انحنى

روبن ليلتقطه ، قام الصبيُّ بدفعه .

وقفت داتشس على قدميها وتحركت ، ضيَّقتُ عينيها بشدَّة وهي

ترمق الصبي بغضبٍ بينما بدأ روبن بالبكاء. رأت فتياتٍ أخرياتٍ يضحكنَ، يتحدثنَ في مجموعاتٍ ويلعبن بشعورهنَّ، كأنَّهنَّ من نوعٍ مختلفٍ تماماً. قفزت فوق السياج. لم يكن هناك مدرّسٌ، ولأُ مشرفةٌ غداً تراقب. ساعدت روبن على النهوض، ونفضت الغبار عن سرواله القصير، وكفكت دموعه.

- «هل أنت بخير؟».

- «أريد العودة إلى البيت»، شهق باكياً.

جرّته إليها، وظلّت ممسكةً به حتى هدا. «سأعيدنا إلى البيت. أعدك بذلك. لقد درستُ الأمر، عندما أنتهي من هنا سأحصل على وظيفةٍ ومكانٍ لنا، ويمكننا عندها العودة إلى البيت، مفهوم؟».

- «أقصد إلى بيت الجد».

وقف صديقه بالقرب منه، الفتاة والصبي. اقتربت منه الفتاة، شعرٌ مصفورٌ، ثوبٌ قطنيٌّ مع زهرةٍ في الجيب. ربّتت على ظهر روبن.

- «لا تقلق بشأن تايلر، إنه لثيمٌ مع الجميع»، قالت له.

- «أجل»، وافق الصبي.

- «هل تريد الذهاب وإعداد المزيد من الهوت دوغ للعشاء؟».

ابتسمت له داتشس. راقبته فيما ذهبَ ليلعب، لم يكن هناك شيءٌ أكثرَ لفعله، فقد نسيَ كل شيءٍ.

استدارت ووجدت تايلر بالقرب من السياج، ذهبَتْ إليه ويدها عصاً.

- «يا ولد».

استدار نحوها، كانت تعرف تلك النظرة. «ماذا؟».

ركعت فوق التراب الخشن على ركبتيها، والشمس خلفها. أمسكت بقميصه وشدّته نحوها.

«قُمْ بلمس أخي مرّةً أخرى، ولسوف أقطع رأسك، مع كلمة بذيئة»، قال المدير دوك، وقد شبك أصابعه فوق بطنه، وملامح وجهه تدلّ على القلق.

اعتدلت داتشس في جلستها. «لم أقل 'كلمةً بذيئةً' أبداً». ابتسم هال. «حسنٌ، هذا شيءٌ جيدٌ. ماذا قلتِ؟» - «ابن العاهرة».

جفل المدير دوك كأنّ الكلمة جرحته في الصميم. «هذا يضعنا أمام مشكلةٍ الآن».

كان في وسع داتشس أن تشمّ رائحة القهوة في أنفاسه، والكولونيا المرشوشة على ربطة عنقه فقط للتغطية على رائحة الجسم تحتها.

- «لا أفهم لماذا»، قال هال. كانت يدها حمراوين، وبشرته متشققةً، وتفوح منه رائحة الأرض والغابة. أرض آل رادلي. - «إنّها طبيعة التهديد. أعني الحديث عن قطع الرأس هكذا». - «الفتاة خارجةٌ عن القانون».

كادت داتشس أن تبسم.

- «أعتقد أنّك لا تأخذ الأمر بالجدية اللازمة».

وقف هال. «سوف آخذها الآن لما تبقى من اليوم خارج المدرسة. سأحدث إليها، لن يتكرّر هذا الأمر مجدداً. أليس كذلك؟».

ربّما كانت ستقاوم ذلك عندها، وتفتعل مشكلةً لأنّ حجر الأساس كان قد وُضِعَ. لكنّها فُكِّرَتْ في روبن وقد كوّن بالفعل بعض الأصدقاء هنا.

- «إذا لمس روبن فلا أستطيع أن أعد —».

تنحى هال بصوتٍ عالٍ.

- «لن أستخدم هذه الكلمات مرّة أخرى».

بدا أنّ لدى المدير دوك المزيد ليقوله بينما كانت داتشس تقف وتلحق بهال خارج المكتب.

قادا في صمتٍ. ركبت داتشس في المقعد الأمامي. وبدلاً من الانعطاف يساراً، اتّجه هال شرقاً، حيث يفتح الطريق واسعاً تحت السماء الواضحة بلونٍ فضيٍّ مع اختباء الشمس خلف الغيوم. مرّاً بمزرعة أبقارٍ، حظائر من الفولاذ خضراء اللون، ثمّ ببلدة ليست أكثر من شارع رئيسٍ وبعض الشوارع الصغيرة التي تتفرّع منه، وتبتعد منعزلةً نزولاً قبل أن تصل إلى أشجار الصنوبر الشاهقة كناطحات السحاب. إلى جانبهما تدفّق نهرٌ تلمع صفحته مثل البلور، وفي الأفق لاح جبلٌ اكتسب قمّته بياض الثلج، والمسارات الجبلية تتلوّى وهي تشقّ طريقها صعوداً بتكاسلٍ. شقّاً طريقهما صعوداً، مدّت داتشس عنقها لتنظر إلى الورا بينما كانا يجتازان الأشجار والمجرى المائي. خفّفا السرعة مفسّحين المجال لشاحنةٍ أخرى تعبر في الاتجاه المعاكس، وأمسك راعي البقر الذي يقودها طرف قبّعة لدى مروره بهما.

ركنا السيارة قرب منحدرٍ من صخورٍ رمليةٍ وغبارٍ، من هناك بدا أنّ أشجار الصنوبر تتجمّع مجدّداً، تكبر ويتّسع انتشارها على سفح الجبل.

خرج هال من السيارة، ولحقت به داتشس.

شقّ طريقه بحذرٍ بين الأشجار، وبقيت داتشس في إثره، برغم أنّ الفراغات بين الأشجار كانت واطئةً جداً إلّا أنّ هال مرّ عبرها كأنّه يعرف المسار جيّداً وأين سيظهر كل غصنٍ من أغصانها.

تكشّفت مونتانا أمامهما، آلاف الأميال من الظلال الطبيعية، والأراضي، والمياه. التقطت رائحة الصنوبر، وشاهدت على بعد

ميلٍ رجلاً يخوضون بأحذيتهم العالية في مياهٍ شديدة النقاوة، ويصطادون السمك. بالقرب منها أشعل هال سيجاراً. «جداول السلمون المرقط». أشار إلى الأمام حيث بدا الصيادون مثل نقطٍ فوق قماشٍ ضخم. «هناك أخذودٌ بعمقٍ خمسين ميلاً هناك، إنَّه عميقٌ لدرجة أنَّ الناس يقولون إنَّه لا قعر له إلاَّ الصخور الحمراء. اسلكي أيَّ دربٍ في هذه البرِّيَّة، ولن تَرَي شخصاً آخر ثانيةً. إنَّها مليون هكتارٍ من الخلاء».

- «ألهذا السبب هربتَ إلى هنا؟ كي تختبئ عن العالم؟».

ركلتُ حجراً وشاهدتهُ وهو يسقط.

- «هل تريدان عقد هدنة؟».

- «ليس حتَّى قليلاً».

ابتسمَ لذلك.

- «أخبرني شقيقك أنَّك تحبُّين الغناء».

- «ليس هناك شيءٌ أحبُّه».

سقط رماد السيجار على التراب.

- «يسمِّي السكَّان الأصليون هذا: العمودَ الفقريَّ للعالم.

للمياه هنا طيفٌ من الزُّرقة لم تَرِيه من قبل. إنَّها باردةٌ جداً...

ذوبان الجليد والظمي، لا يمكن لشيءٍ أن ينمو تحته. يظلُّ صافياً

طوال الوقت فحسب، لا عَكر، ولا شيء يختبئ فيه. هناك شيءٌ

مميّزٌ جداً في هذا، ألا تظنَّين ذلك؟».

ظَلَّتُ صامتةً.

- «وذاك الانعكاس، إنَّه حقيقيٌّ جداً، كأنَّ العالم ليس سوى

السماء، وقد انقلبتُ رأساً على عقبٍ. سأصطحب روبن حين يكبر

قليلاً في رحلة على متنٍ قاربٍ إن كان يرغب في صيد السمك. أودُّ

أن تأتي معنا أيضاً».

- «لا تفعل ذلك».

- «ماذا؟».

- «لا تتحدّث عن الغد كأنّه حقيقيّ، كأنّك سوف تكون هنا، ونحن سوف نكون هنا». لم ترغب في أن تصرخ مجدّداً، وتهزّ أركان السكون.

بقربهما كانت هناك شجرة أوراقها مسطّحة، وعليها حبّات توتٍ بأغمق درجات الأرجواني.

اخترار واحدة وأكلها.

- «توتٌ برّيّ». قدّم لها واحدة. لم تأخذها، بل أخذت تلتقط حبّاتها بنفسها. كانت لذيفة، أحلى مما اعتقدت. أكلت حفنة، ثم ملأت جيوبها لأجل روبن.

- «الدببة تحبّه أيضاً». انحنى هال ليلتقط بعض الحبّات ورأت أنه يحمل المسدّس، السلاح نفسه الذي كانت تتمرّن عليه. أخذت نفساً. «أنت لم ترجع».

توقف عندئذٍ، استقام في وقفته، واستدار إليها.

- «لم ترجع». وأنت تعرف والدتي. تعرف كيف كانت، وكيف قد تكون الحياة بالنسبة إلينا. كنت تعلم أنّها بالكاد تستطيع الاعتناء بنفسها. أنت أكبر مني. أنت طويلٌ وقويٌّ وكنا في حاجةٍ —».

توقّفت عن الكلام، عبثت بالقوس في شعرها، حرصت أن تُبقي صوتها على النبرة نفسها لأنها لا تريد أن تُظهر له مدى عمق الألم.

- «لذا عندما تشير إليه، إلى كلّ هذا الجمال، كل هذا الذي تراه، وتعتقد أنّي أراه أيضاً. يجب أن تعرف أن كلّ ذلك يبهت ويتضاءل أمام ما رأيته من قبل. هذا اللون الأرجواني —»، لوَحَتْ بيدها مشيرةً إلى حبّات التوت القريبة، «هذا يجعلني أفكر في

ضلووعها قاتمة اللون بفعل الضرب المبرح. المياه الزرقاء، تلك عيناها، صافيتان بما يكفي لترى أنه ما مِنْ روح خلفهما بعد الآن. أَنْتَ تتنَفَّسُ الهواءَ وتعتقد أَنَّهُ منعشٌ، أمَّا أنا فلا يمكنني حتى أن أتَنفَسَ دون الشعور بتلك الطعنة»، ضربتُ على صدرها بقوة، «أنا وحدي. سوف أعتني بأخي، وأَنْتَ سوف تتركنا لأنك في الحقيقة لا تهتمُّ بأمرنا. يمكنك أن تقول ما يعجبك، ما تعتقد أنه سيجعلني أشعر بتحسنٍ. لكن، فلتحلَّ عليكِ اللعنة، يا هال. اللعنة على مونتانا، والهكتارات، والحيوانات و...» ارتجف صوتها فتوقفت عند ذلك.

استطالتُ تلك اللحظة بينهما حتَّى وصلتُ قمم أشجار الصنوبر. اندفعتُ بخفَّةٍ نحو السماء والغيوم لتدفن تماماً الوعد بأيِّ جديدٍ. قَلَصَتْهُمَا تلك اللحظة إلى اللاشيء الذي كانا عليه، صغيرين جداً على خلفية لا نهائية الجمال. كان يحمل سيجاره لكنَّه لم يكن يدخِّن، ويمسك التوت لكنه لا يأكله. أُمِلْتُ من الرب أن تكون قد حطَّمت كل المسلَّات التي رآها لهما.

استدارت وأغمضت عينيها بقوة على الدموع، مجبرةً إيَّها على العودة. لن تبكي.

شعر ووك بالبركة تنسلُّ منسحبةً من كيب هيفن مع الصيف
الآخذ بالتلاشي أخيراً.

بدأ ذلك في صباح اليوم التالي لمقتل ستار، عندما قام
المراسلون بإغلاق طريق آيفي رانش وقامت الشرطة بتطويق منزل آل
رادلي بشريط عازلٍ. لقد شعر بذلك حينها، الشوارع أبرد بدرجةٍ،
والأفق ظلُّ باهتٌ. أمّهاتٌ يُدخِلْنَ أطفالهنَّ، ويُغلقْنَ البوابات
الكبيرة مُحفِظَاتٍ بالدفع في الداخل. لقد تحمَّل الأمر قدر
استطاعته، إنَّه الشرطي الذي كان صديقاً للقاتل. أمضى أمسيات
الصيف البطيئة يمشي في كل شارعٍ في كيب، من القصور ذات
الأعمدة في كالين بليس إلى المنازل الصغيرة ذات الألواح الخشبية
على الطرقات الأعلى. طرق الأبواب، قبعته في يده، ولحيته
موجودة لكنَّها مشدَّبةٌ قليلاً الآن، ابتسم ابتسامةً مفتعلةً بينما كان
اليأس ينزُّ منه. سأل، ناشد، انحنى، استقصى، وذهب بالذاكرة إلى
أماكن لم يسبق لها أن كانت فيها. لم يرَ أحدٌ أي شيءٍ في تلك
الليلة. لا سيارات، أو شاحنات، أو أي شيءٍ خارج الحياة الطبيعية
المألوفة لصيفهم.

شاهد أشرطة الأمن من كل متجرٍ في مين. كانت جودة الصورة

سِنَّةً لِلغَايَةِ لدرجة أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُمْكِنِ تَقْدِيمُهَا إِلَى الْأَمَامِ. وَبَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، اضْطُرَّ أَنْ يَتَفَحَّصَهَا بِوَقْتِهَا الْفَعْلِيِّ، عَشْرَ سَاعَاتٍ، مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى شُرُوقِهَا، وَعَيْنَاهُ مَفْتُوحَتَانِ عَلَى اتِّسَاعِهِمَا فَقَطْ بِسَبَبِ الْعَذَابِ الَّذِي شَعَرَ بِهِ عِنْدَمَا كَانَ يَغْلِقُهُمَا.

نَظَرَ إِلَى دَارِكٍ، مَبْدِئِيًّا، إِذْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُمْكِنِ طَلَبُ أَيِّ مُقَابَلَةٍ مِنْ دُونِ إِثَارَةِ اهْتِمَامِ مُحَامِي دَارِكٍ، وَبِالتَّالِيِ بُوَيْدٍ وَشُرْطَةِ الْوِلَايَةِ. أَجْرَى بَعْضُ الْمَكَالِمَاتِ، تَحَدَّثَ مَعَ شَرْطِيٍّ مِنْ شُرْطَةِ مُقَاتِلَةِ سَوْتَلِرْ، وَمَعَ شَرِكَةِ رَسُومِ الطَّرِيقَاتِ السَّرِيعَةِ، عَلَى أَمَلِ تَصْيُّدِ كَذِبِيَّةٍ سَهْلَةٍ. لَكِنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ عَلَى شَيْءٍ.

لَمْ تَوَافُقْ مَارِثَا عَلَى تَمَثِيلِ فَنَسِنْتِ بِشَكْلِ رَسْمِيٍّ بَعْدَ، وَبِرْغَمِ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ وَوَكْ يَلْتَقِطُ الْهَاتِفَ فِي مَعْظَمِ الْأَمْسِيَّاتِ، وَبِبَقِيَّهَا عَلَى اطِّلَاعٍ بِكُلِّ مَا اسْتَجَدَّ مَعَهُ، وَالَّذِي كَانَ فِي مَعْظَمِهِ بِلَا قِيَمَةٍ. ذَاتَ صَبَاحٍ يَوْمٍ أَحَدٍ، قَادَ بِهَا إِلَى فِيرْمُونْتِ، وَجَلَسَ كِلَاهُمَا مَعَ فَنَسِنْتِ، وَاسْتَرْجَعُوا الذِّكْرِيَّاتِ الْعَتِيقَةَ. حِينَ تَحَوَّلَ الْحَدِيثُ نَحْوَ تَأْسِيسِ الْمُرَافَعَةِ الدِّفَاعِيَّةِ، أَشَارَ فَنَسِنْتِ إِلَى الْحَارِسِ.

جَلَسَا فِي صَمْتٍ ثَقِيلٍ مِثْلَ مِئَةِ مِيلٍ فِي أَثْنَاءِ عَوْدَتِهِمَا. دَعَتْهُ لِيَدْخُلَ لَدَى وَصُولِهِمَا، وَمَرَّةً أُخْرَى جَلَسَا عَلَى شُرْفَةِ مَنْزِلِهَا، وَشَرَبَا الْبِيرَةَ. طَبَخَتْ نَوْعًا مِنَ الْيَخْنَةِ، كَانَتْ حَارَّةً جَدًّا حَتَّى إِنَّهُ شَعَرَ بِخَدَّيْهِ يَشْتَعْلَانِ، بَيْنَمَا أَخَذَتْ تَضْحَكُ وَهُوَ يَلْصُقُ لِسَانَهُ عَلَى زَجَاجَةِ الْبِيرَةِ.

تَحَدَّثَا قَلِيلًا عَنِ السَّنَوَاتِ الْمَاضِيَةِ، وَكَيْفَ اسْتَقَرَّتْ فِي مَكَانٍ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا كَانَتْ عَظِيمَةً. كَانَ لَدَى بِيْتِرُوْتَرِ مَتَوَسِّطٌ دَخَلَ مِنْخَفُضٌ، وَمَعْدَّلُ جَرِيمَةٍ مُرْتَفِعٌ. تَحَدَّثَتْ عَنْ عَمَلِهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْفَخْرِ، الْأَمْرَ الَّذِي جَعَلَهُ يَبْتَسِمُ. أَرْتُهُ صَوْرًا لِعَائِلَاتٍ قَامَتْ بِلَمِّ شَمْلِهَا، وَرِسَائِلٍ مِنْ أَطْفَالٍ أَنْقَذَتْهُمْ مِنْ آبَاءٍ عَنِيفِينَ.

لَمْ يَحْدِثْ أَنْ تَطَرَّقَ أَحَدُهُمَا إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ الْمَحْدَدِّ مِنْ

ماضيهم، حين فُرِّقا أحدهما عن الآخر. تجنَّبَا الحديث عن الدِّين، لم يعد يعرف شيئاً عن مشاعرها بعد ما حدث بينهما، عن أهلها وإيمانهم. كان لا بأس في ذلك، فقد كان لديهما عملٌ لإنجازه، ولم يسمح ووك لذلك أن يغيب عن ذهنه. ليس عندما انحنى ليقبِّل خدَّها، أو عندما لمست ساقها ساقه. لاحظت في أكثر من مناسبة كيف كانت يداه ترتجفان، أو كيف كان يهزُّ رأسه برفقٍ حين يحاول تذكُّر شيءٍ ما، ثمَّ شاهدته كما لو كانت تعرف. عندها قال لها ليلةً سعيدةً، وقاد عائداً إلى كيب، مكانه، وبلدته.

عند الغسق تجول في طريق آيفي رانش، لطالما كانت أساسيات وظيفته تكمن إلى حدٍ كبيرٍ في طريقة رؤية الصورة الأكبر. قابله براندون عند الباب، عاري الصدر، مع بنطالٍ رياضيٍّ فحسب. في الخلف كان قميصه القديم لكرة القدم معلقاً ضمن إطارٍ على الحائط. وبالقرب منه طاولة بلياردو، ولعبة الأركيد الإلكترونية، الأمور الأساسية لعازبٍ وجدَّ القوَّة في رجله بعد عقْدٍ من الإعاقة الملموسة.

- «هل هذا بخصوص غريب الأطوار ذاك مرَّةً أخرى؟». نظر براندون خلف ووك نحو منزل ميلتون. «هل تعرف ماذا وجدتُ في فنائي يا ووك؟ رأساً لعيناً».

- «رأسٌ؟».

- «حروفٌ تافهةٌ أو شيءٌ من هذا القبيل. غزالٌ ربَّما، أياً يكن. كان فارغاً كأنَّه عبارةٌ عن تحذير».

- «سوف أتكلَّم معه. لكن كما تعلم يا براندون، أنا أسمع هدير تلك السيارة من منزلي». لاحظ ووك أنَّ الرجل كان يقف على رؤوس أصابعه، كأنَّه يبحث عن إنشٍ إضافيٍّ من الطول.

- «سأخبرك شيئاً»، قال براندون، «الوضع أهدأ الآن بلا ستار وهي تعود في وقت متأخر من الليل. أعني، إنها مأساة بالطبع، لكن ربّما أصبح ميلتون ينام بسهولة الآن، فهو لا ينتظرها».

- «كيف ذلك؟».

اتكأ براندون على إطار الباب. هناك وشم على صدره، نوع من الرمز الياباني الغريب: «في بعض الأحيان كنت أنهض في وقت متأخر، وأراه متربّصاً عند النافذة».

- «إنّه يراقب النجوم».

ضحك براندون. «نعم، واحدة منها على وجه الخصوص. سأله عن ذلك يا ووك».

- «قال إنك تبوّلت في فنائه».

- «هراء».

- «أياً يكن، أنا حقاً لا أهتم. أنا فقط لا أريد أن يُثقل أيّ منكما كاهلي بهذه المشاكل».

- «تبدو متعباً يا ووك. هل تأخذ ما يكفي من السوائل؟».

- «اسمع يا براندون، سوف أذهب وأجري نفس الحديث مع ميلتون، لكن هل تظنّ أنّ في وسعك تهدئة الأمور قليلاً؟ لديّ الكثير من العمل، وأفضّل القيام به من دون اضطراري إلى القدوم لرؤيتك بشأن نزاع تافه».

- «أنت في حاجة إلى التمارين يا رجل. تحتاج أن تخفّف من التوتّر. مُرّبي ذات ليلة، وسوف نقوم بسلسلة من التمارين، أسميت اللعبة روك هارد. تعلم أنّي حاولت تسجيل براءة اختراع لها، من أجل لياقتي —».

تركه ووك يتحدث، واتجه نحو الجهة الأخرى من الشارع.

طرق الباب.

- «ووك»، قال ميلتون وعلى وجهه ابتسامة عريضة لدرجة أن ووك كاد يشعر بالأسف عليه.
- «هل يمكنني الدخول؟».
- «إلى منزلي؟».
- حاول ووك ألا يتنهد.
- «نعم. أقصد، بالتأكيد نعم. أرجوك تفضل». تنحى ميلتون جانباً، ودخل ووك إلى المنزل.
- «هل ترغب في أكل شيء؟».
- «لا، أشكرك».
- «هل تتبع حمية يا ووك؟ تبدو أنحف. ماذا عن بيرّة؟».
- «بالأكيد، يا ميلتون».

ابتسم ميلتون والكثير من الحماس يعلو ملامحه، ثم اختفى داخل المطبخ بينما قام ووك بإلقاء نظرة على غرفة المعيشة. المكان مكتظ، كان ميلتون من نوع الأشخاص الذين يحبون كنز الأشياء، حتى إن كتيّبات دليل التلفزيون محفوظة ومكدّسة. خطأ فوق مجموعة من البطاقات الصغيرة تحمل أسماء ولايات كان يعرف جيداً أن ميلتون لم يزرها يوماً. كان يطلبها عن طريق البريد، هراء من كل أنحاء البلاد، يصوّر حياة مليئة بالسفر والأصدقاء. كان لديه صورة فوق جهاز التلفزيون، غزال أسود الذيل، عيانان ميتتان.

- «لقد اصطدث ذلك في كوتريل، جميل أليس كذلك؟».

- «بالأكيد، ميلتون».

- «لم يكن لديّ بيرّة، بل ليكور⁽¹⁾ القهوة فحسب. لم أتمكن

(1) الليكور: المرکز الكحولي لنكهة ما - المترجم.

من العثور على تاريخ صلاحية له، إنه موجودٌ في البراد منذ بعض الوقت. لكن الكحوليات لا تفسد بمرور الوقت، أليس كذلك، يا ووك؟».

أخذ ووك الكأس ووضعه على الطاولة، ثم أفسح مجالاً للجلوس وأشار لميلتون أن ينضمَّ إليه.

- «أردتُ أن أتحدَّثَ إليك عن تلك الليلة».

عدَّل ميلتون جلسته، حاول أن يعقد ساقيه لكنَّه لم ينجح في ذلك تماماً. ارتشف ووك من ليكيور القهوة، محاولاً ألا يرجعه إلى الكأس.

- «سمعتُ أنك تتحدَّثُ إلى كلِّ شخصٍ في البلدة عن تلك الليلة. لكنَّني أخبرت الشرطي الحقيقي بكلِّ شيءٍ بالفعل».

تلقَّى ووك الصفعة، واثقاً أن ميلتون لم يقصدها. «حسنٌ، لقد قلتَ إنَّك سمعتَ شجاراً».

- «هذا صحيحٌ».

- «قلتَ أيضاً إنَّك رأيتَ فنسنت ودارك يتعاركان قبل بضع ليالٍ من مقتل ستار».

جفل حين سمع اسمها. اعتادت ستار أن تخبره كيف كان ميلتون يُخرج لها صناديق القمامة إذا نسيَتْ فعلَ ذلك. أشياء صغيرة احتاجتها.

- «لماذا تعاركا؟».

- «أعتقد أنَّ فنسنت كينغ ربَّما كان يشعر بالغيرة. أنا أذكرهما جيداً، يا ووك. بالعودة إلى أيَّام المدرسة، كانا مثل ثنائيٍّ مقبلٍ على الزواج وإنجاب الأطفال. أعتقد أنَّ ذلك كان يعتمل بقوةٍ في أعماق فنسنت، ويجعله يحلم بمستقبلٍ يستند على ماضٍ بعيدٍ».

جال ووك بنظره في أرجاء الغرفة، جدران مكسوَّةً بالواحٍ

خشبية، وسجاد تحت قدميه، وحول موقد النار صخورٌ حجريةٌ. كان بيتاً لمزرعة يعود إلى السبعينيات. كان الهواء لطيفاً ومنعشاً، لكنك كنت تشعر بأنار الدم تحت كل شيء.

تنحني ميلتون. «لا يمكنك أن تفعل الأشياء بشكل غير صحيح. لا يمكنك أن تتخطى جزءاً من الماضي، وتبرز الأشياء الجيدة فحسب. أتعرف ذلك؟».

- «لقد اتصلت بنا مراراً من قبل، بدا أنك فعلت ذلك في كل مرةٍ مرَّ رجلٌ بستار. حتى في حالة دارك، أليس كذلك؟ قلت إنك قلق».

عَضَّ ميلتون شفته السفلى. «هذا جزءٌ من المراقبة. لكن ربما كنتُ مخطئاً في تلك الأحيان. دارك رجلٌ طيبٌ. إنها هيئته، هي ما تجعل الناس يتحدثون. أنا أعرف. أعرف بماذا يشعر. أعتقد أنني لا أسمع سخرية الأطفال وهم يطلقون عليّ مختلف النعوت؟ كتلة الشعر. فوريبي. مغلف اللحوم. إنها نكتةٌ تتردُّ عليهم، فأنا لا أغلف اللحم حتّى».

دقت الساعة، مرَّت عشر دقائق بطيئةً. أدار ميلتون رأسه، فرأى ووك بركة عرقٍ تحت إبطيه.

- «هيه، ووك. هل تريد أن نذهب إلى ميندوسينو مجدداً؟». ابتسم ووك. «لقد استمتعتُ بذلك، لكنني أعتقد أنني صياد أسماكٍ أكثر من كوني صياداً بريّاً. أطلقني إلى الأمواج وسأكون سعيداً».

- «لستُ كذلك. لم أتعلم السباحة مطلقاً. تلقيت دروساً، لكنني كنتُ أبقي فمي مفتوحاً طوال الوقت، أبتلع كل شيء. أنا أحب الكلور».

لم يعرف ووك ماذا يقول بهذا الشأن.

- «لا يهّم، لديّ أصدقاء آخرون مهتمّون في الأمر». بدا ميلتون يائساً من مشاركة ووك.
- «نعم؟» تلقّف ووك الطعم.
- «أذهب للصيد معهم».
- «من؟».
- ابتسم ميلتون. «دارك. أخذني في سيارته الإسكاليدي. صدّقني، هذا الرجل يمكنه إطلاق النار. لقد جلبنا اثنين من غزلان الذيل الأسود».
- «هل هذا صحيح؟».
- «أنتَ تسيء فهمه يا ووك. هو...».
- «مختلف؟».
- «صديقٌ جيّد»، قالها بحزم، وعيناه مُسلّطتان على ووك. «قال إنه سيأتي إلى هنا عند هطول المطر التالي. ليس حتى فبراير، ولكن مع ذلك أعتقد أنه سيأتي بالفعل».
- كانت نبرة اللذعة واضحة، ولكن لم تكن لدى ووك الطاقة للشعور بالذنب.
- «طلبت منه أن يأتي في الربيع. أسبوع صيد. لقد اشتريتُ له لثاماً، وجزماً عاليةً من النوع المشمّع».
- نظر ووك إلى الرفوف المكتظة، كانت تحوي العديد من الكتب، ومعظمها عن الصيد. «أنتَ لا تعرفه. يجب أن تكون حذراً، يا ميلتون».
- «أنتَ أيضاً يا ووك، يجب أن تكون حذراً. أنتَ تبدو مريضاً».
- «أردتُ أيضاً أن أخبرك أنني تحدّثتُ إلى براندون مرةً أخرى. قالت ليا إنك اتصلت».

تشنّج ميلتون عندئذٍ. «حسنٌ، لم ينفع ذلك في شيء. إنّه يفعل ذلك لأنّه يعلم أنّي يجب أن أستيقظ باكراً. ذهبْتُ الليلة الماضية إلى النافذة، وكان جالساً هناك يشغلّ المحرك. وعندما رآني ابتسم. أنا لستُ طفلاً الآن، يا ووك. هذه ليست المدرسة. أنت تعلم أنّه كان يتنمّر عليّ. ويُقحم رأسي في المرحاض. لستُ مضطراً لتحمل ذلك. ينبغي بي —».

- «أن أترك رأس خروف في فناء منزله؟».

حدّق ميلتون بعينين مسعورتين، وشعراتٌ من جسمه تنبثق بارزةً من أعلى قميصه. «لا أعرف شيئاً عن ذلك».

- «قلتُ إنه تبوّل في حديقتك».

- «نعم سيّدي».

- «كيف عرفتَ أنه كان هو؟».

- «أمسكته متلبساً. فتحت الستائر ورأيتُه وجهاً لوجه».

- «يا إلهي».

- «لقد قدمت بلاغاً. 98-10».

- «هروبٌ من السجن!».

«وكما تعلم فهو يملك قارباً، لقد أصلحه بشكلٍ جيّدٍ. إنّه يحتفظ به في خليج هاربور. كنت أعتقد أنّه سيبيع السيارة، ويقضي وقته في الماء».

- «قال إنّه على استعدادٍ للمحاولة إذا كنتَ كذلك. قال إنك

جارٌ محترمٌ، وإنّه مستاء حيال الأمر».

- «هو قال ذلك؟»

علم ووك أن ميلتون لا يستطيع قراءته على الإطلاق. «لذلك سوف تُوقِفُ كل هذا الهراء الذي في رأسك».

«هذا لم يكن يوماً بسببي، يا ووك».

حدّق ووك به، ونظرة استجداءٍ في عينيه.

- «لربّما أرسل له ذات يوم قطعة لحم أو شيئاً من هذا القبيل.

لا شيء مميزٌ جداً، ليس في البداية. كيف يبدو ذلك؟».

- «شكراً لك يا ميلتون».

تبعه ميلتون إلى الباب.

على الشرفة، توقف ووك ونظر عبر الشارع.

- «أنا أفقدها»، قال ميلتون، «أنا آسف حقاً، أنا...».

- «ماذا؟».

- «أنا آسف لأنها لم تعد موجودةً بيننا».

- «نحن مدينون لها وللطفلين بالإمساك بالرجل الذي فعل

ذلك».

«لقد فعلتَ ذلك بالفعل يا ووك».

ما كان ميلتون لينظر في عيني ووك في هذه اللحظة، وبدلاً من

ذلك ترك لعينيه أن تجوبا سماء الليل. وقف هناك، يداه غارقتان في

جيبه، ساهماً في ووك، وفي البلدة، وفي الدم الذي أُريقَ.

جلسا في الفناء حيث دَقَّاتُ أوْصَالِهما نسماتٌ من رياح سانتا
أنا الجافة .

كان ووك يحاول النوم، برغم أنَّ الوقت كان ما يزال باكراً،
لكنَّه وجد نفسه يحدِّق في السقف بدلاً من ذلك، عندما سمع طرْقاً
على الباب .

«لا أصدق أنَّك ما زلت تعيش في هذا المنزل يا ووك»، قالت
مارثا .

جلبتُ معها عشاءً، طعامٌ حارٌّ، سخَّنتُهُ على الموقد القديم
حيث اعتاد ووك أن يحتفظ بقوائم طلب الوجبات السريعة داخله .
- «أشعر أنَّه يجدر بي أن أبْظن فمي بالشمع قبل أن أجرب
هذا» .

- «استرخ، يا ووك . لقد كنتُ متساهلةً . فمقياس سكوفيل⁽¹⁾
كاد لا يُعطي أيَّ إشارة . إنَّه فلفلٌ حارٌّ للمبتدئين» .
لمس الشوكة بطرف لسانه ف شعر بالحمم تستعر في فمه . «حقاً؟
هذا أشبه بالمرض . أنتِ في الواقع مريضةٌ» .

(1) مؤشر لقياس الطعم الحارّ - المترجم .

- ضحكت. «أنتَ كُلُّ خبز الذرة فقط. تبدو كأنك تستطيع الاستفادة منه. آمل أنك تهتمُّ بنفسك يا ووك».
- ابتسم. «هل سبق لك أن افتقدتِ كيب؟».
- «كلَّ يوم».
- «أخبرتُ ليا بأنني عدتُ أراك من جديد في الفترة الأخيرة».
- «تراني؟».
- «أنا لم —».
- ضحكت. احمرَّ خجلاً.
- «ليا تالو. ما تزال متزوجةً من إد؟».
- «هي كذلك».
- «واو، لا بد أنها تحمّلت الكثير على مر السنين. أتذكّره في المدرسة، لقد كان يلاحق ستار».
- «الجميع كان كذلك».
- «تالو للإنشاءات. ألّمح لوحاتهم الإعلانية أحياناً. كانت لديّ موكّلةٌ زوجها سُرح من قبل تالو، فانصرف لمعاقرة الخمر».
- «السوق صعبةٌ لكنها ستتعش من جديد».
- «خاصةً إذا ما بدؤوا في بناء كل تلك المنازل الجديدة».
- وقف وسكب لها المزيد من النبيذ. «لقد ذهبْتُ لرؤية ميلتون مرةً أخرى».
- «الجزّار. أتذكّره من المدرسة. هل ما زالت رائحةُ الدم تنبعث منه؟».
- «ما تزال كذلك. هو متأكّد من أنّه سمع جدالاً، وسيشهد بأنّه رأى فنسنت ودارك ينخرطان في شجارٍ خارج منزل ستار. وسوف يرجّح بأن الأمر كان بشأن ستار».

الاتفاق كان موجوداً، لم يكن سلساً في البداية، لكنّ مارثا كانت تنخرط في الأمر شيئاً فشيئاً. سوف يعمل ووك على قضية كينغ، وأي شيء يجده سيحضره إليها، وستقوم هي بتحليل عناصره وإعادة جمعها، ومن ثمّ إخبار ووك إنّ كان الأمر يساوي أكثر من مجرد هراء في قاعة محكمة. كانت واضحة رغم ذلك أنها لن تتقدم للمحاكمة تحت أي ظرفٍ من الظروف. سيعملان على بناء القضية بأفضل ما يستطيعان ثم يحيلانها إلى محام جنائي. وإذا لم يُوكَلْ فنست محامياً، فستكون قد حاولت على الأقل.

- «هل سنحت لك الفرصة لإلقاء نظرة على الأوراق؟».

- «بالتأكيد، ما الشيء الآخر الذي قد أفعله؟ أنام وأستريح مثلاً!».

ابتسم وهي تتركه لتخرج من الباب الجانبي إلى سيارتها، وتعود بعدها مع حقيبتها. أزال ووك الأطباق بينما فردت مارثا الأوراق على المنضدة. خمس شمعاتٍ من السيترونيلا مشتعلة منحتهما ما يكفي من الضوء.

إقراراتٌ ضريبيةٌ، بياناتٌ، إيداعاتٌ للشركة، تعود إلى عشرين عاماً. كل ما يحتاج ووك أن يعرفه عن ديكي دارك.

- «السجلات صحيحةٌ ومرتبّةٌ، يا ووك. دارك يكسب مالاً وفيراً. اثنان وخمسون ألف دولار في السنة ربّما. لا شيء يثير أي علاماتٍ حمراء. رجعتُ إلى الوراء كثيراً، عندما اشترى منزلاً صغيراً في شارع لافينهام في مدينة بورتلاند».

- «ولاية أوريغون».

- «أعتقد أنّ هذا هو مسقط رأسه. لقد قام بتجديده وإعادة هيكلته، ثمّ باعه مقابل ربحٍ قدره ثلاثون ألف دولار، وقد صرّح عنه

بالكامل. نفقات متواضعة. ثمَّ عملَ على بيتٍ آخر على بعد حيٍّ منه، وكسب منه خمسةً وأربعين ألفاً. وبعدها لا شيء». - «لا شيء؟».

- «لا بدَّ أنَّه امتلكَ مصدرَ دخلٍ آخر. هناك أربع سنواتٍ من دون أيِّ شيءٍ في الأوراق. ثمَّ حقَّقَ قفزةً ضخمةً، وبدا أنَّه ينتقل من بلدةٍ إلى أخرى، شق طريقه على طول الساحل، في أي مكانٍ يمكن أن يحقق له ربحاً. هذا هو الأمر ببساطة». - «عقاراتٍ دائماً؟».

- «معظم الأحيان. عقارٌ في يوجين وآخر في غولد بيتش. في صيف عام 95 وصل إلى كيب، اشترى البار القديم في كابريلو وقضى عاماً في محاولة الحصول على ترخيص». تذكر ووك ليلة افتتاحه، لا ضجة أو حفل افتتاح، مجرد ضوءٍ وسط الظلام.

- «في السنة الأولى حصد نصف مليون دولارٍ». رشفت مارثا نبيذها، «في العام الثاني تضاعف الرقم. لقد كان منجم ذهبٍ يا ووك. هذا ما صرَّح عنه فحسب، ففي مكانٍ كهذا، كل التعاملات نقديةٌ، أليس كذلك؟ قد يكون هذا كلُّ ما لديه، لكنَّه كان كلَّ ما يحتاجه».

- «لذا أراد رهنه مقابل قرضٍ استثماريٍّ لشراء منزل آل كينغ. هذا ما كان سيفعله على الأقل».

- «لكن كانت هناك مدفوعاتٌ، مدفوعاتٌ تدمع لها العين». - «لمن؟».

- «تخميني هو لَمَن استثمر معه. وهو ليس بنكاً».

- «مرايبي قروضٍ؟».

- «ممكن. سجلُّه الائتماني غامضٌ، وكثرة التنقل جعلت من الصعب الاقتراض من بنكٍ عاديٍّ. بعدها اشترى المنزل في شارع فورتونا».

- «منزل دي لين».

- «والمنزل على طريق آيفي رانش».

- «منزل آل رادلي».

- «منازل صغيرة، للإيجار فقط. واستثمارٌ في مشروع تطوير عقاريٍّ يُسمَّى سيدار هايتس».

كان ووك قد رأى الإعلانات في الصحف المحلية.

- «آسفة، يا ووك. لا شيء غريبٌ على الإطلاق في كل هذا».

تنهد ووك.

- «ذاك النادي الذي يمتلكه. اسمه ذي أيت، أليس كذلك؟»

قالت مارثا.

- «بلى».

- «كانت تأتي إليّ فتاةٌ من هناك. كان لديها مشاكل مع صديقها. أعتقد أنها ذكرت دارك في إحدى المرات».

- «هل يمكنني أن أكلمها؟».

- «ربما. سأسأل».

- «نحن في حاجة إلى أن نعرف عن هذه المدفوعات».

- «كلُّ ما لديّ هو رقم حساب».

- «قد يكون شيئاً ما».

- «أو لا شيء على الإطلاق. أنا ملمّةٌ بملف القضية الآن. ما لديك هو عبارة عن حمولةٍ كاملةٍ من اللاشيء، وما تحتاجه هو دليلٌ قاطعٌ لا يقبل الشك. لا شيء أقل من ذلك».

وقف عندما رنَّ هاتفه الخليوي، لقد كان ميلتون. بدا أن الرجل

كان في الخارج، يلهث في أثناء نزهته المسائية، وهو يحاول أن يذيب بعض الدهون. تحدث ووك إليه دقيقةً.

جمعت مارثا الأوراق. «هل كل شيء على ما يُرام؟».

- «يدير ميلتون مجموعة مراقبة الحي».

رفعت مارثا حاجباً.

- «إنه العضو الوحيد منذ وفاة إيتا. قال أن هناك 91-10 في سنست. من الأفضل أن أذهب إلى هناك».

- «91-10؟».

تنهد ووك. «حصانٌ شاردٌ».

قاد سيارته إلى سنست، ولم يفكر حتى في تشغيل الأضواء.

كانت هناك سيارة متوقفةً خارج منزل آل كينغ، صنّفها ووك بأنها غير واضحة المواصفات بمعايير رجال الشرطة.

أوقف الكروزر خلفها مباشرةً، أضواء أضواءه على الفور، ثم نزل وسار إلى نافذة السيارة.

كان هناك رجلان في الداخل، لم يقم أيٌّ منهما بإنزال النافذة.

راقب ووك الشارع الخالي، الأراضي الخالية، ومياه كيب التي تعكس ضوء القمر. نقرَ على الزجاج برفقٍ، فالتفت السائق إليه.

كان في الخمسين ربّما، رأسٌ داكن الشعر، ووسيمٌ.

- «هل يمكنني مساعدتك في شيء؟» ابتسم ووك.

نظر الرجل إلى صديقه، كان أكبر منه، في الخامسة والستين ربّما، مع لحية ونظارات. «هل فعلنا شيئاً؟».

- «ليس شيئاً أعرف به».

- «اغرب من هنا إذا».

ابتلع ووك ريقه وشعر بدفقةٍ من الأدرينالين تنبعث في جسمه.

«وإذا لم أفعل؟».

عاد للابتسام ابتسامةً صغيرةً فحسب، كأنه كان ينبغي بوءك أن يعرف شيئاً لم يعرفه، ومع ذلك كان ما يزال من الممكن أن يُعاقب عليه.

- «نحن نبحث عن ريتشارد دارك».

- «دارك لا يعيش هنا». لم يسحب ووك مسدّسه، بل أبقى يده هناك لإظهار نيّته.

- «هل لديك أيّة أفكارٍ أين يمكن أن نجده؟».

فكّر ووك في دارك، وفي المدفوعات، ونوع الرجال الذي كان من المرجّح أنّه يعمل معهم. «لا أعرف أين يعيش».

- «إن رأيتّه، قل له إننا لن نبرح المكان»، قال الرجل الأكبر سناً دون أن ينظر إلى ووك.

شغل السائق المحرّك.

- «أريد منك أن تخرج من السيارة».

نظر السائق إلى ووك، ثم إلى منزل آل كينغ وراءه. «إنّ دارك بارعٌ في لعبة تدوير الأطباق، إلى أن يسقط واحدٌ منها».

- «قلتُ أريد منك —».

أغلق السائق النافذة، وتحرك بالسيارة إلى الشارع.

فكّر ووك في مطاردته، والإبلاغ عن الأمر باللاسلكي، لكنّه وقف يتفرّج عليهما يسلكان سنست بدلاً من ذلك، ويده ما تزال على مسدّسه.

* * *

أمسكت يد روبن بعد أن فتحا البوّابة، وسارا نحو الحصانين اللذين كانا يرعيان جنباً إلى جنب.

- «هل يمكنك أن تأكلي معنا مرّةً واحدة؟».

أَلَجَمْتُ دَاتَشْسَ الْأَسْوَدَ بِلَطْفٍ، ثُمَّ رَبَّتْ عَلَى أَنْفِهِ بَرَاةَ يَدِهَا. «لا».

ثُمَّ أَلَجَمْتُ الرَّمَادِيَةَ الْأَصْغَرَ، حَاوَلْتُ مَدَاعِبَتَهَا لَكِنَّهَا أَبْعَدَتْ وَجْهَهَا. كَانَتْ دَاتَشْسَ تَحُبُّهَا.

سَحَبَتِ اللَّجَامِينَ، وَقَادَتِ الْحَصَانِينَ بِرَفْقٍ، بَيْنَمَا ظَلَّ رُوبِنْ جَانِبًا. نَزَلَ الدَّرَجَاتِ الْأَخِيرَةَ، ثُمَّ أَغْلَقَ الْبَوَابَ خَلْفَهُمَا كَمَا عَلَّمَتْهُ دَاتَشْسَ.

حِينَ انْتَهَتْ، تَمَنَّتْ لهُمَا لَيْلَةً طَيِّبَةً، ثُمَّ عَثَرَتْ عَلَى رُوبِنْ عَلَى مَرَجَةٍ عَشْبٍ قَرِبَ الْمِيَاهِ. كَانَ يَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي بِهِ الْإِقْتِرَابَ كَثِيرًا، بَرِغْمَ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ السَّبَاحَةَ جَيِّدًا، إِذْ اسْتَقَلَّتْ مَعَهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْتٍ لَمَّا يَقْرُبُ مِنْ عَامِ ثَلَاثِ حَافَلَاتٍ إِلَى لِيدُو فِي أَوَكْمُونْتِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْأَطْفَالَ السَّبَاحَةَ مَجَانًا.

حِينَ أَصْبَحَتْ قَرِيبَةً مِنْهُ، تَحَرَّكَ مَبْتَعِدًا عَنْهَا.

- «أَنْتَ غَاضِبٌ مِنِّي».

- «نَعَمْ». كَوَّرَ قَبْضَتَهُ وَأَبْقَاهَا فِي حُضْنِهِ. كَانَ يَرْتَدِي سُرْوَالًا قَصِيرًا، سَاقَاهُ نَحِيفَتَانِ، وَهَنَاكَ خَدُوشٌ فِي رَكْبَتَيْهِ. «مَا كَانَ يَنْبَغِي بِكَ أَنْ تَقُولِي ذَلِكَ لِتَايلِر».

- «مَا كَانَ يَنْبَغِي بِهِ أَنْ يَطْرَحَكَ أَرْضًا».

هَبَطَ اللَّيْلُ بِالسَّرْعَةِ الَّتِي حَلَّ بِهَا الْغَسَقُ، أَخَذَ الدَّفءَ يَتَلَاشَى حَتَّى لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ سِوَى الْبُرُودَةِ.

- «لَا بَأْسَ».

- «كَلَّا لَيْسَ كَذَلِكَ». ضَرَبَ الْعَشْبَ بِقَبْضَتِهِ. «أَنَا أَحَبُّ الْمَكَانِ هُنَا، أَحَبُّ جَدِّي، وَأَحَبُّ الْحَيَوَانَاتِ، أَحَبُّ الْآنَسَةِ تَشَايِلْدِ، وَالمَدْرَسَةُ الْجَدِيدَةُ، أَنَا لَا أَحْتَاجُ...».

- «ماذا؟» قالتها بهدوءٍ، لكن بتحدٍّ. قبل شهرٍ من الآن كان سيبقى صامتاً.

- «أنتِ. لديّ جدّي، وهو شخصٌ بالغٌ. يمكنه الاعتناء بنا. لا أريد منك أن تُعِدّي طعامي».

بكى بصمتٍ. شاهدته يتكوّر على نفسه، أسندَ ذقنه على ركبتيه اللتين لفّهما بذراعيه. كانت تعلم عن الأمور التي تشكّل البشر، الذكريات والأحداث التي تترك بصماتها على روحك. كانت تحتاج إلى روبن كي تكون بخيرٍ، كانت تحتاج إلى ذلك أكثر من أيّ شيءٍ آخر. كان يقابل المعالجة النفسية كلّ أسبوعٍ، لكنّه توقّف عن إخبار داتشس بما تتّم مناقشته في الجلسة. لست مضطراً لإخبار أحدٍ. هذا أمرٌ خاصٌ.

- «أعلمُ أنّك خارجةٌ عن القانون، لكنني لستُ كذلك. أريد فقط أن أكون طفلاً».

اقتربتُ منه جاثيةً على ركبتيها، وبنطالها الجينز يتمرّع في التراب. «أنت أميرٌ، تذكّر ذلك. هذا ما قالته ماما وكانت على حقّ».

- «دعيني وشأني فحسب».

حاولتُ أن تمسّد شعره لكنّه أبعد يدها، وقف ثم ركض إلى المنزل. اعتقدتُ للحظة أنّها قد تبكي هي الأخرى، وتسمح للأشهر والسنوات الماضية أن تمرّغها في التراب، أن تجرّد جلدّها من عظامه، ودمها من مائه.

سمعت قعقعة شاحنةٍ، شعرت بالتوتر لحظةً، ثم رأْتُ أنّها كانت دوللي. تركتُ دوللي ضوء السيارة الأمامي عالياً، لتمسح حزمةً من الضوء صفحة الماء.

- «هل تمانعين لو جلستُ بعض الوقت؟». كانت دوللي تمرّ

- بهم بين الحين والآخر. ارتدت فستاناً كريماً، وكعباً ذا نعلٍ أحمر. كانت نوعاً من النساء الذي لا يملك ملابس عمل.
- «لم أرك في الكنيسة الأسبوع الماضي»، قالت داتشس.
- «لقد كان بيل مريضاً». توهجت شعلة سيجارتها فيما كانت تمسك بها بعيداً عنها.
- «أوه».
- «إنه مريضٌ منذ فترةٍ طويلةٍ. بعض الأيام أفضل من غيرها».
- «صحيح».
- «لقد فاتتني رؤية ذلك الفستان».
- كانت داتشس قد قصّت رقعةً جديدةً لإظهار سُريتها.
- «تعرفين أنه يمكنك أن تمرّ بي إن أردت يوماً رفقةً نسائيةً. ليس لي أشقاء، ولا أم، لقد كبرتُ وأنا أعيل نفسي».
- «وأنتِ على ما يُرام».
- «أنا بارعةٌ في المواجهة يا داتشس. أنا أستاذةٌ لعينه في ذلك. على أية حالٍ، يعرف هال أين يجدني إذا أردتِ زيارتي».
- «أحاول ألا أتحدّث إلى هال بهذا القدر».
- «ولمَ ذلك؟».
- «لو كنتُ قد قابلته... أعني، لو أن أمي لم...».
- انساب الماء متموّجاً برقّةٍ. «لقد قام بالرحلة».
- التفتت داتشس إليها.
- «إلى كيب هيفن». تكلمت دوللي بهدوءٍ، كأنّها تخون الثقة.
- «اعتقدتُ أنّه ينبغي بك معرفة ذلك».
- «متى؟».
- «كلّ سنةٍ. في اليوم نفسه. الثاني من يونيو».
- «إنّه عيد ميلادي».

ابتسامة صغيرة. «كان يأخذ هدية. اعتاد أن يطلب مني مساعدته في اختيار شيء قد يعجبك. وبعد ذلك، عندما وُلِدَ روبن. كان يقود إلى هناك مرتين كل عام. وهو رجل لا يأخذ يوم إجازة أبداً، لا يمكنه تحمّل كلفة ذلك».

جالت داتشس بنظرها على منزل المزرعة القديم. «كيف عرف؟ قالت ستار إنها لم تتحدّث معه قط».

- «أوه، هي لم تفعل. والدتك عنيدة جداً، تبدو مثل شخص آخر أعرفه».

- «وقري هذا الكلام».

- «كان ما يزال لديه أحد ما هناك. اعتاد أن يتّصل به بين الحين والآخر. إنه شرطي».

أغمضت داتشس عينيها. ووك. «لم أحصل على تلك الهدايا أبداً».

- «أوه، أنا أعلم ذلك. كان يعود بها دائماً. الشيء نفسه في كل مرة. برغم ذلك لم يتوقف عن المحاولة، لم يُرد أن يراك دون مباركة من والدتك».

- «لقد لامته على كل شيء».

وضعت دوللي يدها على كتف الفتاة.

عرفت داتشس حكاية جدتها، كانت روحها حرة جداً، حتّى إن داتشس ما تزال تحمل اسم داي قبل رادلي. كانت ستار في السابعة عشرة، وتحاول الالتحاق بالجامعة. ذات يوم عادت إلى المنزل باكراً، ورأت على الفور ملحوظة.

أحبك. أنا آسفة. اتّصلي بوالدك ولا تدخل المطبخ.

لم تكن ستار الشخص الذي يتبع القواعد أبداً.

وقفت دوللي. «أحضرتُ فطيرةً لروبن. كتلةٌ من الطين بارتفاع ميلين. أعتقد أنه سيصاب بخيبة أملٍ لأنّها ليست طيناً حقيقياً». لحقتُ بها داتشس إلى الشاحنة وأخذتُ منها الفطيرة.

- «جدك طاعنٌ في السن».

- «أعرف».

- «هل سبق أن ارتكبتِ خطأً يا داتشس؟».

فكرت داتشس في كيب، الحريق، المشاجرات، وخدش سيارة براندون الموستانغ. «أبدأ».

جذبتها دوللي عندئذٍ نحوها، ثم عانقتها. كانت تفوح منها رائحة عطرٍ لطيفة. حاولت داتشس التخلص منها لكن دوللي أمسكتها بقوة. «لا تضيعي نفسك، يا داتشس». بعدها، راقبت الشاحنة وهي تبتعد.

سقطتُ أولى قطرات المطر على كتفيها. أخذ ينهمر بسرعة، وأصبح غزيراً جداً لدرجة أنّه جعل الوحل يتطاير في الأرجاء ويلطّخ ساقها. وقفت هناك، مالت برأسها نحو السماء، وحتى السموات المفتوحة لم تكن كافيةً لتطهير روحها. وجدت هال على الشرفة، حاملاً منشفةً. تركته يلفّها بها، ومضت إلى المقعد، أخذت الكاكاو الذي أعطاه لها. كان صوت تهاطل حبات المطر عالياً جداً لدرجة أنّه طغى على صرخة ذلك الصوت الذي كان يطلب منها أن تركل وتركل.

- «روبن نائمٌ. هو لم يقصد ما قاله». جلس هال بجانبها على المقعد، بعيداً عنها بما يكفي.

- «بل قصده».

- «رأيتك في الحقل. إنَّ بيغ سكاي (مونتانا) جميلةٌ، حتى في المطر».

- «أحضرت دوللي فطيرة». ناولته داتشس الطبق الذي كان عند قدمها.
- رن جرس الهاتف. لم يكن يرن كثيراً. راقبت الرجل العجوز يتوجه إلى الداخل، ويقول بضع كلمات مقتضبة.
- «مَن كان ذلك؟».
- «ووكر».
- «هل أتى على ذكر دارك؟».
- «لقد كان يطمئن فقط».
- «دارك سوف يأتي».
- «لا توجد طريقة لمعرفة ذلك».
- «أنت لا تفهم».
- «أخبريني».
- «لقد وعد أنه سيأتي من أجلي».
- «لماذا؟».
- لم تقل شيئاً.
- جلسا يشربان الكاكاو، واستنشقا رائحة المطر الممزوج بالتراب.
- «هنا أحلم أكثر. لا أريد ذلك».
- التفت إليها.
- «وأحلامي مزريّة وخرائيّة».
- لم يتوقف عند الكلمة البذيئة. «أخبريني».
- «لا».
- «أخبري الرمادية، يمكنها سماعك من هنا. تكلمي فحسب، هذا كل ما في الأمر، يا داتشس».
- «هذا كل ما في الأمر»، قالت بهدوء.

أغمض عينيه للمطر. عندها رأت حقيقته، حياةً مليئةً بالأخطاء مدفوعة الثمن، إغراء الفرصة الثانية، الطلب البائس للخلاص.

- «أصعد فوق بيت المزرعة، فأرى الصخور والخضرة. طرقاتٌ مليئةٌ بأوراق الشجر تذكّرني بالخريف والفصول التي تتغيّر بغضّ النظر عمّن يموت. أنا في السماء عاليةً، ومونتانا مثل فسحةٍ سفليةٍ، حقولٌ مرقّعةٌ خاطّتها الجرارات مثل النمل، البشر يومئون برؤوسهم كأنّهم غارقون في اعتيادية حياتهم.

المحيط لا نهاية له، لكنني أرى نهايته. أرى الأرض. المنعطفات هي الغد، لكنّ المنعطفات تأبى الانعطاف. أرى الغيوم التي تحمل السماء، غروبٌ للشمس في الصحراء، وشروقٌ لها فوق حصي الطرقات. أصبحُ ظلمةً، ونجوماً، وأقمارها. العالم ليس بشيءٍ، إنّهُ صغيرٌ لدرجة أنني أرفع إصبعاً في وجهه فأجعله يختفي. أنا كبيرةٌ بما يكفي لإيقاف الأشرار.

ما كانت لتبكي.

راقبها هال بانتباه. «إذا جاء فسأوقفه».

- «لماذا؟».

- «كي أحملك أنتِ وروبن».

- «يمكنني حمايتنا».

- «أنتِ ما تزالين طفلةً».

- «أنا لستُ طفلةً. أنا خارجةٌ عن القانون».

وضع ذراعاً حولها، فذابت في الدفء، وكرهت نفسها في أثناء ذلك.

كانت الشقة فوق فرع لسوبر ماركت فايف أند دايم، إحدى نوافذها مثقوبة وقد استُبدِلَتْ بلوح خشبيّ، والنوافذ الأخرى كانت قذرة بما يكفي بحيث لم يُخَيَّلْ لَوُوك أَنَّهُ بإمكان الكثير من الضوء إيجاد طريقه من خلالها. كانت هناك فتحة تهوية بجانب الباب، ورائحة الطعام الصيني تنبعث خارجةً منها، برغم أنَّ الوقت كان ما يزال باكراً.

كان اسم الفتاة جوليتا فويتيس، وقد عملت راقصةً في العديد من النوادي. تركتُ مارثا لها العديد من الرسائل على جوالها، لكنّها أعطت العنوان لَوُوك حين لم تَقُمْ الفتاة بالردِّ. لم يكن ذلك بسبب ووك، فهو لم يلحَّ على مارثا بهذا الشأن، لكنَّ جوليتا كانت قد واجهت مشكلةً مع صديقها السابق، وكانت مارثا قلقةً بشأنها. وجد باب العمارة مفتوحاً، فصعد السلم الضيق. شقَّ العفن طريقه عبر السقف المنقَط.

دقَّ الباب، انتظر قليلاً، ثمَّ طرقه بقوة.

كانت جوليتا صغيرة الحجم، ذات شعرٍ داكنٍ، ووركيين عريضين، نوعُ الجميلات الذي كان يجعله تقريباً يتراجع خطوةً إلى الوراء.

حدّقتُ به. أشهرَ شارتهُ، فحدّقتُ أكثر.

- «ابني ينام في الداخل».

- «آسفٌ. لقد حصلتُ على المعلومات المتعلقة بك من مارثا ماي».

لانت جوليتا عندئذٍ، بما يكفي فقط لتخطو خطوةً إلى الخارج إلى الرواق الضيق، وتسحب الباب خلفها.

اقتربتُ حتى كادت تلتصق بـووك. حاول أن يتراجع، أخذ خطوةً إلى الوراء لكنّه وجد عينيه على مستوى صدرها. سعلَ مرّةً واحدةً، واصطبغ وجهه بالحمرة التي جعلتها تعاود التحديق به.

- «أياً كان ما تريد معرفته، أسأل، ودعنا ننتهِ من هذا سريعاً».

- «كنتِ تعملين في ذي أيت».

- «خلعتُ ملابسِي مقابل المال، هل هذه جريمةٌ؟».

أراد ووك أن يفكّ أزرار ياقته، شعر أنّها تحبس الدم وتجعل المزيد منه يذهب إلى خديّه. «وددتُ فقط أن أطرح عليكِ بضعة أسئلةٍ عن ديكي دارك».

لا تغيير في نظرتها.

تنحّج ووك. «قالت مارثا إنَّكِ واجهتِ بعض المشاكل مع رجلٍ ما. هل هو والد ال...».

- «أنا لا أمارس الجنس مقابل المال حضرة الضابط. ليست كل الفتيات اللواتي ترقصن عاهراتٍ كما تعلم».

نظر ووك حوله كأنّه يأمل في وصول دعم من نوع ما. «آسفٌ. أنا أحاول أن أحصل على بعض المعلومات عن ديكي دارك فحسب».

- «هو لم يفعلها».

- «ماذا؟».

- «مهما كان ما تظنُّ أنّه فعله».

- «هل هذا شعار الحفلة؟».

شدّت الرداء حولها جيّداً، ثمّ فتحت الباب قليلاً وأخذت تصغي. «ينام ولدي متأخراً. إنّه يبقى مستيقظاً طوال الليل».

- «مثل والدته».

أوّل إشارة إلى ابتساميّة. «اسمع، الناس ينظرون إلى دارك فيرون حجمه، ويخمنون أنّه من نوع الرجال الأقوياء، أقصد، لا تفهمني خطأً، هو قادرٌ على تدبّر أموره بالتأكيد، لقد رأيته بأمّ عينيّ حين حاول ذات مرّة ذاك الرجل أن يتحرّش بي، لقد حمّله دارك من حنجرتّه بكلّ بساطة، أعني أنّه هزمه بسهولة لا تُصدّق، كأنّه مشهدٌ من فيلم».

- «لكنّه ليس شخصاً عنيفاً».

ضربت جوليتا ذراعه بقوة لا بأس بها، شيءٌ على الطريقة اللاتينية. «أنت تفكّر في الأمر مثلما يفعل شرطيّ حقير».

- «كيف عليّ أن أفكّر فيه؟».

فكرت في ذلك لحظة. «مثل أبٍ يعتني بفتاته ربّما».

- «هل هذا ما كان عليه دارك؟».

تنهّدت كأنّها تتعامل مع شرطيّ حقير. «هو لم يقم بمراقبتنا، وفي أثناء الرقص، لم يكن يتفرّج علينا، لم يطلب مواعدتنا أبداً، وصدّقني، هذا ليس بالشيء الاعتياديّ. إن وقعنا في ورطة، لم يكن يذهب بأفكاره بعيداً، بل كان يقف في صفّنا. تحدّث إلى أيّ فتاة من ذي أيت، ولن تسمع شيئاً سيئاً عن الرجل».

- «وذاك الرجل، والد طفلك، هل حلّ دارك تلك المسألة أيضاً».

لم تقل شيئاً، لكنّ عينيها أخبرتاها بما يريد معرفته.

- «هل يمكنك إخباري بأي شيء على الإطلاق؟ لربما يكون في ورطة».

- «ورطة من أي نوع؟».

- «هناك أشخاص يبحثون عنه. رجلان، أحدهما له لحيّة ويضع نظارة».

استطاع أن يخمّن من النظرة على وجهها أنّها كانت تعرفهما.

- «أحاول فقط الحصول على بعض الإجابات هنا، أرجوك».

- «أعرف هذين الرجلين، كانا يأتیان كلّ شهر، في الجمعة الثانية منه، ويغادران مع مظروف سميّك. ليس شيئاً غير اعتياديّ في هذا النوع من النوادي التي عملت فيها، هناك دائماً أشخاص يحصلون الأموال».

- «كان يدفع دائماً؟».

ضحكت. «لا خيار لديك مع أشخاص مثل هؤلاء. إمّا أن تدفع أو سوف يجعلونك تدفع. دارك يعرف ذلك جيداً».

- «وحقيقة أنّهما يبحثان عنه الآن...».

- «هل تظنّ أنّهما يباليان باحتراق ذي أيت؟ إنّها ليست مشكلتهما. هما يريدان أموالهما فحسب».

مكتبة

t.me/soramnqraa

- «لا أعتقد أنّه يستطيع أن يدفع لهما».

مسحة من القلق. «يجب أن يهرب».

- «أنا واثق بأن دارك يمكنه الاعتناء بنفسه».

- «أنت لا تفهمه. تحت كلّ هذا...».

- «أخبريني».

- «كانت هناك راقصة في النادي، ايزابيلا، حسناً تلك كانت عاهرة. اعتقدت أنّ دارك يملك المال، لذا حاولت إغواءه. فأخبرها أنّه ليس مهتماً».

- «هل قال ما السبب؟» .
- «قال إنه لم يكن ينظر إليها بتلك الطريقة، وأنه على علاقةٍ بفتاةٍ. هذا كلُّ شيءٍ. نحن لم نرها قطُّ» .
- «إذاً، فقد كان يواعد أحداً. هل من شيءٍ آخر، حتى لو كنتِ تعتقدين أنه لا يهمُّ؟» .
- «يا إلهي. أنتم الشرطة لا تتوقفون عن الضغط، صحيحٌ؟» .
- «أرجوك، هذا الأمر مهمٌّ للغاية. أيُّ شيءٍ» .
- «أنتِ تتطلَّعُ إلى الإيقاع بالرجل لكنَّ كلَّ ما يَسْعُنِي إخبارك به هو أنه لطالما اعتنى بنا، اعتنى بي. كنتُ أنا وفتاة أخرى المفضَّلتَين لديه» .
- «لماذا؟» .
- «كان لدينا أطفالٌ. وهو شخصٌ مساندٌ بطبيعته، وبصُحٍّ حتَّى القول إنه رقيقٌ. ذات ليلةٍ لم أذهب إلى العمل، فحضر إلى هنا. لقد رأيَني، نظر في وجهي تلك الليلة. كان قلقاً عليّ» .
- «والفتاة الأخرى؟» .
- «ليلي. لقد عاملها بالطريقة نفسها، حتَّى إنه اصطحبهما إلى مطعم سيكس فلاغس. لقد شعرتُ بالغيرة من ذلك. إنه رجلٌ محترمٌ» .
- «هل يمكنني التحدُّث إلى ليلي؟» .
- «لقد رحلتُ إلى مكانٍ ما في الغرب. هي وابنتها الصغيرة» .
- «لديها ابنةٌ» .
- «نعم، كانت تضع صورةً لها في خزانة ملابسها. فتاةٌ جميلةٌ» .
- سمع ووك جلبَةً من الداخل. كان الطفل ينادي أمّه .

- «هل انتهينا هنا؟» .
- «بالتأكيد» .
- «صيдаً موفقاً حضرة الضابط» .

ساعة قيادة إلى منزل دارك. في الطريق اتّصلَ بمارثا. كان صديق جوليتا السابق يُدعى ماكس كورتينيز، وكان قد تعرّض إلى ضربٍ مبرح خارج حانةٍ في بيترووتر قبل شهرين. حمل ووك مارثا على قراءة التقرير.

تعرّض ماكس لضربٍ عنيفٍ جدّاً، ومتكرّرٍ لدرجة أنّه فقد جميع أسنانه إلّا واحداً. كان ذلك ناجماً عن الرفس بأحذيةٍ ضخمة. كان ماكس من نوع الرجال الذين ما كانت دائرة شرطة بيترووتر لتضيع ساعةٍ عليه. حاول ووك الاتّصال به مباشرةً، وقيل له أن يغرب حين ردّ الرجل أخيراً على هاتفه النّقّال.

نظر ووك إلى انعكاس عينيه في المرآة الخلفية، لِحيثُ أطول بقليلٍ، وجهه أنحف بقليلٍ، انحدارٌ بطيءٌ نحو مكانٍ أكثر ظلمةً. ليس جسده فقط يخونه، بل هو لم يعد متردداً في خرق القواعد التي كان قد أسّس عليها حياته. كان من شأن هذا أن يقود إلى مكانٍ سيّئٍ، لا يمكن للأمر أن يكون غير ذلك.

سيدار هايتس، مشروعٌ عقاريٌّ نصف مُنجزٍ، مساحاتٌ واسعةٌ، فخمٌ وبلا روح. عند بوّابة المشروع، بدا الطوب جديداً للغاية، حتى الغابة المحيطة كانت توحى بأنّها اصطناعيةٌ. لقد استثمر دارك مالا في هذا المكان.

اقترب من حاجز البوّابة، فخرج إليه رجلٌ كُثّ اللحية، يرتدي قميصاً أنيقاً، وتفوح منه رائحة أعشابٍ مُخدّرةٍ قويّة. استطاع ووك أن يرى من عيني الرجل أنّه كان في حالة اضطرابٍ دائمٍ.

- «صباح الخير حضرة الضابط» .
- «أنا هنا لرؤية ديكي دارك» .
- نظر الرجل نحو السماء، حكَّ لحيته، ونقر على جانب رأسه كأنه يعمل على الجواب. «لا أظنُّ أنه في المنزل. أنا لم أراه» .
- «إنَّه يتوقَّع مجيئي» .
- مرَّت دقيقةٌ فيما كان الرجل يُجري اتِّصالاً. «إنَّه لا يردُّ» .
- «سأذهب وأطرق الباب» .
- حكَّ ذقنه مرَّةً أخرى.
- أسند ووك ذراعاً على نافذة السيارة بينما كان الرجل يزن الأمور. «ما اسمك؟» .
- «موسز دوبريس» .
- صمَّت مشوبٌ بالريبة.
- بالقرب منه كانت هناك نافورة مياهٍ، جافةٌ وخضراءٌ، وقطعٌ من بلاط الفسيفساء مفقودةٌ في عدة بقع.
- «سأقول إنني أجبرتك يا موسز. كيف يبدو هذا؟ هدَّدْتُ بإثارة فضيحةً، بأن أذهب وأقرع أبواب جيرانه» .
- «لأكون صادقاً، ليس هنالك الكثير من الجيران» .
- «أي منزل؟» .
- أشار موسز. «دارك... السيد دارك، يقطن حالياً في المنزل المعدَّ نموذجاً. يمكنك أن تركن عند ممرِّ السيارة مباشرةً» .
- في الداخل كان هناك طريقٌ واحدٌ متعرِّجٌ حول الكثير من المنازل. منزلان فقط أنجزَ بناؤهما، ومعظم المنازل كانت مغطاةً بالألواح. سقالاتٌ مثبتةٌ، نصف مطليَّة، وأكوامٌ من الأنقاض. تربَّع المنزل المُعدُّ أنموذجاً بجانب غابةٍ حراجيةٍ، كان جميلاً بما فيه الكفاية، حصَّ أبيضٌ، أعمدةٌ، ونوافذٌ متحركةٌ. كَرِهَ ووك المكان،

الشعورَ العقيم. فكّر في كيب هيفن والإرادة لجعلها مكاناً كهذا. كان الناس يشترون أراضي على الساحل لم يكن لها ترخيصٌ لمخطّط تنظيمي بعد. لطالما أمل أن يكون قد مات منذ زمنٍ طويلٍ حين يصل هذا المد الأخضر.

كان البابُ كبيراً، لم يستطع ووك العثور على جرس، فطرق بقوة على طريقة رجال الشرطة في البرامج التلفزيونية ضرباتٍ شديدة وسريعة. وقف هناك بعض الوقت، والطيور تغرد من حوله.

سار على طول الجهة الأمامية للمنزل. الستائر مُسدّلة، لا فتحات فيها على الإطلاق. على الجانب كان هناك بوابة من الحديد المطاوع، سوداء وثقيلة، ولكن حين جرّبها تبين أنها كانت مفتوحة. حمام سباحة، منطقة شواءٍ مُجهّزةً بالقرب منه، شاشة تلفاز بجوار الكراسي. توقف ووك عندما رأى الباب الخلفي مفتوحاً.

- «دارك»، نادى عليه.

خطأ إلى الداخل. خفق قلبه بسرعة. فكّر في سحب مسدّسه لكنّه وجد يديه غير متعاونتين. هذا هو واقع الحال الآن. دارت مروحة في الأعلى. لاحظ الأناقة والترتيب، وفتح خزانة للأطعمة المعلّبة، ملصقاتها موجهة إلى الأمام بشكلٍ مثاليّ.

تحرك بسرعة، وهو يتصبّب عرقاً الآن. مرّ بغرفة طعام، مكتب، وغرفة معيشة. كان التلفزيون في وضع التشغيل لكنّ الصوت مكتومٌ، على قناة ESPN الرياضية حيث كان كارل رافيتش أمام جدارٍ من الكتب يتحدث عن فريق أتلانتا بريفز ولاعبهم باوتستا.

المكان كله كان منسقاً، كل عنصرٍ تمّ اختياره بعناية لإبراز المثالية. رأى فاكهة بلاستيكية في وعاء، وزهوراً بلاستيكية على طاولة جانبية، وإطارات صورٍ لعائلةٍ نموذجية يرسم أفرادها على وجوههم ابتساماتٍ بلاستيكية.

تخيّل دارك وهو يعيش هنا بمفرده، ضخمٌ وأخرق، ويحاول ألاّ يتسبّب بفوضى في المكان.

صعد ووك الدرج الخشبي، المغطى بسجّادٍ كريميّ سميكٍ. رأى انعكاسه في مرآةٍ مرّ بقربها، ويده ما تزال على مسدّسه، هو طفلٌ يلعب دور راعي البقر، يطارد فنسنت وفأسه البلاستيكي. جرّب غرف الضيوف، ثلاثاً منها قبل أن يجد الغرفة الرئيسة. كان كل شيء نظيفاً.

- «ما الذي تفعله هنا؟».

استدار، وقلبه يخفق بشدّة.

وقف دارك في أعلى الدرج، سروالٌ قصيرٌ، سترةٌ، وسماعات أذنٍ. كانت نظرته باردةٌ وقاسيةٌ.

- «جئت لأطمئنّ عليك».

ظلّ يحدّق به، لا أكثر.

- «هناك أشخاصٌ يسألون عنك. وهم لا يدون من النوع الذي قد ترغب في أن يقوم بزيارتك».

تبعه ووك نزولاً على الدرج إلى حجرةٍ أشبه بوكير، مؤثّثة بفخامةٍ مبتذلةٍ.

- «هل تريد إنهاء الأمر؟».

جلس ووك على الأريكة الجلدية الناعمة. ظلّ دارك واقفاً، والهوة بينهما قد تعاظمت.

- «جوليتا فوينتيس» قال ووك، وترقّب ردّ الفعل.

غطى العرق دارك، أسفل عضلات الذراعين والساقين.

- «هل تتذكّر جوليتا؟».

- «أتذكّر كلّ من يعمل لصالح».

- «هل تتذكّر صديقها ماكس كورتينيز؟».

لا شيء.

وقف ووك وتحرك باتجاه النافذة. كان فناء المنزل صغيراً لكنّه يحوي أشجاراً وحدوداً وتمثالاً منحوتاً من جذع شجرة. «أنا لا ألومك. لما فعلته لماكس. كانت معركة غير متكافئة، هو وجولييتا، لقد قمتَ بموازنة الأمور».

ظلّ دارك يحدّق فحسب، ولكن للحظة تسلّل شيء آخر. حزن، أو ربما ندم.

- «إنّها نبالة منك. لقد أسديتَ لها معروفاً عظيماً، وأظهرت لها التعاطف».

- «كانت جوليتا تكسب أكثر من الأخريات».

الغاية الحقيقية. لقد كان يقوم بحماية أصوله، إنّ هدف ديكي دارك الوحيد هو السعي وراء المال.

جفّ حلق ووك، فيما هو يتوغّل أعمق فأعمق. «لقد فقدت أعصابك، برغم ذلك. ضربته بشدّة حتى أوشك على الموت. هل هذا ما حدث مع ستار؟».

ارتسمت على وجه دارك خيبة أمل واضحة. «أنت توجّه الأسئلة الخطأ إلى الشخص الخطأ».

اقترب ووك منه، وتدقّق الأدرينالين مجدّداً. «لا أعتقد ذلك».

«فنسنت كينغ، أنت لا تريد أن ترى الرجل الذي هو عليه، بل الصبيّ الذي كانه فحسب».

تقدّم ووك خطوة أخرى.

استقام دارك. «أنت تفقد نفسك، ولا حيلة لك في ذلك. أنا أعرف هذا الشعور».

- «كيف هو الشعور؟».

- «في بعض الأحيان نرغب في الماضي قدماً فحسب. لكنّ بعض الناس يقفون في طريق ذلك».

- «وكيف وقفت ستار في الطريق؟».

- «كيف حال ابنتها؟ هل أخبرتها أنني أفكر فيها؟».

شعر ووك بالتوتر عندئذٍ، وكزّ على أسنانه. في يوم آخر، ربّما كان سيتقاتل مع الرجل الضخم، في يوم آخر، أو ربّما في حياة أخرى. أخذت عملية التنفس تصبح أكثر إجهاداً حتى إنّه شعر بالعمّة بدأت تلفّ الغرفة. «من الأفضل أن أذهب».

خرج واتّجه نحو المطبخ، تَبِعَهُ دارك.

تباطأ ووك قليلاً بينما شعر بالدم يندفع من رأسه. مدّ يده ليوازن نفسه. كان الدواء والمرض اللعين يجعلانه ضعيفاً.

عند باب الشارع تنبّه لوجود حقيبة صغيرة في الزاوية. «هل أنت ذاهبٌ في رحلةٍ، يا دارك؟».

- «رحلة عمل».

- «مكانٌ لطيفٌ؟». استدار ووك لينظر في عينيه.

- «مكانٌ كنتُ أتمنى ألا أضطر لزيارته».

مرّت اللحظة بينهما، ثمّ استدار ووك وغادر، ركب في الكروزر وعاد إلى كيب.

ما كاد يصل حدودَ البلدة عندما توقف جانباً واتصل بمونتانا.

أمطرت وقتاً طويلاً، قضته داتشس جالسةً على المقعد قرب النافذة تراقب السماء، تماماً كحال الرجل العجوز. لاحظت أنه كان يراقبها بانتباهٍ، ويراقب الطريق في الخارج كأنه ينتظر زائراً.

أُصيب روبن بالانفلونزا، الأمر الذي جعله طريح الفراش أسبوعاً كاملاً. أحضرت له داتشس المشروبات الساخنة وأبدت الكثير من الاهتمام، برغم أن ما حدث كان قد اتخذ شكل حاجزٍ بات جائماً بينهما، مثل صخرة فوق صدرها، حاجزٌ كانت ستحطّمه بكل تأكيد.

في الليلة الثالثة أُصيب بالحمّى، صرخ منادياً والدتهما، جلس في الفراش بشعره الزلق وعينيه المتعبتين. صرخ واستنهض أصواتاً من أعماق أعماقه، شيءٌ أشبه بألم كانت بنفسها تعرفه جيداً. أُصيب هال بالذعر، وسأل داتشس إن كان ينبغي به الاتصال بطبيبٍ أو بسيارة إسعافٍ. تجاهلته، وبلّلت قطعة قماشٍ، ثم جرّدت روبن من ملابسه.

ظلّت معه طوال الليل، وهال قرب الباب. لم يقل شيئاً، بل كان هناك فحسب.

في الصباح التالي، انكسرت حدة الحمّى، وأكل القليل من

الحساء. حمله هال ونزل به إلى الأسفل، ووضعته على أرجوحة الشرفة ليتمكن من مشاهدة المطر وتنفس الضباب.
- «أحبُّ الطريقة التي تنقر بها حَبَّات المطر صفحة البحيرة»،
قال روبن.

- «نعم».

- «آسفٌ على ما قلته قبلاً».

استدارت نحوه، جثت فوق الخشب الخشن، كان سروالها ممزقاً بالفعل عند الركبتين. «لست في حاجةٍ لأن تقول لي ذلك أبداً».

كان لدى هال جهاز فيديو. حضروا في يوم الأحد البطيء ذاك فيلماً لريتاهيوارث. لم تكن داتشس تعرف أنه يمكن لامرأة أن تكون فاتنةً إلى هذا الحد. ثم اكتشفت في العلّية حقيبة مليئةً بأفلام الويسترن، فجلست بجانب الرجل العجوز وشاهدتها طوال الليل حتى تحسّنت حالة روبن. وليوم، نسيّت اسمها، وشرعت تطارد عصابةً من المكسيكيين عبر سنابل القمح الملتوية، وهال يتفرّج عليها من الشرفة وهو يهزُّ رأسه كالأخرق. أطلقت عليه اسم توكو، وأخبرته أنه كان القبيح وكانت هي الشقيّة. صفّق الطيّب بيديه، فيما حَبَّات المطر تبلّل شعره.

في الأيام التي كانت تتمرّن فيها، كانت تمشي مئات الياردات عائدةً إلى شجرة التصويب، وسمّت نفسها ساندانس⁽¹⁾.

في المرّة الأولى التي امتطت فيها صهوة الرماذية، شعرت أنها أقرب من أي وقت مضى إلى بوتش⁽¹⁾. شيء قريب من دمها، أقلُّ

(1) ساندانس وبوتش شخصيتان من فيلم ويسترن كلاسيكي مشهور، حيث ساندانس عضو عصابة بوتش كاسيدي التي اشتهرت بالسطو على البنوك والقطارات في الغرب الأمريكي القديم - المترجم.

غرابةً بقليل، بدا أنَّ جذراً لها أخذ ينغرس في أرض مونتانا. وضعت يداً على الرمادية، وشعرت بحرارتها، ربتت عليها برفقٍ وأخبرتها أنَّها لن تقوم بركلها أبداً، وفي المقابل ربّما توافق الرمادية ألا ترمي براعية بقرٍ إلى التراب. أمسكت مقبض السرج بإحكام، ونفضت حبات المطر العالقة في شعرها، فيما قادها هال حول الحلبة في هرولةٍ لطيفةٍ جعلتها حين انتهت تقاوم أوسع ابتسامةٍ من الارتسام على وجهها.

أسبوعٌ آخر، وشاهدت السماء السوداء اللامتناهية وهي تبدأ في التصدّع، والأمطارَ وقد أخذت تهدأ، واللونَ الأزرقَ يحفر طريقه بداخلها، وضوء الشمس يبارك الأرض للمرة الأولى منذ شهرٍ. بينما كانت تنظر عبر الأرض الممتدة أمامها، رأت هال بجانب العزّاقة، وروبن عند قنّ الدجاج، كلاهما ينظران نحو السماء ويبتسمان.

رفع هال يده، روبن كذلك الأمر، ثم بيّط، وبعد جهدٍ جهيدٍ، رفعت داتشس يدها لهما. كانت قد تعلّمت في الرياضيات أنَّ المثلث هو أقوى الأشكال الهندسية.

كان هناك تدرُّجٌ في أيّام مونتانا، كان الخريف يجرفهما مع أوراقٍ بالآلافٍ من درجات اللون البنيّ.

اصطحبهما هال ذات سبتٍ إلى النهر الجليدي. تسلّقوا باتّجاه شلالات إيغل، حيث كانت أشجار الحور السامقة تحجب الضوء وتسلب الأنفاس. مشوا فوق سجادةٍ من الأوراق، بعضها كان من الكبر بحيث إنَّها وصلت إلى مستوى كتف روبن حين أمسك بها. حاول أن يجمعها، وحصل على الكثير منها حتّى أصبح بالكاد قادراً على الرؤية بسببها. سار بهما هال إلى بقعةٍ مكشوفةٍ، وشاهدوا اللون الأصفر الصارخ لأشجار القطن يتموّج أمامهم مثل الذهب.

- «جميلٌ»، قال هال.

- «جميلٌ»، ردَّدَ روبن.

حدَّقَتْ داتشس فحسب. في بعض الأيام كان من الصعب عليها أن تُظهر اللؤم والقساوة.

توقَّفوا عند الصخور، كانت المياه تهدر بقوةٍ. وقفوا قرب عائلةٍ من أربعة أفرادٍ، متماثلين على نحوٍ غريب، حتى أن داتشس أشاحت بنظرها عن الأب والأم كأنَّهما ارتكبا خطيئة العصر الحديث. فكَّرتُ في أنَّهما سيتطلَّقان قريباً، وستقسي هذه التجربة ملاكيهما الصغيرين حتَّى لا يبقى من ذاكرة طفولتهما سوى صفع الأبواب ودموع الغضب. ابتسمتُ لهذه الفكرة.

كانت داتشس لا تزال ترتدي فستانها كل يومٍ أحدٍ إلى كنيسة كانيون فيو. كان هال لا يزال يكشِّر كلَّ مرةٍ، ولا يزال الأطفال الآخرون يحدِّقون بها، لكنَّ كبار السنَّ، الأزواج الذين توقَّفوا وانحنوا باحترام، الأرامل اللائي اندفعنَّ بقوةِ اللياقة المكتسبة، جميعهم كانوا قد بدؤوا يحبُّونها. لكن لا أحد أكثر من دوللي التي كانت تبحث عنها في معظم أيَّام نهاية الأسبوع هذه، وتجلس بجانبها.

خيَّمتْ ظلال الخريف، وكانت هناك حاجةٌ للشموع والفوانيس. جلس روبن مع ثلاثة أطفالٍ آخرين، ثلاثة أخوةٍ أكبر منه سناً، لكنَّهم سمحوا له بالتسكُّع معهم. أسكتتهم والدتهم بين الحين والآخر. راقبهم روبن في رهبةٍ هادئةٍ، إذ لم يكن هناك ما هو أروع من صبيةٍ أكبر.

- «سوف يأتي».

- «مَن؟» قال هال.

- «دارك. يجب أن تعرف أنه سوف يأتي».

- «لن يفعل».

- «أنا خوزيه ويلز، وهو جندي في جيش الاتحاد⁽¹⁾. الجائزة

هي دمي. سوف يأتي».

- «ما زلت لم تخبريني لماذا تعتقدين أنه سيأتي».

- «هو يعتقد أنني أسأت إليه».

- «هل فعلت؟».

- «نعم».

دعا الكاهن العجوز المصلين إلى القربان، وراقبت داتشس الصف وهو يتشكّل من أولئك التواقين جداً للتطهير الذين سيتشاركون النيذ الرخيص واللعب.

- «هل تريدان الصعود؟» قال هال، كما يفعل كلّ أسبوع.

- «هل قد أرغب في أن أصاب بالقوباء يا هال؟».

أشاح بنظره، وعدت داتشس ذلك بمثابة انتصار صغير. اصطفّ روبن مع الصبية الأكبر. كان يلبس ربطة عنق قديمة وجدوها في العلّة، وقبعة أكبر من مقاسه بسبع درجات على الأقل.

حين مرّوا بقربهما، استدار روبن نحوهما. «جون، ورالف، وداني سيصعدون من أجل تناول القربان. أريد أن أبقى معهم، لكنني لا أريد أن أصاب بالقوباء».

كشّر هال في داتشس.

مكثوا بعد القدّاس من أجل الكعكة. أكلت داتشس قطعة من كعكة الشوكولا، وأخرى من كعكة الليمون، ووضعت نصب عينيها قطعة من كعكة الكمثرى والتمر، لكنّ سيّدة عجوزاً أخذتها قبل أن

(1) اقتباس من فيلم لكلينت إيستود - المترجم.

- تتمكّن داتشس من ذلك . كانت قد كسبت بعض الوزن، بما يكفي لتتجاوز مرحلة الخطر .
- عندما عادوا إلى المزرعة، رأت داتشس الدراجة، عتيقةً وقذرةً، ملقاةً على التراب قريباً من الشرفة .
- «إنّه توماس نوبل»، قال روبن ووجهه ملتصقٌ بزجاج النافذة .
وقف توماس نوبل عند الدرج السفلي، ويده المصابة ممدوسةً في جيب سروالٍ قصيرٍ أخضر . كان يرتدي قميصاً أخضرَ أنيقاً، وسترةً خضراءَ .
- «يا إلهي، إنه يبدو مثل مخاطٍ تافهٍ» .
نزلوا من السيارة .
- وقفت داتشس عابسةً، وقد وضعتُ يداً على وركها . «ماذا تفعل هنا، يا توماس نوبل؟» .
- ابتلع ريقه، نظر إلى ثوبها ثم ابتلع ريقه من جديد .
- «أمل أنّك لا تتفحّصني . وإلا فسوف يطلق هال النار عليك، صحيحٌ هال؟» .
- «نعم»، قال هال . ثم أدخل روبن إلى المنزل، واعدأ إيّاه بقيادة جزاة العشب بعد أن يغيّر ملابس الكنيسة .
- «أنا . . . واجب الرياضيات . كنتُ في حاجة إلى شخصٍ ما —» .
- «لا تحاول هذا الهراء حتّى» .
- «لقد اعتقدت فقط أنّه ربّما يمكننا التسكع معاً، بما أنني أعيش هناك» . أشار بيده السليمة .
- «أعرف أرض آل رادلي جيّداً، ليس هناك جارٌ قريبٌ . لكنّ من الوقت قدت حتى وصلت إلى هنا؟» .

حكَّ توماس نوبل رأسه . «أربعة أميالٍ، ربَّما . قالت أمِّي إنَّ القيام بهذا التمرين سيفيدني» .

- «أنت نحيفٌ لدرجة سوء التغذية . كان الأجدر بها أن تنصح بتغيير نظامك الغذائي» .

ابتسم ابتسامةً صغيرةً .

«لن أعدَّ لك أي غداءٍ أو حتى مشروبٍ، هذه ليست الخمسينيات» .

- «أعرف» .

- «حسنٌ، سوف أزيل الأعشاب الضارَّة بالقرب من الماء . العمل لا يتوقَّف لمجرد أنَّك لا تمتلك اللياقة للاتِّصال قبل الحضور» .

دخلتِ المنزل، ارتدتُ سروالها الجينز القديم وقميصاً، ثمَّ خرجت لتجده ما يزال واقفاً هناك مثل أحمرق ينظر إلى حذائه الرياضي .

- «أفترضُ أنَّه يمكنك أن تكون مفيداً وتمدَّ لي يد العون» .

«نعم»، قال بسرعة .

تبَّعها إلى حافة البحيرة، ركع بجانبها، وأخذ يزيل الأعشاب التي أشارت إليها . أخرجتُ من جيبها سيجاراً كانت قد سرقته من خزانة هال .

- «لا يمكنكِ تدخين ذلك . سوف تصابين بالسرطان» .

تجاهلته، ثمَّ قضمت طرف السيجار العلوي وبصقته في التراب . «لقد حمل جيسي جون ريموند سيجاراً في فمه عندما ذبح الجبان بات بوكانان» . أمسكتِ السيجار بأسنانها . «هل معك ولَّاعة؟» .

- «هل أبدو لك صبيّاً من النوع الذي يحمل ولَّاعة؟» .

- «نقطةٌ وجيهةٌ. يمكنني أن أمضغه فحسب، مثل بيلي روس كلانتون».
- «أعتقد أنَّ ذاك نوعٌ مختلفٌ من التبغ».
- «أنت لا تعرف شيئاً، توماس نوبل». قضمت داتشس قطعةً كبيرةً من السيجار، ومضغتها محاولةً بشدةٍ ألا تتقيأ.
- تنحني توماس نوبل، ثم حدّق بها. «إذا... سبب مجيئي. هناك حفلةٌ راقصةٌ قريبةٌ، احتفال الشتاء الرسمي».
- «أمل أنَّك لا تستجمع شجاعتك كي تسألني. الآن ومن بين كل الأوقات. وفي مليءٍ بالتبغ».
- هزّ رأسه بسرعة، ثم عاد ليركّز على المهمة.
- «ينبغي لك أن تعلم أنني لا أنوي الزواج. وأنت على وجه الخصوص ما كنت لأتزوجك... ليس مع هذه اليد».
- «ليس هذا متوارثاً. أنا حالةٌ شاذةٌ. دكتور راميريز —».
- «أنا خارجةٌ عن القانون، لن آخذ بكلام شخصٍ مكسيكي».
- عمل في صمت، ثم توقّف وحدّق بها من جديد. «سأحلّ واجب الرياضيات لك لمدة شهر».
- «حسنٌ».
- «حسنٌ، موافقةٌ؟».
- «لا. ما زلت لا أريد الذهاب معك. لكنني سأسمح لك بحلّ واجب الرياضيات لأجلي».
- «هل هذا لأنني أسود؟».
- «لا، هذا لأنك أحمقٌ ضعيفٌ. أنا أبحث عن الشجاعة في الرجل».
- «لكن —».

- «أنا خارجةٌ لعينة عن القانون. متى ستدرك ذلك؟ أنا لا أرتدي ملابس لطيفةً وأواعد الفتيان. لا أفعل ذلك. لدي أشياء أكبر وأهم».

- «مثل ماذا؟».

«هناك رجلٌ يطاردني»، قالت، ونظر إليها بانتباه، «رجلٌ يُدعى ديكى دارك. إنه يقود سيارة إسكاليدي سوداء، ويريد قتلي. لذا، إن كنتَ تريد فعل شيءٍ مفيدٍ، فعليك أن تراقبه جيداً».

- «لماذا يريد قتلك؟».

- «يعتقد أنني أسأت إليه».

- «أخبري رجال الشرطة أو جدك».

- «لا أستطيع إخبار أي شخصٍ. إذا اكتشفوا ما فعلته فسأثورط في المتاعب. وقد يأخذونني بعيداً عن روبن».

- «سأبقي عيني مفتوحين».

- «هل فعلتَ أي شيءٍ شجاع في حياتك كلها؟».

- «حَكَّةُ رأسٍ أخرى. «ركبتُ أرجوحة العجلة في كالي كريك».

- «هذا ليس عملاً شجاعاً».

- «عليك أن تجربي ذلك بيدٍ واحدة».

كادت تبسم.

- «لقد ولدني أمي من دون مسكنٍ للآلام. الشجاعة متوارثة،

أليس كذلك؟».

«اللعنة يا توماس نوبل. لا بد أن وزنك كان بضعة أوقيات

عندما وُلدت. لربّما خرجت ببساطةٍ عندما عطستُ أمك».

عاد إلى سحب الأعشاب، والتحديق في داتشس طوال الوقت.

- «أين نظارتك؟».

- «أنا لست بحاجةٍ إليها حتى».

«أنت تسحب الخزامى اللعينة. أنا أحبُّ الخزامى».

وضع الخزامى المقطوفة على الضفة بحذرٍ شديدٍ. «ليس من السهل دائماً أن تكوني شجاعةً، أتعرفين؟ أنا لستُ مثلك. أنتِ ترين كيف يضحك الأطفال عليّ. إنهم عصابةٌ، جميعهم أطول منِّي بمقدار رأسٍ، وأضخم، ولديهم عضلاتٌ».

- «الأمر لا يتعلق بضخامتك. بل هي الطريقة التي تسوّق بها نفسك».

فكَّرَ في ذلك. «إذاً أتصرّف كأني أستطيع القتال؟».

- «وبعدها لن تكون بحاجةٍ إلى ذلك».

- «هذا الرجل الذي يبحث عنك. هل سيفلح ذلك معه؟».

- «لا. حين تراه عليك أن تخبرني على الفور».

- «حسنٌ. لكن ربما يجب أن تكوني أكثر قلقاً بشأن الطفل الذي هدّدته، تايلر. لديه أخٌ أكبر وهو يبحث عنك».

لوَحَتْ بيدها. «اللعنة عليه وعلى عائلته. الآن، اسحب تلك الحشائش الكبيرة ثمّ انطلق في طريقك. سيكون الظلام قد حلَّ في الوقت الذي تصل فيه إلى المنزل، ولا يَسْعُكَ تحمُّل أن تصدمك شاحنةٌ وتفقد القدرة على استخدام طرفٍ آخر».

وقف متردّداً.

شاهدته يمضي، يحمل دراجته، وينطلق نحو البوابة. انتظرت حتى غاب عن الأنظار قبل أن تبصق ما في فمها من تبغ، وهي ترتجف، وتكشط لسانها بأصابعها.

استعراض مقاطعة آيفر .

الصخب يملأ الأجواء في الشارع الرئيس . صبيّ يحاول أن يلف الحبل حول مجسم لرأس عجلٍ معلقٍ أعلى رزمةٍ من القشّ ، ويشتم حين يخفق في ذلك . فتياتٌ يرمين أكياس فاصولياء صغيرة عبر أطواقٍ دائرية . كان هناك كشكٌ لبيع الهوت دوغ ، ومنحدرٌ لألواح التزلج ؛ لم يكن أكثر من طبقةٍ رقيقةٍ من الخشب أُسندت إلى أصيصٍ كبيرٍ مقلوبٍ رأساً على عقبٍ . أخذ هالُ روبن ليحصل له على رسمٍ على وجهه . جلست داتشس على الرصيف تتفرّج على عربات الاستعراض السيارة . لافتاتٌ دعائيةٌ لبنوكٍ وشركات تأمين . فتياتٌ صغيراتٌ يرتدين التيجان ، ويلوحن لأضواء الكاميرات .

لمحت توماس نوبل ووالدته . السيدة نوبل . كانت طويلةً وملفتةً للانتباه ، ورأسها يستدير يُمنّةً ويُسرّةً فيما هي تتجول في الأرجاء . بالقرب منهما كان رجلٌ عجوزٌ ، قصيرٌ ، نحيفٌ ، وأبيضٌ .
توجّه توماس إليها .

- «أُمّك تتطوّع في أعمالٍ خيريةٍ؟ تساعد كبار السن أو شيء من هذا القبيل» .

تتبع توماس نوبل نظراتها . «ذاك أبي» .

عبست. «يا إلهي، ما طبيعة الجاذبية هناك، هل هي مائيّة أم أنّها مازوشية لعينة؟».

شدّ على ذراعها. «لديّ ما أخبرك به. إنّهُ أمرٌ عاجلٌ».

وقفت متردّدةً بينما كان يعمل على إخراجها من بين الحشود. لم يكن في وسع داتشس الآن إلّا أن تخمّن ما الذي قد يعدّه توماس نوبل أمراً عاجلاً، وتراوحت تخميناتها من كونه يعتقد أنّ والدته كانت تعبث مع ساعي البريد، إلى شعوره بالثقة في أنّ يده الذابلة تزداد قوّة شيئاً فشيئاً، وأنّه سيكون قادراً عمّا قريب على سحق العُلب بواسطة. كان لديه هوسٌ ما متعلّق بسحق العُلب.

- «من الأفضل ألا يكون هذا عن كون أمك معجبة بساعي البريد». كانت علاقتها مع توماس نوبل قد ازدهرت في نوع من الصداقة من طرفٍ واحدٍ، حيث وثق بها واثمنتها على أسرارهِ، فيما استخدمت هي هذه الأسرار ضده بلا رحمة.

كان يرتدي قبعة شمسيّ، نزعها عن رأسه، وأخذ يهويّ نفسه بها بينما كانا ينتقلان إلى ظل شجرة قيقب. «ذاك الصبي، تايلر. إنّ شقيقه هنا، وهو يبحث عنك».

- «وهل تعتقد أنّ هذا أمرٌ ملحٌ؟».

- «أنت لا تفهمين. إنّهُ ضخمٌ. أعتقد أنّه يجدر بك العودة إلى المنزل».

- «أين هو؟».

بلع توماس نوبل ريقه.

- «لا تكن جباناً طيلة حياتك يا توماس نوبل. خذني إلى الولد الكبير كي أبرح مؤخرته ضرباً».

قادها وهو يهزّ رأسه، ويمسح عرقه بيده مرتعشة. انتشر الخبر، وتجمّع الأطفال في الزقاق خلف مخبز تشيري.

- «ذاك هو».

نظرت داتشس إلى تايلر، الطفل الذي دفع روبن. ثم نظرت إلى الصبي الذي بجانبه، كان أطول، وأكثر بدانةً وقبحاً. ارتدى سروالاً قصيراً يصل حتى سَمَانْتِيهِ، كانت ساقاه شاحبتين، وفي قدميه حذاء كونفرس مهترئٌ. شعرٌ أسودٌ، تسريحة الطاسة، القليل من حبّ الشباب على كلِّ خدٍّ.

أشار تايلر إليها فتحرك الولد الكبير نحوها.

- «مَن تكون بحقّ الجحيم؟» قالت داتشس وهي تثبت قوس شعرها.

- «غايلون».

- «اللعة. أخمّن أنّه تعيّن عليك أن تصبح قوياً».

- «لقد عبثت مع عائلتي». تقدّم خطوةً إلى الأمام.

قلبت داتشس عينيها بازدراءٍ.

- «لقد هدّدت بإيذاء أخي».

- «في الواقع، لقد هدّدت بقطع رأس ابن العاهرة ذاك».

كان قد تجمّع هناك دُرَيْنَةٌ من الأولاد، ورائحة الحرب تملأ الهواء.

- «اعتذري له».

- «اخرس أيُّها الصبي السمين».

صوتُ شهقةٍ جماعيةٍ بينما الأولاد يتراجعون للخلف قليلاً، ولم يعد توماس نوبل واقفاً بجانبها.

تقدّم غايلون خطوةً أخرى، وشدّ قبضته البدينة.

ثم سمعت الصرخة. كانت مزيجاً من صرخة حربٍ ومن زعقةٍ صادرةٍ عن فتاةٍ صغيرةٍ. تفرّق الحشد مفسحاً المجال لتوماس نوبل الذي اندفع يركض بأقصى سرعته. كان قد أرخى قميصه خارج

البنطال، ولأسبابٍ لم تجرؤ داتشس على محاولة فهمها، كان قد أقحم طرفي بنطاله داخل جوربيه أيضاً.

تحركَ توماس نوبل بسرعة، متّخذاً وضعيةً قتاليةً، وجعل بيدل بين ساقيه بسرعة، وهو يحوم حول غايلون ويحرك رأسه إلى الأمام والخلف.

قرّبت داتشس يدها إلى وجهها، وراقبت بتركيزٍ من بين أصابعها فيما طرح غايلون توماس نوبل أرضاً بلكمةٍ واحدة.

عندها انفتح الباب الخلفي. كانت تشيري تُخرج كيساً من القمامة. غادر الحشد سريعاً، واختفى تايلر وشقيقه.

اقتربت داتشس وعايّنت الأضرار.

- «هل ربحت؟» قال توماس نوبل بينما كانت تساعد في الوقوف على قدميه.

- «أن يكون لك دورٌ هو ما يهم».

لمس عينه بحذرٍ شديد. «سأحصل على عينٍ سوداء».

- «إنّها سوداء في الأساس»، قالت له.

- «ربّما عينٌ زرقاءٌ إذا».

- «تعال، سوف أحضر لك بعض الثلج»، قالت وهي تمسك

يده السليمة. على الرغم من ألمه، إلّا أنّه ابتسم ابتسامةً عريضةً.

- «كان ذلك شجاعةً، صحيح؟».

- «كان غباءً أكثر منه شجاعةً».

رأته عندئذٍ؛ حين استدارت باتجاه الشارع الرئيس.

إيسكاليد سوداء.

جفّ الدم في عروقها.

كان دارك قد وجدهم.

أفلتت يد توماس نوبل وتحركت على طول صف الشاحنات

المركونة. شاهدت الملتصقات على المصدّات الخلفية للسيّارات. فكّرت في دارك وهو يحاول الاندماج مع الحشد، لكنّ عينيه الخاليتين من الروح تفضحانه.

رأت داتشس شاحنة هال، كانت النافذة مفتوحة. فتحت الباب، وانزلت في مقعد الراكب. شاهدها توماس نوبل وهي تفتح اللعبة الأمامية وتسحب منها مسدّس السميث أند ويسون. دسّت المسدّس في بنطالها الجينز.

توماس نوبل، لقد غادرته المعركة قبل أن تصل إليه حتّى. تحرّكا عائدين إلى الرصيف. ألقت الشمس أشعتها على الشارع، وعلى الأطفال وأهاليهم، ووجوه الجميع تعلوها ابتسامات من لا يعرف ما الذي يحدث. سارا متجاوزين تشيرى، وصالون الحلاقة. كانت داتشس تسمح المشهد بانتباه كبير، ويدها على حزامها.

لم يعد المسدّس بارداً، بل بات حامياً، ينتظر فوق خصرها. على الجهة الأخرى من الشارع كانت الإيسكاليد. تخيلت دارك في الداخل يراقبها بالطريقة نفسها التي اعتاد أن يفعل بها ذلك أيّام كيب هيفن.

نزلت إلى الطريق، والخوف يحركها، لكنّها أجبرت نفسها على إخفائه تحت ابتسامة. كانت ستدع دارك يراها، هي سعيدةً بقدومه لأنّها أرادت أن تنهي الأمر الآن. كانت ستقتل من أجل روبن، لم يكن الأمر يحتاج إلى سؤال حتى بالنسبة إليها.

- «ماذا تفعلين؟» شدّ توماس نوبل ذراعها، لكنّها انتزعته بقوة، والتفتت محدّقةً به.

- «إبق هنا».

- «لا يمكنك أن تذهبي إليه فحسب».

بدا توماس نوبل كأنه على وشك البكاء، وكأنه يؤدُّ أن يستدير ويفرّ هارباً، لكن الرجل الآخذ بالبروز من داخله كان يصارع الطفل الخائف، محاولاً أن يطغى عليه.

التفت داتشس خلف الإسكاليد.

الآن هي على الرصيف، بجانب السيارة، مرّت بيدها على الطلاء، كان يلمع بشدّة تكفي لتنعكس صورتها عليه.

- «داتشس، أرجوك»، ناداها، لكنها لم تلتفت.

سحبت المسدس بخفّة خارج بنطالها الجينز، وأبقته بينها وبين السيارة بينما مدّت يدها إلى مقبض الباب وشدّته بقوة. لقد كانت مقفلة.

ضغطت بوجهها على الزجاج ورأت أنها كانت فارغة.

دارت حول السيارة. توالى الاستعراض، طبول، شرائط. سار الأطفال بانتظام ضمن الفرقة، فيما تمايلت الفتيات مبتسمات.

شقّت داتشس طريقها عبر مجموعة من الأطفال وسمعتهم وهم يشتمونها. بقي توماس نوبل قريباً منها. رأت دارك في وجوه الجميع، في الابتسامات الدافئة والعيون الباردة. كانت تعرف ما يمكن أن يفعله الرجال، جميع الرجال، مجرد معرفة ما يقدرّون عليه كان كافياً جداً.

كانت على وشك أن تستدير وتغيّر اتّجاهها حين رآته.

ركضت، بأقصى سرعة. أسقطت علبة كوكا كولا من يد طفل، وطرحت سيّدة عجوزاً أرضاً بينما كان الناس يصرخون. عندما وصلت إليه استدار ونظر إلى الأعلى نحوها، وابتسم.

ركعت، وأخذت روبن بين ذراعيها.

- «ما الأمر؟» قال هال.

ثم لاحظت سيدة ما تمسكه بيدها .

- «مسدس!» .

جذبها هال قريباً منه ، فيما دبّ الذعر من حولهم .

جاءت المكالمة بعد العشاء . أطلعه هال على المستجّدات . عند انتهاء موجة الذعر ، كانت الإسكاليدي قد اختفت . لم تأخذ داتشس أرقام اللوحات . من الممكن أن يكون أيّ أحدٍ . لكنّ هذا التذكير أبقاهم جميعاً مرّكين .

حين أغلق الخط ، رنّ الهاتف مرّة أخرى .

- «أنت محبوب» ، قالت مارثا .

كان قد وعدّها أنّه سيطهو لها ، لكنّه فقدّ الشعور بالوقت في ذلك اليوم ، فأنتهى به الأمر بطلب الطعام من الخارج . ضحكت مارثا ، وقالت إنّها شعرت بالارتياح ، فعلى الأقل ستحصل على شيءٍ يمكن أكله . تركها داخل المنزل لتعمل على المزيد من الأوراق .

- «كادي» ، قال ووك عبر الهاتف . لم يتصل بكادي منذ فترةٍ ،

لذا فقد شعر بالارتياح لسماع صوت الرجل الضخم على الطرف الآخر . «كيف هو حاله؟» .

- «لقد أعدته إلى زنانيته القديمة . اضطررت إلى نقل مهرّب

مخدّراتٍ وتحمل تدمّره الفظيع ، لكن يبدو أن فنسنت أكثر استقراراً هناك» .

- «شكراً لك» .

- «هل من أخبارٍ عن القضية؟ حاولتُ أن أسأل فنسنت عن

ذلك لكنه لم يقلّ أي شيءٍ . هو ليس كالآخرين ، يتباكون دائماً

مدّعين البراءة والمظلومية. أقسم إنَّكَ كنتَ لتعتقد أنَّنا نحبس ثلَّة أولاد من جوقَةٍ كنسيَّةٍ ما».

ضحك ووك. «إذاً هو لم يتحدَّث إلى أحدٍ؟».

- «لا. كما أقول لك، كأنَّه لم يغادر هذا المكان أبداً. عاد مباشرةً إلى الروتين القديم. بدأت أعتقد أنه اشتاق إلى المكان».

تابعاً التحدُّث بعضَ الوقت، ثم سمع ووك نداءً مارثا.

نهض، ترك البيرة على الشرفة، وذهب إلى غرفة المعيشة.

لم تقل مارثا أي شيءٍ في البداية، اعتدلت في جلستها قليلاً فحسب، ثمَّ انحنَتْ بالقرب من كومة الملفات، وضعت نظَّارتها ورَكَزَتْ. لقد أحرزَتْ تقدماً، تتبَّعت اسم دارك لشركةٍ مسجلةٍ في بورتلاند.

- «هل توصَّلتِ إلى شيءٍ؟».

- «ربَّما. اذهب، وأحضِرْ لي بعض الوجبات الخفيفة، أنا في حاجةٍ إلى بعض التفكير المتشَبِّع بالفلفل. هل لديك أي فلفل هابانيرو؟».

هزَّ رأسه بالنفي.

- «فلفل ما لا غيتا؟».

- «لا أعرف ما هذا».

- «تبا، ووك، أريد بعض الفلفل الأحمر اللعين. أنا في حاجة إلى شيءٍ حارٍّ. يا إلهي، كُنْ جاهزاً من أجلي في المرة القادمة».

تلقَّى التوبيخ برحابة صدرٍ، اتَّجه إلى المطبخ الصغير، وأعدَّ القهوة وهو يتفرَّج على الشارع. كانا قد أمضيا أربع ساعاتٍ، من العشاء إلى وقتٍ متأخِّرٍ من الليل، يتشاءبان بعيونٍ محمَّرةٍ، لكنَّ كليهما يعرف أنَّهما يفضلان العمل على أن يكونا مستلقيين في

السريـر، يصارعـان الأرق. باتت القضية توتّرـها أكثر الآن بسبب الطريقة التي بدا عليها ووك، كأنّ التركيز على التفاصيل كان يدمّره. ناولها القهوة ومطحنة فلفل. قاومت ابتسامة.

راقبها وهي تتمشّى، وفي يدها ملفّ ضرائب شركة، وبيان تسجيل. رحلة التعقب التي تقوم بها كانت معقّدة، إذ اضطرت أن تتّصل طلباً لخدمة من محامي ضرائب تعرفه. - «شارع فورتونا»، قالت مارثا. - «منازل الصف الثاني».

- «الكل باستثناء اثنين تعود ملكيّتها للشركة القابضة نفسها. متى صدر التقرير، التقرير الأول؟ الجروف المتأكلة. هيئة كاليفورنيا للحياة البريّة». عضّت مارثا غطاء قلمها. نبش ووك كومة كبيرة من الأوراق. «مايو، 1995».

ابتسمت مارثا، ثم رفعت ورقتها. «اشتريت هذه الشركة أول منزل في سبتمبر 1995. ثم اشترت منزلاً آخر في كل عام تقريباً منذ ذلك الحين. ثمانية منازل، تمويل متجدّد، كلُّ منها مرهونٌ لدفع ثمن التالي. نجح الأمر مع أوّل ستّة، إلى أن ارتفعت الأسعار». - «ثم؟».

تمشّت مارثا مجدّداً، توجهت إلى الخزانة، كسرت قهوتها بالويسكي، وفعلت الشيء نفسه مع قهوة ووك. «إذاً اشترت هذه الشركة كل منزل في الصف الثاني. هيئة كاليفورنيا للحياة البريّة قدّرت زمن تأكل الجرف بعشر سنواتٍ، صحيح؟».

- «أقلّ أو أكثر قليلاً، ثم قاموا بعدها ببناء حائل الأمواج، فأصبح منزل آل كينغ في مأمن تماماً».

- «إنّ منازل الصف الثاني لا تساوي الكثير. هي منازل عائلية صغيرة. حصلوا عليها بمبالغ رخيصة، ولم يبدُ أنّ قيمتها ازدادت كثيراً على مرّ السنين».

- «حتى؟».

- «حتى بدأ الصف الأمامي بالانهيار، وبدأ المصطافون بالقدوم. تساقطت المنازل واحداً تلو الآخر. فكان كلّ ما يقف بين الشركة و...».

- «خمسة ملايين دولار، على أقلّ تقدير».

- «العائق الوحيد كان فنسنت كينغ ومنزل عائلته. كلّ الأرض حوله لا يمكن البناء عليها. إذ لا يمكن لأحد الحصول على رخصة طالما ما يزال منزل آل كينغ قائماً».

- «ما اسم هذه الشركة؟».

- «The MAD Trust (شركة الائتمان المجنونة)».

- «أيّ نوع من الأسماء هذا؟».

- «الاسم غير مهمّ، ولكن خمن من هو المدير الأوحّد».
ناولت الورقة لوك، أمسكها بإحكام محاولاً تثبيتها.
وكان هناك في الأعلى، بالخطّ العريض.
ريتشارد دارك.

استيقظت داتشس في تلك الليلة على عرقٍ باردٍ.
كانت ترى أشباح أشكالٍ، إذ أخذت الخزانة شكل دارك عديم الروح.

حين هدأت، تفقّدتُ حال روبن، ثم تسلّلتُ من الغرفة ونزلت السلالم. كانت ترتدي رداءً ناعماً. كان هال قد تركه لها. كان هذا مثل شيءٍ اتّفقا عليه بالتواطؤ. هي لا تأخذ أي شيءٍ منه بشكلٍ مباشرٍ. لا طعام أو شراب، ولا مساعدة في الخيول، لا استثناءات حتى عندما يكون لديها واجباتٌ مدرسيةٌ لتنجزها. كان يترك لها الأشياء بدلاً من ذلك، وكانت تأخذها عندما لا يكون في الجوار. تعجّبتُ من صبره عليها.

شربت الماء من الصنبور مباشرةً.
عندما استدارت لتتّجه عائدةً إلى الغرفة، سمعت صوتاً.
حركةً على الشرفة. صوت تأرجح المقعد ربّما، كانت السلاسل تصدر صوتاً عالياً مهما قام هال بتزييتها. تراجعت وانخفضتُ إلى الأسفل، ومرّةً أخرى، أخذ قلبها ينبض بعنفٍ رغماً عنها.

تحسّستُ بيديها بحثاً عن الجارور، وجدت سكيناً بطولٍ جيّدٍ،

وأمسكت به بإحكام. تسلَّلتُ نحو الباب، رأْتُ أنَّه كان مفتوحاً قليلاً فيما كان ضوء القمر يهبط فوق قدميها الحافيتين.

- «لا تستطيعين النوم؟».

- «اللعة. كنت على وشك قتلك».

- «هذه سكين خبزٍ»، قال هال.

جلس على الأرجوحة، بدا أنَّه تقلَّص منكمشاً بسبب ضعف الضوء الناجم عن شعلة سيجاره، لكن استطاعتُ لدى اقترابها أن ترى بندقيَّةً قرب قدميه.

- «لقد صدَّقْتَنِي إِذَا»، قالت له.

- «ربَّما أنا أنتظر دَبّاً فحسب».

- «كان يجب أن أحصل على أرقام اللوحات. التقطْتُ المسدس، ونسيْتُ كل شيءٍ آخر. يا لي من مبتدئةٍ لعينةٍ». بصقت الكلمات، بفمٍ مزموم.

- «كنتِ تحمين عائلتك، ليس هناك الكثيرون ممَّن يملكون ما يكفي من الشجاعة للقيام بذلك».

هزَّتُ رأسها. «هل تعرف دوللي؟».

بعد أن كان هال قد أخذ المسدَّس منها بلطفٍ، ظهرت دوللي، وقادتها إلى برِّ الأمان في أحد المطاعم القريبة.

- «إنها قوية. لقد اعتقدتُ أنَّه سيكون من الجيِّد أن يكون لنا زوج آخر من العيون هناك. هي تسأل عنكِ كلَّ مرةٍ أراها فيها. أعتقد أنَّكِ تجعلينها تتذكَّر نسختها الشابة قليلاً».

- «لماذا؟».

- «دوللي هي أقوى سيدةٍ قد تلتقين بها على الإطلاق. ما مرَّتْ به كان قاسياً جداً، لكنَّها لا تتحدَّثُ عنه أبداً. لقد احتسيتُ الشراب

- مع زوجها بيل ذات مرّة. كان والد دوللي شخصاً لئيماً. ضبطها تدخّن ذات يوم».
- «فقام بضربها».
- «لا، بل أحرّقها بالسيجارة. ما تزال تعاني من الندوب على ذراعيها. قال لها إنها لن تملك الشجاعة لإشعال سيجارة مرة أخرى».
- ابتلعت داتشس ريقها. «ماذا حدث له؟».
- «لقد كبرت، فوضع يديه... لقد ذهب إلى السجن».
- «أوه».
- سعل هال. «كانت تلبس بطريقةٍ مختلفةٍ في ذلك الوقت، رأيت صوراً. لقد ارتدت ملابس صبيانية فضفاضة، لا شكل لها، لكنّ هذا لم يمنعه مع ذلك».
- «بعض الناس عبارة عن ظلمةٍ مطلقة».
- «إنهم كذلك بالفعل».
- «جيمس ميلر، قاتلٌ مأجورٌ ومسلّحٌ خطيرٌ. كان يذهب إلى الكنيسة بشكلٍ منتظم، لا يشرب ولا يدخن. لكنّ الإشاعة تقول إنّه قتل خمسين شخصاً. قام الناس بشنقه. هل تعرف ما كانت كلماته الأخيرة؟».
- «أخبريني».
- «دعونا ننجز هذا الأمر».
- «لقد فهم الناس الأمر بشكلٍ صحيحٍ إذاً. إذا وقف الأخيار مكتوفي الأيدي، فهل يظلّون أحياناً عندها؟».
- كانت ليلةً مرصّعةً بالنجوم بما يكفي لتساقط ندف الثلج. قال هال إن الشتاء لم يأت بعد، وحين سيفعل فسوف يعرفون ذلك جيداً لدرجة أنّهم سينسون ألوان الخريف تماماً.

ابتعد مُفسحاً لها مجالاً بقربه .

لم تجلس .

بقيا صامتين لفترةٍ طويلةٍ . عندما أنهى سيجاره ، أشعل واحداً آخر .

- «ستصاب بالسرطان» .

- «هذا واردٌ» .

- «ليس كأنني أهتم» .

- «بالطبع لا» .

كان الظلام يحجب عينيه . جلس متنبّهاً إلى الأشجار ، والمياه ، والاشيء الذي بات بالتدرّج يعني شيئاً ما لها .

وقف ودخل إلى المطبخ ، ثم سمعت صافرة الغلاية .

جلست في الطرف البعيد للمقعد ، ونظرت إلى البندقية .

عاد مع الكاكاو ، ووضع لها الكوب على الشرفة بجانبها . أظهر

الضوء الخافت المنبعث من المطبخ قطع المرشملو داخل كوبها .

أخذ رشفة صغيرة من الويسكي . «ذات يوم هبّت عاصفةٌ ،

كانت سيئة جداً . جلستُ هنا تماماً أراقب البرق يقطّع أوصال

أرضنا . فكّرتُ في الشيطان ، رأيت وجهه في السماء ، ولسان الثعبان

يضرب هنا وهناك . احترقت الحظيرة في ذلك اليوم» .

كانت قد رأت فدائناً من الأرض في الخارج حيث لم يكن ينمو

أيُّ شيءٍ ، فقط تشكيلاتٌ من السخام لما كان قائماً ذات يومٍ .

- «الرمادية . والدتها كانت هناك» ، قال هال .

نظرت داتشس إليه ، ممتنةً للظلام الذي يمنعه من رؤية الذعر

في عينيها .

- «لم أستطع إخراجها» .

أخذت نفساً عميقاً في تلك اللحظة، كانت تعرف تماماً معنى
تردد الذكريات.

- «كانت تحدث عواصفٍ لدينا في بعض الأحيان في الديار»
قالت له.

- «أفكر في كيب هيفن كثيراً. لطالما صليتُ من أجل والدتك،
ومن أجلك، ومن أجل روبن».

- «أنت لستَ مؤمناً».

- «ولا أنتِ، لكنني أعلم أنكِ تذهبين إلى بقعة الأرض تلك
وتركعين».

- «إنَّه مجرد مكانٍ للتفكير».

- «كل شخصٍ يحتاج إلى مكان كهذا. مخزن الأسلحة، ذاك
هو المكان الذي أذهب إليه لأفكر. أجلس هناك، وأغلق على
العالم، وأركز على ما هو مهمٌ». نظر إليها، «كنتُ أكتبُ له».

- «مَن؟».

- «فنست كينغ. كتبتُ له رسالةً بعد الأخرى على مرّ السنين.
وأنا لست بكاتبة».

- «لماذا؟».

نفث الدخان نحو القمر. «هذا سؤالٌ كبيرٌ».

فركت عينيهما.

- «يجب أن تذهبي إلى الفراش».

- «نظام نمومي ليس من شأنك».

وضع كأسه. «في البداية لم أكن أنوي إرسالها، لكن، بعد
سيسي، ثم كلُّ ما حدث مع والدتك وجدّتك، أردتُ متنفساً ربّما.
ثم فُكرتُ لم عساه لا يعرف. قد يظنُّ أنه دمرَ حياته. أردتُ له أن

يعرف عن حياتنا . ربّما كان لديه تصوّرٌ عنيّ ، متقاعدٌ هنا ، جالسٌ فوق هكتاراتٍ من الأراضي الجميلة . أخبرته عن العمل ، عن الديون ، عن الفواتير ، عن العيش تحت ضغط ذاك النوع من الأعباء .

- «هل كتبَ لك بالمقابل؟» .

- «لقد فعل . في البداية كانت كلّها عبارةً عن أسفٍ . أعرف أنّها كانت حادثةً . . . أعرف ذلك بالفعل . لكنّ هذا لا يعني أيّ شيءٍ حقاً» .

التقطت كوب الكاكاو ، وغرفت منه قطع المرشملو ووضعتها في فمها . كانت حلوةً جداً ، أسرّتها تلك الحلاوة ، وكأنّها كانت قد نسيت الأشياء اللطيفة .

- «لقد ذهبتُ إلى هناك ، حضرتُ جلسات الإفراج المشروط ، كلّ واحدةٍ منها . كان في وسعه أن يقضي فترة عقوبةٍ أقصر . كان سيخرج ، وأفضل سنوات حياته ما تزال في انتظاره» .

- «إذاً ، كيف حدث أنّه لم يخرج؟ لم يخبرني ووك أبداً . فهمتُ فحسب أنّه تورّط في متاعب في ذلك المكان ، وأنّه فعل أشياء سيئة» .

- «لم يفعل . أمر السجن كادي ، لقد تحدّث بوضوحٍ شديدٍ في كلّ جلسةٍ . لكنّ فنسنت رفض تعيين محام . وبالطريقة نفسها ، كان ووك هناك أيضاً ، في كلّ مرةٍ . كنّا نرى أحداً الآخر لكنّني لم أقل له أيّ شيءٍ على الإطلاق ، لأنّه صديق فنسنت ، كانا مقربين كالأخوة . أذكر كيف كان الحال في تلك الأيام . كانا لصيقين مثل لصّين ظريفيين ، بالطبع كان فنسنت هو مَنْ يقوم بالسرقة لكن ووك كان يدعمه دائماً» .

حاولت داتشس أن ترى ووك كصبيّ، كأفضل صديقٍ لفنسنت كينغ. لكن كانت تراه بالزّيّ الرسمي فقط، ولم تستطع أن تُخرج تلك الصورة من رأسها أبداً. لطالما كان شرطياً بالكامل، ولطالما كان فنسنت شريراً بالكامل.

- «قبيل نهاية الجلسة، كانوا يسألون دائماً السؤال نفسه: إذا خرجت، فهل من المحتمل أنك ستخرق القانون مجدداً؟».

- «ماذا كان فنسنت يقول؟».

- «كان ينظر في عيني، ويقول: نعم، قد أخرقه مجدداً. ويقول إنه خطرٌ على الآخرين».

ربّما اعتقد أنه أمرٌ نبيلٌ، أن يمضي مدّة عقوبته كاملةً، أن يكفّر عن الذنب بهذه الطريقة. كان تعويضاً صغيراً تجاه فداحة ما حدث، لكنّ النّيّة هي كلّ شيءٍ. أمّا الآن، وبعلمها بما تعلمه جيّداً، فقد قال الحقيقة بالفعل. لقد كان فنسنت خطراً على الآخرين.

- «ذاك الألم. فقدان والدتك، فقدان ابنتي، وزوجتي. كل ذلك الألم. لم أعتقد أنني سأتمكّن من تجاوز ذلك».

- «كيف فعلت؟».

- «جئتُ إلى هنا. تعلّمتُ أن أتنفّس من جديد. مونتانا جيّدةٌ في مثل هذه الحالات، قد تبيّنين ذلك ذات يوم».

- «كانت ستار تقول إنّ هناك ارتباطاً وثيقاً بين المعاناة والخطيئة».

ابتسم كأنه استطاع أن يسمع الكلمات تخرج من فم ابنته مباشرةً.

- «كيف كانت سيّسي؟».

أطفاً سيجاره. «للموت طريقته في استخراج قديسين من البشر

الفانين، لكن في حالة الأطفال... ليس هناك من شرٍّ أو من جانب سيِّئ. كانت صغيرةً وجميلةً ومثاليةً. مثلما كانت أمُّكِ. مثلما هو روبن».

كان ذكياً بما يكفي كي لا يأتي على ذكرها هي.

- «كانت تحبُّ الرسم. بكت خلال الألعاب النارية في احتفالات الرابع من يوليو. كانت تأكل الجزر، لكن ليس أيَّ شيء أخضر. كانت تحبُّ والدتكِ بجنونٍ».

- «أنا أشبهها. لقد رأيتُ الصورة. أنا وستار وسيسي».

- «أنتِ كذلك بالفعل. جميلةٌ بهذا القدر».

ابتلعت ريقها. «قالت ستار إنَّكِ كنتِ قاسياً. قالت إنَّه ما من شيءٍ رقيقٍ فيما يتعلق بك. قالت إنَّكِ كنتِ سَكِّيراً. وقالت إنَّكِ لم تحضر جنازة جدَّتِي».

- «نبدأ حيث النهاية، يا داتشس».

- «إذا كنتِ تعتقد أنَّ ذلك سيجعلك مقبولاً، فأنتِ مخطئٌ تماماً»، تحدَّثتُ بهدوءٍ ومن دون غِلٍّ، «هل كلُّ الأشياء التي قالتها لي صحيحةٌ؟».

- «أنا لستُ إلا خيبة أملٍ متواصلةً، لنفسي قبل أي شيء».

- «أعرف أنَّ هناك المزيد. لماذا لم تُعُدْ، لماذا لم تسمح لكِ برويتنا، ما الذي فعلته؟».

بلع ريقه. «بعد بضع سنواتٍ، أعني... لقد سمعتُ كلاماً عن إفراجٍ مشروطٍ بعد خمس سنواتٍ، بعد ما فعله لصغيرتي سيسي». سمعتُ صوت الألم هنا، حياةً كاملةً مرَّت وما يزال حضوره طاغياً.

- «ربَّما كنتُ أشرب كثيراً بالفعل. جاء شخصٌ، كان له أخٌ

هناك في إصلاحية فيرمونت مع فنسنت. قدّم لي عرضاً. كان بمقدوره أن يزيل تخفيف العقوبة ذاك وأن يصحّح الخطأ. لم يكن الأمر يكلف الكثير من المال حتّى. أنا... لو تسنّى لي أخذ وقتي في التفكير، فهل كنت سأكون أقوى، وأقول له لا؟».

- «الرجل الذي قتله فنسنت في فيرمونت، كان الأمر دفاعاً عن النفس!».

- «كان كذلك بالفعل».

أخذت نفساً طويلاً. كانت كلماته ثقيلة لدرجة أنّها عجزت عن صياغة ردّ.

- «اكتشفتُ والدتك الأمر. وكان هذا كلّ شيء. فعلتُ واحدة في ليلة بعيدة جداً، وها نحن هنا بسببها».

شربت الكاكاو، وفكرت في والدتها. بحثت عن طيف ذكرى ما قد تدفّى برودة الليل، لكنّها لم تعثر على شيء سوى بياض عيني ستار.

- «ألهذا السبب تذهب إلى الكنيسة؟».

- «محاولة لفهم ما فعلناه وما قد نفعله».

نهضت حين أنهت كوب الكاكاو. كانت تشعر بالتعب، فكرت في أنّ دارك قادم، ونظرت إلى الرجل العجوز والبندقية.

استدارت لدى وصولها إلى الباب. «لماذا تعتقد أنّ فنسنت فعل ذلك في جلسات الإفراج المشروط؟».

نظر إليها هال، فرأت روبن في عينيه.

- «كانوا يسهّلون له الأمر، وكأنّهم يأخذون بيده إلى الخارج، ولطالما نظر ووك إلى كادي، كأنّهما عاجزان عن فهم سبب تصرفه على هذا النحو. لكنّه كتب لي. حاول إخباري».

حملت به .

- «بعد تلك الليلة، بعد ما فعله، كان يعرف أن لا أحد منا سيجد الحرية مجدداً» .

وقفا خارج منزل آل رادلي القديم . كان بإمكان ووك عبر ضوء القمر أن يميز وجه مارثا، أنفها الصغير، وشعرها المنسدل فوق كتفها . اشتم رائحة عطرها، خفيفة ورائعة . كانا يحملان أضواء كاشفة، وقد قام كلاهما بتشغيلها .

كان لدى ووك السجل . الوقت الذي أجرى فيه فنسنت المكالمات وتقدير الطبيب الشرعي لوقت الوفاة . يمكن أن تكون هذه التواقيت دقيقة، فكانت داتشس قد ركبت دراجتها إلى محطة الوقود في بينساكولا ، وعرف ووك أنها التزمت بالطريق الرئيس برغم المخاطر، لذا فقد استغرق الأمر منها حوالي 45 دقيقة . أعطى ذلك لفنسنت حوالي خمس عشرة دقيقة ليتدبر أمر المسدس . كان ينبغي بهم افتراض أنه هو القاتل، وقد أبقى هذا الافتراض ووك مستيقظاً طيلة الليلة السابقة .

- «ستحرك في كل اتجاه كان يمكن أن يسلكه» .

كانت مارثا تحمل ساعة توقيت . كانا سيسمحان بفرضية أنه ربما يكون قد قطع المسافة ركضاً في الذهاب والعودة، على الرغم من أن ووك لم يتذكر إن بدا الرجل متعرقاً أو منقطع الأنفاس . في العموم، كان ووك عاجزاً عن تذكر الكثير من تفاصيل تلك الليلة، بصرف النظر عن وجه ستار الذي عرف أنه سيلازمه لما تبقى من حياته .

فقدان الذاكرة؛ كان يزحف إليه شيئاً فشيئاً . كان قد كرّس عادة

تدوين الملاحظات، مدّعيّاً أنّه يسجل أموراً ذات طابع رسمي، في الوقت الذي كان في الحقيقة يحاول إبقاء أموره تحت السيطرة: ترتيبات يومه، مواعيد أقراصه، هو يدوّن كلّ شيء الآن.

بدأ من الفناء الخلفي لبيت ستار، عبّراً فوق السياج المكسور الذي لطالما كان موجوداً هناك بحسب ما يتذكر ووك. خاضاً في الغابة الصغيرة، مجرد غطاءٍ من الأشجار يفصل طريق آيفي رانش عن جادة نيوتن. تحرّكاً بطريقةٍ منهجيةٍ، محاولين تغطية كل ممرّ، كل شجرة، كل شجيرة وأجمة. تحقّقاً من مجاري الصرف الصحي، برغم معرفتهما أنّ بويد ورجاله، وكلاهما، قد عبروا مسبقاً هذه الطرقات نفسها، لكن ووك كان يأمل في شيءٍ أكثر، شيءٍ لا يلاحظه سوى السكان المحليين. أغمض عينيه، ووضع نفسه مكان فنسنت.

مسحاً سبع مساراتٍ، تفصل بينها بعض الانحرافات الطفيفة. لم يتوصّلاً إلى أي شيءٍ.

- «لم يكن بحوزته. لو كان بحوزته لكنّا وجدناه، أو في الغالب كان بويد قد عثر عليه».

- «إنّها ثغرةٌ في قضيتهم، ثغرةٌ كبيرةٌ»، قالت مارثا، «سيكون المدعي العام غاضباً».

وجدّا طريق عودتهما إلى منزل آل رادلي، ووقفّا على الرصيف.

مدّت يدها، وأمسكت يده. لقد كان على وشك الانهيار. كيفما قلب الأمر، لم يتمكن من فهمه. كان قد فقد أثر دارك، جرّب الاتصال بهاتفه النقال مراراً وتكراراً، وترك العديد من الرسائل حتى ملأ صندوق البريد.

كان يشعر بذلك. دارك قتل ستار، وأنحى باللائمة على فنسنت

كينغ كي يضع يديه على المنزل الذي من شأنه أن ينقذ إمبراطوريته،
ويجني له ثروة طائلة. كان الأمر عبارة عن تكهنات، ولكن ذلك
كان كل ما لديه ليعمل عليه. أما بالنسبة إلى الفتاة، فقد ارتاح
لحقيقة أن هال كان عبارة عن شبح، وأن أرض آل رادلي تتوارى
بعيداً جداً، وأن الطفلين كانا بأمان هناك.

في نهاية جادة نيوتن، قادته نزولاً عبر ممر للجيران، ثم قفزت
فوق سياج منخفض، مُخَبِّياً بأشواك كثيفة.

- «ما زلت تعرفين كل الطرقات المختصرة»، قال ووك.

- «ستار أرثني هذا الطريق».

خلال عشرين دقيقة، كانا بجوار شجرة الأمنيات العتيقة،
النجوم فوق المحيط، والبرج في ليلت بروك أشبه بمنارة مهجورة.

- «لا أستطيع أن أصدق أنها ما تزال هنا. هل تذكر أننا كنا
نتبادل القبل تحت هذه الشجرة؟».

- «أتذكر كل شيء». ضحك ووك.

- «لم تتمكّن يوماً من فكّ حمالتي».

- «بل فعلتها مرّة».

«لا. لقد قمت بفكّها لك مسبقاً، لأدعك تحصل على
لحظتك».

جلست، ثم مدّت يدها وجذبتة إلى الأسفل بجانبها. استندا
معاً على جذع البلوط العريض وهما ينظران إلى النجوم.

- «لم أقل لك أبداً إنني آسفة».

- «على ماذا؟».

- «على هجري لك».

- «كان ذلك منذ زمنٍ بعيد. كنا طفلين».

- «لم نكن كذلك يا ووك. ليس بنظر القاضي. هل تفكر في ذلك؟».

- «بماذا؟».

- «بي. الحمل. الطفل».

- «كلَّ يوم».

- «لم يتخطَّ أبي الأمر. هو لم يكن سيئاً بالمطلق، بل فقط ... كان يعتقد أنه يفعل الصواب بالنسبة إليّ».

- «والباطل بالنسبة إلى الرب».

لم تقل شيئاً لبعض الوقت. كانت أضواء قارب تنجرف مع حركة المدّ.

- «أنت لم تتزوج»، قالت له.

- «بالطبع لا».

ضحكت بلطف. «كنّا في الخامسة عشرة».

- «لكنني كنتُ أعرف ذلك».

«هذا ما أحببته فيك. ذاك الإيمان النقيّ بالخير، والشر، والحب. أنت لم تقل أبداً شيئاً عن والدي، عمّا فعله. أنت لم تخبر أحداً. على الرغم من هجري لك، وذهاب ستار إلى مدرسة أخرى، وبقائك وحيداً تماماً، وهذا الشيء. هذا الشيء الهائل والمثير للاشمئزاز الذي فعله فنسنت».

ابتلع ووك ريقه. «أردت فقط أن تكونوا سعداء جميعاً».

ضحكت تلك الضحكة من جديد، لم يكن فيها شيءٌ يوحي بالشفقة.

- «لقد رأيتك بالفعل»، قال لها، «ربّما بعد عام. في المركز التجاري في كليرووتر كوف. كنتُ مع والدتي، وكنتُ تقفين في الطابور خارج السينما».

ظَلَّتْ هَادِثَةٌ قَبْلَ أَنْ تَتَدَبَّرَ الْقَوْلَ . «دِيفِيدُ رُوَيْنَ . كَانَ مَجْرَدُ صَبِيٍّ ، لَمْ يَعْنِ الْأَمْرَ أَيَّ شَيْءٍ» .
- «أَوْه ، أَنَا أَعْلَمُ ذَلِكَ ، لَيْسَ هَذَا مَا قَصَدْتُهُ . لَقَدْ بَدَوْتُ سَعِيدَةً يَا مَارِثَا . فَكَّرْتُ فِي ذَلِكَ الْفَتَى ، إِنَّهُ لَا يَعْرِفُ ، قَلْتُ فِي نَفْسِي . لَا يَعْرِفُ مَا مَرَرْنَا بِهِ جَمِيعاً ، وَاعْتَقَدْتُ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ جَيِّدٌ . كَانَ يُمْكِنُكَ فَقَطْ أَنْ . . . لَمْ يَكُنْ هَذَا أَمْرًا بَيْنَكُمَا . لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ مِشَارَكَةٌ هَذَا الشَّيْءَ . كَانَ يُمْكِنُكَ . . . أَنْ تَكُونِي فَحَسْبُ» .
بَكَتْ .
أَمْسَكَ يَدَهَا .

مع حلول الشتاء، غطى الجليد أرض آل رادلي، وابتضت السماء بالثلوج الخفيفة.

استلقى روبن على ظهره، وراقب الثلج وقتاً طويلاً حتى اضطرت داتشس إلى جرّه نحو الداخل بعد أن استحالت أصابعه بيضاء اللون. أصبح العمل في الحقل قليلاً، لكنّ الحيوانات كانت ما تزال بحاجة إلى العناية. ألّبت الرمادية والأسود معاطف في أثناء خروجهما للرعي. بدأت داتشس تُخرج الرمادية كل صباح بمفردها، وتمتطيها مع أول شعاع ضوء، وتقتفي أثر الطرقات التي بدأت تعرفها جيداً. كانت تستمتع بهدوء مونتانا، كان كثيفاً جداً كأن الرب قد وضع بطانية فوق الغابة، وغطى بها الجميع باستثناء طيور القرقف صاحبة أعلى صوت في الغابة.

كانا محترسين من دارك؛ جلس هال حتى وقت متأخر من كل ليلة بقبعة صيد، وبطانية، وبندقية عند قدميه. كانت داتشس تستيقظ في بعض الليالي، وتذهب إلى النافذة فتراه هناك، فتعود لتغط على الفور في نوم عميق. وكانت تنزل إليه في ليالٍ أخرى، وتعدّ الكاكاو. كانا في الغالب يجلسان صامتين، لكنّها كانت تسمح له في بعض الأحيان أن يخبرها قصصاً عن بيلي بلو. كانت قصصاً

مبهرةً، ومغرقةً في التفاصيل، حتى إنها تساءلت إن كان الرجل العجوز هو من ابتكرها بنفسه. ذات ليلة، نامت على كتفه، ثم استيقظت في سريرها، وقد لُفَّ الغطاء فوقها بإحكام.

قضت عطلات نهاية الأسبوع مع توماس نوبل وروبن، يجوبون الغابات المكسوة بالأبيض، وكانت تسمح لهما بالتقدم عليها لمسافة معقولة، ثم تقوم بتعقبهما من خلال آثار أحذيتهما. كان البرد نضراً وطازجاً، وجلب الصفاء لعقلها التائه. فكّرت بقدرٍ أقل في كيب هيفن وفصولها التي لا تتغير، وبقدرٍ أكثر في مونتانا، ومن وقتٍ لآخر، فكّرت في المستقبل. انتقتُ بعناية فائقة الذكريات المتعلقة بأمّها، فبحثت فقط عن الماس داخل جبلٍ من الفحم.

تحسّنت درجاتها في المدرسة، جلستُ في الصفوف الخلفية وانكبّت على واجباتها المدرسيّة، استحضرت الهنود والمستوطنين، وبعثت فيهم الحياة عبر كتاباتها. أرسلت إلى ووك صورةً لأرض آل رادلي مأخوذةً من نافذة غرفة نومها في اليوم الذي استيقظوا فيه على ثلوج كثيفة. كانت تذهب مع هال صباح كلِّ سبتٍ إلى المدينة للتسوّق، حيث أحضراً البقالة ثم توجّهاً إلى مخبز تشيري، شربا الكاكاو وتناولوا الدونت. في معظم الأيام كانت دوللي موجودةً هناك، فكانوا يجلسون سوياً ويتحدثون. كانت صحّة بيل قد أصبحت أسوأ، وتحت وجه دوللي الخالي من العيوب رأت داتشس تشقّقاتٍ بدأت تتسلّل إلى السطح في عرضٍ للحزن والحِداد المتّظر.

قادوا السيارة إلى بحيرة هامبي، المياه هناك عميقة لدرجة أن البحيرة تصلح أن تكون محيطاً. استأجر هال قارباً، شرع يمخر عباب المياه البلورية بينما هما يحاولان اصطيد الأسماك. كانت الشمس تطرد البرد بعيداً، وصولاً إلى ما بعد ظهيرة مثالية بالقدر

الذي يمكن لداتشس أن تسمح لنفسها بتخيُّله. سحب روبن سمكة تراوت قوس قزح جيِّدة الحجم، ثم أخذ يبكي إلى أن قام هال بإعادتها إلى المياه.

تحدَّث توماس نوبل عن الحفلة الراقصة الشتوية مراراً وتكراراً. في بعض الأيام كانت تطلب منه أن يغرب عن وجهها فقط، فيما اتَّهمته في أيَّام أخرى بأنَّه يخطط لوضع المسكرات في عصيرها وفعل أشياء شريِّرة بها بمجرد غيابها عن الوعي. نعتته بالمفتريِّس المهووس جنسياً، وكان إذ ذاك يحكُّ رأسه ويدفع نظَّارته أعلى أنفه. في أوَّل يوم من ديسمبر، أحضر لها باقةً من أزهار الجرس الزرقاء كان يجمعها منذ مدَّة. كانت الأزهار قد ذبلت منذ وقتٍ طويل، منظرٌ كئيِّبٌ لكن العاطفة كانت حاضرةً بالتأكيد. قاد الأميال الأربعة فوق درَّاجته على طرقاتٍ يكسوها الجليد وصولاً إلى ممرِّ منزل آل رادلي. بحلول الوقت الذي وصل فيه إلى هناك، كان صقيعٌ قد بدأ بالنزول، فلم يعد توماس نوبل يشعر بأطرافه. أجلسه هال أمام النار حتى عاد الدفء إلى جسده.

- «لن أرقص معك»، قالت وهي تراقب النار، «لن أقبلَكَ أو أحضنكَ، لن أمسك يدَكَ السليمة، لن ألبس ثياباً جميلةً، حتَّى إنِّي قد لا أتحدَّث إليك معظم الليل».

- «حسنٌ»، قال وأسنانُه تصطكُ بعض الشيء.

رأت هال وروبن يبتسمان على الطرف الآخر من الرواق، فأخرجت لهما لسانها.

في يوم الأحد التالي، اصططحبهما هال بعد الكنيسة إلى مركز التسوُّق في برايرستاون. عشرة متاجر في صفٍّ أنيق، بدءاً بمطعم صب واي وانتهاءً بمصرف كاش أدفانس. عثرتُ على ملابس نسائية

في متجرٍ يُدعى كالي. تجوَّلت بين الفساتين المعلَّقة، ثمَّ التقطت ثوباً مطرّزاً، تفحصته تحت الضوء، ورأت أنَّه كان مكشوفاً في خمس بقعٍ على الأقل. «هذا مثل أن تكون في باريس».

أشار هال إلى فستانٍ أصفر، فسألته ما الذي يعرفه عن الموضة بحقِّ الجحيم. أشارت إلى حذائه، وبنطاله الجينز الباهت، وقميصه المزركش، وقبَّعته العريضة، وأعلنت أنَّه ليس سوى فزاعةٍ.

جابوا المتجر ثلاث مرَّاتٍ. كان روبن يحضر أشياءً مُبهرجةً، ويضحك حين يضعها قبالة داتشس، ثمَّ يركض هارباً حين تسأله إنَّ كان يريد لأخته أن تلبس كفتاة شارعٍ من الثمانينات.

خرجت إليهم كالي بنفسها، وحين قرأت المزاج العام عادت متراجعةً إلى المنضدة. كانت تلبس فستاناً مخطّطاً كخليَّة نحلٍ وكعباً عالياً جداً، وأخفت عشرين رطلاً من الدهون تحت حزامٍ عريضٍ. ابتسم هال لها، وردَّت بابتسامةٍ متعاطفةٍ.

عثرَت عليها داتشس في الخلف، تجمَّدت واقفةً تحدِّق بها، ثمَّ مدَّت يدها ببطءٍ والتقطتها. وضعتِ القبَّعة على رأسها، وشعرت بنبضٍ في معدتها. كان عقلها الآن مع بيلي بلو، دمها، وموطئ قدمها في هذا العالم.

لقد كانت قطعةً من الجمال، شابكٌ جلديٌّ، حوافٌ مثاليةٌ، كانت من نوع القبَّعات التي قد يَقتلُ الخارجُ عن القانون من أجلها. ظهر هال وراءها. «إنَّها تناسبكِ».

خلعتُها وتفحصت بطاقة السعر. «يا يسوع!».
- «إنَّها من نوع ستيتسون»، قال هال، وكأنَّ ذلك يفسِّر سعرها الذي يدفع على البكاء.

ما كانت لتطلبها. كانت فاخرةً للغاية، لكنَّها نظرت مع ذلك إلى الوراثة بلهفةٍ بينما كانت ترجع عائدةً إلى الفساتين.

- «ينبغي لقطعة القمامة هذه أن تفي بالغرض». انتزعت
الفيستان الأصفر عن السَّكَّة.
كان هال على وشك أن يتكلَّم، ليخبرها أنَّه الفيستان نفسه الذي
اختاره لها قبل ساعة تقريباً. حدَّثَتْ به متوعِّدةً، فأعاد النظر في
الأمر برمته.

رَتَّب كادي للقاء. مطعم برغر صغيرٌ اسمه بيل، إلى الجنوب
مباشرةً من بيترووتر. طلاءٌ أحمرٌ شاحبٌ، ولافتاتٌ صغيرةٌ مكتوبةٌ
بخطِّ اليد تروِّج لعرضٍ خاصٍّ بثلاثة دولاراتٍ، وجوٌّ يوحي بأنَّ
المكان على وشك الإقفال بسبب قلة الإقبال. كان المطعم خاوياً،
أنزل ووك النافذة بينما كان يتَّجه نحو المسرب الخاص بطلبات
السيارات.

كان الرجل عجوزاً، من أصولٍ إسبانيةٍ، يضع شبكة شعرٍ
ويرتدي مئزرًا، بدا من نوع العجائز الذين اعتادوا تحمُّل هراء
الأولاد التافهين، ثمَّ يلتقطون قمامتهم كنوعٍ من البقشيش. تحقَّق
ووك من الشارة الاسمية، «لويس».

أوماً لويس لووك، وأشار نحو الساحة.

قاد ووك إلى هناك وركن السيارة، خرج منها وجلس على غطاء
المحرِّك. جاء لويس بعد عشر دقائق، جاراً قدميه.

- «لديَّ استراحةٌ لخمس دقائق فقط»، قال لويس.

- «أشكركَ على مقابلي».

- «أيُّ صديقٍ لكادي هو صديقٌ لي».

كان لويس قد شغل الزنزانة المجاورة لزنزانة فنسنت مدَّة ثماني
سنواتٍ. التهمة سطوٌ مسلَّحٌ، وهي الأخيرة في قائمةٍ طويلةٍ من

الجرائم. الأوشام على ذراعه أعلنت عن طبيعة انتمائه، لكنّ ووك خمّن أنّ ذلك ماضٍ بعيدٌ الآن.

- «أنتَ تسأل وأنا أجيب. ومن ثمّ أمضي في حال سبيلي. ربّ عملي لا يحبّ وجود الشرطة قريباً من مطعمه».

- «هذا عادلاً بما يكفي. أخبرني عن فنسنت كينغ».

أشعل لويس سيجارةً ونفخ الدخان بعيداً، كان مديراً ظهره للنفاذة. «الرجل الوحيد الذي التقيته في حياتي، والذي لم يقل إنّهُ تمّ الإيقاع به».

ضحك ووك.

- «إنّهُ شخصٌ جدّيّ. لم يقل الكثير عن أيّ شيء».

- «لم يكن لديه أصدقاء هناك؟».

- «لا. ليس فنسنت. هو لم يأخذ حتّى الوقت المخصص له في الباحة يا رجل. ولا أكواب حلوى البودينغ».

- «عذراً؟».

- «حلوى البودينغ. الطعام هناك مثل فضلات الكلاب، لكن ليس حلوى البودينغ. رأيتُ رجلاً يُطعَنُ من أجل كوب البودينغ خاصّته. أعطاني فنسنت كوبه كلّ يوم».

تساءل ووك ما الذي قد يفعله بمعلومة كهذه.

- «أنتَ لا تفهم أيها الشرطي. لقد أكل فقط بما يكفي. تحدّث فقط بما يكفي. اللعنة، لقد تنفّس فقط بما يكفي».

- «بما يكفي لماذا؟».

- «ليبقى على قيد الحياة. لم يكن له أيّ وجود خارج الأمور الأساسية. أبقى نفسه حياً كي يقضي فترته. وكان حريصاً أن تكون أسوأ فترة يمكن لأحد أن يقضيها. لا تلفاز، لا مذياع، لا شيء

على الإطلاق. كان سيقضي وقته في الحبس الانفرادي لو سَمَحَ له كادي بذلك».

حبس لويس الدخان عميقاً في رثتيه.

- «لقد تورَّط في مشكلةٍ هناك»، قال ووك.

- «الجميع يحدث معهم ذلك في مرحلةٍ ما. كانت لديه فتاةٌ في الخارج، أليس كذلك؟ تكلمَّ الآخرون عنها، ربَّما كانت هذه نقطة ضعفه، ربَّما التفكير بأنها مع شخصٍ آخر. كما أقول لك، الغيرة الحبيسة تقود الرجل إلى الجنون. لقد تعامل مع الأمر بشكلٍ جيِّدٍ كفايةً، وحرص على أن يدعه الآخرون وشأنه بعد ذلك».

- «لكنهم ظلُّوا يسعون خلفه. لقد رأيتُ الندوب».

- «العدو الوحيد لذلك الرجل هو نفسه».

- «ماذا تعني بهذا؟».

- «طلب منِّي أن أحضر له شفرةً. ليس أمراً مهماً. خَمَنْتُ أَنَّهُ

يريد تصفية حسابه مع شخصٍ ما».

- «لم يفعل؟».

- «في نفس اليوم الذي أعطيتُ له الشفرة، سمعتُ الحراس

يصيحون. لم يكن هذا شيئاً غير اعتياديٍّ، لكنَّ هذه كانت زنزانة فنسنت، لذا خرجت لأتبيَّن الأمر».

- «و؟»

راقب ووك لونه وهو يتلاشى.

- «حالةٌ من الفوضى يا رجل، قَطَّعَ نفسه إرباً، جروحٌ عميقةٌ وخطيرةٌ. لم يضرب الشرايين. لم يُرد أن يموت، بل أن يتعذَّب فحسب».

أخذ ووك وهلةً ليستوعب الأمر. شعر بنفسه عاجزاً عن الكلام، وحنجرته منقبضةٌ كأنَّه ما كاد يقدر على التنفس.

- «هل انتهينا؟».
- «أحتاج أن توصي لي بمرجع عنه».
- «لن تجد أحداً. إذ لا أحد يعرف فنسنت». رمى لويس سيجارته، وأطفأها ثم انحنى والتقط العقب. غمز لوك، ومدّ يده عندما تقدم هذا الأخير ليصافحه.
- أخيراً، سحب ووك عشرين دولاراً، فأخذها لويس.

ظهرت دوللي على بابهم حاملةً صندوقاً كبيراً. كانت هناك لتصطحب روبن الذي كان سيمضي الليلة في منزلها، حيث قال هال إنَّه سيكون بذلك متاحاً في حال لم تتمكن السيدة نوبل من اصطحابهما بعد الحفل الراقص. هال المتيقِّظ دائماً، المتنبه.

اقتادت داتشس إلى غرفة النوم، وفتحت الصندوق على مجموعة مذهلة من الماكياج والعطورات.

- «لا تجعليني أبدو كعاهرة».

- «لا يمكنني تقديم أية وعود يا حبيبتي».

ابتسمت داتشس لذلك.

بعد ساعة، نزلت السلالم وشعرها متموِّج بفعل يد ماهرة، وشفتاها ورديتان لامعتان. كانت ترتدي قوساً جديداً وحذاءً جديداً ساعدتها كالي في اختياره. لقد اكتسبت القليل من الوزن، فلم تُعْدُ تبدو مثل هيكلٍ عظميٍّ، كما بدت عضلاتها مشدودةً بسبب العمل في المزرعة.

رأت على وجه هال شيئاً أشبه بالفخر، فطلبت منه أن يغلق فمه قبل أن يتمكن من قول كلمةٍ واحدة.

- «جميلة!» قال روبن متعجباً، «أنتِ تشبهين ماما تماماً».

لحقا بدوللي وروبن إلى أن انعطفا عند أفوكا. تساقطت الثلوج بشكلٍ خفيفٍ، لكنَّ الطرق كانت قد رُشَّت بالملح. كان منزل دوللي كبيراً وفاخراً، ومضاءً بنورٍ يوحي بالدفء قادم عبر النافذة. كانت داتشس قد سألت عن حال بيل. قالت دوللي إنه لا يملك الإدراك السليم ليدفع بنفسه للاستسلام.

قادا ببطءٍ.

- «هل أنتِ متوترة؟»، قال هال.

- «من إمكانية أن أصبح حاملاً الليلة؟ لا لستُ كذلك، ما سوف يحدث، سوف يحدث، سوف يحدث».

انعطفا باتجاه كارلتون.

- «أنا قلقةٌ بشأن روبن»، قالت.

نظر هال إليها.

- «ما يعرفه عن تلك الليلة. هو... لم يسترجعه، لكن، أنا لا أعرف. إنه يحلم به. أعتقد أنه ربّما يكون قد سمع كل شيء».

- «إذاً سنتعامل مع الأمر».

- «بهذه البساطة؟».

- «نعم. ألا يبدو هذا جيداً؟».

أومأت برأسها.

انعطفا مجدداً نحو طريق هايوود.

- «اللعة».

- «ماذا؟». ثم رأى ما كانت تعنيه، وحاول ألا يبتسم لكنه خسر تلك المعركة بالكامل.

كانت الثلوج قد جُرِفَتْ عن الممرِّ المؤدِّي إلى منزل آل نوبل،
ورُصف ببتلات الورود.

- «اللعة، أطلق النار عليَّ الآن».

رأته عند النافذة، وقد ألصق وجهه بالزجاج، كما يفعل روبن
حين ينتظر عيد الميلاد.

- «إنه يرتدي ربطة قوسٍ سخيّةً. يبدو مثل الساحر».

ركن هال الشاحنة. انفتح باب المنزل، ووقفت السيدة نوبل
هناك والكاميرا في يدها. خلفها كان السيد نوبل، يحمل كاميرا
فيديو كبيرة جداً، مثبتةً على كتفه ويسطع منها ضوءٌ كشافٌ يعمي
العين.

- «استدِرْ عائداً. مستحيلٌ أن أشارك في عرض غريبٍ الأطوار
هذا».

- «لا بأس. ربّما يمكنكِ القيام بذلك من أجلهم، هذه المرّة
فقط».

- «سلوكٌ إشاريٌّ!».

- «سأكون في الانتظار. اتّصلي بي إذا وقعت أيّة مشكلة».

أخذت نفساً عميقاً، ثم مدّت يدها نحو المرأة وعبثت بقوسها.

- «اقْضِي وقتاً ممتعاً الليلة».

- «لن أفعل».

فتحت الباب، فلفحها الهواء البارد على الفور. «إنّ ثوبي
بسيط. ليس مثل الفتيات الأخريات».

«منذ متى تريدان أن تكوني مثلهنّ؟ أنتِ خارجةٌ عن القانون».

«أنا خارجةٌ عن القانون». نزلت إلى الثلج.

شغلّ المحرّك، وبينما كانت تهتمُّ بإغلاق الباب نادته: «هال».

- «نعم، داتشس».

نظرتُ في عينيه. بدا مستأً حينها وقديراً لكنّها كانت تعرف
الخسائر وتكلفتها. فكَّرتُ في والدتها، في سيسي.
- «أنا لست آسفةً، على كل ما قلته لك»، بلعتُ ريقها، «أنا
فقط...».

- «لا بأس».

- «إنَّه ليس كذلك. لكنني أعتقد أنَّه يوماً ما سيكون الوضع
على ما يُرام».
- «اذهبي الآن. حاولي أن تستمتعي. ابتسمي للكاميرتين.
كليهما».

قلبت عينيهما، لكنّها أضافت ابتسامةً إلى ذلك.

دارت كرة الأضواء اللامعة، وراقبت داتشس الضوء يتكسَّر
فوق الحشد. كان موضوع الحفل هو بلاد العجائب، فحدَّقتُ في
الثلج القطني والزهور الجليدية. علَّقتُ فوقهم بالونات بيضاء
وزرقاء، ونجومٌ ملوَّنةٌ، وأشجارٌ من الورق المقوَّى تدور حول حلبة
رقصٍ مصنَّعةٍ لتبدو كأنها جليديةٌ.

أخذت تعبت بسوار الزهور خاصَّتها. «إنَّها تسبَّب الحكَّة. هل
وجدتها في مجمَّع قمامةٍ؟».
- «لقد اختارَها أمِّي».

تسكَّعا في الخلف، رأْتُ فتياتٍ يتبخترنَ في فساتينَ مبهرجةٍ
وكعوبٍ عاليةٍ. صلَّتُ بصمتٍ كي يسقطنَ على وجوههنَّ.
كان توماس نوبل يرتدي بذلة عشاءٍ، مقاسها كبيرٌ جداً حتى إنَّ
يده المصابة كانت غائرةً داخل الكُمِّ. فوقها كان يلبس رداءً حريرياً

من دون أكمَام. كان غريباً وعجيباً لدرجة أنَّها لم تستطع أن تزيج عينيها عنه.

- «قال والدي إنَّ الرجل المحترم يلبس دائماً رداءً إلى المناسبات الرسمية».

- «والدكُ عمره مئة وخمسون عاماً».

- «ما زال نشيطاً ومفعماً بالطاقة. يتعيَّن عليَّ حين يمارسان الحبَّ الذهاب إلى الفناء الخلفي، فضجَّتْهُمَا تصمُّ الآذان».

حملتُ فيه، مذعورةٌ بما يتناسب مع هذه المعلومة.

بدأت الموسيقى، وشاهدت داتشس مجموعة فتياتٍ يتراكضنَ إلى حلبة الرقص.

أحضر توماس نوبل عصيراً، وعثراً على مقاعد عند طاولةٍ بالقرب من مصوِّر فوتوغرافيٍّ وحلبة رقصٍ على شكل قلبٍ.

- «شكراً لمجيئك معي».

- «لقد قلتَ ذلك بالفعل ثماني عشرة مرَّة».

- «هل ترغبن بكعكة؟».

- «لا».

- «ماذا عن رقائق البطاطس؟».

- «لا».

قاموا بتشغيل موسيقا سريعةٍ. أخلَى جاكوب ليستون مساحةً له، وأدَّى أفضل حركاته في البريك دانس فيما أخذت الفتاة التي كانت برفقته تصفِّق بطريقةٍ محرَّجةٍ.

كشَّرت داتشس. «أعتقد أنَّه ربَّما يعاني من نوبةٍ ما».

تغيَّرت الأغنية إلى شيءٍ أبطأ، وخفَّ الازدحام في الحلبة.

- «هل تريدين —».

- «لا تجعلني أقولها مرّةً أخرى».
- «بذلة جميلة يا توماس نوبل»، كان هذان بيلي رايلي وتشاك سوليفان، «إنّها تخفي يده المشلولة على الأقل». ضحكا.
- رشف توماس نوبل عصيره وأبقى عينيه على حلبة الرقص.
- مدّت يدها وأمسكت يده المصابة. «ارقصْ معي».
- مالَتْ وقالتْ شيئاً ما لبيلي حين مرّت بقربه، فذُعر وابتعد بسرعة. مكتبة سُر من قرأ
- «أبقى يديك بعيدتين عن مؤخّرتي»، قالت لدى وصولهما إلى الحلبة.
- «ماذا قلتَ لبيلي؟».
- «أخبرته أنّك أجراً رجل في العالم».
- هزّ كتفيه. «هذا ربع الحقيقة».
- ضحكت كثيراً، وبقوّة لدرجة أنّها نسيّت كم كان ذلك الشعور طيّباً.
- تمسّكت به. «اللعنة يا توماس نوبل. يمكنني تحسّس كلّ ضلع».
- «هذا وأنا في ملابسي. لن ترغبي في رؤيتي عاري الصدر».
- «يمكنني أن أتخيّل ذلك. حضرتُ ذات مرّة وثائقياً عن المجاعة».
- «أنا سعيدٌ أنّك أتيتِ إلى هنا».
- «لقد وضعتني تحت ضغط لا يرحم. لا بدّ أن يكون والدك فخوراً بك».
- اصطدما بجاكوب ليستون ورفيقته. كان جاكوب يتلوّى وكأنّه يحتاج للتبول. رمقت داتشس رفيقته بابتسامة متعاطفة.
- «أعني هنا في مونتانا. أنا سعيدٌ لأنّك أتيتِ للإقامة هنا».

- «لماذا؟» .

- «أنا فقط —» توقّف عن الحركة، وللحظةٍ بائسةٍ ظنّ أنّه قد يحاول تقبيلها. «أنا لم أقابل فحسب خارجةً عن القانون من قبل». اقتربت منه قليلاً، وتحركت معه على أنغام الموسيقى.

جلس ووك في مكتبه. كانت الستائر مسدلةً لكنّ أضواء البلدة كانت تمنع الظلمة. أسند الهاتف على كتفه، ودوّن الملاحظات فيما هو يتحدث إلى هال. أراح قدميه فوق كومةٍ من الأوراق، إذ كان درج مكتبه على وشك الانفجار. كان معتاداً على هذا الوضع، إذ الفوضى كانت تزعج الجميع ما عداه.

كان يتصل للاطمئنان عليها كلّ أسبوعٍ في الوقت نفسه ليلة الجمعة.

كان اتصالاً سريعاً في العادة، حديثٌ سريعٌ عن أنّ الصبي كان يبلي حسناً، وأنّه ما زال يقابل المعالجة النفسية. ثمّ ينتقلان إلى الفتاة. أحياناً كانا يتحدثان خمس دقائق، فقط بما يكفي كي يتسنّى لهال أن يخبره عن شيءٍ سيّئٍ كانت قد فعلته، وكيف كان عليه أن يمتنع عن الضحك مرّةً بعد مرّةٍ إلى أن تنتهي سورة غضبه. كان ووك على درايةٍ جيدةٍ بهذا النوع من التمثيل.

- «الأمر بطيء»، قال هال، «التقدّم مع داتشس بطيء». لكنّها تتحسنّ. إنّها تتحسنّ». - «هذا جيّد».

- «الليلة هي في حفلة المدرسة الراقصة».

- «انتظر لحظة. داتشس في حفلةٍ راقصةٍ؟».

- «إنَّها حفلة الشتاء الرسمية. يذهبون إليها جميعاً. تُضاء منطقة إفرغرين ميدل بالكامل، بحيث يمكنك أن ترى الأضواء من كولد كريك».

سمح ووك لنفسه بابتسامة. كانت الفتاة بخير. برغم الصعاب التي كانت كثيرة ومتراكمة، فقد كانت تعيش حياتها.

- «وروين. أعتقد أنه بدأ يتذكّر».

أنزل ووك قدميه عن المكتب، وضغط السماعه على أذنه بقوة حتى إنه سمع صوت تنفُّس الرجل العجوز.

- «لا شيء ملموس».

- «هل ذكر أية أسماء؟ دارك؟».

لا بدَّ أن هال سمع نبرة اليأس في صوت ووك لأنَّه قال السطور التالية بهدوءٍ ودماثةٍ: «لا شيء ملموس، يا ووك. أعتقد أنه يفتح ببطءٍ على حقيقة أنه ربَّما كان موجوداً هناك عندما قُتِلت والدته. المعالجة النفسية جيّدة، هي لا تلجُّ عليه بالأسئلة أو تحاول أن تقوده إلى أيِّ مكانٍ على الإطلاق».

- «جزءٌ منِّي يأمل أنه لن يتذكّر».

- «قلْتُ لها الشيء نفسه، فأخبرتني أنَّ هناك احتمالاً جيداً لاحتمال أنه لن يتذكّر أبداً».

- «أفكّر بكم جميعاً هناك».

- «أنا متيقِّظ له. دارك هذا. حين رأت السيَّارة، اعتقدتُ أنه أتى فعلاً كما كانت تقول دائماً».

- «والآن؟».

- «ما زلتُ أنتظر. سأطلق النار أولاً، وأطرح الأسئلة لاحقاً».

ابتسم ووك ابتسامة متعبّة. ليالي الأرق الطويلة كانت قد تسبَّبت

بخسائرها وتركث آثارها، فصرعت أفكاره أرضاً، وطردها خارج رأسه. في بعض الأيام كان يجد نفسه يقود على طريقٍ سريعٍ وقد نسيَ بالكامل إلى أين يُفترض به أن يذهب.

- «ليلةٌ سعيدة يا هال. كن حذراً».

وضع السماعة وتثاءب. في العادة يكون متعباً لدرجة أنه يتَّجه مباشرةً إلى المنزل، يشرب زجاجةً بيرةً واحدةً وهو يشاهد قناة ESPN حتَّى يغلبه النعاس. لكن في تلك الليلة بالتحديد شعر برغبةٍ شديدةٍ في رؤية مارثا، ليس للتحدُّث معها حتَّى، بل فقط كي لا يقضي الليلة وحيداً.

التقط السماعة، شرع يطلب الرقم، ثم قطع الاتصال. كان واعياً تماماً لما كان يفعله، ينسلُّ بالتدرُّج خلسةً إلى داخل حياةٍ لا يحقُّ له التدخُّل فيها. إنَّ ذلك تصرَّفٌ قاسٍ، مهما كان الذي يشعر به، إنَّه قاسٍ ومتحجِّرٌ فحسب. عندما رأته تذكَّرت أحلك أيَّام حياتها، وكانت ستفعل دائماً بطبيعة الحال.

عبر الرواق ببطءٍ، كان المركز غارقاً في الظلام.

- «ليا، لم أكن أعرف أنَّك ما تزالين هنا».

رفعت نظرها، مُتعبةً، من دون ابتسامةٍ. «إنها ساعات العمل الإضافي. أحذُّ ما يجب أن يرتَّب نظام الأرشفة. سوف يستغرق الأمر منِّي الشهر المقبل برمَّته مع العمل طوال ساعات الليل».

- «هل تحتاجين إلى مساعدة؟».

- «لا، امض في سبيلك. لا يهمُّ إن بقيتُ هنا طوال الليل، لن يلاحظ إد ذلك حتَّى».

حاول أن يقول شيئاً، لم يكن متأكداً ما هو، لكنَّها بعد ذلك استدارت وعادت إلى العمل.

خرج وهو يفكر في داتشس داي رادلي في حفلة مدرسية راقصة، ويبتسم في طريقه نحو المساء الدافئ.

ساعت حال الطقس والثلوج، مثل حال الحديث الذي كان يدور في أثناء عودتهم بالسيارة. سألت السيدة نوبل ابنها توماس عن الحفلة الراقصة. قال إنها كانت أفضل ليلة في حياته.

شاهدت داتشس الثلج يتراكم فوق الأراضي الزراعية المجاورة. في العادة لولا الظلام لكانت تستطيع أن ترى المشهد حولها لمسافة ميل وصولاً إلى الجبال.

حين وصلوا إلى أرض آل رادلي، حاولت السيدة نوبل الانعطاف، ولكن الممر كان غارقاً تماماً في الثلوج الآن. لم يتمكن هال من إبقائه صالحاً للاستخدام، فقد كان طويلاً جداً، والثلج تساقط بسرعة كبيرة.

- «يمكنني أن أقطع المسافة سيراً من هنا».

- «هل أنت متأكدة يا عزيزتي؟ يمكنني أن أحاول عبور الممر، لكنني أعتقد أننا قد نعلق طوال الليل».

- «سيكون هال على الشرفة. سوف يرى أضواء السيارة، ويشعر في السير باتجاهي. انطلقني أنت».

خرجت من السيارة بسرعة وغذت السير عبر الممر، قبل أن تتمكن السيدة نوبل أو توماس من الخروج ومحاولة اللحاق بها. في منتصف الطريق، استدارت ولوحت لهما، وراقبتهما يقتفیان أثر الضوء ويطويان الطريق خلفهما.

خاضت في الثلج بصعوبة، رافعةً حذاءها الجديد عالياً مع كل خطوة. انتصبت أشجار اللبان، أغصانها تنثني تحت ثقل الثلج

المتراكم فوقها لتشكّل قوساً أبيض، فكانت كأنّها تمشي عبر قوس زفافٍ. حرّة، واجهت السماء، وندف الثلج السابحة، والجمال الذي كان أكثر من أن يمكن استيعابه. فكرت في روبن وكيف سيقضيان عطلة نهاية الأسبوع، تماثيلٌ ملائكةٍ مجنّحةٍ ورجال ثلجٍ بطول جدّهما.

عندما أراححت الأغصان المتدلية، أشرف ضوء القمر على بيت المزرعة القديم، فابتسمت من دون أن تعرف السبب. رأت من بعيدٍ ضوء المطبخ.

تقدّمت خطوةً أخرى ثم تجمّدت في مكانها.

كانت هناك آثارٌ في الثلج، كانت مغطّاة تقريباً، لكنّها موجودةٌ مع ذلك.

آثارٌ أقدام.

آثارٌ كبيرةٌ.

للمرّة الأولى في تلك الليلة شعرت بالبرد، القرصة الحقيقية الملموسة لبرد مونتانا.

- «هال»، قالت بهدوءٍ.

حَثَّ الحُطى قليلاً، وأخذت دَقَّات قلبها تتسارع. شيءٌ ما ليس على ما يُرام، كان يمكنها الشعور بذلك.

ثم رأته.

وهدأت.

كان جالساً على المقعد والبنديقية عند قدميه.

حين وصلت إلى الشرفة، لوَحَتْ له، وابتسمت ابتسامةً عريضةً، ثمَّ صعدت الدرج. كانت على وشك أن تخبره عن ليلتها، كم كانت سيئةٌ فحسب.

لكنها رأت عندئذٍ وجهه شاحباً ومشدوداً، والعرق يتصبَّب من رأسه.

كان يتنَفَّس بصعوبة، لكنَّه حاول مع ذلك أن يتسم لها. اقتربت منه ببطء، وبحذرٍ شديد، سحبتُ عنه البطانية. عندها رأت الدم.

- «أوه! اللعنة، هال»، همست.

أبقى يده مشدودةً إلى بطنه، لكنَّ الدم كان ينزف بسرعةٍ وبوتيرةٍ ثابتةٍ.

- «لقد تمكَّنتُ منه»، قال هال.

مدَّ لها يداً واحدةً بينما كانت حياته تذوي شيئاً فشيئاً. أخذتها، فانتقل دمه إليها مثل مرضٍ قاتلٍ.

تركَّته، وركضت نحو الهاتف في المطبخ. طلبت عبر الاتصال السريع قسم شرطة مقاطعة آيفر، وأبلغتهم بكلِّ ما تمكَّنتُ من قوله. تركت أثاراً من دم هال على سماعة الهاتف. أحضرتُ الويسكي من الخزانة وركضت إلى الخارج.

- «اللعنة». وضعتِ الزجاجاة على شفتيه.

سعل بقوة، كان هناك دمٌّ الآن.

- «لقد تمكَّنتُ منه، يا داتشس. لقد هرب لكنِّي تمكَّنتُ منه».

- «لا تتكلَّم. الناس قادمون، أناسٌ يعرفون ما عليهم فعله».

نظر إليها. «أنتِ خارجةٌ عن القانون».

- «أنا كذلك»، قالت بصوتٍ متكسِّرٍ.

- «أنا فخورٌ بك».

أمسكتُ يده بقوة، ضغطتُ برأسها على رأسه، أغمضتُ عينيها، وحبست دموعها. «اللعنة»، صاحت ملء حنجرتها. ضربتُ ذراعه، وصدره، وصفعتُ خدَّه بقوة. «جدِّي، استفق».

نظرتُ إلى الدم على ثوبها الأصفر الجديد، ثم إلى الأسفل نحو الثلج، حيث ذهبَت آثار الأقدام بعينها نحو الحقول البيضاء. جثتُ على ركبتيها مجدداً. «نبدأ حيثُ النهاية». أخذتُ البندقية بجانبه.

لم تعد تشعرُ بالبردِ القارس، ولم تعد تلاحظ القمر المَكمَل. لم ترَ النجوم أو الحظائر الحمراء أو المياه المتجمدة. في الإسطنبول، أسرجت الرمادية وأخرجتها من حظيرتها. رفعت نفسها بيدٍ، وحملتُ البندقية بالأخرى، وتمسَّكتُ باللبام جيّداً بينما خرجا يتبَّعان آثار الأقدام. شتمت نفسها كثيراً، لوقوعها تحت تأثير الوعد بحياةٍ جديدةٍ. تذكَّرتُ شعور الغضب، الغضب المتلوّي حنقاً. ذكَّرتُ نفسها مَنْ تكون. داتشس داي رادلي. الخارجية عن القانون.

مكتبة

t.me/soramnqraa

القسم الثالث

العودة

قاد سيارته من النهار حتّى الليل، أضواءً ساطعةً، أزهارٌ بريةٌ تومض، صحراء موهافي ليست سوى تغيّرٍ بطيءٍ في أشكالٍ ثابتةٍ. الطريق رقم 15، أضواء لاس فيغاس البرّاقة، وكأنّها مركبةٌ فضائيةٌ ضخمةٌ سقطت من السماء.

لوحاتٌ إعلانيةٌ تعلو وترتفع، سَحَرَةٌ متأنّقون بحواجبٍ مقوَّسةٍ، نجماتٌ مستاتٌ عاطلاتٌ عن العمل يحملن نبذةً عن أعمالهن على طول الطريق إلى البنك.

راقب المشهد يتلاشى في المرأة الخلفية، بدا الأمر بعد قليلٍ كأنّه لم يكن هناك من قبل. تجنّب وادي النار وسد السمر، والظلّ الأبدي للأخود العظيم خلفه. أضواء نُزْلٍ، محطات وقودٍ، وطريقٌ سريعٌ بدأت تضعف حركة المرور فيه مع مرور الوقت.

في سیدار سيتي، توقف عند مطعم ليليّ. وكان معظم منطقة وسط البلد التاريخي في مقاطعة آيرون نائماً. جلس في أحد الأكشاك واستمع إلى رجلين يتحدثان عن «توديع كلارك». لم يستطع معرفة كونِ كلارك قد مات أو سيتزوج.

على الطريق مجدّداً. عندما بدأت غابة كاريبو-تارغي تظهر في البعيد، رأى أول ضوءٍ أزرقٍ في ألف ميلٍ من السواد. أبطأ السرعة

عند الطريق 87 وشاهد شروق الشمس بالقرب من بحيرة هنريز، حيث تكسّرت ألوانٌ كثيرةٌ للضوء على صفحة الماء، وفرك عينيه من جديد.

أول ظهورٍ للثلوج كان في مدينة تري فوركس، حيث تراكضت الحقول البيضاء لتلتقي بالسماء البيضاء. أغلق النافذة وشغل جهاز التدفئة لكنّه لم يشعر بالبرودة ولا بالحرارة.

عندما اتصل قسم شرطة مقاطعة آيفر، كان ووك في المنزل مستلقياً، مصاباً بنوع من الشلل الشديد حتّى إنه كاد لا يستطيع الوصول إلى الهاتف. ولكن بعدها، عندما أنهى الشرطي على الطرف الآخر المكالمة، ضرب ووك السمّاعة مراراً وتكراراً حتى تحطمت. ثم دفع بمحتويات مكتبه أرضاً على السجادة، وركل شاشة الكمبيوتر حتى تصدّعت. بعدها، ببطءٍ وهذوءٍ، نظّف كلّ الفوضى.

أيّ وهم! البطاقات البريدية، مكالمات ليلة الجمعة مع هال، أيّ وهم! لقد مات وهمٌ أن تحصل الفتاة والصبي على الحياة التي يستحقّانها موتاً بارداً ونهائياً لدرجة أن ووك لم يتحدث إلى أي شخص لمدة ثلاثة أيام. أخذ إجازةً، علماً أنّ آخر إجازة أخذها تعود إلى عشر سنواتٍ إلى الوراء، ممّا جعلهم قلقين للغاية حتّى إنّ لوان مرّت به وطرقت بابه. لم يردّ. كما أنه لم يردّ على مكالمات مارثا.

أمضى اليوم الأول في شقّته. كانت ثمة خريطةٌ لحياة دارك مرسومةٌ على الحائط خلف جهاز التلفزيون حتى لا يتسنّى له إخراج الرجل من عقله. طارد خيوطاً قديمةً جداً بحيث لم يعد الاتصال بالأرقام ممكناً، وإن استطاع ذلك، كان يصل إلى أشخاصٍ مرتبكين لم يسمعوا اسم دارك منذ عشرين عاماً. جرّب الشراب، زجاجة

ويسكي جيم بيم، أنهى حوالي ربعها قبل أن يستسلم. جعلته أدويته، مع الكحول، يشعر بالنعاس. كان يتوق إلى ثغرة ما، إلى سببٍ يمكنه من تحمُّل اللوم والغرق عميقاً، لكنه لم يجد شيئاً. كانت يد القدر قاسيةً، لا شيء غير اعتياديٍّ في ذلك. اتَّخذ دارك خياراً ومضى به حتَّى النهاية، وما زالوا عاجزين عن إدانته بأي شيء. لا شاهد. دفن الثلج آثار الدم. كانوا قد نصبوا كلَّ الحواجز، وأغلقوا الطرق كافَّة، وأرسلوا فريقاً إلى أبعد مسافةٍ استطاعوا أن يصلوا إليها. عملت مقاطعة آيفر على النظرية القائلة إن القاتل قد مات، ودُفن في قبرٍ من الجليد في مكانٍ ما وسط الغابة، ومن المحتمل أنَّ الحيوانات مرَّقت جثَّته بمجرد ذوبان الجليد.

عاد ووك إلى المركز واستأنف أعماله. كتب المخالفات الروتينية، وقف أمام المدارس الابتدائية الروتينية، وعمل المناوبات الروتينية، أربعة أيام وليلةً واحدةً.

مرَّت به مارثا من دون دعوة، وعندما أخبرها، ضغطت بيدها على فمها وكأنها تريد الصراخ. إن كان ووك محطَّماً من قبل، فإنَّ ما حدث في مونتانا بعثر أجزائه بعيداً جداً، لدرجة أنَّه تخلَّى عن أيِّ أملٍ في أن يعود كُلاًّ متكاملًا يوماً ما.

زار فنسنت، وجلس في غرفة الانتظار الحارَّة ثلاث ساعاتٍ في حال غير فنسنت رأيه وقرَّر الخروج لرؤيته. وقف مع كادي وتفرَّج على الرجال يلعبون كرة السلة، ولم يجفل عندما تعرَّض أحدهم لسقوطٍ قويٍّ أو فقد أحدهم سناً.

لحيته طويلةً الآن، تجاوزت رقبتَه وصولاً إلى عظام قفصه الصدري البارزة. كبر في العمر عشر سنواتٍ خلال بضعة أشهرٍ، وبات جلده مشدوداً فوق وجنتيه الغائرتين.

أصبح الثلج كثيفاً عند مقاطعة لويس أند كلارك، اغتسل في

محطة وقودٍ على الطريق السريع 89. كانت تفوح من المكان رائحة البول، فحاول أن يحبس أنفاسه فيما كان يخلع زِيَّه. وقف عارياً تحت الضوء الخافت. لا بطنَ منتفخاً ولا صدرَ مترهلاً، بل رأى بدلاً من ذلك ضلوعاً وعظام الورك. ارتدى ملابسه: قميصاً، وبنطالاً، وربطة عنقٍ. كان قد قصَّ شعره قصيراً جداً الآن، لذا لم يكن في حاجةٍ إلى تمشيطه. ارتعشت يداه، لم يقاوم ارتعاشهما. لم تعودا متناغمتين أبداً: إن أمسك الهاتف بإحدهما، فلن يتمكن من إمساك القلم بالأخرى. كان الأمر مرهقاً، ويقود إلى الجنون. كنيسة كانيون فيو.

نظف أحدهم الساحة أمام الكنيسة، محيطاً إياها بجدارٍ من الثلوج المكدسة عالياً. كان قد وصل أبكر بساعةٍ، لذا فقد أرجع مقعده إلى الوراء، وأغمض عينيه. ليلةٌ على الطريق، يجب أن تكون كفيلةً بجعله يقتنص الفرصة من أجل ثلاثين دقيقةً من النوم، لكن عقله ما كان ليتركه يفعل ذلك. فكَّر في داتشس عندما كانت صغيرةً وكيف كانت تنظر إليه، كأنَّه الرجل الذي يمكنه حلُّ مشاكلها. بدأت أولى السيارات تدخل الساحة. راقبهم، كانوا مسنَّين، والبرد بادٍ على وجوههم وخدودهم الحمراء فيما هم يدخلون الكنيسة الصغيرة.

وجد ركناً في الخلف. كان الأرغن يعزف شيئاً هادئاً.

كان التابوت في الأمام.

وقف عندما وقف الآخرون.

ثمَّ استدار ورأى الصبي، روبن، ممسكاً يدَ سيدةٍ لم يميِّزها. بدا الصبي أكبر سنّاً، فجأةً، كأنَّ الطفل قد سُلب منه مرةً أخرى بضغطةٍ على الزناد.

خلفهما، ظهرت داتشس، بفستان غامق وبسيط. أبقت رأسها

مرفوعاً، وعينيها صلبتين متحدّيتين. جالت بنظرها في أرجاء الكنيسة، وحاول الناس ما بوسعهم أن يبتسموا لها ابتساماتٍ حزينة. لم ترد أيةً منها. هي ليست طفلةً الآن.

عندما رآته تلعثت، ذاكرة نافرة، ومن ثمّ تجاوزت الأمر. وبينما كانت جالسةً في الأمام، لمح ووك القوس في شعرها. كان غير مرئيٍّ تقريباً، لكنه كان هناك.

جلس خلفها صبيٌّ نحيلٌ يضع نظاراتٍ، وعندما بدأ الكاهن الحديث وبدأ روبن في البكاء، وضع الصبي يده على كتف داتشس. لم تستدر، بل أبعدت يده عنها فحسب.

بعدها، لحق بهم ووك إلى مزرعة آل رادلي. في الداخل كان هناك سندويتشاتٌ وكعكٌ. السيدة التي قدّمت القهوة لووك عرّفت عن نفسها بأنّها دوللي.

وقف روبن مع السيدة وقد بدا تائهاً كما لم يحدث لطفلٍ من قبل. لم يقل شكراً عندما قدّمت له دوللي قطعة دونات، ولم يقل شكراً عندما سألتّه السيدة إن كان يريد أن يصعد ويلقي نظرةً أخيرة على غرفة نومه.

تسلّل ووك إلى الخارج وخاض في الثلج، متتبّعاً أثر الأقدام الصغيرة.

وجدها في الإسطبل، ظهرها إليه فيما كانت تربت على الرمادية الجميلة، ويدها الصغيرة على أنف الفرس. مالت الفرس فوقها، وراحت تتمسّح بها فقبّلتها داتشس بلطفٍ.

- «يمكنك المغادرة الآن»، قالت من دون أن تستدير، «لست في حاجةٍ إلى البقاء فترةً أطول. رأيتُ الجميع هناك ينظرون إلى الساعة. كأنّ هال كان سيرغب بهم في منزله على أية حالٍ». خطا تحت السقف المقوّس. «أنا آسف».

رفعت يدها، لم يعرف إن كانت تقصد لا بأس، أو اغرب عن وجهي، ولم تكن معرفة ذلك مهمةً على أية حال.

- «يوجد صبيّ هناك، هو يستمرُّ في البحث عنك».

- «توماس نوبل. إنه لا يعرفني، ليس حقاً».

- «من المهم أن يكون لديك أصدقاء، أليس كذلك؟».

- «إنَّه طفلٌ عاديٌّ: أبوان، درجاتٌ جيدةٌ، ستة أسابيع في

منزل العطلة الخاص بهم على شاطئ ميرتل كلِّ صيفٍ. نحن نتنفس هواءين مختلفين».

- «هل تأكلين جيداً؟».

- «هل تأكل أنت؟ تبدو مختلفاً، يا ووك. أين ذهبت تلك

الطراوة؟».

كانت ترتدي فستانها فقط لكنها لم ترتجف من البرد.

- «تلك السيدة في الكنيسة مع روبن —».

- «السيدة برايس. هكذا تحبُّ أن ندعوها. في حال نسينا أن

مكاننا هذا أمرٌ مؤقتٌ جداً، فهي تأتي لتدُكِّرنا بذلك».

التقَّت عينا ووك بعينيها لحظةً، ثمَّ نظر بعيداً.

- «أنا آسفٌ جداً».

- «اللعنة، يا ووك. توقف عن قول ذلك. نحن نقبل بما

يصيبنا، صحيحٌ؟ قدرٌ أو تسليمٌ. لا يوجد فرقٌ».

- «إنهم لا يعلمون ذلك في الكنيسة».

- «الإرادة الحرة وهُم، كلُّما تقبَّلت ذلك أسرع، مضيتَ في

حياتك أسرع».

- «ماذا عن المزرعة؟».

- «سمعتهم يتحدثون. هناك ديونٌ على هال، سيتم طرحها في

المزاد لتسوية الديون. أرض آل رادلي. نحن مجرد وكلاء عليها».

- «وروبن؟».

الحزن، كان هو الشيء الوحيد الذي استطاع ووك رؤيته، مدفوناً عميقاً خلف عينيها.

- «هو... هو لا يتكلم الآن. لم يقل الكثير، فقط نعم أو لا. سيحاولون أن تتبنانا عائلة، وحتى ذلك الحين، سنكون في رعاية مؤقتة، فالسيد والسيدة برايس يتقاضيان مالاً مقابل إيوائنا، إطعامنا، وإرسالنا إلى الفراش في الثامنة حيث إنهما يحبّان أن يقضيا وقتاً خاصاً بهما».

- «وعيد الميلاد؟». ندم فوراً على الكلمة، وكأنّ لها مكاناً في مقام كهذا.

- «الموظفة الموكلة بقضيّتنا جلبت الهدايا. لم تترك السيدة برايس شيئاً لروبن».

ابتلع ريقه.

استدارت وربّتت على الرمادية من جديد. «سيتم بيعها، إلّا إذا أرادها أحد ما مع المزرعة. آمل ألا يسيئوا إليها. إنّها تعرج قليلاً الآن، بعد تلك الليلة».

- «وقعت؟».

- «بل أنا وقعت»، قالت بمرارة، «لم يكن ذلك بسببها. إنّها فرسٌ نبيلةٌ. لقد بقيت معي هناك، ظلّت بجانبني فحسب».

بدأ الثلج يتراكم من جديد. نظر إلى الوراء نحو المزرعة، أمّ الصبيّ ذي النظارات تقوده خارجاً، وهو يمطّ رقبتة كي يلقي نظرة على داتشس. فكّر في فنسنت وستار.

- «هل ستبقين هنا، المدرسة نفسها؟».

- «لدينا امرأة تعمل على قضيّتنا. هذا ما نحن عليه الآن يا ووك: قضية. أرقام، وملفّ. قائمة صفات وأخطاء».

- «أنتِ لستِ رقماً. أنتِ خارجةٌ عن القانون».

- «ربّما كان الدم اللعين من والدي ضعيفاً لدرجة أنّه سرق صفات دم رادلي. أنا لستُ ستار أو هال، أو روبن أو بيلي بلو. أنا مجرد ليلة واحدة، خطأ واحد، ردّ فعلٍ واحد. أنا لستُ أكثر من ذلك».

- «لا يمكنكِ التفكير هكذا».

أدارت ظهرها له، كأنّها تكلم الرمادية. «لن أعرف أبداً مَنْ أكون».

نظر عبر الأرض المتجمدة. كانت هناك مجموعة من الأطباء عند سفح الجبل. «إذا احتجتِ إليّ».

- «أنا أعرف».

- «عليّ قولها رغم ذلك».

- «سألنا ذاك الكاهن العجوز مرّةً بعد القدّاس عن معنى الحياة. الأطفال الصغار، سألنا جميعاً، كلّ بدوره. تحدث معظمهم عن الأسرة والحب».

- «وأنتِ؟».

- «لم أقل شيئاً، لأنّ روبن كان هناك». سعلت. «لكن هل تعلم ماذا قال روبن؟».

هزّ رأسه.

- «قال إنّ الحياة تعني أن يكون لديك شخص يهتمّ بأمرك بما يكفي ليتولّى حمايتك».

- «لديه أنت».

- «وانظر أين انتهى بنا المطاف».

- «لكن تعلمين أنّ هذا ليس...».

رفعت مرّةً أخرى يداً تقول تبا لك.

- «يعتقدون أنّ الرجل الذي أطلق عليه هال الرصاص قد مات».

- «أعرف».

«لن يبحثوا عنه بعد الآن. لقد كان دارك. إنَّهم لا يصدقونني».

سارا معاً عبر الثلج باتجاه الكروزر.

- «أفكر في فنسنت كينغ».

أراد إيجاد الصلة، ستار إلى دارك. لم يستطع.

«تعلمين أنّ هذا ليس ذنبك». قرأ أفكارها جيّداً.

- «بل إنه كذلك، يا ووك. إنَّه ذنبي هذه المرة».

استدار نحوها، كان يودُّ معانقتها، لكنَّها مدَّت يدها فصافحها.

- «لا أعتقد أنني سأراك مجدداً».

- «سأبقى على اتّصال».

- «هل يمكنك ألا تفعل؟». هنا كان أول ارتجافٍ طفيفٍ في

صوتها، وأدارت على إثره رأسها. «اذهب فحسب، وقل لي أن

أكون فتاةً طيبةً أو شيئاً من هذا القبيل، كما اعتدت أن تفعل. بعدها

تمضي في سبيلك، وأمضي أنا في سبيلي. قصتنا صغيرةٌ أيها الرئيس

ووكر. محزنةٌ بما فيه الكفاية، لكنها صغيرةٌ. دعنا لا ندّعي عكس

ذلك».

وقفا في صمتٍ خيم على الأشجار وأرض آل رادلي.

- «لا بأس»، قال لها.

- «و؟».

- «كوني فتاةً طيبةً، يا داتشس».

وضعت المسؤولية عن قضيتهما أحمرَ شفاءٍ أرجوانياً، كان أدكن لونٍ رأته داتشس في حياتها.

كان اسمها شيلي. في شعرها ثلاثة ألوانٍ مختلفة، لم تستطع داتشس أن تقرّر أيُّها اللون الطبيعي. كانت شخصاً مُحبّاً وعطوفاً، تعاملت مع مستقبلهما بالحرص المطلوب، وبكثُ علانيةٍ على الرجل الذي لم تقابله من قبل.

جلسا في المقعد الخلفي لسيارتها الصدئة فولفو 740. علب الكوكا كولا على الأرضية، المنفضة ممتلئةٌ عن آخرها، برغم أنها لم تدخّن أبداً حين كانا في السيارة.

قرب بركة المياه، استدارت داتشس وألقت نظرةً أخيرةً على بيت المزرعة.

- «أنتما بخيرِ هناك يا أطفال؟» قالت شيلي وهي تطحن تروس علبة السرعة، ما جعل السيارة ترتجف في أثناء انتقالها إلى السرعة الثانية.

مدّت داتشس يدها وأخذت يدَ أخيها الصغيرة. لم يقاومها ولم يشدّ على يدها، تركّ يده في يدها فحسب، رخوةً ميتةً. ابتسمت شيلي في المرأة. «لقد كان قدّاساً جميلاً».

قطعوا ميلاً بعد ميلٍ من البياض، امتدَّ الشتاء وقتاً طويلاً جداً حتَّى إنَّهم لم يعودوا قادرين على تذكُّر الخريف. كان الهواء قارس البرودة، وكانت داتشس ممتنةً لذلك. فليتجمد العالم، فليتنزف الألوان كلُّها وتجفَّ حتى تعود اللوحة فارغةً من جديد.

وصلوا إلى بلدة سادلر، صفوفٌ من الممرَّات الأنيقة والمجزوزة العشب.

يقع منزل آل برايس في شارع من منازل متطابقةٍ عمرها عشر سنوات. كان مطلياً بمسحةٍ من المعجون باهتةٍ جداً كأنَّ المطوَّر العقاري خجل أن يفسد مثل هذه الأرضية الجميلة به.

- «ها قد وصلنا. أنتما على ما يرام مع السيد والسيدة برايس؟» سألت شيلي هذا السؤال مراراً.

- «نعم»، قال روبن.

- «وهنري وماري لو؟».

طفلاً عائلة برايس، كانا قريبين منهما في العمر، لكنَّهما من عالم آخر. مهذبَّان جداً أمام والديهما، لكنَّ داتشس سمعتهما يتحدثان فيما بينهما عن هال وما حدث، وكيف أنَّ عليهما ألاَّ يقتربا من الفتاة لأنَّ الشائعات تقول أنَّها طاردت رجلاً وأطلقت النار عليه. ومَن هي الفتاة التي قد تفعل شيئاً كهذا.

من الواضح أنَّه كان مبالغاً في حمايتهما، فلا مجال لهما ليعرفا الخارجين عن القانون.

- «إنَّهما على ما يُرام»، قالت داتشس.

تبادلوا العناق وكلمات الوداع. قادت داتشس روبن عبر الممرِّ إلى منزل آل برايس. انتظرتُ شيلي حتَّى فتح السيد برايس الباب، ثمَّ لوَّحت مرَّةً أخرى وغادرتهم.

ذهبت داتشس لتساعد روبن في خلع حذائه، لكنه ابتعد عنها وفعل ذلك بنفسه.

لم يقل السيد برايس شيئاً، ولم يسأل عن الجنازة، أدار ظهره فحسب، وتركهما وشأنهما. لم تكن داتشس تستطيع أن تدعي أنه قد أُسيئت معاملتهما، بل كانا متروكين فحسب. كانا يأكلان في أطباقٍ مختلفة، ويشربان في أكوابٍ بلاستيكية بدلاً من الزجاج. كانا يُتركان مع التلفاز في غرفة اللعب بينما عائلة برايس مجتمعة في غرفة المعيشة. كانا هناك من دون أن يكونا هناك.

لحقت داتشس بروبن إلى المطبخ، رفوفٌ بيضاء ورخامٌ، بطاقات تقارير هنري على الثلاجة، وعملٌ فنيٌّ لماري لو مؤطرٌ ومعلقٌ فوق طاولة الطعام. وقف روبن عند الباب، ونظر إلى الخارج نحو الفناء الخلفي. كان رجل الثلج ضخماً، وكان السيد برايس وهنري يدحرجان المزيد والمزيد من كرات الثلج.

عبرت السيدة برايس وماري لو الثلج بمساعدة العصي، ثم قامتا بتكسيروها بأطوالٍ مناسبةٍ للذراعين. قال هنري شيئاً ما فضحكوا جميعاً.

- «هل ترغب في الخروج؟»، قالت داتشس.

في تلك اللحظة، نظرت السيدة برايس إلى الأعلى فرأتها، ثم عادت لتهتم بشؤونها. وضعت ذراعاً حول ماري لو؛ ذراع حماية وتشبُّث.

عرفتهم كانت العليّة المُعاد تأهيلها. لحقت داتشس بروبن على السلالم. كان لهما حمّامٌ صغيرٌ خاصٌّ بهما، مغسلةٌ، وحوض استحمام، وفرشاة أسنانٍ داخل كوبٍ. وعلى رفٍّ صغيرٍ مجموعة مهترئة من كتب المغامرون الخمسة ومختاراتٍ من مجموعة دكتور سوس.

- «هل تريد تغيير ملابسك؟».

استلقى فوق سريره وتدحرج مبتعداً حتّى لا تراه يبكي.
ارتجفت كتفاه قليلاً فذهبت وجلست بجانبه. حين وضعت يدها فوق
ذراعه أبعدها عنه بعنف.

- «ما كان عليكِ حتى أن تحضري اليوم. كنتِ تكرهين جدّي.
حتّى عندما كان لطيفاً، فقد قلتِ له أشياءً لئيمةً لأنك لئيمةٌ فحسب
على الدوام».

حدّق في الكوّة فوقهما، كان الثلج ينحرف عن حوافّها. كان
هذا الملجأ المستعار كلّ ما يبقيهما بعيداً عن البريّة.

- «أنا آسفةٌ»، قالت له.

- «هذا ما تقولينه دائماً».

لكزته في ضلوعه. لم يتسم.

- «هل تريد قراءة كتاب؟».

- «لا».

- «هل تريد أن نرمي كرات الثلج على وجه ماري لو؟ يمكنني
أن أصنع الكرات من الجليد الخالص».
شبه ابتسامة.

- «أو يمكنني النيل من السيد برايس بإحدى الكرات وأكسر له
سنّاً. أو أطعن السيّد برايس برمح جليد. أو ربّما يمكننا جعل
هنري يأكل ثلجاً أصفر».

- «كيف تصنعين ثلجاً أصفر؟».

- «تتبوّل فيه».

ضحك عندئذٍ. فشدّته إليها.

- «هل سنكون بخير؟».

- «نعم».

- «كيف؟» .
- «سوف —» .
- «أنتِ لا تستطيعين الاعتناء بنا، ولا أعتقد أنَّ السيد برايس يريدنا هنا» .
- «هم يحصلون على ألف ومئتي دولارٍ كلَّ شهرٍ مقابل رعايتنا» .
- «إذاً ربَّما سيحتفظون بنا من أجل كلِّ تلك الأموال» .
- «لا . هذه مجرد رعايةٍ مؤقتةٍ، تذكَّر ما قالته شيلي . ستحاول أن تعثر لنا على عائلةٍ محترمةٍ تبقى معها إلى الأبد» .
- «مع مزرعةٍ وحيواناتٍ؟» .
- «ربَّما» .
- «ويمكننا أن نشر رماد جدِّي قريباً» .
- «حين يتَّصلون بشيلي» .
- «إذاً سنكون بخيرٍ بعد ذلك . سيكون كلُّ شيءٍ على ما يُرام» .
- قَبَلْتُ رأسه . لم تكن تحبُّ أن تكذب على شقيقها . في الحَمَّام عثرت على مقصٍّ صغيرٍ فقَصَّصْتُ له أظافره . «كان يجب أن أفعل هذا من قبل» .
- راقبها وهي تفعل ذلك . «تبدلين مثل ماما مجدِّداً . يجب أن تأكلي» .
- قلبتُ عينيها . ابتسمَ لها .
- في تلك الليلة تناولا البطاطس المهروسة والنقانق معاً في الغرفة الصغيرة أمام التلفاز . كانا ما يزالان في ثياب الجنازة .
- «هي تعرف كيف تطبخ على الأقل» ، قال روبن وهو يأكل ،
- «يمكنني أكل اثنتين من هذه النقانق» .
- همَّت داتشس بتقسيم قطعة النقانق خاصَّتها ووضعها على

طبقه، لكنه دفع يدها بعيداً. «ليس قطعتك. أنتِ في حاجةٍ لتناول الطعام أيضاً». - «سأذهب لأرى إن كنتُ أستطيع الحصول على قطعةٍ أخرى لك».

حملتُ صحنها وسارت ببطءٍ في الردهة، فيما بقي روبن في مكانه، وكانت الرسوم المتحركة تُعرض على الشاشة. على الحائط كانت هناك صورٌ عائليةٌ، واحدةٌ في ديزني مع هنري وماري لو يرتديان أذني الفأرة، وواحدةٌ في مركز كينيدي للفضاء، وأخرى في غراند كانيون حيث ارتدى السيد برايس وهنري قبعتي بيسبولٍ متطابقتين.

كُتب على إحدى الصور، بوركت هذه الفوضى، كانت هذه صورةً كاريكاتوريةً للسيدة برايس بجانب الماء، وابتسامتها أكبر بكثيرٍ مما رأته داتشس يوماً.

توقَّفتُ عند باب المطبخ وسمعتهم على طاولة الطعام، السيد برايس يسأل ماري لو عن اختبارها، ثم هنري عن البيسبول. انتظرت حتى بدأ هنري يتكلَّم ثمَّ تسلَّلت إلى المطبخ. - «داتشس».

التفتتُ. خيَّم الصمت فيما كانوا ينظرون إليها. - «أنا فقط... لقد أحبَّ روبن النقانق لذلك فقد كنت أبحث له عن قطعةٍ أخرى».

- «نفذتُ جميعها»، قال السيد برايس. - «أوه».

نظرت إلى طبق ماري لو ورأت أن لديها ثلاث قطع. استدارت داتشس وتركتهم، غرزت الشوكة في قطعة النقانق خاصَّتها وحملتها عائدةً، ثمَّ أعطتها لروبن.

- «هل أكلتِ طعامكِ بالفعل؟»، قال لها .

- «نعم . لقد كان لذيذاً» .

- «قلتُ لكِ» .

عندما نام كلُّ مَنْ في المنزل، نزلت السلالم بصمتٍ ودخلت مكتب السيد برايس . كان خشباً بالكامل، أكداًسٌ أنيقةٌ من الكتب عن التمويل والعملات . بحثت عن «فنسنت كينغ» على الكمبيوتر، وقرأت كلَّ ما استطاعت قراءته عن القضية . أربكها أنَّ فنسنت لم يقرَّ بذنبٍ وأنَّه لم يحاول إنقاذ حياته، في الوقت الذي كان ذنبه واضحاً إلى هذه الدرجة . قالت الصحف إنَّه لم يتكلَّم بعد، ليس خلال الجلسة التمهيدية، كما أنَّه لم يعيَّن محامياً .

كانت المدَّعية العامة بارعةً، ستقف وتقاتل في صفِّ ستار رادلي ویتیمها . ذاك الطفلان المسكينان .

دارت حول المكتب بسرعةٍ حين سمعت شخصاً يتحرَّك عند الباب .

- «لا يفترض بك أن تكوني في مكتب والدي» .

ماري لو . موفورة الصحة، شعرها مسرَّح من قِبَل السيدة برايس كلَّ يوم، بشرتها منقَّطةٌ بحَبِّ الشباب . كانت في الخامسة عشرة من عمرها، وفكرت داتشس في أنَّها كانت تلك الفتاة التي سترتدي يوماً خاتم العفة قبل أن تفقدها في المرة الأولى التي تشرب فيها الكحول .

- «كان عليَّ استخدام الكمبيوتر» .

- «يجب عليَّ أن أخبره» .

حمَّلت داتشس صوتها بخوفٍ طفوليٍّ . «أوه، من فضلك لا تخبري بابا عني» .

- «ينبغي بك أن تنتبهي لتصرفاتك».
- «والأ؟».
- «هل تظنين أنكما أول طفلين نستضيفهما هنا؟».
- حدّقت داتشس بها.
- «سمعتكِ تتحدّثين إلى أخيك. هل تعتقدين حقاً أنكما ستحصلان على عائلة ترعاكما؟»، ضحكت ماري لو.
- «ولم لا نحصل عليها؟».
- «حسنٌ، قد يفعل روبن. إنه صغيرٌ بما يكفي، ومهذبٌ بما يكفي. لكنني سمعتُ أبي يتحدّث عنك، وعن مشاكلك الكثيرة، مَنْ قد يريدك؟».
- تقدمت داتشس خطوةً إلى الأمام.
- تقدمت ماري لو خطوةً هي الأخرى. «تريدين ضربي، أليس كذلك؟ مهاجمة الآخرين. هذا ما يُجيد أمثالك فعله».
- شدّت داتشس قبضتها.
- «اضربيني إذاً»، قالتها مع ابتسامةٍ، كانت تعرف ما الذي تفعله.
- شعرت داتشس بالأدرينالين يتدفّق، والنيران تتقد. ثم نظرت إلى الخلف، إلى شاشة الكمبيوتر. مرّت بذهنها صورة مسرح الجريمة في تلك الليلة، المنزل الصغير على طريق آيفي رانش، جلبه الجيران والمراسلين. والصورة الأخرى، قسم شرطة كيب هيفن. ووك يبتسم. الأمر الذي كان يذكّرها بالأشياء الجيدة.
- تجاوزت ماري لو، أخذت نفساً، وصعدت السلالم.

استيقظ ووك وهو جالسٌ إلى طاولة مكتبه، حيث وجدت أشعة الشمس طريقها إلى الأوراق المبعثرة.

عانى ليعدّل جلسته، فقد كان الألم شديداً لدرجة أنه كاد يصرخ. وجد حبوباً في درجه فابتلع حبتين من دون ماء.

كان قد طلب من ليا بنظالاً جديداً، وقميصاً، وسترةً. أخبره الميزان أنه فقد خمسة وعشرين رطلاً.

طرقَ على الباب، لم يعرف كم من الوقت استمرّ، لكن كان هناك شيءٌ يوحي بالذعر فيه.

وقف على قدميه مترنحاً، جرّب أن يمدّد أطرافه لكنّه كاد يتقيأ من الألم. أخذ نفساً عميقاً، خرج من مكتبه، واسترخى قليلاً عندما رأى أنه كان إيرني كوغلين فحسب، من دكان الأدوات المنزلية.

- «صباح الخير». فتح ووك الباب له، لكن إيرني لم يتجاوز العتبة.

- «الجزار. أين هو؟»، صاح إيرني ويدها محشورتان في مئزر بنيّ.

حاول ووك أن يتجاوز الارتباك.

- «الجزّار»، كرّر إيرني، «لقد تجاوزت الساعة السابعة الآن.

هو يعود من الإجازة في اليوم نفسه من كل عام، لماذا لم يفتح المحل؟».

- «الصيد. الرماية، أليس كذلك؟ ربّما أخذ يوماً إضافياً». «الوغد الأحق، إنّه يطارد الديوك الرومية في كل مكان. اثنان وعشرون عاماً يا ووك. منذ أن أخذ المهنة من والده. لاثنين وعشرين عاماً اشتريت منه نقانق الإفطار. أنا آخذها على الطريق وروزي تقوم بإعدادها. ثلاث فطائر، عصير، كوبان من القهوة القوية».

- «ألا يمكنك أكل النقانق التي تشتريها روزي؟».

نظر إليه إيرني بما يشبه الازدراء.

- «هل تقرأ الجرائد؟ منازل جديدة على أطراف البلدة. سوف يدمّرون هذا المكان. أفترض أنك ستصوّت ضدّ هذا». «أوماً ووك برأسه، تشاءب، ثمّ دسّ قميصه داخل سرواله. سأذهب لرؤيته».

هزّ إيرني رأسه، ثم استدار وغادر.

عاد ووك إلى مكتبه، اتصل بميلتون لكن الاتصال تحوّل إلى المجيب الآلي. ثم عاد مباشرة إلى مشاهدة أشربة المراقبة من سیدار هايتس. موسز، الرجل عند البوابة، كان قد سلّمه إياها من دون الكثير من القتال، فهو لم يطلب أيّاً من الوثائق التي لم تكن بحوزة ووك.

لم تكن هناك أيّ حركة تقريباً، لكنّ جودة الصورة كانت سيئة للغاية لذلك اضطرّ للتركيز بشدة في حال مغادرة أي أحد سيراً على الأقدام. لم يكن يعرف التوقيت بالتحديد، لذا عمل على أيام من التسجيلات. شاهد اليوم يمر، ساعي البريد، الجار مع سيارته الفرد.

مرّت ساعةٌ أخرى قبل أن يرى شيئاً ما. أبطأ التسجيل، وأعاده ثلاث مرات. كان يعرف الشاحنة القديمة جيداً، الكومانشي. حدّق بإمعانٍ، وكان بإمكانه تحديد شكل الملصق على المصدّ، ظلّ غزالٍ أسودٍ الذيل. ميلتون.

راقب باهتمام ارتفاع حاجز البوّابة، ثم أكمل البحث ببطءٍ شديدٍ. بعدها بثلاث ساعاتٍ، كانت زاوية الرؤية أسوأ عندما غادر. لكن لم يكن هناك شكّ في أنها كانت الشاحنة نفسها.

مرّت ثلاث ساعاتٍ أخرى قبل أن يرى سيارة قريبة الشبه بما يكفي بسيارة الرجلين اللّذين كانا يبحثان عن دارك.

عشر دقائق، وشاهدهما يغادران.

استغرق الأمر منه تسع عشرة دقيقةً حتّى تمكّن من الوصول إلى بويد عبر الهاتف، لكنّه استغرق دقيقتين فقط لرفض هذا الأخير طلب ووك إصدار مذكرة تفتيشٍ لمنزل دارك. أتى ووك على ذكر الرجلين اللّذين يبحثان عن دارك، وشعر أنّه أبلهٌ مبتدئٌ عندما سأله بويد عن أرقام اللوحات، إذ لم يتمكّن ووك من الحصول على قراءة واضحة. حين أغلق الخطّ، فكّ ووك ربطة عنقه، ثمّ مال فوق الطاولة، وأخذ يضرب رأسه بها بقوةٍ كافيةٍ ليتأذى.

- «أشعر أنّه يجب أن أتدخّل هنا».

نظر إلى الأعلى، فرأى مارثا، وتدبّر أن يرسم ابتسامةً. كانت تحمل حقيبتها المليئة بالملفات.

- «هل لديك أيُّ شرابٍ في هذا المكان؟». أجلسَتْ نفسها على الكرسي المقابل.

مدّ يده إلى الدرج السفلي وسحب زجاجة ويسكي كنتاكي أولد ريزرف، وهي هديّةٌ من إحدى المصطافات مقابل أن يتفقّد منزلها

خلال أشهر الشتاء. عثر على فنجاني قهوة، وسكب القليل في كلٍّ منهما.

راقبها وهي تشرب، وانتظر ذاك التورّد الخفيف الذي تسلّل إلى خديّها، التورّد نفسه الذي كانت تحصل عليه حين تغضب أو تتحمّس. مارثا ماي، كان ما يزال يعرف كلّ شيء عنها.

- «لم أحصل على شيء»، أعلنت بجلبةٍ مبالغٍ فيها.

- «قطعت كلّ المسافة إلى هنا لتخبريني بذلك؟».

- «لربّما أردتُ رؤيتك؟».

ابتسم. «حقاً؟».

- «بالطبع لا. لقد أحضرتُ لك طبقاً». فتحت حقيبتها

وسحبت وعاءً بلاستيكيّاً لحفظ الطعام.

- «هل أتجرأ على السؤال؟».

- «بعض بقايا المعكرونة فحسب».

- «و؟».

- «لا شيء».

رمش، وانتظر.

- «بعض الكوبانيل»، قالت أخيراً، «بعض الفلفل المقلي

الضعيف. أنت في حاجة لتناول الطعام يا ووك. أصبحت نحيفاً للغاية. أنا قلقةٌ عليك».

- «أقدّر لك ذلك».

وقفت وأخذت تذرّع الغرفة جيئةً وذهاباً فيما هي تخبره بأشياء

يعرفها بالفعل، ثمّ جلست مجدداً. أخبرها حينها عن دارك وأشرطة المراقبة.

- «ونظريّتك هي؟».

فرك رقبته. «ليست لدي نظرية، ليس بعد، أريد أن ألقى نظرة داخل منزل دارك. وأريد أن أعرف لمن يدفع كل هذه الأموال. إن لم أتمكن من النيل منه لأجل هال، أو ستار، فعلى أقل تقدير أريده خارج الميدان».

- «إن كان هو الشخص نفسه في مونتانا، فهناك احتمال أن يكون ميتاً».

- «فلنضعه هناك وسوف نتمكن من ربطه بستار. لربما سمع الصبي شيئاً، ودارك يريده ميتاً. يمكننا استخدام هذه الحجة. أحتاج فقط إلى زاويتي الصحيحة، الزاوية التي أنظر بها إلى الأمر».

- «ماذا عن الدفوعات البنكية؟».

- «اتصلت بالمدير، لن يقول أي شيء دون أمر من المحكمة. ليس هذا مفاجئاً».

- «عليك أن تستهدف شخصاً في مستوى أدنى قليلاً في فرست يونيون. صرافاً ربّما».

رفع حاجبه.

- «ماذا، هل تظن أنني لا أعرف كيف أحتال؟ لقد تمكنت من كل أولئك الآباء السيئين الذين يخفون دخولهم وأموالهم. أنا أذهب إلى المصدر مباشرة».

- «وهذا يُجدي نفعاً؟».

- «ليس دائماً، لكنني أطلب خدمات، وأقدم خدمات أيضاً. إنها حياة المحامي. أنت تعرف البلدة كلها يا ووك. لا بد من وجود شخص يمكنك الاعتماد عليه».

مشى نحو مين، مطأطأ الرأس، تجاهل التحيات، وتوقف فقط عندما قطع أليس أوين عليه الطريق والكلبة بين ذراعيها.

- «هل يمكنك أن تنتبه لها لحظة يا ووك. عليّ أن أسرع إلى —».

- «يجب أن أكون في مكانٍ ما».

- «دقيقة واحدة حرفياً». دفعت الكلبة إليه، الكلبة اللقيطة اللعينة، ثمّ اتّجهت إلى براندت ديلي. نظر إليها وهي في الداخل، تجري حديثاً مع الفتاة خلف المنضدة، ولا شكّ في أنّها كانت تطلب نوعاً من فطائع فول الصويا من الماكينة الجديدة فيما كانت تتفاوض حول الأجبان المسعّرة بعشرين دولاراً.

أخفض رأسه ونظر إلى الكلبة، تمعّن في أسنانها العارية، ثمّ مجدّداً إلى أليس التي صادفت بري إيفانز، وكانت تتحدّث إليها بحماس.

ومن ثمّ نظر إلى شارته، وفكّر في أيّامه، أيّامه اللعينة التي لا روح فيها.

أنزل الكلبة، فكّ طوقها، ثمّ رماها في سلّة المهملات بقربه. نظرت الكلبة الهجينة إليه، والارتباك يملأ عينيها المنتفختين. ثمّ تشرّبت البريّة المحيطة بحذر، وتركت للحيوان داخلها أن يقوم بتوجيهها، وبدأت تهوّل وتشقّ طريقها نزولاً عبر مين.

غادر ووك. مرّ عبر قطعة أرضٍ شاغرة، ذلك يديه وحاول تقويم ظهره. هذا ما كانت عليه حاله الآن. الجانب الخاص به من العالم. الأدوية. صعوبة التركيز على أي شيء. البطء.

وقف خارج المنزل الصغير وأخذ يحدّق به. لم يرَ الرجال يعملون، لم يعرف حتّى أنّ المكان القديم قد أُعيدَ تأهيله. تذكّر الأمر وهو يقرأ محاضر التحقيق للمرة المئة، بعد مغادرة مارثا بحوالي ساعة.

دي لين.

كانت قد التقتُ بدارك في البنك، فرست يونيون، حيث عملت صرّافَةً وقتاً طويلاً. اتّصل بليا حين أدرك أن ليس لديهم تحديثٌ لعنوانها، وشعر بقلبه قد غار داخل صدره حين أخبرته ليا أن دي ما تزال تعيش في المنزل الواقع في جادة فورتونا، وهو المنزل نفسه الذي يملكه دارك وكان قد قدّم إنذار الإخلاء بشأنه.

لكنّه لم يعد ذاك المنزل المهلهل؛ نوافذ جديدة، شرفة جديدة، الخشب مدهونٌ حديثاً والطلاء يلمع، وفي الفناء عشبٌ جديدٌ وزهورٌ، بوّابةٌ، سورٌ، زهوٌّ وتيةٌ عوضاً عن اليأس.

قابلته عند الباب قبل أن يتمكّن من طرده. ابتسمت ابتسامةً صغيرةً ووقفت جانباً، فدلّف ووك إلى داخل المنزل.

من الداخل كان المنزل في معظمه على الحال نفسه، وبدلاً من الصناديق الكرتونية، رأى حياةً قد أُفرِغت من الصناديق والحقائب، وقد عادت الصور والمفروشات إلى أماكنها من جديد. ذهبت لتحضير القهوة. سأل إن كان في وسعه دخول الحمام، وصعد السلالم إلى الطابق العلوي. رأى غرفة الفتاة الكبرى، علّق فيها علّم جامعة ييل، وهو أمر سابق لأوانه، لكنّه سمع أن الفتاتين كلتيهما كانتا ذكيّتين. ثمّ رأى غرفة الفتاة الصغرى، كانت مطلّيةً باللون الوردي، وعلى السرير هناك ملاءاتٌ جديدةٌ. ليس هناك إشاراتٌ على ثراءٍ فاحشٍ، لكن كان هناك جهاز تلفزيونٍ جديدٌ وكمبيوترٌ. في العادة كان ووك يتذكّر اسمي الفتاتين، لكنّ ذلك كان بعيداً عن متناوله الآن.

عاد إلى الأسفل، فاصطحبته دي إلى الفناء حيث جلسا إلى طاولةٍ صغيرةٍ.

- «أنا أعرف ما الذي تفكّر فيه»، قالت له.
- «أنا سعيدٌ فحسب لأنّ دارك سمح لك باستعادة منزلك

القديم . اعتقدتُ أنه سيكون قد هُدم الآن إفساحاً في المجال للملايين وما إلى ذلك» .

ارتشفت قهوتها ، وتفرَّجتُ على منظر مياه المحيط كأنه شيءٌ جديدٌ بالكامل ، وليس منظرًا قد انكشف حديثاً فحسب .

- «يا له من منظرٍ» .

- «هو كذلك بالفعل . أكاد لا أصدق ما أرى عندما أستيقظ باكراً جداً الآن ، حوالي الساعة الخامسة . أحب مشاهدة غروب الشمس ، هل رأيته فوق الماء ، يا ووك؟» .

- «بالتأكيد» .

أشعلتُ سيجارةً ونفختها كأنها كانت كلَّ ما يمنعها من الصراخ . كان يعرف ما فعلته ، كانت تعرف ذلك ، ومع ذلك ما تزال هناك أسطرٌ لقولها ، في تمرينٍ على أكثر المسرحيات إرهاقاً .

- «إذاً ، كنتِ مع دارك في تلك الليلة . الليلة التي تمَّ فيها إرداء ستار» .

جفلت دي لدى سماعها ذلك ، وكأنه لم يكن من الضروري قوله . «لقد خضنا في هذا من قبل» .

- «لقد فعلنا» .

- «تبدو متعباً ، يا ووك» .

ثَبَّتَ يده المرتعشة ، دفنها تحت الطاولة ، وخلع نظارته الشمسية مع ظهور السحب في السماء .

- «كان هنا تلك الليلة . ماذا كنتما تفعلان؟ ذكّرني» .

- «نتضاجع» . قالتها مجردةً من العواطف .

قبل فترةٍ كان سيحمرُّ خجلاً . لكنَّه ابتسم بدلاً من ذلك ابتسامةً حزينةً ، وفهم الأمر . لم يكن هناك ضغينةٌ .

- «لقد عملتُ طوال...»، حبستُ الدخان عميقاً، «دفعْتُ الضرائب، ورَبَّيتُ طفليَّ، لم أقتل زوجي الخائن، لم آخذ أي شيءٍ من أيٍّ أحدٍ».

ارتشف قهوته، كانت ساخنةً جداً لِيتمكَّن من تحسُّسِ طعمها.

- «أتعرف كم أجنبي في السنة يا ووك؟».

- «ليس ما يكفي».

- «إنَّه لا يدفع إعالة الطفلتين. هل هذا عدلٌ؟ هو يخبئ كلَّ شيءٍ حتى لا يضطر للدفع للفتاتين اللَّتين جاء بهما إلى هذا العالم».

أطرقت برأسها، ثمَّ قالت، «طفلاً رادلي. هل هما —».

- «والدتهما ميتة».

- «يا يسوع، ووك»، مرَّرتُ يدها في شعرها. كان معصماها

هزيلين، وعروقهَا نافرةً. «أنت تجعل الأمر أصعب ممَّا يجب أن يكون. الرجل المطلوب لديك بالفعل، أليس كذلك؟».

- «أنتِ لم تفكري في السؤال عن مكان وجود دارك حقاً في

تلك الليلة».

أمالت رأسها للخلف. كان فمها مفتوحاً بعض الشيء بينما

كانت تنفث الدخان بعيداً.

- «هل حصلتِ على ما يضمن أمنكِ على الأقل؟».

- «لا أعرف ماذا تقصد». التفتُ عيناه بعينيها الدامعتين.

- «يمكنني أن أستدعيكِ، وأن أجعلكِ شهادين. هل تعلمين ما

هي عقوبة شهادة الزور؟». ربَّما كان يمكنه إثبات أنَّ دارك قد

كذب، لكن ذلك لم يكن ليعني شيئاً، ليس فعلاً، ليس من دون ما هو أكثر من ذلك.

أغمضت عينيها. «ليس هناك عائلة، الفتاتان وأنا فقط، لا أحد

آخر على الإطلاق».

ما كان ليفرّق بين أمّ وطفليتها . كانت الخسارة فادحةً جداً ،
عرف ذلك جيداً من التحدّث إلى هال ومشاهدة حال داتشس
وروبن .

- «أحتاج منك شيئاً ، معروفاً ، قد لا يؤدي إلى شيءٍ ، لكنني
بحاجةٍ إليه» .

لم تسأل ما هو ، بل أومأت برأسها فحسب .
مدّ يده ولمس يدها ، وأمسكتُ بها بقوةٍ ، كأنّها لا تريد تركها ،
كأنّها قادرةٌ على انتزاع الغفران منها .

كانت تنام نوماً هو الأكثر سطحية كلَّ ليلة منذ وصولها إلى هنا، لذا هبَّت على قدميها بسرعة عندما سمعت صوت النقر، وارتدتُ سترَةً وسروال جينز. كان روبن نائماً بعمقٍ قربها، متَّخذاً وضعية الجنين التي اعتاد عليها في غرفة العائلة في مستشفى فانكور هيل.

عند النافذة، أشارت بيدها، ثمَّ انتعلتُ حذاءها الرياضي، وتسلَّلتُ إلى أسفل السلالم، وخرجت إلى الليل البارد. كان يرتدي وشاحاً وقبَّعةً صوفيةً، ودراجته مسندةً عند البوابة. - «اللعة، توماس نوبل. تلك كانت نافذة ماري لو التي قذفتها بالحجارة».

- «آسف».

- «ما المسافة التي قطعتها؟».

- «غادرتُ وقت العشاء، وأخبرتُ أمِّي أنني سأنام عند أحد الأصدقاء».

- «ليس لديك أصدقاء».

- «لقد بدأتُ أتسكَّع مع والت غورني».

- «ذاك الفتى ذو العين؟».

- «إنها مُعديةٌ فقط إن لمستها».

كان يرتدي معطفاً سميكاً لدرجة أن جسده بدا ملفوفاً بالإطارات.

تحرّكا نزولاً عبر الفناء الطويل. كانت هناك بركة أسماكٍ صغيرةٍ خلف الأشجار العارية. كان روبن قد جلس قربها ساعةً قبل أن تخبره السيدة برايس أنها لا تحوي على أسماكٍ.

جلسا على مقعدٍ حجريٍّ تحت نصف قمرٍ وأعشاشٍ تلمع بضوء النجوم.

- «يجب أن ترتدي قفازاتٍ عاديةً. حتى روبن لا يرتدي قفازاتٍ كهذه».

مدّ توماس نوبل يده، أخذ يدها ونفخ عليها ليدفئها، ثم استعدّ ليتلقّى العقاب، لكنّها لم تقل شيئاً.

- «لقد ظهرت في الصحيفة. كلُّ تلك الأشياء التي حدثت. احتفظت بالقصاصات».

- «رأيتُ كلَّ شيء».

- «أتمنّى أن تعودني إلى المدرسة».

نظرةً إلى المنزل النائم، منزل الجيران المجاور. هم يستيقظون، يذهبون إلى العمل، يدفعون الفواتير، يأخذون إجازاتٍ. كان قلقهم بشأن المعاشات، ونفقات التقاعد، وأيِّ سيارةٍ سيشترون، وأين سيمضون عيد الميلاد.

- «لقد أحببتُ هال. أعلم أنّه كان مخيفاً وما إلى ذلك لكنّي أحببته كما هو. أنا آسفٌ حقاً من أجلك، يا داتشس».

كوّرت الثلج في يدها حتّى آلمتها عظامها. «أحاول أن أحدّد خطوتي الآتية، أن أستعيد أنفاسي. لا أستطيع أن أفسد الأمر، هذا

ما أعرفه. تلك الفتاة، ماري لو... أودُّ أن أقطع رأس تلك اللعينة».

شدَّ توماس نوبل قَبَعته للأسفل كي تغطّي أذنيه جيّداً.

- «يجب أن أعود إلى كيب هيفن. لقد قطعْتُ وعداً لروبن بأنني سأجد لنا منزلاً إلى الأبد هذه المرة. هذا كلُّ ما يهتمُّ بالنسبة إليه».

- «سألتُ والدتي إن كنتِ تستطيعين العيش معنا ولكن —». لوَحَتَ بيدها مستهزئةً. «بالحال الذي هي عليه مع ساعي البريد، فمن المحتمل أن يكون لديك شقيقٌ قريباً جداً».

عبس.

- «أنا لستُ بحاجةٍ إلى أحدٍ... ولكنْ أخي، إنه مجرد طفلٍ حقاً. هل تعتقد بوجود تصرُّفاتٍ إثارية حقيقية، توماس نوبل؟».

- «بالتأكيد. مرافقتك لي إلى الحفل الشتوي الراقص».

ابتسمتُ.

- «من بين كلِّ الفصول، أحبُّ الشتاء أكثر. وأعتقد أن لدينا منه الكثير هنا في مونتانا».

- «لماذا؟»

رفع يده المصابة، كان القفاز يغطيها بالكامل.

- «لهذا السبب ترتدي القفازات».

- «نعم».

- «كان ثمة خارجٌ عن القانون، ويليام دانغس، قنَّاصٌ لا يُشقُّ له غبارٌ، سطا على ثلاثة بنوكٍ قبل أن يقبضوا عليه. كان بذراعٍ واحدةٍ، نزولاً من مستوى الكتف، لم يكن هناك أي شيء».

- «حقاً؟»

- «نعم». في تلك اللحظة شعرت بالسعادة لأنه لم يكن يعرف قصصها.
- بدأت ترتجف.
- خلع معطفه ولقَّه حول كتفها.
- بدأ يرتجف.
- «قد يرسلوننا إلى مكانٍ بعيدٍ. إن حصلنا على أيِّ أحدٍ على الإطلاق، فقد يكون في أيِّ مكانٍ في طول البلاد وعرضها».
- «سأقود إلى هناك، لا يهمُّ أين».
- «أنا لستُ بحاجةٍ إلى أحدٍ».
- «أعرف ذلك. أنتِ أعند فتاةٍ قابلتها على الإطلاق، وأنتِ الأجل أيضاً، وأنا أعلم أنَّك ستقومين بضربي على الأرجح، لكنني أعتقد أن عالمي بات أفضل بما لا يُقارَن، لأنَّكِ أصبحتِ فيه. قبل ذلك كان عالمي عبارةً عن أطفال يضحكون، ويشيرون، ويتهايمسون عليَّ فحسب. لكن ليس الآن. وأنا أعرف —».
- قُبِّلته عندئذٍ. قُبِّلتها الأولى، والأولى بالنسبة إليه كذلك. كانت شفتاه باردتين، وأنفه بارداً على وجنتها. كان مذهولاً لدرجة أنه نسي أن يقبِّلها بالمقابل. قطعَتْ داتشس القبلة، واستدارت عائدةً إلى البركة المتجمدة.
- «اخرس»، قالت له.
- «لم أقل شيئاً».
- «كنتُ على وشكِ ذلك».
- تنفَّسا الضباب.
- «كان هال يقول نبداً حيث النهاية».
- «أين نحن الآن إذآ؟».

- «لستُ واثقةٌ أنَّ لذلك أهميَّةً».
- «أينما كان، آمل أن نستطيع البقاء هنا وقتاً أطول قليلاً».
- أمسك أحدهما يد الآخر بعض الوقت، ثم نهضا ومشيا عائدين عبر الفناء. في المنزل كانت هناك حقيبتها، وشقيقتها، وكانت لا تملك شيئاً آخر في هذا العالم. لم يكن في وسعها أن تقرر إن كان هذا يجعل منها حرَّةً أو مصابةً بلعنةٍ رهيبَةٍ.
- سحب توماس نوبل درَّاجته عن البوابة، ونفض الثلج عنها.
- «كيف عثرتَ عليَّ؟»، قالت وهي تعيد إليه معطفه.
- «كانت والدتي تتحدَّث إلى المسؤولة عن قضيتكما».
- «صحيحٌ».
- ركب الدرَّاجة.
- «مهلاً. لماذا أتيتَ إلى هنا الليلة؟».
- «أردتُ أن أراك».
- «ماذا أيضاً؟ أستطيع أن أقرأك، أخبرني».
- «أنا أبحث عنه، دارك. كلَّ يوم بعد المدرسة أتوجَّه إلى مزرعة آل رادلي وأذرع الغابة سيراً على الأقدام».
- «قد تعثر على جثَّة».
- «أنا بالتأكيد آمل ذلك».
- دفع الدرَّاجة حتَّى نهاية ممرِّ منزل آل برايس. لحقَّت به إلى الشارع. صناديق البريد تصطفُّ أمام المنازل بأناقةٍ، وعلى كلِّ منها كُتِب اسم عائلةٍ. كوبر، لويس، نيلسون. أحبَّ روبن قراءة الأسماء كي يرى نفسه داخل أحدها.
- «توماس نوبل».
- توقَّف، استند على قدمٍ واحدةٍ، ونظر إلى الخلف من فوق كتفه. رفعت يدها.

رفع يده.

حين عادت إلى غرفتهما، وجدت روبن يبكي بحرقه، منزوياً إلى الحائط ورأسه بين يديه.

- «ما الأمر؟».

- «أين كنتِ؟»، قال بين شهقة وأخرى.

- «جاء توماس نوبل إلى هنا».

- «السريّر».

نظرت إلى الملاءة المكوّرة.

- «السريّر مبلّل»، قال وهو مشّت الذهن، «رأيتُ حلمًا عن تلك الليلة، سمعتُ أشياء، سمعتُ أصواتًا».

اقتربت منه وقبّلت رأسه. ثمّ ساعدته في خلع سرواله وقميصه، ووضعتُه في حوض الاستحمام وغسلته.

حين انتهت، ألبسته بيجاما نظيفةً ووضعتُه في سريرها. كان قد نام في الوقت الذي بدأت فيه تنظف الفراش.

استلقى ووك في سريره وهو يتصارع مع الحقائق التي بات يعرفها بالفعل. كان ديكي دارك قد كذب بشأن حجة غيابه في الليلة التي قُتِلَتْ فيها ستار. لقد زاره ميلتون، وربما ذهب الاثنان إلى الصيد لكنّ ووك لم يصدّق الأمر. كان ميلتون مفقوداً، مرّ ووك بمنزله ووجده غارقاً في الظلام. لم يكن هناك أحدٌ يمكن سؤاله عنه، لا فندق ولا أيّ شيءٍ آخر. كان ميلتون يقوم بالتخييم، يطارد ويصطاد، وينتقل في عزلة من النوع الذي لم يكن يتحمّله في كيب. قبل الفجر بساعة، نهض وارتدى ملابسه، شرب القهوة ثمّ ركب سيارته واتّجه إلى سידار هايتس.

لم يناوب أحدٌ عند البوابة في ساعات الليل، لذا ترك ووك الكروزر تحت الأشجار المتمايلة مع النسيم، عبّر الممرَّ ودخل من البوابة الجانبية الصغيرة.

لا حياة في أيٍّ من المنازل، حتّى في المنزل المقابل على الجهة الأخرى من الشارع. تحرّك من دون حذر، ولا شكّ في أنّ الكاميرات التقطته. لم يعرف إن كان ذلك ناجماً عن قلة النوم أو الرعشة التي سيطرت على جسده، إلّا أنّه في ذلك الصباح كان غير آبه بالمرّة بالمتاعب التي قد يتسبب بها لنفسه.

تحرّك نزولاً بجانب المنزل، فتح البوابة الخارجية ودلف إلى الفناء، ثمّ توقّف عندما رآه. الباب الخلفي، كان لوحٌ واحدٌ من ألواح الزجاجية ناقصاً، أزيلَ بعنايةٍ فائقةٍ، من دون جلبه أو فوضى على الإطلاق. خطر في باله الرجلان اللذان يبحثان عن دارك بينما كان يمدُّ يده إلى الداخل ويدير مقبض الباب.

لم تكن هناك علامةٌ تدلُّ على أيّ شيءٍ في أثناء تحرّكه داخل المنزل؛ تلفازٌ مطفأً، فواكه بلاستيكيةٌ في وعاء، الحال نفسه في الطابق العلوي حيث غرف النوم. بدا الوضع كأنّ عائلةً مثاليةً قد خرجت من المنزل لساعةٍ كي تتمكّن الأطراف المهمّمة من إلقاء نظرة على حياتهم.

نظر تحت السرير، سحب الملاءات، وألقى الوسائد على الأرض. ثمّ رآها في مكانٍ شديد الغرابة، هناك داخل السرير، سترةٌ صغيرةٌ وردية اللون. سترةٌ فتاة. فكّر في أن يأخذها، ويشرح الأمر لبويد. لكنّه تركها، ودوّن ملاحظةً في مفكرته الصغيرة كي يتذكّر. ثمّ جاء وميض أضواءٍ من الخارج.

انحنى منخفضاً، تحرّك نحو النافذة، وسمع صوت سيارةٍ تتوقّف. خاطر بإلقاء نظرة، كانت سيارةً مختلفةً لكنّ الرجلين

نفسيهما كانا في داخلها، أنزل الملتحي نافذته وأخذ يحدّق في المنزل، كان وجهه مضاءً بوهج سيجارته. عدّ ووك دقّات قلبه.

مكثا خمس عشرة دقيقة حتّى تحرّكا رجوعاً عبر الممرّ، ثمّ استدارا، وانطلقا ببطء. حصل ووك على أرقام اللوحات، الأمر الذي لم يكن عظيم الأهمية.

عاد إلى المطبخ، أشعل الأضواء، وشرع يفتّش كل خزانة فيه. كاد أن يفوّتها.

جثا على ركبتيه وتفحص البلاط. ما من شكّ في أنّه دمّ.

استغرق الأمر ثلاث ساعاتٍ للحصول على شاحنةٍ تقنيةٍ، وقد كان ذلك رداً لجميل سابق. كانت تانا ليغروس تنهي نوبتها عندما اتّصل. ضبّط ووك ابنها ذات مرّة يدخّن الحشيشة حين داهم حفلةً في فولبروك. ميّز يومها اسم عائلة الصبي فأعاده إلى المنزل بدلاً من تسطير ضبّط بحقه. ستظلّ تانا ممتنةً له إلى اليوم الذي تموت فيه. بمجرد وصول موسز إلى البوّابة، حاول ووك أن يتواصل مع الرجل، لكنّه وجد أنّ أسهل طريقةٍ للتعامل مع أسئلته هي أن يناوله ورقة عشرين دولاراً.

غامر بالعبور إلى الخلف، حيث عثر على المكتب الصغير. كان الكمبيوتر عبارةً عن نموذج بلاستيكيّ مزيفٍ، كباقي الأجهزة. جاءت تانا، ومعها رجلٌ آخر، شابٌّ ومتحمّسٌ. وقف في الخلف رافعاً حاجبه بينما أنزلت تانا قناعاً واقياً على وجهها. أشارت باتّجاه المطبخ حيث الستائر مُسدّلة، وجعل كاشف اللومينول الأرض تتوهّج.

- «يا يسوع»، قال ووك، «دمّ؟».

- «نعم»، قالت تانا.
- «هل هي كمّية كبيرة؟».
- «نعم».
- «هل يمكنكِ فحصه وتعقب أثره؟».
- «هل لديكِ مذكرةٌ بوجودك هنا؟».
- لم يقل شيئاً.
- «لا أستطيع إزالة هذه البلاطة إذا».
- «آسف».
- «سأخذ مسحةً بالقطن وأتحقّق عليها. أعطني شيئاً أكثر من هذا وسأنشئ ملفّ تعريفٍ. لكنّك لن تصل إلى شيءٍ ما لم تكن المعلومات أو الأشخاص موجودين في النظام».
- فكّر بالرجلين اللذين يسعيان وراء دارك. ثم ذهب ذهنه سريعاً إلى ميلتون.
- ترك الكروزر على الرصيف، وركض عبر الفناء الأمامي إلى منزل ميلتون وطرق الباب.
- «ميلتون»، صرخ، ثم عاد إلى الشارع ونظر إلى نوافذ الطابق العلوي. سمع ضجيجاً خلفه، استدار فرأى براندون روك يسقي العشب.
- «هل رأيت ميلتون؟»
- «إنه في إجازة». بدا براندون في حالةٍ مزريّةٍ، نظاراتُ داكّة، لحيةٌ خفيفةٌ، شعرٌ منفوشٌ.
- «أنت بخير؟».
- «لما لم تخبرك؟».
- «بماذا؟».

- «هذان الاثنان ما عادا يتحدثان أبداً، ربّما هي لا تعرف بالأمر حتّى»، قال براندون.
- «تعرف ماذا، يا براندون؟».
- «إد سرّحني من العمل».
- تقدّم ووك خطوةً وشمّ رائحة الكحول.
- «أنا وجون ومايكل»، قال براندون.
- «أنا آسف».

لوّح براندون بيده واستدار ليمشي مترنّحاً نحو منزله. «هبوط السوق، الاقتصاد الفاشل. كلُّ هذا هراءٌ، لقد دمرّ إد المكان. الخمر، النساء. كان يذهب إلى ملهى ذي أيت أكثر مني، وقد كنت أعيش في ذلك المكان».

جرّ ووك حاوية قمامة ووقف فوقها، تسلّق فوق البوابة الجانبية لمنزل ميلتون، سقط في الفناء الخلفي، وشعر بعظامه ترتجّ وهو يرتطم بالأرض.

وجد المفتاح تحت حجرٍ مزيّف. قام ميلتون قبل خمس سنواتٍ بتربية كلبٍ ضالٍّ نحيلٍ، أصبح سميناً لدرجة أنّه أُعِدِم بعد عامٍ واحدٍ. كان هناك الكثير من اللحم الذي جعله سعيداً. وافق ووك على إطعام هذ الشيء عندما تُوفّي والد ميلتون، لذا كان ووك يعرف مخبأ المفتاح.

في الداخل.

شمّ رائحة الدم على الفور، وخمّن أنّ ميلتون ينشر الرائحة أينما جلس. رأى تقويماً على الحائط، وُضِعَتْ علامةٌ على أسبوعين من الشهر، حتّى إنّ رسم دائرةً حول اليوم الذي سيفتح فيه متجره مجدّداً.

- «ميلتون»، نادى بصوتٍ عالٍ في حال كان الرجل يستحمّ.

لا شيء في غرفة المعيشة.

صعد السلالم، وجرب غرفة الضيوف، كانت هناك مرتبة على الأرض، من دون ملاءات. ثمَّ اتَّجه إلى غرفة النوم الرئيسة.

كانت مُرتَّبةً: بطانيةٌ سميكةٌ على السرير، على الرغم من الجو الدافئ، خزانة ملابس قديمةٌ مع مرآة، من النوع الذي استخدمته والدته على الأرجح. على الحائط كان هناك رأس غزالٍ مثبتاً على خشب الماهوجني، وجعلت العينان الميتتان ووك يتساءل عن طبيعة الرجل الذي أراد لشيء كهذا أن يراقبه على هذا النحو.

كان هناك رفٌّ كتبٍ مليءٌ بنصوص عن الصيد والفخاخ وخرائط البرية. لا شيء عن علم الفلك.

مشى إلى النافذة، رأى التلسكوب، من نوع سلسترون، ومرَّر إصبعه على طول مسنده. كان الغبار كثيفاً، كأنه لم يَستخدِم هذا الشيء منذ عام.

انحنى ونظر في التلسكوب، وأخذ نفساً عميقاً عندما وجد أنَّ زاوية المنظار لم تكن موجهةً نحو السماء، بل تمَّ توجيهه إلى المنزل المقابل عبر الشارع. إلى نافذةٍ واحدةٍ.

نافذة غرفة نوم ستار رادلي.

فكَّر في ميلتون، يعرض المساعدة دائماً، يُخرج قمامتها، يعيرها الكومانشي ويُعطي داتشس قطعاً من اللحم لتأخذها إلى المنزل. لطالما عدَّه ووك شخصاً طيباً، يُساء فهمه، معتوهٌ قليلاً، لكنَّه في الأساس رجلٌ محترمٌ. شتم بصوتٍ خافتٍ وهو يهمُّ بالبحث في الأدراج.

وجد حقيبةً تحت السرير، أخرجها وألقى بها فوق المرتبة.

مراقبة الحي. هذا ما خُربِشَ بقلم تخطيط على الحقيبة. كان الداخلُ مرتَّباً، والصورُ مُفَهَّرسةً، وأعدادها بالميئات، بعضها كانت صوراً فوريةً، وبعضها الآخر بجودة أفضل. التقط واحدة ورأى ستار من دون ملابس، عارية الصدر، سروالٌ تحتيّ فحسب. وكان هذا هو ما يدور حوله الأمر. في بعض الصور كانت ترتدي ملابسها وتعمل في الفناء، وظهرت داتشس وروبن في صورٍ أخرى، لكن من الواضح أنَّهما لم يكونا محور التركيز. قلب الصور العارية، ستار تنحني، ستار تتجرَّد من ملابسها من أجل النوم.

- «ميلتون اللعين».

كانت بعض اللقطات قديمةً، عشر سنواتٍ من المراقبة. لاحظ وجود عدة صورٍ مع رجلٍ كانت تواعده، لم يستطع ووك تذكُّر الاسم تماماً. خَمَّن أنَّ ميلتون كان يأمل أن يضبطهما وهما يمارسان الجنس، حصل بدلاً من ذلك على سلسلة من اللقطات لستار تقبله متمنيةً له ليلةً سعيدةً، ثم ينسحب الرجل إلى غرفة المعيشة.

ومن ثمَّ توقَّف.

كان هناك ملفٌ كُتب عليه 14 يونيو.

اليوم الذي قُتِلَتْ فيه ستار.

قلب الصفحات بيد مرتجفة، وشم مرةً أخرى عندما رأى أنَّها كانت فارغةً.

ألقي نظرةً أخيرةً حوله، ثم أجرى مكالمَةً. تلَقَّتْ ليا تالو الاتصال، وبدأت مصدومةً عندما أخبرها.

سوف يقبض على ميلتون بمجرد أن يعثر عليه.

استقرّاً داخل حياةٍ متشظيةٍ.

شقّاً طريقهما بصمتٍ كل صباح بينما جمعتُ ماري لو وشقيقها الأصدقاء في الطريق إلى المدرسة. كانت المجموعة تنظر إلى الوراء، كانوا يتهايمسون ويضحكون. ذات مرةٍ انزلت داتشس على الجليد، مزّقَتْ بنطالها الجينز، وجرحَتْ ركبتها. لم يتوقّف أحدٌ منهم للمساعدة. عرجَتْ بهدوءٍ، وهي ما تزال تحمل حقيبة شقيقها بالإضافة إلى حقبتها.

أضافت السيدة برايس شرشفاً بلاستيكياً إلى سرير روبن. كان يصدر صوت خشخشةٍ مرتفعاً جداً في كل ليلةٍ دخل فيها السرير مع داتشس.

التقيا مع اثنين من الأزواج.

الزوج الأول، السيد والسيدة كولين. عرفت داتشس على الفور أن شيلي قد عملت بجدٍّ لجعلهما يجلسان إلى طاولة المفاوضات، الطاولة التي كانت عبارةً عن منطقة لعبٍ في متنزّهٍ في جادة توين إيلمس. دفعتُ داتشس روبن على الأرجوحة بينما جلس الزوجان كولين وشيلي على مقعدٍ في الحديقة، شربوا ترمساً من القهوة، وحدقوا بهما كأنّهما عاملا الجذب في حديقة حيوانات أليفةٍ.

- «ما الذي ينظرون إليه بحق الجحيم؟ أيريدون منا أن نقوم ببعض الحيل أو شيئاً من هذا القبيل؟».
- «اهدئي، قد يسمعوننا».
- أخذت داتشس منديلاً من معطفها ومسحت له أنفه، ثم عادت لدفع الأرجوحة بينما ابتسمت شيلي لها.
- «يدو الرجل مثل أمين مكتبة».
- «لماذا؟».
- «تلك النظارات، والسترة التي بلا أكمام. أعتقد أنهما أكبر من أن يُنجبا أطفالاً بشكلٍ طبيعيٍّ، وهما الآن يريدان فرصةً ثانيةً. يمكن أن تكون المشكلة في نطافه، أو ربّما تكون هي عقيمةٌ مثل صحراء موهافي».
- حدّق روبن. «ما هي العقيمة؟».
- «أجزاء منها قد ماتت».
- «تبدو بخير».
- «أستطيع أن أشعر بالمرارة تتسرب من مسامها، كان عليها أن تجمّد بويضاتها. هي لن تحبّنا بشكلٍ صحيحٍ».
- «لكن لم يأتِ أي أحدٍ آخر».
- «سوف يأتون. قالت شيلي إنّه علينا التحلي بالصبر فحسب».
- نظر إلى الأسفل.
- «حقاً؟».
- «نعم، أعتقد ذلك».
- «هؤلاء الناس، يتم اختبارهم، ويُدقّق في أمرهم. يأخذون دروساً كي يعرفوا كيف يكونون والدين بالصورة الصحيحة».
- دفعته بقوة أكبر، فارتفع حتى بدأت السلسلة تنثني، وصرخ

ضاحكاً. كانت تتعجب من قدرته على التكيف، وكم كان يتسم للسيد والسيدة برايس بكثرة، فاحتمال أن يردَّ له الابتسامة كان كافياً تماماً بالنسبة إليه.

عملت بجدٍ الآن للسيطرة على أعصابها، لم تقل شيئاً عندما كانت ماري لو تبتسم بطريقةٍ مستفزّة، أو عندما لم يشارك هنري ألعابه مع روبن. دفنت ذاك الجزء منها الذي كان يفكر في هال والطريقة التي مات بها، ووالدتها والطريقة التي ماتت بها. شاهدت أفلام الغرب المتوحّش القديمة، قرأت كتبها، وعرفت أنّ حيوات البشر يمكن أن تصطبغ بألوان الانتقام الفاقعة التي تلتهم كلّ الطيبة التي يمكن أن تكون قد سكنت المرء في يوم من الأيام.

كان ووك هو الذي منعها من ارتكاب الحماقات، هو من رسّخ الخير فيها، وجعل أنظارها مصوبةً نحو المستقبل بدلاً من الحاضر. ذكّرَها أنّه من الممكن للناس أن يكونوا طيّبين. هو من منعها من الذهاب إلى شيلي والزوجين كولين، والقول لهم أن يذهبوا إلى الجحيم، وأنها اهتمّت بروبن طوال حياته، ولم تكن تخطط للانسحاب من ذلك في أي وقتٍ قريبٍ.

رفعت السيدة كولين يدها فابتسم روبن ولوح بأقصى ما يستطيع، كأنه لم يتمكن من فهم ما يجري. إذ ما كادا يتحدثان إليهما، مجرد بضعة أسئلةٍ بلكنة الوسط الغربي الواسعة النطاق التي لم تسمح بتحديد مسقط رأسهما، مجرد زوجين آخرين يبحثان عن طريقةٍ ليشعرا أنهما كاملان، لكنّهما عرفا على الفور أنّ طفلي رادلي ليسا بالمستوى المطلوب.

- «ليسا مناسبين»، قالت شيلي في طريق العودة إلى منزل آل برايس.

كانت السيدة برايس غاضبةً منهما ذلك المساء، كأنّهما لم يؤدّيا

دورهما بشكلٍ صحيح، كأنَّها سئمت منهما، وباتت ترغب في وجوه أصغر وأكثر نضارة لتجرَّها إلى الكنيسة كل يومٍ أحدٍ وتباهى بها. اللقاء التالي كان سيئاً. السيد والسيدة ساندفورد. كان كولونيلاً متقاعدًا، وكانت ربة منزلٍ مع منزلٍ فارغ.

جلسا على نفس المقعد مع شيلي، وأجريا محادثة قصيرة بينما كانا يقيمان الطفلين. استمرَّ الكولونيل بالضحك والضرب على ركة زوجته بقوة كافية لتترك علامة.

- «سوف يضربنا»، قالت داتشس من مكانها بجوار الأرجوحة. حدَّق روبن فيه.

- «ربَّما سيطلب منك أن تقصَّ شعرك ويجعلك تتطوَّع في الجيش».

- «ربَّما سوف تعلِّمك كيف تخبزين»، قال روبن.

- «السافل».

- «قلتِ ذلك بصوتٍ عالٍ جدًا».

نظرا إلى الكولونيل وكان يراقبهما. أدَّت داتشس تحية سريعة. ابتسمت شيلي بعصبيَّة.

بداية شهر مارس، بداية ذوبان الثلوج.

جلست داتشس قرب النافذة كل ليلة وراقبت قطرات الماء المتساقطة من دون توقُّفٍ من حوافِّ النوافذ مع عودة اللون إلى مونتانا شيئاً فشيئاً. سطع ضوء النهار على أشعة شمسٍ باردة، لكن الشمس هي نفسها. ذاب جليد الأرصفة، وقامت الباحات من مدافنها، واستبدلت شجرة الزعرور لونَ براعمها البنيِّ بالأبيض الناصع وتناولت بأغصانها نحو السماء. شاهدت التغيير لكنَّها لم تستطع رؤية أيِّ جمالٍ على الإطلاق.

تقدَّمت داتشس في حياتها الصغيرة من دون مشاعر، كلُّ حركةٍ

كانت آليّة لدرجة أنها نسيَتْ أحياناً أيَّ يومٍ من أيام الأسبوع هذا. اعتنَتْ بروبين، مشَتْ معه إلى المدرسة، وتجاهلت ماري لو وصديقتها الحميمة كيللي عندما سخرتا منها، ومن حداثها، وقميصها، وماركة بنطالها الجينز. جاءت شيلي كل أسبوع، أحياناً كانت تأخذهما لتناول الآيس كريم، بل مرةً إلى السينما حتى. تحدّث روبن عن عائلةٍ جديدةٍ، وكيف سيكون الأب مثل هال، يعلّمه صيد السمك ولعب الكرة. تشبّث بإيمانه بيديه الصغيرتين، بمزيد من الإحكام مع كل يوم يمرّ.

في أحد أيام السبت، أخذتهما شيلي لرؤية المزرعة. قد يستغرق حصر الإرث شهوراً، لذا كانت ما تزال تلك أرض آل رادلي لفترةٍ أطول قليلاً. مرّوا في طريقهم لاصطحاب توماس نوبل. صباحَ ربيعٍ بهيجٍ. أخذ روبن شيلي لرؤية الحظيرة، وأخبرها عن الأعمال التي كان يقوم بها. تجوّلت داتشس مع توماس نوبل في حقول القمح حيث لم تُزرع أية محاصيل، بل مجرد صفوفٍ من الأعشاب الضارة والتراب. شعرت بحزنٍ عميقٍ لدرجة أنها لم تستطع أن تتحدّث لفترةٍ طويلةٍ. كان هال معها خطوةً بخطوة، وفاحت رائحة السيجار حين صعدا إلى الشرفة ليجلسا على الأرجوحة. دفعت للخلف، فانشدّت السلاسل وأصدرت صريراً. أرادت أن تبكي لكنّها لم تفعل. زارت الحقل الذي كانت الرمادية تركّض فيه، كانت تفتقدها بقدر ما تفتقد جدّها تقريباً.

بعد ذلك، غادروا المزرعة في صمّتٍ ثقيلٍ، وأجهش روبن في البكاء. أمسكت يده. عندما عادا إلى منزل آل برايس، جلسا متسكّعين في الشارع، يشاهدان أطفال الجيران يقودون دراجاتهم. كان الجوُّ دافئاً، ما زال هناك وقتٌ حتّى حلول الصيف، لكن من الواضح أنّه سيكون حارّاً.

- «حصلتُ على أحدٍ ما»، قالت شيلي.

سمعتُ داتشس شيئاً ما في صوتها، شيئاً مختلفاً.

- «مَن؟»، قال روبن.

- «اسمهما بيتر ولوسي. إنَّهما من وايومنغ، حيث كنت أعمل.

حتَّى الآن كانا يبحثان عن طفلٍ واحدٍ فقط، لكنَّني أخبرتهما كم أنتما مميَّزان —».

- «كذبتِ إذًا»، قالت داتشس.

ابتسمت شيلي ورفعت يدها. «استمعي إليَّ. إنها بلدةٌ صغيرةٌ،

هو طبيبٌ، وهي تعلِّم الصف الثالث».

- «أيُّ نوعٍ من الأطباء؟».

مكتبة

t.me/soramnqraa

- «طبيبٌ حقيقيٌّ».

- «طبيبٌ نفسيٌّ؟ لأنَّني لا أريد أن يعبث شخصٌ ما بـ».

- «طبيبٌ نظاميٌّ، ممارسٌ للمهنة. يساعد المرضى كي يتعافوا

ثانيةً».

- «لقد أحببتهما»، قال روبن.

تنهَّدت داتشس.

- «يمكنكما أن تلتقيا بهما نهاية الأسبوع المقبل إن كنتما

ترغبان في ذلك».

نظر روبن متوسلاً إلى داتشس، إلى أن أومأت برأسها.

قادا عبر الطريق 5 في سيارتها البريوس، من ميدفورد إلى

سبرينغفيلد.

على بُعدٍ مئة ميلٍ من مدينة سالم، استبدلا أضواءً ساطعةً

وإسفلتاً أملسَ بمسارب الطرقات المظلمة والمتشقة التي تعبر ماريون وذلك النوع من البلدات الموجود على الخرائط القديمة فقط وليس في أي مكانٍ آخر.

نامت مارثا. سمح ووك لنفسه عندما أصبحت الطرق سلسلةً ومستقيمةً بإلقاء نظرة، وعندما فعل، شعر بطعنة الألم الحادّ التي أحسَّ بها منذ اليوم الذي عاد فيه إلى حياتها. بدت هادئةً، مطمئنةً، وجميلةً جداً لدرجة أنه كان يقاوم أحياناً الرغبة الشديدة في تقييلها.

بزغ الفجر فوق طريق كلاسيد السريع، وكان ووك متعباً للغاية لدرجة أنه انحرف عن الخط الأصفر المزدوج حتى مدّت مارثا يدها وشدّت المقودَ برفقٍ.

- «كان عليك التوقّف».

- «أنا صاح».

على طريق سيلفر فولز السريع شاهدا الشمس تتسلل من خلف التلال، وتلوّن الأراضي الزراعية بدزينة من درجات الأخضر. على العشاء، تناولا البيض واللحم المقدّد، وشربا قهوةً قويةً حتّى شعر ووك أنه قد شحذ نفسه ثانيةً.

- «إنّها ليست بعيدةً»، قالت مارثا وهي تنظر إلى الخريطة المفروشة على الطاولة.

كانا متّجهين إلى يونيتي، وهي منشأة رعاية صحية خاصة في سيلفر فولز. المكان نفسه الذي كان ديكي دارك يسدّد له المدفوعات، وهو أبعد نقطة استطاعا الرجوع إليها في سجلاته المصرفية. جاءت دي وطرقت باب ووك في الليلة السابقة وأعطته قصاصة ورقٍ تحمل اسم المستلم.

ثلاثة فناجين من القهوة وغادرا، والكافيين يجري في عروق ووك بينما كان متنزّه سيلفر فولز ستيت يقترب منهما. مَحَرَّتْ مارثا

عُباب الطريق، وسرعان ما ارتفعت الأشجار بجانبهما. علتِ الصخور فوق الضفاف الخضراء شديدة الانحدار للشلالات. فتح ووك نافذته على صوت هدير المياه في أثناء مرورهما بواحدٍ منها. منعطفٌ آخر ووصلاً إلى البوابات. كان ووك قد اتَّصل مسبقاً، وأخبرهم أنه يُريد إلقاء نظرة على المكان. أعطى اسمه عبر مكبر الصوت، وشاهد البوابات تتأرجح وتفتح.

لحقا بالطريق الطويل حتَّى ظهر المستشفى أخيراً، أنيقٌ وعصريٌّ، زجاجٌ غامقٌ يتبايُن مع لون الطوب الرملي، إذ كان يمكن لمكانٍ كهذا أن يكون تجمُّعاً لشققي فاخرة في وسط الغابة.

قابلتُهما امرأةٌ تُدعى إيشر عند الباب بابتسامة صادقة، قادتهما إلى قاعة استقبالٍ واسعة، أعمالٌ من الفن الحديث، تمثالٌ قد يكون لنسِرٍ. خيَّم سكونٌ على كلِّ شيءٍ. الأطباء يتهادون في مشيتهم، والمرضىات يتحرَّكن على مهلٍ. لا جلبة، ولا قلق. في البداية ظنَّ ووك أنه قد يكون معتزلاً، نوعٌ من الأماكن التي يلجأ إليها الموظفون التنفيذيون من أجل بعض الاسترخاء. لكن إيشر عادت إليهما بعد ذلك، وأوضحت طبيعة العمل الذي كانوا يقومون به، والاحتياجات الخاصَّة والمعقَّدة لمرضاهم، والرعاية التي يقدِّمونها على مدار الساعة.

تحرَّكتُ بسلاسةٍ، برغم الخمسين رطلاً الزائدة التي كانت تحملها. كان من الصعب تحديد لهجتها، قد تكون ألمانيةً لكنَّها ملطَّخةٌ ببعض المصطلحات المحليَّة. لم تسأل لأجل مَنْ كانا هناك، كان ووك قد ذكرَ عبر الهاتف أنَّ قريباً له يحتاج مساعدة ورعاية متخصصةً. قالت له إيشر أن يأتي ويلقي نظرةً، من دون أن يكون هناك شيءٌ رسميٌّ، الأهم أن يكون المكان ملائماً وهو أمرٌ لا يمكن الاستعجال بشأنه.

مارثا بجانبه لم تقل شيئاً، لاحظت فحسب الغرف النهارية، ومجموعة المصاعد، والسجادة السميقة لدرجة أنها شعرت بقدميها تغرقان فيها.

شرحتُ إيشر تاريخ المكان، وقربه من متنزه الولاية، والهدوء والسكينة السائدين فيه. لقد كانوا مجهّزين لكل أنواع الطوارئ، خمسة أطباء تحت الطلب، وثلاثون ممرضة.

قادتُهما خارجاً إلى الحدائق التي مهّدت طريقهم نزولاً إلى جدول خلف سياج خفيض. رأى ووك اثنين من الحمّالين يدخّنان سيجارة قرب مجموعة من الأبواب. رمقتهما إيشر بنظرة غاضبة، فأطفأ سجارتيهما وغادراً.

- «هل يسعني أن أسأل كيف عثرت علينا؟»، قالت له.

- «بواسطة صديق لي. ديكي دارك».

ابتسمتُ عندئذٍ كاشفةً عن أسنان بيضاء، وفجوة محترمة بين السنّين الأماميتين. «والد مادلين».

لم يقل ووك شيئاً.

- «إنّها فتاةٌ استثنائيةٌ. والسيد دارك قويٌّ جداً بعد أن فقد زوجته بتلك الطريقة. هل تعرف كيت؟».

تقدّمتُ مارثا وتدخّلتُ. «ليس جيداً بما يكفي».

بدتُ إيشر حزينةً عندها. «كانت فتاةً محلّيةً. ترعرعت في كلاركس غروف. إنّ مادلين نسخةٌ طبق الأصل عنها».

قادتُهما مجدّداً عبر المبنى، وهماً بالرحيل مع كتيب ووعيد بمعاودة الاتصال. لم يكن ووك يحتاج للضغط أكثر، فقد وجد ما جاء من أجله.

- «هلاً بلّغته تحيَّاتي؟ آمل أنّه يتعافى بشكلٍ جيّدٍ»، قالت

إيشر.

التفتَ ووك إليها، وقرأت النظرة على وجهه.

- «الحادث. أنا آسفة، كان ديكي يعرج، قال إنه انزلق».

دبت الحياة في ووك عندئذٍ. «متى كان ذلك؟».

- «قبل أسبوع ربّما. تشعر ببعض الناس وكأنّ الحظ السيئ

يلاحقهم من مكانٍ إلى آخر». رسمت إيشر ابتسامةً أخيرةً، ثمّ استدارت وغادرت.

خمسة عشر ميلاً حتى كلاركس غروف، ومن هناك سارا على طول شارع رئيسٍ مفعم بالألوان، بعيداً عن كيب بضعة أميالٍ فقط. أحبّ ووك البلدة على الفور. عثرا على المكتبة البلدية القديمة عند نهاية الشارع، كانت ظريفةً لكنّها مهلهلةٌ، وكأنّ المكان كان يعمل على الصدقات وحدها. كانت فارغةً، مظلمةً وباردةً، وعادت الرائحة بووك إلى بورتولا والستين اللتين قضاها في الكلية.

السيدة العجوز خلف المكتب لم ترفع عينها عن شاشتها، لذا توجّهت مباشرةً إلى الخلف حيث وجدا بعض أجهزة الكمبيوتر. بدأت مارثا تعمل، جلست قريبةً من ووك، وضغطت ساقها على ساقه. راقبها، كيف يتغيّض جبينها، وكيف يصعد ويهبط صدرها فيما هي تتنفس.

- «هل تتفحصني أيّها الرئيس؟».

- «لا. أنا آسفة. لا».

- «هذا سيئٌ للغاية».

ضحك ووك.

طبعث بسرعة. «كيت دارك». أظهر الأرشيف عشرات النتائج والمطابقات. قرأ بصمتٍ، حادث السيارة، كيف ماتت كيت في موقع الحادث فيما عانت مادلين من إصاباتٍ دماغيةٍ شديدة. كانت هناك صورٌ: الجليدُ سيارة الفورد وقد انحرفت عن الطريق نحو

جرفٍ شديد الانحدار واصطدمت بالأشجار أسفلهُ، وتهشَّم الزجاج
الأمامي. البحيرة في الخلف، وملهى ذي أيت كانا عنصري الهدوء
الوحيدَين في تلك اللقطة.

صورةٌ وحيدةٌ للعائلة قبل ذلك.

قَرَّبْتُ مارثا الصورة، وصُدِمَ ووك لدى رؤية ملامح دارك عن
كثبٍ، ذاك الخواء والنظرة الجوفاء، كانا غائبين تماماً في ذلك
الوقت.

- «إذاً، ستكون مادلين في الرابعة عشرة من عمرها الآن».

- «نعم».

- «يا للهول. إنها هناك منذ تسع سنواتٍ. إنه تقريباً الوقت
الذي بدأ فيه دارك يقوم بتحركاته. لا بدّ أن يكون قد كلّفه ذلك
الكثير من المال».

عشر ووك على مقالٍ آخر، ركّز هذا المقال على مادلين والعمل
المنجز في يونيتي. لقد قال الكثير ولم يقل شيئاً على الإطلاق. لقد
أُبقِيَت الفتاة حيّةً بواسطة آلة.

كان دارك يأمل في حدوث معجزة.

خليج هاربور.

وصل ووك إلى هناك خلال ثلاثين دقيقة، لم يشعل الأضواء لأنَّ طريق كابريلو كان فارغاً. جاءت المكالمة بعد ساعةٍ من عودته من بورتلاند.

ترك الكروزر قرب البوابة ومشى متجاوزاً قوارب الصيد المتهداية على سطح الماء، زورقٌ لامعٌ من طراز بيلانير، وصفٌ من زوارق نافيجيتور. عبر الفجوات بين الألواح الخشبية، استطاع رؤية الماء يندفق في الأسفل. رأى مجموعةً من سمك السلُّور تدور بسرعةٍ بينما كان صيَّادٌ يرمي لها ما تبقى من طُعم اليوم. مياهٌ محمومةٌ، نسيمٌ مالحٌ، إحساسٌ بالرهبة.

كان قارب الصيد من طراز رينولدز 73 لكنَّه بدا أحدث من ذلك: طلاءٌ جديدٌ وزخارفٌ خارجيةٌ باللون الأزرق. كان أندرو ويلر على متن القارب، وعينه على الأمواج المتكسِّرة. عرفه ووك بعض الشيء، فقد قام أندرو باصطحاب ستار في بضعة مواعيد.

في البعيد كانت كيب، الجروف، الأرض التي تنزلق متدلّيةً إلى الشاطئ، ومنزل آل كينغ الذي يترأس كل ذلك المشهد. ما زال

أندرو يعمل مع سكيب دوغلاس الذي أصبح كبيراً في السن وأُشيبَ بالكامل، ويكاد لا يقول كلمةً واحدةً فوق اليابسة. صعد سكيب فوق الألواح، أوماً برأسه لوك ثم مضى باتجاه الساحة، للحصول من دون شك على بعض البيرة كي ينفذ عنه عبء اليوم الذي خاضه.

نزل أندرو وتصافحا. ذراعان سمران مفتولتان، نظارات شمسية على رأسه رغم سماء الغسق. صعد ووك إلى القارب. - «ما الذي حدث؟»، قال ووك.

«كنا في عرض البحر مع زمرة من أهل المدينة، مجموعة من سكرامنتو. ثلاثة منهم أصدقاء منذ الطفولة، يشقون طريقهم نحو سيكس ريفرز».

استمر موسم سرطان البحر من أكتوبر إلى مارس. كانت هناك قيود على الصيد: عدد، وقياس، ووزن. لكن معظم الزبائن أرادوا فقط قضاء يوم داخل المياه.

- «كنا نبحر ببطء عندما ناداني سكيب. لقد علقت الشبكة، هذا يحدث في كثير من الأحيان، ويكون ذلك مصدر إزعاج دائماً. أحياناً أضطر لارتداء بذلة الغطس وقطع الشبكة عند الحاجة».

استند ووك بيده على جانب القارب رغم أن الأمواج كانت لطيفة.

«كانت الشبكة ثقيلة، حتى إن سكيب خلع قبّعته ومسح رأسه، وذاك الرجل لا يتصبّب عرقاً أبداً. أمسكتُ بذراع الرافعة وقمنا بتحريكها. ثم بدأت ترتفع وتتدفق المياه من حولها. تقياً الرجال الثلاثة. حلّقت النوارس أكثر من المعتاد، عندها عرفت ما الأمر، صرخت بصوت عالٍ، وأغلق سكيب عيني الرجل الميت».

- «عدا ذلك، ألم تلمسه؟».

هزّ أندرو رأسه، ثم تنحّى جانباً.
- «كان الرجال في حالة إعياءٍ شديدٍ، وكان عليّ أن أحاول
تغطيته في أثناء الرحلة».

سحب ووك المنشفة وصارع عندئذٍ كي يأخذ نفساً.
ميلتون.

متنفّخٌ، مبّقعٌ، عيونٌ متورّمةٌ.

- «أنت بخير، يا ووك؟».

- «يا إلهي».

- «هل تعرفه؟».

أوماً ووك برأسه.

فكّر في الدم داخل منزل دارك، سوف يطابقونه قريباً، كان لديه
القليل فقط من الشك. هناك المزيد من قطع الأحجية المتباينة جداً
للتراصف معاً.

- «اجلس قليلاً، أنت لا تبدو بخير».

جلسا على سطح السفينة، وانتظرا الطبيب الشرعي. مرّ أندرو
زجاجة بيرة لووك، ارتشفها وعاد اللون إلى وجهه.

- «أفضل؟».

- «أنت لا تبدو مصدوماً جداً»، قال ووك.

- «إنّها الجثّة الثالثة التي أراها».

- «حقاً؟».

«واحدةٌ في جيرسي، ثم عملت في جزر كيز. يبدو أنّ الكثير
يحدث في كيب هيفن».

- «الكثير جداً».

وضع ووك الزجاجاة على رأسه ليخفّف الألم. ارتجفت يده
وهو يشرب، ولم يحاول حتى أن يخفي الرعشة.

- «رأيتك في الجنازة. آسفٌ لأنه لم تسنح لي الفرصة أن أقترِب منك». كان أندرو قد وقف في الخلف، مَخْنِيَّ الرأس، بقي واقفاً بضع دقائق ثم غادر.

لَوَّح أندرو بيده. «كنتُ... كان شيئاً محزناً للغاية. الأمرُ برَمَّتِه، عندما سمعت، خطر الطفلان في بالي على الفور. بالعودة إلى الوراء، كان الصبي طفلاً صغيراً، لكنَّ الفتاة كانت تحمِلُ بي». فكَرَّ ووك في داتشس.

- «هل تعرف مَنْ فعل ذلك بهذا الرجل؟».

- «ربَّما».

لم يسأل أندرو شيئاً آخر.

شاهداً قارباً يتقدم، أضواءٌ منخفضةٌ فوق مياهٍ هادئةٍ.

أمسك أندرو زجاجة قباله الشمس الغاربة. «كانت خمس سنواتٍ قد مرَّتْ مُذْ رأيْتُها آخر مرةٍ. لكنِّي كنتُ ما أزال أفكِّر فيها. لم تكن الحالة هي أن أحداً ابتعد أو لاذ بالفرار، لا شيء من هذا القبيل. تعرف عندما تريد إنقاذ شخصٍ ما، ولكن ليس لديك أدنى فكرة عن كيفية القيام بذلك؟».

- «تواعدتما فترة».

- «بضعة أشهرٍ ربَّما. قابلتها في حانةٍ، شاهدتها تغني ثم ابتعثتُ لها مشروباً، فكرتُ في أنها كانت لطيفةً المظهر، مريحةً، ومحطَّمةً نوعاً ما، ما لم يكن أمراً غير عاديٍّ بالنسبة إلى أنواع الحانات التي أرتادها».

- «وبعد ذلك؟».

- «كنَّا معاً فحسب، ولا شيء أكثر، كصديقين تقريباً. لقد أردت المزيد».

راقبه ووك.

- «لم نمارس الجنس مطلقاً».

حوّل ووك نظره نحوه زورقٍ سريعٍ لا ينتمي إلى المكان، أبيض وبرّاق، لا شك في أنّ أحد المصطافين يتباهى بلعبته المبهرجة، القديم والجديد يتصادمان على نحوٍ ما زال يتسبّب له بالألم. علّقَتْ على الزورق لافتة للبيع، وأمل ووك أنّ أياً كان من سيشتريه فسوف يأخذه إلى مكانٍ بعيدٍ.

- «كانت جميلةً. الجنس شيءٌ مهمٌّ، صحيحٌ. أعلم أننا لا نتحدّث عنه، لكنّه شيءٌ مهمٌّ في العلاقة، من دونه ماذا سيكون لديك؟».

فكّر ووك في مارثا؛ طبيعة صداقتهما، القوّة الخفية التي تدفع به نحوها في كل مرة يراها، القوّة التي تجرّ أفكاره إلى مكانٍ لا يجب أن تكون فيه. كانت قد أغلقت الأبواب وسدّت المنافذ على عواطف كانت ذات يومٍ تخصّصه، وقد دفنت ذهنها مع الطفل الذي فقدته ذات مرة.

- «هل أعطت سيباً؟»، قال ووك.

- «قالت إنّك تحصل على حبٍّ عظيمٍ واحدٍ، وستكون محظوظاً إن وجدته. أي شيءٍ أقل من ذلك هو لا شيء».

فكّر ووك في ستار التي لم تحصل على نهايتها السعيدة. صلّى كلّ ليلةٍ أن يحصل طفلها على نهايةٍ سعيدةٍ.

كان روبن متوتراً يوم اللقاء.

استلقيا مستيقظين في الليلة السابقة، وتحدّث روبن عن بيتر ولوسي كأنّه يعرفهما جيداً. قرّر أنه ربّما يرغب في أن يكون طبيباً

أيضاً أو مدرّساً حتّى . طلبت منه أن ينام ، وأنّ عليه أن يكون نشيطاً في الغد ، لكنّه تحدّث ساعةً أخرى .

ألبسته سروالاً قصيراً مع كنزة ، لكنّه استبدلهما ببنطاله الأنيق والقميص الذي ارتداه في الجنازة . جرّب ربطة العنق ، ثم استبعدها . لمّع أفضل حذاءٍ لديه بالبصاق والمناديل الورقية . حاولت أن تفكّ التشابك في شعره ، لكنّها لم تنجح في ذلك تماماً . ارتدت بنطال جينزٍ وكنزة ، فصرخ عليها حتى بدّلتهما إلى فستانٍ . اختار لها قوساً أصفر لشعرها ، ثم سألها إن كان عليها وضع القليل من الماكياج . لم يأكل وجبة الإفطار ، ارتشف عصيره قرب النافذة فحسب .

- «عليك أن تسترخي» .

- «ماذا لو لم يأتيا؟» .

- «سيأتيان» .

الرحلة بالسيارة إلى المتنزه . كان روبن هادئاً ، يحدّق إلى الخارج . انتبهت داتشس كيف كانت أصابعه الصغيرة متشابكةً . توقّفوا في الساحة ، ونزلوا الى الشمس ، وتغريد العصافير ، والنسيم اللطيف .

كان بيتر قصيراً ، ولديه القليل من الوزن الزائد ، لكن على نحوٍ لائقٍ . ابتسمت لوسي ابتسامةً تنمُّ عن طيبةٍ جعلت داتشس تشعر أنّها وُلِدَتْ لتكون أماً أو معلّمةً للصف الثالث . لوّحت شيلي لهما وبدأ يسيران نحوهم .

التفت بيتر وصفّر ، فظهر كلب لابوردي أسود ، وقد رفع أحد مخالبه في الهواء ، ثم بدأ يركض .

- «لديهم كلب» ، همس روبن .

- «حاول أن تكون هادئاً ولطيفاً» .

نظر روبن إليها. انتظرت قليلاً، ثمَّ أومأت برأسها فانطلق مسرعاً نحو الكلب وهو يلوح بيديه كالمجنون.
- «تَبّاً».

- «لا تقلقي»، قالت شيلي.
- «أراد أن يحضر حقيبتَه، في حال كانا يرغبان في أخذنا على الفور».
- «تَبّاً»، وافقت شيلي.

كان يمكن لبداية اللقاء أن تكون محرّجةً، مثل المرات السابقة، مصافحات حذرة والكثير من التواصل البصري، لكنَّ بيتر ولوسي كانا ودودين ومنفتحين منذ اللحظة الأولى. قدّما نفسيهما، وتحذّثا عن الرحلة التي قطعها مع كلبهما جيت من بلديتهما الصغيرة في وايومنغ. انطلق بيتر مع روبن وجيت، كانوا ضمن مجال الرؤية طوال الوقت وهم يجتازون العشب الطويل. ظلَّ روبن ينظر إلى الخلف ويلوح حتّى لوَحَتْ له داتشس. لم تقل داتشس أيّ شيءٍ غير مناسبٍ، الحقيقة أنَّها لم تقل أيّ شيءٍ على الإطلاق. أثنت لوسي على فستانها فشكرتها داتشس. سألتها عن المدرسة فقالت داتشس إنَّها كانت لطيفةً. وعن العيش مع عائلة برايس، وقالت داتشس إنَّ ذلك كان لطيفاً أيضاً.

كانت تراقب بقلقٍ طوال الوقت، كان روبن يمسك يد بيتر ويقبض عليها بإحكام، ثمَّ أخذ يلاعب جيت وعلى وجهه ابتسامةٌ عريضةٌ. عندما ذكرتُ لوسي أنَّهما يربّيان الدجاج، أملتُ داتشس وصلّتُ ألا يقوم بيتر بإخبار روبن الشيء نفسه.

بعد عشر دقائق، عاد روبن ليخبرها بأمر الدجاج. ابتسمت داتشس له، وصفّق روبن بحماسٍ.

حافظوا على حدودٍ آمنةٍ، لا حديث عن الماضي برغم أنَّ

لوسي قالت إِنَّهَا آسَفَةٌ بِشَأْنِ هَالِ، وَبِشَأْنِ كُلِّ شَيْءٍ. وَرَوَتْ كَيْفَ تَوَفَّيْتُ وَالِدَتَهَا عِنْدَمَا كَانَتْ هِيَ مَجْرَدَ طِفْلَةٍ صَغِيرَةٍ.
عِنْدَمَا حَانَ الْوَقْتُ، عَانَقَ رُوبِنْ بِيْتَرٍ عُنَاقًا طَوِيلًا حَتَّى إِنَّ دَاتَشْسَ اضْطُرَّتْ لِلتَّدْخُلِ.

فِي طَرِيقِ الْعُودَةِ تَحَدَّثَ رُوبِنْ مِنْ دُونِ انْقِطَاعٍ. قَالَ إِنَّ بِيْتَرٍ تَحَدَّثَ عَنْ لِقَاءِ آخَرٍ، وَكَيْفَ سَيَسْمَحُ لَهُ فِي الْمَرَّةِ الْقَادِمَةِ بِالْإِمْسَاكِ بِسِلْسِلَةِ جَيْتٍ. أَخْبَرْتُهُ شِيلِي أَنَّهُ أَبْلَى حَسَنًا، وَأَنَّ بِيْتَرٍ وَلُوسِي قَالَا إِنَّهُمَا سُعِدَا كَثِيرًا بِلِقَائِهِمَا.

- «ثُمَّ مَاذَا؟»، قَالَ رُوبِنْ.

- «سَوْفَ نَرَى. لَكِنْ لَدَيَّ ذَاكَ الشُّعُورُ الطَّيِّبُ مَجْدَّدًا». قَالَتْ شِيلِي.

صَفَّقَ رُوبِنْ، ثُمَّ قَفَزَ مِنَ السَّيَّارَةِ وَرَكَضَ صَاعِدًا الْمَسَارَ إِلَى مَنْزِلِ آلِ بَرَايسَ. قَابَلَتْهُ السَّيِّدَةُ بَرَايسَ عِنْدَ الْبَابِ وَابْتَسَمَتْ لِشِيلِي.
- «لَا يَجْدُرُ بَلْ قَوْلِ مِثْلِ هَذَا الْهَرَاءِ. لَيْسَ قَبْلَ أَنْ تَكُونِي مُتَأَكِّدَةً».

- «مِنْ الْمَهْمِ أَنْ يَبْقَى الْمَرْءُ إِيْجَابِيًّا»، قَالَتْ شِيلِي.

فَرَكَّتْ دَاتَشْسَ عَيْنَيْهَا، كَانَ عَدَمُ التَّيَقُّنِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزُ مِنْ جُرُوحِهَا طَوَالَ هَذَا الْعَامِ.

لَمْ تَكُنْ وَاثِقَةً مِمَّا إِذَا كَانَتْ مُؤْمَنَةً حَقًّا، لَكِنَّهَا صَلَّتْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

عثر عليها ووك في الكنيسة .

وقف بجانب الباب، أراح يده على اللوح القديم، ونظر نحو المياه، والزهور فوق القبور .

جلستُ مارثا بمفردها على مقعدٍ في الصفِّ الأمامي، عيناها على الزجاج الملون والمنبر، نفس المقعد الذي كانت تشغله صباح كلِّ يومٍ أحدٍ حين كان والدها كاهناً . أخذ ووك مقعده في الخلف، وظلَّ صامتاً ؛ لم يكن يرغب في إزعاجها . كان قد أمضى الفترة الصباحية يتحدث على الهاتف، أولاً إلى بويد، ليطلعه على موضوع ميلتون . أخبره عن الرابط مع دارك، وأنَّهما ذهبا للصيد معاً، كما شوَّهَ ميلتون وهو يدخل ويغادر منزل دارك . لم يكن في وسعه أن يذكر أمر الدم، لكنَّ بويد قال إنَّه سيعمل على هذه المعلومات كي يستصدر مذكرة تفتيش .

ثمَّ اتَّصل بعد ذلك بمحام في كليرليك معيَّن للمحاكمة، وهو أحد معارف مارثا واسمه كارتر . أراد كارتر أن يلتقي بفنسن كينغ، وهو أمرٌ لم يستطع ووك أن يجعله يتحقق . كانت المحاكمة تلوح في الأفق، على بُعد بضعة أسابيع فقط، وهو ليس وقتاً كافياً لأيِّ أحدٍ كي يستعدَّ .

- «أنا بحاجة إليك»، قال ووك. حملت الكنيسة القديمة كلماته إليها، ممّا جعلها تتوقّف، وترفع رأسها لكن من دون أن تستدير. ثمّ أنهت قول الكلمات الصامته التي اختارتها أياً تكن.

مشى إليها، جلسا معاً أمام الصليب وجيرانه القديسين.

- «أنا بحاجة إليك، من أجل المحاكمة».

- «أعرف ذلك».

نظر إلى الأسفل نحو ربطة عنقه، والمشبك الذهبي. لم يشعر يوماً بمثل هذا الضعف، أو ربّما كان كذلك دائماً لكنّه لم يدرك ذلك حتّى ذلك الحين. كان قد زار الطيبة كندريك مجدّداً، ورفعت له الجرعة. لم يكن هناك من سبيلٍ لوقف المحتوم.

- «سوف أرتكب الأخطاء، وسوف تكون مهمّة».

- «أعلم أنّ هذا ليس عدلاً».

- «الأمر يتعدّى ذلك. إنّها مسألة حياةٍ أو موتٍ. أردتُ ذات

يوم الوقوف في الخطوط الأمامية ومساعدة الناس بهذه الطريقة. أن يكون ذلك مثل محطّات توقّفٍ على الطريق حين تكون الأوقات جيّدة وسيئة. لكنّ أبي سلبني ذلك».

- «كان بإمكانك —».

أسكته بعينين تملؤهما الدموع. «لم أكن أريد أن أعيش كذبة».

- «ميلتون الجزّار، لقد مات. اعتقد أنّ دارك قتله. اعتقد أنّ

دارك قتل هال ليصل إلى الطفلين».

- «إنّه قلقٌ من أن يتذكّر الصبي».

أوماً ووك برأسه. «لا يمكن لدارك أن يعود إلى هنا الآن. إنّهُ مدينٌ بالمال لأناسٍ أشرارٍ». كان قد تحقّق من أرقام اللوحات، وكانت مدرجة في سجلّات الشرطة هذه المرّة. كانت سيّارة مسجّلة

باسم شركة إنشاءات في ريفرسايد، وأحد مدرائها كان مرتبطاً بعائلة إجرامية معروفة. لن تخفي مشاكل دارك ببساطة. نظرت إليه عندئذ.

- «خذ الأمر إلى بويد. هما بحاجة للحماية».

- «لقد فعلت. ما زال غير مقتنع».

- «لأنّ فنسنت كينغ عقبة في الطريق».

- «لكن إذا كان بريثاً. إذا تمكّنّا من تبرئته...».

- «اللعنة يا ووك. إنّ أفضل محام في البلاد لن يتمكّن من تبرئته».

- «إذا كان فنسنت بريثاً، فإن دارك قادّم من أجل روبن رادلي،

وليس داتشس». أغمض ووك عينيه على الكثير من الارتعاش، وذلك رقبته. كانت العضلات متشنّجة لدرجة أنّه كان يتألّم بمجرد أن يحرك رأسه.

- «هل تريد أن تخبرني ما المشكلة الآن، يا ووك؟ هل تعتقد

أنّي لم ألاحظ طوال هذا الوقت؟ تبدو متعباً، وقد خسرت الكثير من الوزن».

- «إنّه التوتر فحسب».

- «واظب على قول ذلك وسوف تبدأ في تصديقه».

- «لن أفعل».

شاهد سيدة عجوزاً تعبر الباب، ركعت ورسمت صليباً قبل أن

تمضي في طريقها. لربّما استطاعت النوم بشكل أفضل بعد أن فعلت ذلك.

- «أنت أشبه بشخص متعدّد الأغراض والاستخدامات يا

ووك. لقد اعتدت أن أنظر إليك فأرى كل شيء هناك في الداخل».

- «أريد أن أكون ذلك الرجل ثانية. أنا فقط... إنّ كلّ شيء

يتغير. أنا أفقد نفسي، أشعر بذلك كل يوم. اعتدتُ على التفكير في أن كلَّ شيءٍ يتغير من حولي. قدتُ عبر أرض آل تولر ذلك اليوم، من الصعب تخيُّل كل تلك المنازل».

- «الناس في حاجةٍ إلى أن يعيشوا في مكانٍ ما، يا ووك».

- «إنَّها منازل ثانية. هم يُنَحُّون البلدة بعيداً».

- «أنتَ تحبُّ الأشياء كما هي بالضبط، لقد رأيتُ منزلَكَ،

مكتبك. أنتَ تتشبث بالماضي بأقصى ما تستطيع».

- «مرَّ وقتٌ كانت فيه الأمور أفضل. عندما كنَّا صغاراً، هل

تتذكَّرين ذلك؟ رأيتُ حياتي محدَّدةً، شرطيٌّ في البلدة التي نشأت فيها، زوجةٌ وأطفال، دوري بيسبولٍ مصغَّر، وتخييمٌ».

- «وفنسنت على الجهة الأخرى من الشارع، وربَّما تكون

زوجتاكما صديقتين. تُمضيان العطلة معاً، تشوي، وتراقب أطفالك على الشاطئ».

- «ما زلتُ أرى تلك اللحظة، مرَّت ثلاثون عاماً وما تزال

واضحةً. أستطيع لمسها. لكنني عاجزٌ عن تغييرها».

- «أخبرني عن فنسنت الذي تتذكَّره».

- «لم يكن هناك شيءٌ لن يفعله من أجلي. ذاك النوع من

الولاء الأعمى. كان لديه الكثير من الفتيات حوله، لكن ستار كانت الوحيدة بالنسبة إليه. كان سريعاً بقبضتيه، لكنَّه لم يبدأ قتالاً قطُّ.

كان يبقى صامتاً لأيام في بعض الأحيان، وكنت أعرف أن والده كان يقسو عليه. لقد كان مرحاً. كان كل شيءٍ بالنسبة إليَّ. كان أخي، إنه أخي».

لم يستطع أن يقرأ عينيها عندئذٍ. في الخارج كانت الشمس ساطعةً، والعصافير تزقزق. «كنتُ أظنُّ أنني سوف أتزوجك يا مارثا. أتعرفين هذا؟».

- «أعرف» .
- «أنتِ أول شيءٍ يمرُّ في بالي في الصباح ، وعندما أستلقي في السرير في الليل» .
- «أنتَ معجبٌ بي لأنني آمنةٌ يا ووك . أنا المرأة التي تعكس صورتك . أنا لا أغيّر ، لا مفاجآت فيما يخصّني . امرأةٌ بسيطةٌ ويمكن الاعتماد عليها ، إلى أن تحطمت طفولتنا المثاليّة» .
- «هذا غير صحيح» .
- «بل هو صحيحٌ ، لكن لا حرج في ذلك . نحن نساعد الناس يا ووك ، هذا ما نحن عليه ، ولا يمكنني التفكير في طريقةٍ أفضل للعيش» .
- «لذا ستفعلين ذلك» .
- لم تُجب .
- «هل تعتقدين أننا كنّا سنكون معاً في حياةٍ أخرى؟» .
- «هذه الحياة لم تنتهِ بعدُ ، أيّها الرئيس» . مدّت يدها وهدأت بدفئها ارتجاف يده .



- قام بيتر ولوسي باصطحابهما من منزل آل برايس .
- جلست شيلي معهم داخل سيّارة الدفع الرباعي في المقعد الخلفي ، مشغولةً بالأوراق في أثناء الرحلة .
- تحدّث بيتر وروبن بلا توقُّفٍ عن جيت وكيف كان يخاف الطيور ، وعن مريضٍ عاينه بيتر ظلّ يعاني من الفواق لمدة عامٍ كاملٍ .
- «هل حاولت إخافته؟» ، قال روبن .
- «وجه بيتر وحده يكفي لإخافة أي شخصٍ» . غمزت لوسي

لداتشس عبر المرأة. من جانبها، ابتسمت داتشس، لكنها لم تستطع اصطناع ضحكة. في ذلك الصباح، قالت لها ماري لو إن طبيباً لطيفاً وزوجته لن يرغباً بفتاة كثيرة المشاكل في منزلهما، فتاة تحصل على درجات سيئة وتحب اللعب بالأسلحة. كظمت داتشس غيظها، وأكلت رقائق الذرة في صمت، بينما ذهبت ماري لو إلى التلفاز الذي كانا يشاهدانه وسحبت السلك الكهربائي من المقبس.

توقفوا قليلاً في مكان لا على التعيين على جانب الطريق بينما كان بيتر ولوسي يبدآن مقعديهما. قرأ بيتر في كتيب إرشادات طريقية.

- «ذاهبون إلى صن رود. هل أنتما مستعدان؟».

- «مستعد»، قال روبن.

نظر بيتر إلى داتشس وابتسم.

بالقرب كان روبن يعصر يدها بقوة. «مستعدة».

استغرق الوصول إلى صن رود خمسين ميلاً من الصخور الشاهقة. استقبلهم الضوء في النفق الشرقي، كان افتراق الجبلين يبدو أشبه بافتتاح عرض.

تقدموا بببطء على طول جروف شديدة الانحدار. كان الطريق يتعرج وينعطف من دون أن يفضي إلى شيء في الأمام. كان الأمر أشبه بجولة جميلة جداً في الأفغانية جعلت داتشس تغمض عينيها.

مرّوا بوديان، وشلالات مياه بمحاذاتها، وبزهور بريّة كثيرة الألوان. انزلقت مسارات الجرف نزولاً نحو بحيرات صافية، مالت أشجار الصنوبر الطويلة باتجاه التلّ، كأنّها تحاول ألا تسقط.

أخرجت لوسي كاميرا نيكون وشرعت تأخذ لقطة تلو الأخرى. في الخلف، مالت شيلي نحو داتشس ووضعت يداً فوق كتفها، وشدّتها كأنّها عرفت أنّ الفتاة كانت في حاجة لذلك.

توقفوا قرب نهر جاكسون. أخذت لوسي سلةً من الصندوق وفرشت غطاءً فوق العشب. جلس روبن مع بيتر وأكلا السندويشات ورقائق البطاطس، وشربا العصير وراقبا الظلال المتموجة فوق صفحة الماء.

- «كان جدي سيحبُّ المكان هنا»، قال روبن.

أكلت داتشس ساندويتشها وشكرت لوسي وهي تحاول الابتسام. شعرت أحياناً أنها بعيدة جداً عن مكانٍ لم يسبق لها أن كانت فيه، كأنَّ الوطن في مكانٍ ما هناك يناديها، لكنَّها لم تكن تعرف كيف تجده فحسب. مسحت عينيها بكمِّها، شعرت بلوسي تراقبها وربَّما تتساءل: لأيِّ درجةٍ هذه الطفلة مدمرةٌ؟ هل أريدها حقاً في حياتي الآن ودائماً؟

- «هل أنتِ بخير، يا داتشس؟»، قالت لوسي.

- «نعم، شكراً لك». أرادت أن تبدو صادقةً، لكنها لم تعرف كيف تفعل ذلك. أرادت أن تنقل لها أنَّها تستطيع أن تعيش بهدوءٍ في حياتهما، من دون التسبُّب بأيِّ إزعاجٍ، أو التأثير في أيِّ شيءٍ طالما أنهما يحبَّان شقيقها ويعتنيان به.

وقفت وسارت إلى السياج، انحنت فوقه وراحت تتفرَّج على المياه الضحلة والحجر الأزرق تحتها، والزهور الأرجوانية التي تفيض بألوانٍ برَّاقةٍ، والامتداد الواسع لأشجار السرو السامقة. انضمتْ لوسي إليها لكنَّها لم تقل شيئاً، وكانت داتشس ممتنةً لذلك.

في رحلة العودة ساروا ببطءٍ بسبب الماعز الجبلي والأغنام الكبيرة.

- «ماذا لو سقطوا؟»، قال روبن.

«لا تقلق، أنا طيب»، قال بيتر.

قلبت لوسي عينيها .

راقبت داتشس بيتر بإمعانٍ، كيف يقود فيها بحذرٍ شديدٍ، وكم أنَّ ابتسامته طبيعيةٌ. تخيلتُ حياةً منظّمةً، حيث كل شيءٍ مناسبٌ تماماً وكما يجب أن يكون. كان الرجل يوحى بالهدوء والطمأنينة وعدم التعجُّل. يمرُّ الناس به لكنه ما كان لينتبه أو يهتم. فكَّرتُ في أنه سيكون أباً لائقاً لروبن.

حين وصلوا إلى منزل آل برايس، راقبتُ روبن وهو يعانق بيتر ويطوّق خصر الرجل بذراعيه. كما شاهدت النظرة التي تبادلها، بيتر ولوسي.

عرفتُ داتشس ذلك بشيءٍ من اليقين .
لقد عثرا على بيتهما الجديد .

عملاً وقتاً طويلاً خلال الليل . أعدتُ مارثا القهوة عند منتصف الليل ، ثمَّ مجدداً عند الثانية فجراً .

كانا قد أمضينا فترة بعد الظهر مع فنسنت في إصلاحية فيرمونت . جهّزت مارثا بعض التسجيلات ، وحاولت أن تدرّب فنسنت وتلقّنه ، ولكن لم يكن هناك أيُّ سبيلٍ لجعل فنسنت يصعد إلى المنصّة ، لذا فهو لم يقل أيّ شيء . كان تمريناً بلا جدوى ، لكنّ ووك كان يأمل أنّه حين يرى أنّ مارثا تؤمن به ، لربّما يمنح هذا فنسنت الدافع الذي يحتاجه كي يبوح بكل ما حدث في تلك الليلة ، ويُنزل هذا الحمل عن كاهله أخيراً .

كان في طريقه إلى الداخل حين لحق به كادي ، وناولوه مظروفاً .
- «ما هذا؟» ، سأل ووك .

- «لقد وصل بريدٌ لفنسنت . هو لا يقول الكثير عن أيّ شيء . ظننتُ أنّك قد ترغب في إلقاء نظرة» .

انتظر ووك حتّى بات وحده في غرفة الانتظار قبل أن يفتح الورقة . كانت رسالة مطبوعة ، لكنّها من دارك بلا شك . من الصعب الحصول على التمويل لكنّي لم أستسلم . أعرف أنّني خذلتُك ، لذا

وجدتُ طريقةً لتصحيح الأمور. حظاً سعيداً في المحاكمة، في بعض الأحيان الأمنيات تتحقّق بالفعل.

قرأها عشرات المرّات، بحث عن شيء لم يكن موجوداً، شيء لم يكن يعرفه فعلاً. قد يكون لدارك ضمير، ربّماً. لم يعد هذا مهماً الآن.

عندما سلّمه الرسالة، دسّها فنسنت مباشرةً في جيبه، عاد إلى مارثا وغير الموضوع. ثمّة حدّ فاصلٌ قد تمّ رسمه، ومن الواضح أنّ ووك كان على الجانب الآخر منه.

مع اقتراب المحاكمة، أمضت مارثا أيّامها في الاستعداد، وطلب الخدمات من هنا وهناك، وحتّى في قطع المسافة إلى مقاطعة كامبيرون لرؤية أستاذها القديم الذي كان يعيش هناك.

أسست مع ووك مكتباً في قبو منزله، وقد غطّيا كلّ الجدران بالصور والخرائط. قرأت المحاضر، وتدرّبت على بيانها الافتتاحي مراراً حتّى بات ووك يعرف كلّ كلمة فيه. كانت مارثا تعرف المدّعية العامّة من خلال سُمعَتِها، وعرفت أنّها كانت تستعدّ لأشهر. الوقائع كانت مفحّمة: كان فنسنت كينغ يعرف الضحيّة، وقد عُثِرَ عليه في منزلها وهو مغطّى بدمائها.

كان هناك حديثٌ عن استدعاء ديكي دارك إلى المحكمة، لكنّهم لم يتمكّنوا من العثور عليه. كانت إفادته لدى المدّعية العامّة بالفعل. لم يكن هناك شيءٌ يربطه بمسرح الجريمة، ولفعل ذلك لوجب استدعاء دي لين إلى منصة الشهود، وما كان ووك ليفعل ذلك بطفلتيها. ما من شكٍّ أيضاً في أنّ ووك سوف يُستدعى كشاهدٍ للولاية.

رسما مخطّطاً تفصيلياً لحياة السكان المحليّين وتقاطعاتها. كانت المدّعية العامّة ستدفع بالحجّة القائلة إنّ فنسنت رمى المسدس في الماء. وكانت مارثا تستطيع إثبات أنّ ذلك لم يكن ممكناً في

الوقت الذي كان لديه. نصرٌ صغيرٌ، لكنهما في حاجةٍ إليه. في التاسعة ليلاً، جلس ووك على كرسيٍّ وشعر بالعرشة في يده اليسرى أولاً، ثم في رجله اليمنى. أغمض عينيه وكأنه بذلك يستطيع أن يطرد تلك النوبة بعيداً. أبطأ تنفُّسه ولعن جسده على خيانة كهذه في أكثر الأوقات حرجاً.

- «هل أنت بخير، يا ووك؟».

همَّ بالكلام، لكنَّه شعر بوخزٍ في وجهه، وفكَّه، وشفَّتيه. ثم بالعرشة نفسها تسري في جسده. كان يعرف أنها ستنتهي، لكن ليس في الوقت المناسب. شعر بدموع الخزي الحارة. حاول رفع يده كي يمسحها قبل أن تنتبه مارثا، لكن اليد لم تطاوعه.

أغمض عينيه وأبعد نفسه عن تلك الغرفة، وتلك البلدة، وربَّما تلك الحياة. عاد إلى ووك ذي العشر السنوات وهو يركب درَّاجته مع فنسنت، يقاطعان مساراتهما ويتسلمان منفتحين على العالم بابتسامةٍ لا يجيدها سوى الأطفال.

ثمَّ أحسَّ بيدين دافئتين فوق يديه. فتح عينيه، فرأى مارثا جاثيةً أمامه. عيناها جميلتان، حتَّى وهما مغرورقتان بالدموع.

- «أنت على ما يُرام».

هزَّ رأسه، لم يكن على ما يُرام، ولن يكون على ما يُرام مجدداً. كانت قد مرَّت دزينةٌ من الأعوام منذ أن بكى آخر مرَّة. لكنَّه في تلك اللحظة بالذات انتحب حين نظر حوله ورأى الفوضى العارمة التي أصبحت عليها حياته، انتحب كأنه كان في الخامسة عشرة وفنسنت يُساق بعيداً من جديد.

- «لماذا تحمل فنسنت معك طوال الوقت؟».

- «أنا السبب. تلك الليلة، بعد أن عثرتُ على سيسي، ذهبْتُ إلى منزله ورأيتُ السيارة. فعرفتُ على الفور أنه كان الفاعل».

- «أعرف ذلك . لقد أخبرتني» .

- «لكن كان يمكنني إيقاظه . ربّما كان سيسلّم نفسه . كان ذلك سيبدو أفضل بكثيرٍ بالنسبة إلى القاضي وهيئة المحلّفين . لا بدّ أن القاضي كان سيصبح متساهلاً أكثر . لكن بدلاً من هذا ، وشيتُ به إلى الرئيس دوبوا . مَنْ يفعل شيئاً كهذا؟ مَنْ اللعين الذي يفعل شيئاً كهذا بصديقه؟» .

أخذت مارثا وجهه بين يديها . «لقد فعلت الصواب يا ووك . لطالما فعلت الصواب . الطريقة التي اعتنيتَ فيها بستار حتّى عندما كنتُ أعرف أنّها ستدفعك بعيداً ، ذلك شيءٌ مميّزٌ جداً ، أن يكون لديك القدرة على فعل شيءٍ كهذا هو أمرٌ مميّزٌ جداً» .

- «نحنُ نقاسي ونتحمّل ، صحيح؟ هذا ما نفعله لأجل مَنْ نحُبُّهم» .

- «العالم سيكون مكاناً أفضل لو أنّ فيه المزيد من أمثالك» .

تحدّثتُ بصدقٍ كاد أن يغمره . لكنّه بدلاً من ذلك نظر من فوق كتفها إلى اللوح وصورة صديقه . لم يتبقّ لديهما أيّ وقتٍ لشيءٍ مثل هذا . قبلها ، فجأةً ، ومن دون تفكير .

بدأ يعتذر لكنّ شفّيتها عشتا عندئذٍ على شفّيته ، فقبّلته باهتياجٍ شديدٍ ، وكأنّها كانت تنتظر ذلك ثلاثين عاماً . دفعته إلى الخلف ، ثمّ سحبته ليقف على قدميه واقتادته إلى غرفة النوم . أراد أن يوقفها ، أن يخبرها أنّها كانت ترتكب خطأً آخر ، وأنّها أفضل منه في كلّ شيءٍ . لكن حين قبّلته ، أحسّ أنّه عاد إلى عمر الخامسة عشرة من جديد .

جاءت الأخبار في وقتٍ متأخّرٍ ، هاتف ووك الخلوي أيقظه من أعرق نومٍ حَظِيّ به منذ زمنٍ بعيدٍ . جلس في السرير ، وتأهّبَتْ مارثا بجانبه .

أصغى بصمتٍ، ثمَّ أنهى المكالمة واستلقى ثانيةً.

- «ما الأمر؟».

حدَّق في السقف. «أظهر تشريح جثة ميلتون أنه غرق. لا شيء آخر، لا إصابات أخرى. لقد غرق فحسب».

وقفت مارثا على قدميها بسرعة، برغم الظلمة التي تخيم على المكان.

- «هذا هو يا ووك. هذا هو».

- «ماذا؟».

- «العنصر المغيّر لقواعد اللعبة الذي كنّا ننتظره».

* * *

في تلك الليلة، استفاق روبن باكيًا، والشراشف مبللةً بالكامل. استحوذ عليه الكابوس الذي كان من الواضح لدرجة أنه لم يستطع التحدث في اللحظات الأولى التي احتضنته فيها داتشس.

- «لقد كانت ماما. كنتُ محبوساً في غرفة نومي وسمعت ماما وهي تصرخ. أريد بيتر ولوسي. أريد ماما وجدِّي. أريد أن أعود وأن يكون كلُّ هذا كابوساً».

هدأته وقبّلت رأسه.

بعد أن ساعدته ليغتسل، سحبتُ أغطيةً بلاستيكيةً من السرير الآخر وتمدّداً هناك. تركت الستائر مفتوحةً وتفرّجاً على سماءٍ ليليةٍ مرصّعةٍ بالنجوم وقمرٍ مكتملٍ.

- «سيكون كل شيءٍ على ما يُرام، تعرف ذلك».

- «هل تعتقدين أنهما سيأخذانا إلى وايومنغ؟»

- «إنَّ مستقبلك لم يُكْتَبْ بعد، يا روبن. يمكنك أن تكون ما تريد. أنت أميرٌ».

- «أريد أن أصبح طبيباً مثل بيتر».

- «ستكون طبيباً بارعاً».

بعد أن نام، جلست بجانب النافذة وأخرجت كتابها المدرسي. حَلَّت ورقة التاريخ بأفضل ما استطاعت. هي تعاني مجدداً.

نظرت إلى شقيقها وعرفت أنه كان بلا شك اللون لعتمتها.

في اليوم التالي، وفي أثناء سيرهما نحو المدرسة، واظبت ماري لو على الانحناء والهمس بشيء ما في آذان الأطفال الآخرين ممّا جعلهم يُغَضِّنون أنوفهم بشدة ويضحكون.

- «ما الأمر؟»، قال روبن لداتشس.

- «لا شيء. قد يكون شيئاً غيباً شاهدته على التلفاز».

استمرّت بفعل ذلك طوال الطريق، على طول هيكوري وفي شارع غروف. انضمّ إليهم أربعة أطفال آخرين، التوّم ويليّسون، إيما براون وشقيقها آدم. في كل مرة قامت ماري لو بذاك الشيء نفسه، كانت تقترب منهم وتهمس، ثمّ تراقبهم مبتهجةً بينما هم يتراجعون ثم يضحكون.

«إيووو، مقرّف»، قالت إيما.

نظر روبن إلى داتشس مرةً أخرى. «لم يُرِدْني هنري أن أسير مع الأطفال الكبار اليوم».

- «هنري مجرّد أحمق كبير».

حدّقت فيهم داتشس بينما هم يمشون، في ماري لو التي ظلّت تنظر إلى الوراء وتبتسم، في كيلّي وإيما وهنري اللعين وأصدقائه الأوغاد. شعرت بالرصاص البارد في عروقهها قد بدأ بالذوبان، وقد انصهر بالكامل لدى وصولهم إلى بوابة المدرسة حيث أخذت ماري لو همساتها إلى مجموعة من الأطفال في صفّها. استداروا جميعاً

نحوهما. تحوَّلت الضحكات إلى قهقهاتٍ عاليةٍ، مع وجوهٍ يعلوها
الاشمئزاز.

تحركت داتشس عندئذٍ، أمسك روبن يدها بقوةٍ وسحبها إلى
الخلف.

- «أرجوك»، قال روبن.

- «روبن»، قالت وقد ركعت على العشب وأخذت تمسّد
تمؤجات شعره، «مَن أكون؟».

- «خارجةٌ عن القانون». التفتَ عينُه بعينها.

- «وماذا يفعل الخارجون عن القانون؟».

- «لا يقبلون أي هراء».

- «لا أحد يتنمَّر علينا، لا أحد يضحك علينا. أنا أساندك،
نحن نحمل الدم نفسه».

بدا الخوف في عينيه.

- «اذهب إلى الصف الآن».

دفعته برفقٍ، فاستدار ودخل المبنى، متردداً ومتوتراً.

وقفت، أفلتت حقيبتها، وحدقت في ماري لو، ثم سارت
نحوها. تنحّت الفتيات، إيما وكيللي وأليسون مايرز، ابتعدن جميعاً
فقد سمعنَ قصصاً عنها.

- «هل تريدان إخباري ما هو المضحك إلى هذا الحد؟».

جاء الأولاد و تحلَّقوا حولهما.

لم تتراجع ماري لو، بل رسمت الابتسامة الساخرة نفسها
فحسب. «رائحتك ننته من البول».

- «ماذا؟».

- «سريرك. كنتِ أنتِ الليلة الماضية، رأيتُ أُمي تغسل ملاءة
سريرك. لقد بلَّلتِ نفسك مثل المعوقين».

سمعت داتشس رنين الجرس .
لم يتحرك أحد .
- «لقد فعلتُ ذلك» .
أصواتٌ همهمةٍ وضحكٍ ، وبضع صيحاتٍ لم تستطع فهمها .
- «تعترفين بذلك؟» ، قالت ماري لو .
- «بالتأكيد» .
- «أترين؟» قالت لكيلي ، «أخبرتكَ أنَّ ذلك لم يكن هراءً» . ثم
استدارت ، وبدأت المجموعة بالتحرك .
- «لكن هل تعلمين لماذا فعلت ذلك؟» .
توقفوا جميعاً واستدارت كلُّ الرؤوس نحوها .
راقبتها ماري لو ، غير متأكدة ممَّا سيحدث ، لكنَّها كانت
متحفزةً ومستعدةً .
- «كي لا يقوم والدك بلمسي» .
صمتُ كسكون الحجر .
- «كاذبة» ، قالت ماري لو .
ابتعدتُ كيلى وإيما .
- «أيتها الكاذبة اللعينة» ، صرخت وركضتُ نحو داتشس .
كانت ماري لو معتادةً على الدخول في جدالاتٍ غاضبةٍ تنتهي
بالتدافع ، وربما القليل من شدِّ الشعر في أحسن الأحوال ، لا شيء
أكثر من ذلك . لكنَّها لم تضع في حساباتها مواجهةً مع خارجةٍ عن
القانون في باحة المدرسة .
طرحتها داتشس أرضاً بلكمةٍ عنيفةٍ واحدةٍ .
تكوَّمتُ ماري لو وسقطتُ سنها في العشب ، وأخذ باقي
الأطفال يصيحون عندما سال الدم من فمها .

وقفت داتشس بثباتٍ وهدوءٍ، تراقب فريستها، وتأمل نوعاً ما في أن تنهض لتستأنفا الشجار.

انتهى الأمر عندما هرع مدير المدرسة واثنان من المدرّسين. ألقوا نظرةً على ماري لو وقد تعرّضت للضرب، مُدْمَأةً وفاقدةً لأحد أسنانها، والفتاة الجديدة تقف فوقها مبتسمةً. نقلوها إلى الداخل، وأنصّلوا بالزوجين برايس وبشيلي.

جلست داتشس بمفردها تنتظر، متمنيةً لو أنَّ هال يأتي عبر الردهة ويصلح هذه الفوضى. نظرت من النافذة إلى سماء مونتانا، وتساءلت عن ووك وكيب هيفن، كيف هو شكل السماء التي رأوها في ذاك الصباح عندما تغيّر كل شيء مرةً أخرى. وصلت السيدة برايس باكيةً وذراع زوجها تلفّها.

- «لا مزيد من هذا الهراء، لن نقوم بهذا بعد الآن»، قالت وهي تشهق محدقةً في داتشس بحنقٍ شديدٍ، كأنّها تتمنّى موت الفتاة.

حدّجها السيد برايس أيضاً، فردّت عليه داتشس بنظرة تحدّ. وصلت شيلي إلى هناك وعانقتها. وقفت داتشس بلا حراكٍ من دون أن تردّ لها العناق.

اجتمع الكبار في مكتب المدير. كان الباب ثقيلًا لدرجةٍ لم تتمكّن معها داتشس من تمييز شيءٍ أكثر من أصواتٍ عاليةٍ وغير مفهومةٍ. خرجت السيدة برايس. «خارج منزلي، ولا ليلة واحدة، لأجل سلامة أطفالي».

تمّ استدعاء داتشس بمجرد خروج الزوجين برايس، نظرت بعيداً عندما مرّا بها، كأنها لم تعش مطلقاً تحت سقف منزلهما. سألتها شيلي عمّا قالت عن السيد برايس. فأجابت بالحقيقة، وأنها قالت ذلك كي تُسكّت ماري لو. دعمتها شيلي بأقصى ما

استطاعت، كانت حصاناً خاسراً لكن شيلي ما زالت تدعمها وتراهن عليها.

كان المدير مذعوراً، فتلک الاتهامات خطيرة، ولا مكان للتعنف في مدرستهم. لن يكون مرحباً بها في المدرسة ثانية.

- «أنتِ بخير؟»، قالت شيلي وهما تمشيان خارج المدرسة.

- «أنا على قيد الحياة». لم تُرد داتشس أن تترك روبن هناك.

صعدت إلى سيارة شيلي وجلست صامتة في أثناء توجيههما إلى منزل آل برايس.

وقفت السيدة برايس متحفزة في مطبخها. كان السيد برايس قد

سارع بأخذ ماري لو إلى غرفة الطوارئ لفحصها والنظر بشأن سنها.

أفسح المجال لداتشس أن تصعد إلى العلية وتحزم حاجياتهما. لم

يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. كانت حقيبتها جاهزة منذ يوم وصولهما.

غادرت المنزل من دون أن تقول كلمة أخرى للسيدة برايس

التي وقفت على الدرج وهي تنظر في عينيها بتحد.

قادت شيلي سيارتها في صمت، عائدة إلى المكتب حيث

أجرت العديد من الاتصالات الجنونية، بينما جلست داتشس على

كرسي خشبي قديم وراقبت الساعات تمر.

في الثالثة، قادت شيلي السيارة وتركت داتشس تحت أنظار

سيدتين كبيرتين في السن تبسمان لها كل عشر دقائق.

عادت شيلي مع روبن، الذي كان يبكي.

في الخامسة عثروا لهما على مكان. تحدثت شيلي من دون

انفعال، كانت متعبة ومرهقة من مئات الملفات الأخرى، الحالات

الأخرى، الأرواح الأخرى الضائعة.

«إنه منزل جماعي»، قالت شيلي.

كان المنزل كبيراً، يطفى عليه الطابع الإغريقي بأعمدته المميّزة والطويلة لدرجة شعرت داتشس أنّها ضئيلة بجانبها.

امتدّ هكتارٌ من العشب المُعتنى به جيّداً باتجاه أشجار الحور الرجراج، أخضرٌ غامقٌ قبالة سماء الربيع الزرقاء. جلست داتشس على مقعدٍ مع روبن بينما كانت الطائرات ترسم بدخانها مساراتها في السماء. كانت شيلي في الداخل، تقابل سيدةً سوداءً ضخمةً تُدعى كلوديت، وبدا أنّها تُدير كل ما هو بحاجةٌ للإدارة في دار إرشاد الشباب.

كان روبن هادئاً، مستسلماً لدى وصولهم إلى المنزل، لكنّه متوترٌ بما يكفي ليبقى ممسكاً يد أخته.

- «أنا آسفةٌ». قالت ذلك بنبوةٍ تنمُّ عن حزنٍ شديدٍ لدرجة أنّه وضع رأسه على كتفها لحظةً.

كان هنالك أطفالٌ آخرون، كانوا يلعبون لعبةً معقّدةً: كرةٌ، وثلاثة أطواقٍ، ومضربٌ. تفرّجت داتشس عشرين دقيقةً ولم تتمكّن من تحديد القواعد. لكنّها ميّزت تلك النظرة في عيونهم، إنّهم أطفالٌ ملعونون مثلها. لم يبتسموا أو يومئوا، بل قضوا يومهم فحسب، كأن نجاحهم في جعله ينقضي هو معجزةٌ بحدّ ذاتها. في

الخارج، وقفت سيدة في الشارع، كانت تمسك يد فتاة في عمر روبن وتحقق في المنزل. بدت عليها هيئة المدمنين.

بعد نصف ساعة أكلوا معاً في غرفة طعام تفوح منها رائحة مئة وجبة عشاء يتلعتها مئة طفل. دفع روبن طعامه بعيداً.

صالة مشتركة، وجهاز تلفاز في الزاوية يعرض فيلماً. جلست فتاتان على أريكة بنّية اللون تتفرجان وهما تتناولان الفشار، وبدا أن كلاهما كانت تتجاهل الأخرى.

في الزاوية الأخرى، كان هناك صندوق مليء بالألعاب، بدءاً بالمكعبات وصولاً إلى الأحاجي.

- «اذهب والعب».

مشى روبن مطأطئ الرأس، انحنى والتقط كتاباً صغيراً بالنسبة إلى عمره. جلس على الأرض يقلّب الصفحات بين الحين والآخر، سارحاً على بعد أميالٍ من أخته وتلك الغرفة.

عثرت على شيلي في الردهة.

- «أعلم ما فعلته، أعلم أنني أفسدت الأمر بشكلٍ سيئٍ للغاية...».

اقتربت شيلي منها وحاولت أن تربّت على ذراعها لكن داتشس تراجعت مبتعدةً. «ماذا سيحدث الآن؟».

- «أنا لا...».

- «أخبريني يا شيلي، أخبريني فحسب ماذا سيحدث لي ولأخي».

- «هذا المنزل للفتيات».

هزّت داتشس رأسها.

رفعت شيلي يدها مهدئةً. «كلوديت ستسمح لك بالبقاء مع روبن، بسبب عمره».

تَنَفَّسَتْ داتشس الصعداء. «ماذا عن بيتر ولوسي؟».

ابتلعتُ شيلي ريقها، وأشاحت بنظرها نحو روبن، نحو أيِّ شيءٍ ما عدا داتشس.

- «هل أخبرتهما؟».

- «اضطرتُّ لذلك. بيتر طبيبٌ، ولوسي في المدرسة. ما قلته عن السيد برايس. لا يمكنهما المخاطرة ب...».

- «فهمتُ الأمر».

- «سواصل البحث، نحتاج فقط أن نعثر على خيارٍ مناسبٍ».

- «أنا لا أصلح في أيِّ مكانٍ».

كادت النظرة في عيني شيلي أن تكسرها.

جاء روبن، سارا على طول الرواق، وصعدا الأدراج.

مرًّا بغرف نوم بداخلها أطفالٌ، فتاةٌ تقرأ قصةً بصوتٍ عالٍ وأختها تستمع باهتمام. كانت الجدران ملونةً بدرجاتٍ باهتةٍ من اللونين الوردي والأصفر، صورٌ مثبتةٌ على ألواح فلين، لقطاتٌ عائليةٌ لأسرٍ قد انهارت.

كانت غرفتهما ذات جدرانٍ بيضاء ولوح فلينٍ فارغ، لم يكن وقتهما هناك قد كُتِبَ بعد. سريران ستضمهما داتشس معاً في وقتٍ لاحقٍ، أغطيةٌ مخططةٌ بألوان قوس قزح. خزانةٌ فارغةٌ وصندوقٌ، سلَّةٌ غسيلٍ من الخيزران. كانت السجادة عبارةً عن مربعاتٍ تتناسب مع بعضها مثل قطع الأحجية، ويسهل رفعها إن تلَطَّخت.

- «هل تريدين منِّي مساعدتك في التوضيب؟»، قالت شيلي.

- «سأتولَّى الأمر».

وقف روبن في منتصف الغرفة، نظر إلى النافذة ثمَّ سحب الستائر لحجب الضوء المتسلِّل من الخارج. أضواء المصباح ثمَّ صعد إلى السرير مبتعداً عنهما.

- «متى سيأتي بيتر؟»، قال روبن .

نظرت شيلي إلى داتشس فأخبرتها أن كلَّ شيءٍ على ما يُرام، وأنَّ عليها أن تغادر الآن . قالت شيلي إنها ستعود في اليوم التالي لتتأكد أنَّهما استقرَّا .

تقدمت داتشس نحوه ووضعت يدها على ظهره . «بيتر ولوسي» .

استدار عندئذٍ نحوها ، جلس وحدِّق بها .

لم تقل شيئاً آخرَ ، هزَّت رأسها بحزنٍ فحسب .

انتفض واقفاً على قدميه ، وشمها بكل كلمةٍ يعرفها . هجم عليها وعرز أظافره في خدَّها بقوة . لم ترفع يديها ، أغمضت عينيها فحسب ، فيما هو يرفع الصوت صارخاً بحقائق لم تعد تؤذيها . كانت تعرف تلك الحقائق بالفعل . هي أختُ سيث . هي شخصٌ سيئٌ . بكى كثيراً حتى أخذ يرتعش ، حشر وجهه في الوسادة ، متجنباً من أجل حياةٍ كانت وشيكةً للغاية ، ولبضعة أسابيع هائلةٍ كانت في متناول يده .

تركته داتشس يبكي ملء جفونه . استغرق ذلك الكثير من الوقت . شعرت بالدم يسيل على خدَّها حيث عرز أظافره . عندما نام أخيراً ، خلعتُ حذاءه الرياضي ، غطَّته بالبَطَّانية ، وانزعجتُ لأنَّها لم تنظف أسنانه .

سمعتُ في تلك الليلة جلبةً عبر الرواق ، في الغرفة الصغيرة ، بدا أنَّ شخصاً جديداً مثلهما كان يبكي ، ثم جاءت كلمات كلوديت المهدئة .

تسلَّلت داتشس إلى سرير شقيقها وأخذت تراقبه . فكَرَّت في توماس نوبل وكيف أنَّه لن يتمكَّن من العثور عليهما الآن . لم تكن

تعرف عنوانه لتكتب له . كان يمكنها أن تسأل شيلي ، لكنّها كانت تعرف أنّها لن تفعل ذلك . لم تكن أكثر من هامشي تافه في حياته ، وحياة دوللي ، ووك . لم تترك انطباعاً من النوع الذي يدوم طويلاً ، كان أثرها قبيحاً لكنّه لحسن الحظ قصير الأمد .

- «داتشس» . جلس روبن فجأةً .
- «لا بأس» ، قالت وهي تداعب شعره .
- «لقد رأيتُ حلمًا . ذاك الحلم مجدّدًا . لا أستطيع فهم ما يقوله ذلك الصوت» .
- جعلته يستلقي مجدّدًا .
- «في بعض الأحيان أنسى أين أنا» .
- وضعت يدها فوق قلبه حتّى هدأ .
- «لكن أنتِ هنا» .
- «أنا هنا» ، قالت له .
- مدّ يده ، ولمس وجهها . «هل تسبّبت لك في هذه العلامة؟» .
- «لا» .
- «أنا آسفٌ» .
- «لا تحتاج أبداً أن تقول هذا لي» .

أخذ الربيع ينزاح لصالح وعدٍ بالصيف . وبينما كان ووك ومارثا يستعدّان للمحاكمة ، بدأ طفلا رادلي يذهبان إلى مدرسةٍ جديدةٍ أخرى ، يركبان الحافلة مع الأطفال الآخرين في المنزل ، ويستقرّان في إيقاعات حياةٍ مكبّلةٍ ومحصورةٍ . ما زالت داتشس تحنو على روبن ، وتعتني به مثل أمّ ، لكنّها فعلت ذلك من دون ضجّة ، ونفّذت مهامّها تجاهه بدقّة وإصرارٍ كأنّه كان الشيء الوحيد الذي تُجيده . حاولت جاهدةً أن تبتسم له ، أن تدفعه على الأرجوحة وتلعب معه

بألعابه، وأن تجري معه في الفناء الواسع، وتساعدته على تسلُّق شجرة البلوط. لكنَّها كانت عاجزةً عن تجاوز أخطائها، وشعرت أنَّه كان من المقدَّر لهذه الأخطاء ألا تغرقها هي فحسب، بل وشقيقتها الآن أيضاً.

واظبت شيلي على زيارتهما، وابتسم روبن عندما تغيَّر لون شعرها من الوردي إلى الأزرق. سأل في كلِّ زيارة عن بيتر ولوسي، حتَّى إنَّه طلب عنوانهما كي يكتب لهما. ساعدته داتشس في كتابة الرسالة. أخبرهما أنَّه يعلم أنَّهما هو وأخته غير مناسبين لعائلتهما، وأنَّه لا بأس في ذلك. سأل عن جيت، وعن الطقس الحارِّ في وايومنغ، وكيف يبقى جيت هادئاً في مثل هذا الطقس. وقَّع الرسالة بعبارة «مع حبِّي»، ثم رسم صورةً للمنزل الجماعي، وله ولداتشس. وضع الملتصقات على الورقة، رؤوسُ من الفقايع العريضة والأفواه المستقيمة والتي بدت غارقةً في التأمل. جعل داتشس توقُّع أيضاً، خربشت اسمها داتشس داي رادلي، وذيلتَه بـ الخارجة عن القانون، قبل أن يجعلها تشطب هذه الكلمات الأخيرة.

وصلتها بطاقةٌ بريديَّةٌ من ووك. كان على تواصلٍ مع شيلي، وقد أبقته على اطلاع. كتب لها عن كيب هيفن، وكيف كانت هادئةً بالكامل من دونها، خطُّه كان صغيراً جداً حتَّى إنَّها تمكَّنت من قراءته بصعوبة.

كانت البطاقة عبارةً عن لقطةٍ لكابريلو، وجسر بيكسبي كريك، وتظهر أيضاً القنطرة الكبيرة في بيغ سور، وفي الأسفل تتكسَّرُ الأمواج بهديرٍ تكاد تسمعه. علَّقت البطاقة على لوح الفلين الفارغ بجانب رسالةٍ وصلت من بيتر ولوسي بعد أسبوع. قالوا في الرسالة كلَّ شيء، ولم يقولوا شيئاً في الواقع، أخبروا روبن أنَّ الطقس كان حارّاً أكثر من جهنم، وأنَّ لوسي أصيبت بضربة شمسٍ بينما كانت

تعتني بحديقة المنزل. جعلها روبن تقرأ الرسالة خمس مرّات، كلّ مرّة منها كانت متخمةً بأسئلة لم يكن في وسعها أن تعرف جوابها. ختما الرسالة برسم لروبن وداتشس. كانت لوسي فتانةً رزينةً، لكنّها بالغت في رسم الأبّسامتين، إذ جعلتهما عريضتين جداً. أرفقا مع الرسالة صورةً لجيت. في تلك الليلة، نام روبن والصورة بجانبه، واستيقظ أكثر من مرّة ليتأكّد أنّها ما تزال هناك. في اليوم التالي علّقها داتشس على لوح الفلين فكبرت المجموعة قليلاً.

بدأت داتشس تفكّر في المستقبل، ليس في مستقبلها، بل في مستقبل روبن. انخفضت درجاتها الدراسية مجدّداً مع جلوسها في الزاوية البعيدة من الفصل. تركها الأطفال الآخرون وشأنها، كانوا يعرفون أنّها من دار رعاية أوك فير، لذا من الممكن أن ترحل في أيّة لحظة.

ثمّ في أحد الأيام بدأ صبيّ يُدعى ريك تايد بالسؤال عنها. تبّين أنّ ابنة عمّ ريك كانت كيلبي رايموند، صديقة ماري لو وذراعها اليمنى. سمع ريك القصّة، فوضع عليها بعض التوابل وأرسلها لتشقّ طريقها بين الأولاد. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه القصّة إلى مسامع داتشس، كانت قد أصبحت مسؤولةً عن فقدان ماري لو لإحدى عينيها. من جهتها تركت داتشس الأمر حتّى يتضاءل ويتمّ نسيانه، ولم تفعل شيئاً حتّى عندما جعلها ريك تتعرّض في طابور الغداء وتسقط مع طعامها على الأرض.

لكنّها في اليوم التالي ضربت ريك بشدّة كافية لإرساله إلى الممرضة. استُدعيّت شيلي وتمّت تسوية الأمر. كان المدير على دراية كافية بريك كي يمنع المسألة من أن تأخذ حجماً أكبر من ذلك.

أُعفيت من بقية الدوام لذلك اليوم، فأخذتها شيلي إلى وسط

البلدة التجاري، حيث جلستا خارج مطعم برغر وشربتا مخفوق الحليب المنكه بينما كانت حركة السير تزحف أمامهما. كان الطريق مزروعاً بالمخاريط من أجل استعراضٍ قادم. عُلِّقَت الأعلام، وامتدَّت ساريةٌ فوق الشارع من مبنى على الجهة الأخرى.

- «استعراض التوت؟ يبدو كأسخف استعراضٍ سبق أن سمعتُ

به».

ابتسمت شيلي. «هل تعرفين ما هو هذا اليوم؟».

- «أنا أتابع الأمر». إنه اليوم الأول من المحاكمة. كانت

تستخدم الكمبيوتر حين ينام من في الدار، وتقرأ كلُّ ما تستطيع عن الأمر.

- «أنت بخير؟».

- «بالتأكيد. قال هال إنها ستُحسَم سريعاً. سوف يعدمونه».

تهدَّت شيلي وأمالت رأسها قليلاً.

- «انظقيه»، قالت داتشس.

- «ماذا؟».

- «أيّاً كان ما تريدن قوله».

أخفت شيلي عينيها خلف النظارات الشمسية. «أنا لا أفصل بين الأشقاء أبداً. هم دائماً أفضل حالاً معاً».

- «جيسي جيمس وشقيقه فرانك، سرقا البنوك من أيوا إلى تكساس. قبضت الشرطة على كلِّ أفراد عصاباتهما في نورثفيلد، فيما هرب الأخوان فقط. لقد اعتنيا ببعضهما».

ابتسمت شيلي. «أنا أقوم بهذا العمل منذ عشرين عاماً. لقد عملتُ في كلِّ مكانٍ. ورأيتُ كلَّ شيءٍ. هم يعبرون حياتي، في طريقهم للخروج، ولدى عودتهم. عثرتُ على مكانٍ للمئات، في

- كلّ مرّة... كنتُ أبكي. جعلتُ من هذا الأمر حياتي، وهذا ما يجب أن تكون عليه. لكن —».
- «لا يوجد شيء اسمه طفل سيئ، أليس كذلك؟». كان أثرُ من الذعر مسموعاً في صوتها.
- «أنتِ لستِ سيئةً يا داتشس».
- توقّفتُ بالقرب منهما شاحنةٌ بنفس لون شاحنة هال. شعرتُ داتشس بالمرّ في أحشاءها.
- «روبن في السادسة من عمره. إنّه عمرٌ جيّد. عمرٌ جيّد حقاً، لكنّه لا يدوم طويلاً. من الصعب قول ذلك، بل حتّى التفكير فيه». وضعت داتشس حليها المخفوق وراحتُ تحدّق فيه.
- «هل تفهمين ما الذي أقوله يا داتشس؟».
- «أفهم ماذا تقولين».
- أخرجتُ شيلي منديلاً من حقيبتها، رفعتُ نظارتها ومسحتُ عينيها. بدت أكبر سنّاً عندئذٍ، كأنّ السنين قد أضنتها، إنّه العبء الناجم عن مثل هذه المسؤولية الخاصّة والفضيحة طوال الوقت.
- «سأموت قبل أن أتخلّى عن أخي».
- «الأمر لا يتعلّق بالتخلي».
- «الأمر يتعلّق بأن أثق في تركِ أمر رعايته لشخصٍ لم أقابله أبداً، وأنا لم أقابل الكثير من الأشخاص المحترمين في حياتي. لا تعجبني هذه الاحتمالات».
- «فهمت ذلك».
- «أهو سلوكٌ إثاري؟».
- نظرت شيلي إليها.
- «أهو كذلك؟». كان اليأس يملأ عينيها الآن. «هل فعلُ ذلك

هو سلوك إيثاري؟ إنه رقيق جداً، إنه طيب جداً ورقيق، وهو بحاجة إلى أخت أفضل مني. هل يمكنك منحه ذلك يا شيلي؟ أنا أفقده، إنَّ القسوة تملكه شيئاً فشيئاً. لا يمكنني السماح بحدوث ذلك. ما زال يستيقظ في الليل، وعندها يكون بحاجة إليّ. يناديني، وإن لم أكن هناك —».

شدَّتْها شيلي وحضنتها بقوة.

- «اللعنة».

- «سيكون كلُّ شيءٍ على ما يُرام».

- «لن يكون، لا شيء من ذلك».

- «لن أفعل ذلك بك أبداً يا داتشس. لن أفعل أي شيءٍ من دون التحدث إليك أولاً. ويمكنني أن أرى أنَّ فصلكما ليس أمراً صائباً. الأشقاء بحاجة إلى البقاء معاً، سوف أستمِر في البحث، سنجِد الخيار المناسب. أعدك بأنني سوف أستمِر في البحث».

لثلاثة أيام من العذاب الشديد، كان ووك ومارثا يقودان بشرود في طريق عودتهما إلى كيب هيفن، ويستلقيان مستيقظين على سرير ووك، عاجزين عن محو الصورة المرسومة سلفاً للسجين الذي أمضى ثلاثين عاماً في التخطيط للانتقام من الفتاة التي لم يكن بإمكانه الحصول عليها.

كانت البيانات الافتتاحية موجزة، سبع دقائق لمارثا، وثمانية عشرة دقيقة للمدعية العامة، إليز ديشامب. كانت ديشامب مثيرة للإعجاب: قائمة طويلة من الشهادات، ملابس أنيقة، شعر أسود يحيط بوجهه شاحب. انبلج الصدق من ملامحها وهي تشيد بهيئة المحلفين وتخبرهم بأنها تعمل من أجلهم، ومن أجل ولاية كاليفورنيا، ومن أجل ستار رادلي وطفليها اليتيمين. لقد كانت صوتهم، وصوت عدالتهم. سيكون الدليل دامغاً، قتلٌ مع سبق الإصرار وبدم بارد. كان فنسنت كينغ قاتلاً. أودى بحياة طفلة، ثم بحياة زميل له في السجن. أصبح القتل سهلاً عليه. سيُضح لهم أنه لا خيار لديهم سوى إدانة الرجل، وإصدار حكم الإعدام بحقه. لن يكون الأمر سهلاً، لكنّها كانت بحاجة إليهم. طفلا رادلي كانا بحاجة إليهم.

كانت ديشامب بارعةً، فهي خريجة كلية الحقوق في جامعة ييل، وكانت محاطةً باثنين من الزملاء اللذين راقبا ودَوَّنا الملاحظات، وأوماً برأسيهما في الأوقات المناسبة. الكَتَبَةُ، حُجَّاب المحكمة، المصور والمراسلون. مجموعةٌ صغيرةٌ لتشاهد رجلاً يقرَّر مصيره.

رغم الأفكار المبهمة وطريقة ديشامب البارعة في تهدئة هيئة المحلفين، كانت الحقائق المقدَّمة صلبةً ولا تقبل الجدل. استدعت الطبيب الشرعي من مختبر الولاية الجنائي، وأخذت تسرد مؤهلاته العديدة والرفيعة المستوى، حتى إنَّ مارثا تحرَّكت وقالت بنبرة أقرب إلى الهتاف: نعم، يمكن عدُّه خبيراً. احتجت ديشامب، وتعامل القاضي رودس مع الوضع بشكلٍ جيد. ابتسم ووك، ورأى فنسنت يفعل الشيء نفسه.

عرض عليهم الطبيب الشرعي صوراً ملتقطةً من مسرح الجريمة، هزَّ المحلفون رؤوسهم، وبكى أحدهم. قدَّم شرحاً تفصيلياً للضربات التي كانت قويةً بما يكفي لكسر ثلاثة من ضلوعها. تتبع مسار الرصاصة، الرصاصة القاتلة في الصدر، ورَجَّح أنها ماتت قبل أن تصطدم بالأرض. كانت هناك رسومٌ بيانيةٌ على حاملٍ، وتوضيحاتٌ من علم التشريح.

أطلعهم الرجل المسؤول عن بصمات الأصابع على البصمات التي رُفِعَتْ من منزل آل رادلي. كانت بصمات فنسنت كينغ في المطبخ، والرواق، وغرفة المعيشة. كما رفعوا واحدةً عن الباب الأمامي. بعد ساعةٍ تعبت هيئة المحلفين. لم يكن وجود فنسنت كينغ في مكان الحادث موضع تساؤلٍ أبداً.

خبيرٌ آخر، خبير مقذوفاتٍ، سلاحٌ وُظِفَ ليتحدَّث عن

الأسلحة. وعن المسدس نفسه، وعلى الرغم من أنه قد تعذر العثور عليه، فإن الرصاصة المسحوبة من جسم ستار رادلي كانت من عيار ماغنوم 357.

هنا هرولت ديشامب كما كانوا يعرفون أنها ستفعل. أخرجت ورقةً ولوّحَتْ بها في الأرجاء كأنّها كانت تحترق. كان لدى والد فنسنت كينغ مسدّسٌ مسجّلٌ باسمه، مسدّسٌ روجر بلاك هوك من طراز ماغنوم. طلبت من هيئة المحلفين تخمين عيار السلاح، ونوع الرصاصة التي أطلقها. تفرّس ووك في ملامحهم بدقّة. كانت ديشامب مثل لاعب بيسبولٍ سجّل هدفاً مضموناً عبر ضرب الكرة بقوةٍ ساحقةٍ جعلتها تطير بعيداً خارج حدود الملعب، وعيون المحلفين تتبّع بإعجابٍ هذا التحليق المبهّر.

في المقابل، حاولت مارثا تسجيل نقاطٍ ثانويةٍ بجعل الرجل يعترف بأنّه وعلى الرغم من أنّ ماغنوم 357. هو من المسدّسات الأقلّ شيوعاً، إلّا أنّه ما يزال من الممكن شراؤه على نطاقٍ واسعٍ. لكن الضرر كان قد وقع.

أوغلت ديشامب في تفصيل حياة ستار، طفولتها الصعبة، والموت المأساوي لشقيقتها الصغرى، ومن ثمّ وفاة والدتها. قامت بسرد الأحداث. جلس فنسنت كينغ هناك مكتوف اليدين، أغمض عينيه فحسب حين تحدثت عن ذلك الجزء من الغابة حيث وجدوا جثة تلك الفتاة الصغيرة وقد تُركتْ لتموت، باردةً ووحيدةً. انتقلت بعد ذلك إلى انتحار والدتها، وكيف عثرت ستار عليها، وأيُّ أثرٍ قد تكون تركته تلك اللحظة فيها. وأخيراً، مع وعدٍ أكثر إشراقاً، ورغم أنّها كانت مضطربةً بما يكفي، فقد كرّست نفسها لطفليها، داتشس وروبن، اللذين انتهى بهما المطاف الآن في منزلٍ جماعيٍّ في بلدةٍ لا يعرفانها، في مدرسةٍ حيث كان عليهما البدء من جديد، على بُعدٍ

ألف ميلٍ من البيت. عرضت عندها صورةً أخرى، الثلاثة معاً على الشاطئ، كان ووك قد التقطها بنفسه في يومٍ من الهدوء النادر. استدعِي ووك كشاهد ولايةٍ، إلى جانب حفنةٍ من أوائل المستجيبين للحادثة. بصفته أوّل الواصلين إلى مسرح الجريمة، جلس على المقعد في القاعة المهيبة، تنحنح وقال الحقيقة بكل ما فيها من بشاعة. الدم على فنسنت، الهدوء المريب في صوته. لم يُحرّف تفصيلاً واحداً، بل شرح بوضوح وبساطة، ونظر إلى صديقه بين الحين والآخر. منحه فنسنت ابتسامةً صغيرةً، ولسان حاله يقول: لا بأس، قُم بعملك يا ووك.

بعد ثمانية أيام أخذت الولاية استراحة، ذهب ووك ومارثا إلى الحانة على الجهة المقابلة للمحكمة، حيث أخذوا مقصورةً في الخلف واختارا وجبةً من القريدس المثلّج المقلي. - «كيف يُبلي فنسنت برأيك؟».

- «أوه، إنّه فاتنٌ فحسب»، قالت مارثا، «تراودني شبه فكرة في أن أجعله يعتلي المنصة، وأدع المحلّفين يرون كم هو هادئ، عندها ندفع بحجة الجنون، فيقضي ما تبقى من حياته في زنزانية محصنة. هذا أفضل من الحقنة القاتلة، أليس كذلك؟».

التقط ووك قطعة قريدس، تفحصها، ثم أعاد وضعها فوق الورق المشبع بالزيت. «كم ستستغرق مرافعتك؟».

- «يومان. سأتلو دفاعي وأستدعي شهودي، ثم سيربحون القضية ويرسلونه إلى حتفه»، قالت وهي تحدّق في مشروبها الغازي.

- «أنتِ تقومين بعملٍ جيّد يا مارثا. أنتِ حقاً تبدين جيّدةً هناك».

- «حاول ألا تطيل النظر إلى مؤخّرتي. إنّه تصرف مفترس».

- «حذاؤك هو الذي ينال مني، التزامك بطراز تشاك تايلور». مدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت زجاجةً من الصلصة الحارة.
- «أنتِ تمزحين معي بهذا الشأن. أنتِ تحملين هذا الشيء معكِ في الواقع!».

- «هي تحتوي أيضاً على التوابل»، سكبت من الزجاجة بسخاءٍ، «هل لاحظتَ أنني أضع صليباً؟»، أشارت إلى قلادتها، «المحلّفون رقم ثلاثة، وتسعة، وعشرة هم من رواد الكنيسة النشطين». قامت من جانبها بالأبحاث اللازمة، وأمضت يومين من العذاب لتحديد اختياراتها لهيئة المحلّفين، فاستبعدت اثنين من المرشّحين اللذين بدا أنهما قد يتطوَّعان لإعدام الرجل بنفسيهما، كما تحرّكت باتجاه بعض الخيارات الليبرالية فقط كي ترى ديشامب تردُّ الجميل.

- «ذاك المسدّس»، تنهّدت، «تلك الرصاصة. وكأنّ الأمر لم يكن سيئاً بما فيه الكفاية».

أخذ ووك نفساً وقوراً. «أنا أوّمن بك».

- «أنتِ تحاول إغوائي فحسب».

لاحظ ووك أنّها بدت قلقةً في الصباح التالي. وقفوا عندما دخل القاضي رودس وجلس فوق الكرسي الكبير بين الرايتين. جلس فنسنت في المقدمة مرتدياً بذلةً رخيصةً كان ووك قد اختارها، ومن دون ربطة عنقٍ، فقد رفض بشكلٍ قاطع أن يضعها. استدعت مارثا أولاً طبيبها الشخصي، السيّد كوهين. كانت قد ساعدت ابنته ذات مرّة على الخروج من مأزقٍ بشعٍ، قصّةٌ مؤسفةٌ أخرى عن متبطلٍ سافلٍ سريع الغضب، لكنّ كوهين كان ممتناً لها بما يكفي كي يردّ الجميل لمنقذة ابنته الصغيرة.

أَظْلَعُوا عَلَى صُورٍ لِإِصَابَاتِ سِتَارِ رَادَلِي، وَأَشَارَ كِلَاهُمَا إِلَى خَطُورَتِهَا. ثُمَّ عُرِضَتْ صُورٌ لِيَدَيَّ فَنَسَنْتُ كَيْنَغ. كَانَ هُنَاكَ تَوْرُمٌ خَفِيفٌ عَلَى الْيَدِ الْيُمْنَى، لَكِنْ يُرَجَّحُ أَنَّهُ قَدِيمٌ، وَمِنْ الْمُرَجَّحِ أَيْضاً أَنْ يَكُونَ نَاجِماً عَنْ مَشَاجِرَةٍ كَانَتْ فَنَسَنْتُ قَدْ خَاضَهَا قَبْلَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ.

فِي الْمَقَابِلِ، جَعَلْتُ دِيَشَامِبَ الدَّكْتُورَ كُوِهَيْنَ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْدُدَ عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ مَتَى حَدَثَ التَّوْرُمُ، وَأَنَّ رَجُلًا بِحِجْمِ فَنَسَنْتُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَسَبِّبَ الْأَذَى بِسَهُولَةٍ حَتَّى يَبْدَ مَفْتُوحَةٍ.

انْتَقَلْتُ مَارِثَا بَعْدَهَا إِلَى مَسْأَلَةِ بَقَايَا الطَّلُقِ النَّارِي، أَحْضَرْتُ خَبيراً لِأَجْلِ ذَلِكَ، عَالِمَةً فِي الطَّبِّ الشَّرْعِيِّ تَمَّ تَوْظِيفُهَا عَلَى نَفَقَةِ وَوَكْ، مِنْ مَذْخَرَاتِهِ الْمُتَنَاقِصَةِ الَّتِي جُمِعَتْ عِبْرَ حَيَاةٍ مِنَ الرِّصَانَةِ وَالتَّحْفُظِ. كَانَتْ الْخَبِيرَةُ شَابَّةً لَكِنَّهَا وَاثِقَةٌ بِنَفْسِهَا، وَقَدْ اسْتَحْوَذَتْ عَلَى انْتِبَاهِ كُلِّ مَنْ فِي الْقَاعَةِ بَيْنَمَا كَانَتْ تَتَحَدَّثُ. أَدَارَتْ دَفَّةَ سَفِينَةٍ بِالْعِلْمِ، شَرَحَتْ الْمَرْكَبَ الْأَسَاسِيَّ، وَرَدَّتْ الْفِعْلَ الْمُتَسَلْسِلَ، وَالنُّثَارَ الْمُتَطَايِرَ فِي أَثْنَاءِ إِطْلَاقِ النَّارِ. لَمْ يُعْثَرْ عَلَى أَيِّ نَوْعٍ مِنَ الْبَقَايَا عَلَى فَنَسَنْتُ كَيْنَغ.

شَاهَدْتُ مَارِثَا خَبِيرَتَهَا تَعْتَرِفُ فِي أَثْنَاءِ اسْتِجَوَابِهَا مِنْ قَبْلِ الْإِدْعَاءِ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الْبَقَايَا قَدْ غُسِلَتْ، فَقَدْ كَانَتْ الْحَنْفِيَّةُ مَفْتُوحَةً بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ مُتَعَرِّقاً، وَالْبَقَايَا مَا كَانَتْ لَتَلْعُقَ عَلَيْهِ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ إِذَا غَادَرَ فَنَسَنْتُ كَيْنَغَ الْغُرْفَةَ بَعْدَ إِطْلَاقِ النَّارِ مُبَاشَرَةً.

أَخَذَ وَوَكْ مَكَانَهُ عَلَى الْمَنْصَّةِ مَرَّةً أُخْرَى. رَسَمَ ابْتِسَامَةً عَلَى وَجْهِهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ كَانَ صَدِيقَ طِفْوَلَةٍ فَنَسَنْتُ لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ. كَانَ فِي الْوَاقِعِ هُوَ الشَّخْصُ الَّذِي سَلَّمَهُ قَبْلَ كُلِّ تِلْكَ السَّنَوَاتِ. إِنَّ وَاجِبَهُ يَتِمَثَّلُ فِي إِنْفَازِ الْقَانُونِ، وَمَا كَانَ لِيَسْمَحَ لِأَيِّ شَيْءٍ بِأَنْ يَقِفَ فِي طَرِيقِ ذَلِكَ.

بعد ذلك، تقدّمتُ مارثا إلى الأمام، أخذت نفساً عميقاً، وأطلقتُ رصاصتها القاتلة.

الجزّار.

ميلتون.

ضَيَّقْتُ ديشامب عينيها وعدّلت من وضعية جلوسها بعض الشيء.

طلبت مارثا من ووك أن يسرد بعض التفاصيل حول طفولة ميلتون، وكيف كان والده جزّاراً في المتجر الذي أصبح هو يديره. قال ووك إنّه كان منبوذاً، صبيّ من النوع الذي يعبر الأطفال الآخرون الشارع كي يهربوا منه. اعترضتُ ديشامب بالقول إنّ كلاماً كهذا لا يتعدّى كونه إشاعاتٍ غير مثبتة، لكنّ المطلوب توضيحه كان قد وُضِح وانتهى الأمر.

تحوّل ذلك المنبوذ إلى بالغ مضطرب. كان وحيداً لدرجة أنّه كان يتحدث كثيراً إلى المصطافين ويطلب منهم الذهاب معه إلى الصيد. نعم، كان ميلتون يعشق الصيد. قامت مارثا بتفصيل الأسلحة المسجّلة باسمه، كانت القائمة طويلة، وراقب ووك المحلّفين يتبادلون النظرات عندئذٍ.

- «هل يمكنك القول إنّك كنت قريباً من ميلتون؟». وقفتُ مارثا قرب مقصورة المحلّفين وهي تتحدّث.

- «لقد أحببته. وكنتُ أشعر بالأسى حيال الرجل، إذ لطالما بدا يائساً بعض الشيء، لكن اتّضح لي أنّه كان خجولاً فحسب. لم يكن لديه أصدقاء، ولا أحد ليزوره».

- «إذاً كان يزورك؟».

- «أحياناً. ذهبنا للصيد معاً مرّةً واحدةً فقط، أحببتُ الأكل وليس القتل».

ضحك بعضهم .

- «كان ماهراً في استخدام هذه الأسلحة إذاً» .

- «كان أكثر من ماهر . رأيته يُردي غزالاً عن بعد ألف ياردة .

كان الرجل بارعاً بحق» . وجّه ووك إجابته إلى المحلّف رقم واحد ، والذي كان يصطاد غزال الميندوتشينو ، تماماً مثل ميلتون .

انتقلت مارثا بعدها لتوضّح أنّ ميلتون كان يعيش على الجهة المقابلة لمنزل ستار ، وكيف أنّه اعتاد أن يعيرها شاحنته ، ويُخرج قمامتها .

- «لطالما اعتقدتُ أنّ هذا سلوكٌ نبيلٌ منه» ، قال ووك ، «كان

لديها أحدٌ ما ليعتني بها» .

- «أحدٌ ما سواك؟» .

- «نعم» .

التقت عندئذٍ عينه بعينها . كانت تُبلي حسناً ، وكان فخوراً بها .

لفتت مارثا انتباههم إلى مجموعة صورٍ .

- «هل تستطيع إخباري ما هذه أيّها الرئيس ووك؟» .

قدّم لهم ووك شرحاً عنها ، إنّها الصور التي عثر عليها في غرفة نوم ميلتون . هزّ بعض المحلّفين رؤوسهم لدى رؤيتهم صوراً لستار في أوضاع متنوّعة من العُري .

- «وكم يُوجدُ من هذه الصور هناك؟» .

نفخ ووك خديّه . «الكثير منها ، إنّها بالمشات . مفهرسةٌ حسب

التاريخ رجوعاً إلى الوراء» .

- «إنّه هوسٌ إذاً» .

بدت ديشامب كأنّها تريد أن تعترض ، لكنّها أحجمت عن ذلك .

- «هذا ما يبدو الأمر عليه» ، وافق ووك .

- «قُلْتُ إِنَّ لَدَى مِيلْتُون تَيْلَسْكَوْبَا» .
- «قَالَ إِنَّهُ كَانَ يَحِبُّ مِرَاقِبَةَ النُّجُومِ» . قَالَهَا وَوَكَّ بِحَيَادِيَةٍ،
وَانْتَظَرَ أَنْ يَفْهَمَ الْمُحَلِّفُونَ التَّوْرِيَّةَ .
- «لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُوجَّهًا إِلَى السَّمَاءِ؟» .
- وَقَفْتُ دِيْشَامِبَ، لَكِنَّهَا لَمْ تَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ عَاوَدَتْ الْجُلُوسَ .
- «إِلَى أَيْنَ وَجَّهَ إِذَا؟» .
- «إِلَى غُرْفَةِ نَوْمِ سِتَارِ رَادْلِي» .
- «وَالْفَهْرَسَةِ، مَا مَدَى حَدَائِثِهَا؟» .
- «إِلَى اللَّيْلَةِ الَّتِي قُتِلَتْ فِيهَا سِتَارُ» .
- «وَالصُّورُ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ؟» .
- «إِنَّهَا مَفْقُودَةٌ . لَمْ يُعَثَّرْ عَلَيْهَا بَعْدَ» .
- نَظَرْتُ مَارْتَا إِلَى هَيْئَةِ الْمُحَلِّفِينَ . «وَمَاذَا قَالَ مِيلْتُونُ حِينَ سَأَلْتَهُ
عَنْ ذَلِكَ؟» .
- «لَمْ تُتَّخَ لِيَ الْفُرْصَةُ . لَقَدْ انْتَشَلْنَا جَسَدَهُ مِنَ الْمَاءِ الشَّهْرِ
الْمَاضِي» .
- عَلَا صَوْتُ الشَّهَقَاتِ عِنْدِي لِدَرَجَةٍ أَنَّ رُودَسَ تَدَخَّلَ لِتَهْدِئَةَ
الْحَضُورِ .
- «لَقَدْ غَرِقَ»، قَالَ وَوَكَّ، «وَمَا مِنْ عِلَامَةٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ
جَرِيْمَةُ قَتْلِ» .
- «انْتَحَارَ» . تَرَكْتُ مَارْتَا الْكَلِمَةَ عَالِقَةً فِي فُضَاءِ الْقَاعَةِ، بَيْنَمَا
نَهَضْتُ دِيْشَامِبَ عَلَى قَدَمَيْهَا وَأَعْلَنْتُ عَنْ اعْتِرَاضِهَا . سَحَبْتُ مَارْتَا
تَعْلِيْقَهَا الْآخِرَ، لَكِنْ لَيْسَ قَبْلَ أَنْ يَتْرَكَ أَثْرًا عَلَى كُلِّ مَنْ فِي قَاعَةِ
الْمَحْكَمَةِ .
- حَاوَلْتُ دِيْشَامِبَ جَاهِدَةً إِعَادَةَ تَوْجِيهِ الْجَوِّ الْعَامِ . كَانَ الدَّمُ قَدْ

تَدْفَقُ فِي وَجْتِهَا فِيمَا كَانَتْ تَدْفَعُ وُوكَ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْتَرَوْا عَلَى بَصْمَاتٍ لِمِيلْتُونَ فِي مَنْزِلِ آلِ رَادَلِي. يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ ارْتَدَى قَفَّازَاتٍ. لَمْ يَكُنْ وُوكَ فِي حَاجَةٍ لِقَوْلِ ذَلِكَ، فَالرَّجُلُ كَانَ جَزَّارًا، وَكَانَ يَرْتَدِي الْقَفَّازَاتِ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ. لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ يَتَطَلَّبُ التَّوَسُّعَ فِي الشَّرْحِ.

كَانَ الْمَزَاجُ فِي الْحَانَةِ أَفْضَلَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ. طَلَبَ وُوكَ لِهَمَا الْبَرْغَرِ، وَأَكَلَا فِي صَمْتٍ يُوْحِي بِالرِّضَا. بَدَثُ مَارْتَا مَتَعَبَةً، كَانَ الضَّغْطُ عَلَيْهَا رَهِيْبًا. تَحَدَّثَا قَلِيْلًا عَنِ فَنْسَنْتِ، وَكَيْفَ أَنَّهُ لَمْ يَتَفَاعَلَ مَعَ مَوْضُوعِ مِيلْتُونَ، بَلْ جَلَسَ هُنَاكَ فَحَسَبَ كَمَا هُوَ الْحَالُ دَائِمًا، مَتَجَاهِلًا الْعَيُونَ الْمَصُوبَةَ نَحْوَهُ.

- «كَانَ يَوْمًا جَيِّدًا».

مَضَعَتْ مَارْتَا الْقَشَّةَ فِي مَشْرُوبِهَا الْغَازِي. «مَا يَزَالُ هُنَاكَ الْكَثِيرُ يَا وُوكَ».

نَظَرَ إِلَيْهَا.

- «هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِمَّا لَا يُمْكِنُ تَجَاهُلُهُ. أُرِيدُ مِنْكَ أَلَّا تَرْفَعُ سَقْفَ آمَالِكَ. هَذِهِ الْقَضِيَّةُ لَمْ تَكُنْ قَابِلَةً لِلرِّبْحِ مُطْلَقًا، لَكِنَّا فَعَلْنَا كُلَّ مَا فِي وَسْعِنَا. كُنَّا مُحْظُوظَيْنَ بِمِيلْتُونَ، بِقَدْرِ مَا يَبْدُو وَقَعَ ذَلِكَ سَيِّئًا. لَكِنَّ الْأَمْرَ يَتَطَلَّبُ الْمَزِيدَ. الْمَسَدَّسُ، الرِّصَاصَةُ. التَّارِيخُ الْقَابِعُ خَلْفَ كُلِّ شَيْءٍ. الدَّمُ عَلَى يَدَيْهِ. اللَّعْنَةُ، كُنْتُ لِأَدِينَهُ بِنَفْسِي لَوْ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ».

- «لَكِنَّاكَ تَعْرِيفُهُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟».

- «هَيْئَةُ الْمُحْلَفِينَ لَا تَعْرِفُهُ».

مَشَى بِرَفْقَتِهَا إِلَى الْخَارِجِ، وَتَوَقَّفَتْ بِالْقَرْبِ مِنْ سَيَّارَتِهَا. «هَلْ تَرِيدِينَ الْعُودَةَ إِلَى مَنْزِلِكَ؟».

- «المرافعات الختامية في الغد. يجب أن أنام باكراً».

راقبها وهي تغادر، ثم ركب في الكروزر واتّجه عائداً إلى المركز. كان الوقت متأخراً، ولما قد أنهت نوبتها، المكان غارق في الظلام، لكنّه لم يحضر إلى هنا منذ بدء المحاكمة. وجد كومة من الأوراق على مكتبه، أشعل الأضواء، وتهالك فوق كرسيه. غرف بعضاً من المظاريف البريدية، فتح زوجاً منها قبل أن يصل إلى مظروف لشركة فيرايزون للاتّصالات يحوي سجلّ المكالمات لهاتف دارك الخليوي. كان بويد قد أرسله إليه.

كانت هناك صفحات ترجع إلى عام مضى، الأرقام صغيرة حتّى إنّه تعيّن على ووك تضيق عينيه والتحدّيق جيداً. فكّر في أنّه قد يرجع إلى هذا السجلّ بمجرد انتهاء المحاكمة. قلب الأوراق سريعاً فيما هو يتشاءب ويتمطّط. لم يكن يتوقّع أن يحصل منها على أيّ شيء ذي قيمة.

لكنّه عندئذٍ عثر على ذلك التاريخ، 19 ديسمبر، يوم وفاة هال. علقت عيناه على الأرقام التي كان يعرفها جيّداً. ركّز مجدداً ظناً منه أنّه سوف يرى شيئاً مختلفاً. بعد ذلك، سقطت الورقة منه فوق المكتب. الاتّصال إلى هاتف دارك الخليوي. لقد أجري من داخل مركز شرطة كيب هيفن.

راقبها وهي تبكي. جلسا في الفناء، كانت كيب نائمة. وهي كانت مستيقظة، الظلال السوداء تحت عينيها أخبرته أنّها لم تعد تنام. ذرفت دموعاً غامقة من الماسكارا.

في الأعلى قمرٌ مكتملٌ سلَّطَ الضوء على الحزن المخيم .
مسحتُ ليا تالو عينيها، شهقتُ، ثمَّ عاودت البكاء بعض الوقت .
كان قد غدَّ السير إلى منزلها في صمتٍ، في محاولةٍ يائسةٍ للعثور
على إجابة .

- «هل تريدان إخباري؟» .

لم تحاول الكذب . حدَّقتُ في العشب، وهدأتُ تماماً كأنَّها
كانت تنتظر أن يسأل . «كنا نكافح وقتاً طويلاً» .
أخذ نفساً طويلاً، آملاً أن يتجنَّب النوبة بضع لحظاتٍ إضافية،
عارفاً أنَّه بمجرد أن تأتي فسوف تتغيَّر الأمور .

- «إنَّه المال يا ووك» .

تمعَّن في نظرتها المعذَّبة .

- «إد . العمل، لقد ضاع كلُّ شيءٍ» .

- «ضاع؟» .

رفعتُ بصرها نحوه .

- «اربطي لي النقاط يا ليا» .

نظرتُ نحو المنزل . «تالو للإنشاءات، لقد كانت موجودةً في
عائلة إد سبعين عاماً . تولَّى زمام الأمور فيها عن أبيه، والذي تولَّأها
بدوره عن جدِّه . في العادة كانت الشركة تدرُّ أرباحاً محترمةً .
وكانت توظِّف نصف البلدة . يا إلهي، ما زال لدى إد خمسة عشر
رجلاً . نحن ندفع لهم من مدَّخراتنا الخاصة في معظم الأشهر . ومن
ثمَّ توفي والد إد، وترك لنا المنزل في فورتونا، في الصف الثاني .
ليس بالشيء الكثير، إنَّه كثيرٌ بالنسبة إلينا، لكنَّه ليس كذلك في
العالم الحقيقي» .

- «كان يمكنكم بيع النشاط التجاري ووضع حدٍّ للخسائر» .

- «ما كان إدا ليفعل . هو يحبُّ البلدة مثلك يا ووك . لكننا بحاجة إلى التغيير، إلى المنازل الجديدة، والأموال الجديدة . وقد وقفتَ بوجهه، أنتَ والآخرون، وقمتَ بالتصويت ضده كَلِّما تسنَّى لك ذلك» .

- «آخر ما سمعته أنَّ المشاريع ستمرُّ بصرف النظر عن التصويت» .

- «لكنَّ الألوان فات بالنسبة إلينا . لقد دفنَّا أحياء، أنتَ تعرف ذلك» .

ترك للجملة الأخيرة أن تجثم هناك برهةً، تساءل عن دوره، عن حاجته لمنع كيب هيفن من المضيِّ قدماً من دونه، من دون فنسنت وستار ومارثا .

- «دارك؟»، قال لها .

أخذت عندئذٍ نفساً عميقاً . «لقد اشترى منَّا منزل فورتونا بسعرٍ زهيدٍ . وفي المقابل كانت العقود جاهزةً كي يقوم إدا بهدمه مع بقية المنازل في الشارع . وكان إدا سينفِّذ أعمال البناء أيضاً، كل تلك المنازل والشقق كانت ستنقذنا يا ووك . وكانت لتنقذ كيب أيضاً، كيب الحقيقية، وسكَّانها الأصليين الذين وُلِدُوا هنا» .

- «لكنَّ كلَّ ذلك ضاع هباءً الآن» .

- «ليس بعد» .

- «لا أفهم» .

- «منزل آل كينغ . التأمين . لدى داتشس رادلي تسجيل كاميرات المراقبة . لو أنَّها تعيده إلى دارك فحسب، عندها سوف تدفع له شركة التأمين، وسوف نستعيد كل تلك الأعمال» .

انتظر برهةً كي يستوعب الأمر . «كم المبلغ؟» .

- «كلُّ شيءٍ. المنزل، الرهن الثاني على الشركة، بطاقات الائتمان والقروض. تَبَّأً، ووك، كلُّ شيءٍ. لم يعد باستطاعتنا حتى الاحتفاظ بي كموظَّفةٍ، ولهذا السبب كنت آخذ كلَّ تلك المناوبات الإضافية في المركز».

نظر ووك إلى القمر، ثم ألقى نظرةً سريعةً على المنزل. «هل يعرف إد ماذا فعلتِ؟».

- «لا. أنا مَنْ يهتم بالحسابات. إد سافلٌ كبيرٌ. يظنُّ أنني لا أعرف بشأن النساء، لكنَّ رائحة العطر تبقى عالقةً عليه».

- «لقد غدرتِ بطفلةٍ».

هزَّتْ رأسها، وانهمرت الدموع بسرعةٍ أكبر. «لن يؤذيها. أنت لا تعرف دارك».

أراد أن يمسك يدها، بالرغم من كلِّ شيءٍ، إذ كان يعرفها طوال حياته. تماسك قليلاً. «كيف عثرتِ عليهما؟».

وضعتُ عواطفها جانباً، وتابعت لتكشف الحقائق الصادمة: «الاتصال الذي كنتِ تجريه. كنتُ أعرف أنها مونتانا، لقد دَقَّقْتُ في إيصالاتك، ولا سيَّما إيصالات محطات الوقود. ومن ثمَّ ذكر هال ذات مرَّة اسم المدرسة حين كان يتحدَّث معك على الهاتف. كما أشار إلى البحيرة قرب المزرعة».

- «كنتِ تنصَّتين؟»، قال مذهولاً. قطعْتُ هذه الحقائق أنفاسه، فرك عينيه، وشعر بخدَّيه يشتعلان. وقف، لم تحمله ركبته فجلس مجدِّداً. «يداكِ ملطَّختان بالدماء يا ليا. ومن أجل ماذا؟ من أجل أعمال زوجك».

- «بل من أجلهم»، قالت بصوتٍ عالٍ وأشارت إلى المنزل. «من أجل أطفالِي، من أجل كلِّ العائلات التي نُعيلها في هذه البلدة. إنَّه مجرَّد شريط تسجيلٍ، شريطٍ لعينٍ يا ووك. لقد أحرقتُ

داتشس الملهى . كلنا نعرف ذلك ، لكنك لم تفعل أي شيء حيال الأمر .

- «هذا ليس —» .

- «بل هو كذلك يا ووك . أنت تعرف ذلك جيداً . أنت وستار وولاؤك المضلل اللعين لفنست كينغ . ستار كانت حبيبته ، وقد قطعت وعداً أن تعتنى بها . أنا أعلم بهذا . لقد قلت لي إنك ستفعل أي شيء من أجل أصدقائك . تماماً كما في المدرسة الثانوية . لو أنك قمت بعملك ، لو قمت بتسليم الفتاة و—» .

- «أين هو دارك الآن؟» .

- «لا أعرف» .

راقب ووك ملامحها .

- «أنا لا أعرف ، أقسم بذلك» .

- «هل ما زال يبحث عن داتشس؟» .

- «بالنسبة إليه الأمر يتعلق بالمال ، لطالما كان يتعلق بالمال .

هو لن يتوقف حتى يعثر عليها ، بمساعدتي أو من دونها» .

فكر عندئذ في مارثا ، تعمل في المنزل على مرافعتها الختامية .

- «لقد قتل رجلاً . إن وزر هذا يقع عليك» .

بكت بحرقة . «لا أستطيع التفكير في ذلك» .

- «تباً ليا» .

- «هناك أشخاص في حياتنا قد نفعل أي شيء من أجلهم .

أنت تعرف هذا أكثر من أي شخص آخر» .

في تلك الليلة مشى في شوارع كيب حتى شقت الشمس سماء الليل وعثر ضوء النهار عليه . مرّ بمنزل آل رادلي ، وبيت ميلتون ،

وشارعي مين وسنست . وقف بجانب منزل آل كينغ وتصوره مهتماً .
حتى إن لم يأت دارك مع المال ، فإنَّ شخصاً آخر سوف يشتريه بسعرٍ
أقلَّ . سرح بأفكاره متذكراً لعب كرة السلة في الممرِّ ، الاختباء في
العلية القديمة لتفقد مجلات بلاي بوي الخاصة بريتشارد كينغ . كان
هناك احتمالاً بأن يكونا على حقٍّ ، وأنَّ ميلتون قد فعل ما تدَّعيه
مارثا . لربَّما حُسِرَ فنسنت كينغ في ماكينة النظام الجبَّارة حتى أصبح
جزءاً منها ، أو ربَّما كره نفسه كثيراً فحسب ، حتى إنَّه كان يُفضِّل أن
يُرسلَ إلى حتفه على أن يستمرَّ في العيش كرجلٍ حرٍّ . كان ما يزال
هناك الكثير من الأسئلة من دون إجاباتٍ ، وكان يعلم أنَّ ثمة
احتمالاً أنَّه قد يكون قد لوَّن الأمر بمسحة غير حقيقية ، لكنَّه كان
يشعر بها في عظامه رغم كلِّ شيء . كان فنسنت كينغ بريئاً . ولن
يترك الأمر للصدفة ، ليس بعد الآن ، لقد قطع شوطاً طويلاً ، وسوف
يمضي قدماً حتى النهاية ، حتى لو كلفه ذلك روحه .

في ذلك الصباح ، وقف ووك أمام المرأة وحلق ذقنه .
راقب الحوض وهو يمتلئ ، ووجهه يظهر فوق صفحة الماء
شاحباً ، هزياً ، ومريضاً . لم يمعن النظر ، بل رشّ بعض الماء البارد
على خديّه وحسب ، ثم أخذ نفساً طويلاً وعميقاً . توجه إلى لاس
لوماس ، جلس في مقعده ، وتجاهل النظرات والهمسات .
كانت ليا تالو قد اقتيدت إلى قاعة المحكمة .

بدت هادئةً ، والماكياج قد أخفى آثار الليلة الماضية ، ارتدت
فستاناً بسيطاً وكعباً عالياً . التفت عيناها بعيني ووك في طريقها إلى
المنصة ، لم يتسم لها .

أعطت مارثا فكرةً عن الخلفية التي تأتي منها ليا ، وكيف عملت
إداريةً في قسم شرطة كيب هيفن لخمس عشرة عاماً ، وأنها تكاد
تكون جزءاً من أثاث القسم مثل ووك ولوان . تحدّثت مارثا بثقة ،
تلعثمت في مناسبتين ولكن كان في وسع ووك رؤية أن أعضاء هيئة
المحلّفين يحبّونها .

كان قد اتّصل بليا باكرأ ، وأخبرها بكلّ شيء ، فوافقت خلال
ثانية . إنها هدنة من نوع ما ، حيث يمكن للتداعيات أن تنتظر ، أمّا
هذا الأمر فلا . ثم اتّصل بمارثا وأخبرها . سمع وقع الشكوك في

صوتها، وعرف بشيءٍ من اليقين أنّه يعرّض كلّ ما هو عزيزٌ عليهما للخطر.

- «النظام... إنّهُ مزحةٌ مستمرّةٌ. دعونا فحسب نَقْلُ إنّ ووك يحبُّ الأشياء كما هي، وليس كما يجب أن تكون»، قالت ليا. ابتسمت مارثا لوك الذي رفع حاجبيه. رأى المحلّف رقم سبعة ذلك وأخذ يضحك.

- «لذا كنتُ أحاول إصلاحه لسنواتٍ، أحاول ترتيب حجرة الملقّات. كانوا قد أحضروا نماذج جديدةً قبل أربع سنواتٍ، استماراتٌ جديدةٌ وطريقةٌ جديدةٌ في الترميز. والطريقة التي اتّبعتها ووك... أعني أنّه كان هناك ترتيبٌ ما. إنّها فوضى منظّمة». وقفت ديشامب، لكن رودس أمر بالمتابعة.

- «وهكذا فقد كنتُ أعمل عليها ثلاثة أشهرٍ الآن. وصلتُ حتى عام 1993، وهنا وجدتها».

رفعت مارثا ورقةً. اعترضت ديشامب، فاستدعاهما القاضي سويّاً إليه. سمع ووك انفعالاً في صوت ديشامب، وكان وجهها قد اصطبغ بالحمرة وهي تهزُّ رأسها حين استدارت كي تعود إلى مقعدها. أجاز رودس الورقة بوصفها دليلاً.

- «هل تستطيعين إخباري ما هذه؟»، قالت مارثا.

- «إنّهُ تقرير اقتحام بالكسر والخلع يعود إلى الثالث من نوفمبر عام 1993. الرقم 1 شارع سنست، محلٌّ إقامة غرايسي كينغ». - «بيت فنست كينغ. المكان الذي عاد إليه بعد الإفراج عنه». - «نعم».

- «هل يذكر التقرير ما تمّت سرقة؟».

- «نعم. كان الرئيس ووك دقيقاً بهذا الشأن، كما هو الحال دائماً. فقد تفحّص وجرد كلّ شيءٍ بدقّةٍ مع غرايسي كينغ، والدة

فنسنت. اتضح أنها نسيَتْ أن تقفل الخزنة. أخذوا مئتي دولارٍ نقداً، ودبَّوساً ذهبياً، وبعض الأقراط المرصَّعة بالألماس. ومسدساً». - «مسدسٌ؟».

- «نعم. طراز روجر بلاك هوك».

علت أصوات الهمهمة إلى أن طلب رودس الصمت. عادت ديشامب إلى المنصَّة وتجادلت أكثر مع القاضي. ارتفعت حدَّة التوتر بما يكفي ليعلنَ رودس عن استراحةٍ لخمس عشرة دقيقةً.

اعتلى ووك بعدئذٍ منصَّة الشهود مجدداً، لم يكن بحاجةٍ للتعريف عن نفسه أو عن منصبه مرَّةً أخرى. وجَّهت مارثا شهادته هذه المرة نحو عملية الاقتحام. تحدَّث بهدوءٍ. لم ينظر في عيني فنسنت أبداً، رغم أنَّه شعر بنظراته المحدقة.

ثمَّ نهضت ديشامب. «أنا أشعر ببعض الذهول والارتباك هنا».

- «لقد وجدتُ ليا التقرير الليلة الماضية فقط. هي تعمل في وردياتٍ مسائيةٍ أحياناً، حين يكون زوجها في المنزل مع الأولاد. مسألة النظام هذه ترعجها أكثر مِنِّي، فأنا أعرف مكان كلِّ شيءٍ». - «أيُّها الرئيس ووك، طالما أنَّك تعرف مكان كلِّ شيءٍ، كيف إذا لم تلفت الانتباه إلى هذا الأمر سابقاً؟».

- «لقد نسيْتُ أمر الاقتحام».

- «نسيَتْ؟». نظرتُ إلى هيئة المحلِّفين وقد بدا على وجهها الارتباك. «لقد ترعرعتَ مع فنسنت كينغ. أنتَ تعرف العائلة. كنتَ تزوره في السجن. بالنظر إلى كلِّ ما يجري، يُذهلني كلامٌ من قبيل أنَّك نسيْتَ».

بلع ووك ريقه وأخذ نفساً أخيراً. كان يعرف أنَّ الحال سيتغيَّر بعد هذا. حال كلِّ شيءٍ.

- «أنا مريضٌ».

جال بنظره في أرجاء الغرفة، المراسلون في الخلف، وصفً من المراقبين. تحسَّس الهدوء الذي عمَّ المكان، والعيون المسلَّطة عليه.

- «أعاني مرض باركنسون. ذاكرتي لم تعد كما كانت. لم أخبر أحداً بهذا بعد، ظننتُ أنَّ في وسعي التعامل مع الأمر. أعتقد... أعتقد أنَّني لم أرِدُ أن أخسر موقعي».

نظر إلى هيئة المحلِّفين ورأى التعاطف في عيونهم. ثمَّ تحوَّل إلى فنست الذي كان ينظر إليه بعينين يملؤهما الحزن.

ومن ثمَّ نظر إلى تقرير الاقتحام، وعرف أنَّهم لو تفحصوه جيِّداً، لو نظروا إليه بجديَّة كافية، فسوف يرون عرجةً بسيطةً في الخطِّ، كأنَّه كُتِبَ بيدٍ مرتعشة.

بدأت المرافعات الختامية في الساعة الخامسة. قال رودس إنَّه يفضِّل تسليم القضية للمحلِّفين في وقتٍ متأخر بدلاً من تأجيلها ليومٍ آخر. وقفت مارثا أولاً، وتحدَّثت إلى المحلِّفين والحضور، فيما كانت كلُّ عينٍ في تلك القاعة مصوَّبة نحوها. لم تستعن بالملاحظات المكتوبة، وكان يمكن لووك تخيُّل أنَّها قضت ليلةً طويلةً. كانت مرافعةً مختصرةً ومكثَّفةً وضَّحت فيها كلَّ الحقائق. تحدَّثت عن ستار والمأساة التي حلَّت بها. تحدَّثت عن طفلي رادلي وعن كونهما يستحقَّان أن تأخذ العدالة مجراها، لكن مع الشخص الصحيح. ثمَّ عرَّجت على ميلتون، إذ لا يمكن إنكار الوقائع المرتبطة به. رسمت صورةً دقيقةً بمأساويَّتها جعلت المحلِّفين يجلسون مفتونين. ثمَّ وصلت إلى فنست. طلبت منهم أن يتخيَّلوا الدخول في منظومة السجن في سنِّ الخامسة عشرة، طفلٌ مذعورٌ بين

أكثر الرجال شراً. حكّت عن حجم أسفه، وإصراره أن يقضي محكوميته بأقصى طريقة ممكنة. لربّما كانت حياة السجن قد طبعته بطابعها، لربّما كان قد قتل رجلاً دفاعاً عن النفس. وربّما كان قد ارتكب بالفعل ذاك النوع من الأخطاء التي لا يستحقُّ المرء أن يتعافى منه أبداً. لكنّ هذا لا يعني أنّه قتل ستار رادلي. وصمّته لا يعني بحالٍ من الأحوال أنّه مذنب، بل هو كراهيةٌ ساحقةٌ للذات، كراهيةٌ تستعر بشدةٍ لدرجة أنّه يفضل أن يُعاقبَ على جريمة ارتكبتها شخصٌ آخر على أن يأخذ مكانه في عالمٍ لا تستطيع الطفلة التي قتلها أن تكون حيّةً فيه.

* * *

على بُعد ألف ميلٍ من تلك المحكمة، عثر روبن على زهرة فرشاة الأرنب الصفراء وأحضرها معه إلى الغرفة. ساعدته داتشس في تسطيحها، ثمّ علّقتها على اللوح بالقرب من جيت. لَقَتْ روبن بذراعها، لكنّ عقلها كان في مكانٍ آخر. كان ريك تايد قد بدأ من جديد، محاولاً إثبات نفسه، ولدّ من النوع الذي لا يعرف متى يجب عليه التوقّف. بصق على ظهرها، وقال إنّ هذه كانت من ماري لو. ذهبت داتشس إلى الحمام وغسلت قميصها، وفكّرت في ووك وكيف طلب منها أن تكون فتاةً طيّبةً.

في ذلك المساء وبعد أن تناولا طعامهما، أخذت داتشس روبن إلى الأرجوحة في الحديقة الكبيرة وراحت تورجحه حتّى اختفت الشمس الملتهبة وراء الأشجار. غمز بعينه وابتسم، وأخبرته بأنّه أميرٌ.

ثمّ ساعدته على الاستعداد للنوم، غسلت أسنانه، وقرأت له فصلاً من قصّةٍ عن خنزيرٍ يدعى ويلبر وعنكبوتٍ اسمها شارلوت.

- «إنَّه خنزيرٌ حسَّاسٌ»، قال روبن .

- «إنَّه كذلك» .

قاما بتلاوة صلاةٍ في تلك الليلة . نظر روبن إلى أخته فجعلته يغمض عينيه ويشبك أصابعه أمام صدره .

- «لماذا نصليَّ الليلة؟»، سألها .

- «للتأكد من حُسْن سير الأمور» .

بعد أن غَطَّ في النوم، تسلَّلت من الغرفة . مرَّت بالقرب من الأسرة، الأطفال المنسيُّون نائمون، هاربون إلى تلك الساعات الثمينة حيث ينسون مكانهم في هذا العالم ويحتلُّون مكاناً آخر .

الغرفة مظلمة، هناك ضوء التلفاز فحسب . قَلَبْتُ بين القنوات إلى أن عثرتُ على محطة الأخبار المناسبة، وشاهدتُ المراسلين يتجمَّعون خارج قاعة المحكمة .

كانت قد أجرت اتِّصالاً بـ«بوك» على حساب المتَّصل به، بدا مرهقاً بينما كان يخبرها أنَّ هيئة المحلِّفين سوف تفكِّر في الأمر، وأنَّهم قد يعودون في أيَّة لحظة . خَمَنْتُ أنَّ هذا سيحدث قريباً . ذهبت بأفكارها إلى أمِّها، إلى السنة الماضية وكلِّ ما حملته معها .

استدارت فرأت شقيقها واقفاً في المدخل يحدِّق بها .

- «أنتِ لستِ في السرير» .

- «آسفة» .

سار نحوها، جلس بقربها، وتفرَّجاً على مشاهدٍ من مكانٍ بعيدٍ جداً لدرجة أنَّه كان يصعب تصديق علاقتهم به .

شاهدا المراسلين يحاولون التزوُّد بالمعلومات، ثمَّ قُطِعَ البث من أجل الإعلانات التجارية . جلسْتُ تتساءل في صمتٍ عمَّا يدور في ذهن أخيهما . حين عاودوا البثَّ المباشر، كانوا يتحدثون عن

المحاكمة، ويفضّلون أشياء كانا يعرفانها ولا يعرفانها عن والدتهما وعن فنسنت كينغ.

حينَ تمَّ إعلان الحكم بشريط أحمر أسفل الشاشة، انتصبت وأخذ قلبها يدقُّ بسرعة.

- «ماذا يقول؟».

- «قالوا إنّه لم يقتل ماما».

شاهدت بقم نصف مفتوح المراسل وهو يجري مقابلةً مع أحد المحلّفين. بدا الرجل مرهقاً، لكنّه تدبّر أن يبتسم مع ذلك. شرح بالتفصيل شهادة رئيس شرطة كيب هيفن. وكيف عثرت الشرطة على تقرير اقتحام أظهر السلاح الذي يُشبهه أنّه استُخدِم في عملية القتل، وهو مسدّسٌ كان ذات يوم مملوكاً من قِبَل والد المشتبه به، وكيف أنّ هذا التقرير دليلٌ دامغٌ أنّه من غير الوارد أنّ السلاح كان في حوزة فنسنت كينغ. كانت هيئة المحلّفين في حيرةٍ من أمرها، وقد أعطاهم التقرير المخرج الذي كانوا بحاجةٍ إليه.

آلمتها معدتها عندئذٍ بقوةٍ حتّى إنّها ضغطت عليها بقبضةٍ مشدودةٍ. «ووك. ما الذي فعلته بحقّ الجحيم يا ووك؟».

حضنها روبن فقبّلَت رأسه، وشكّكت في كلّ شيءٍ اعتقدت أنّها تعرفه عن هذا العالم. لقد رشقها بسهامه من جديدٍ، فأصاب في الصميم مفهوم الحقيقة، ولا معقولية العدالة.

ثم رأياه.

ووقف روبن.

على الشاشة كان فنسنت كينغ برفقة امرأةٍ ضئيلةٍ ترتدي بذلةً أنيقةً وحذاءً تشاك تايلور.

أضاءت الغرفة بأضواء الكاميرات. رجلٌ بريءٌ يُصطحبُ إلى سيارةٍ تنتظر.

- «ما الأمر؟»، سألت شقيقها.

كان يرتجف، جسده بالكامل كان يرتعش فيما هو يصارع كي يستطيع التنفّس.

بدأ يبكي بينما ظهرت بقعة داكنة على سرواله وأخذت في الانتشار.

نزلت على ركبتيها. «روبن، كلّمني».

هزّ رأسه، وأطبق عينيه بإحكام.

- «لا بأس. أنا هنا».

- «إنّه هو»، قال باكيًا، ولاهثًا، «أنا أتذكّر الآن».

أمسكت برفق وجهه بكلتا يديها. «ما الذي تتذكّره؟».

حدّق بها، ثمّ بالشاشة. «فنسنت كان في غرفة نومي. أذكر ما قاله لي».

مسحت دموعه حين نظر أخيراً في عينها. «قال إنّ آسف لما فعله بماما. وقال لي ألاّ أتفوّه بكلمة وإلاّ سوف أندم». أغمض عينيه، وشرع ينتحب. ضمّته بقوة.

أعادته إلى الغرفة، وضعته في حوض الاستحمام وغسلته، ثمّ ألبسته بيجاما جديدة، ووضعه في السرير. نام.

ومن ثمّ قامت بحزم أمتعهما.

عثرت في حقيبتها على صورة لستار معهما في الفناء الخلفي، واحدة من صور قليلة جداً لهما معاً. علّقتهما على لوح الفلين مع صورة لهما.

شقّت الستارة قليلاً للنجوم، ثم جلست عند طرف سريرها، حيث لطالما قضت ساعات ليل طويلة وسريعة وهي تعدّ أيامهما.

فَكَرْتُ فِي يَوْمِ وَلادته، خطواته وكلماته الأولى. كل حالاته التي جعلتها تضحك. يومه الأول في المدرسة، كيف عَلَّمَتْهُ رمي الكرة في فناء منزلهما الصغير.

بقيت حتى شعاع الضوء الأول، لن يستيقظ وحده في الظلام.

جَرْتُ حَقِيبتَها إلى الباب وفتحتُه برفقٍ.

ثم رجعت مرّةً أخرى، وأمسكتُ دموعها حتّى لم تُعُدْ قادرةً على التنفّس، لعنتُ نفسها وأخذت تنشف شعرها بقوةٍ كما يليق بفتاةٍ مجنونةٍ. لو أنّ معها سَكِيناً كانت ستجرح نفسها جروحاً عميقةً. كانت تستحق الأذى. كانت تستحقّ كلَّ الألم.

انحنّت وقبّلت رأس أخيها، طلبتُ منه أن يكون فتىً طيباً بينما هي تنسحب من حياته كما فعل الكثيرون من قبلها.

جلس ووك إلى مكتبه، عثر على زجاجة الويسكي كنتاكي في الدرج، فتح الغطاء وأخذ جرعة كبيرة.

كانت عيناه تحرقانه فأغمضهما. لم يكن في مزاج احتفالي. ذهب فنسنت مباشرة إلى المنزل. لم يتكلم في أثناء الطريق، لم يتسم، صافح يد مارثا ماي فحسب. أخبرها ووك أنها قامت بعمل جيد، التقت عيناهما وعرف أنها كانت تعرف. كان نصراً أجوف. اندفعت المدعية العامة مسرعة خارج قاعة المحكمة.

شرب قليلاً بعد، حتى بدأ الظلام يحل، ارتخى كتفاه، وتوقف جسده عن إرهاقه.

نظر إلى كومة الأوراق المكدسة عالياً فوق دُرج المكتب، أعمال ورقية متراكمة يعود بعضها إلى عام للوراء، لكنها روتينية في معظمها. كان قد أهمل كل شيء فيما عدا فنسنت كينغ ودارك. الشيء الوحيد الذي لم يكذبوا بشأنه في تلك المحاكمة كان حالة مكتب ووك.

سحب الكدسة نحوه وبدأ يقلب الصفحات: ملاحظات لوان المكتوبة على عجل، مخالفات مرورية، تخريب وتعديات محتملة على ممتلكات الغير. شعر بصعوبة في التركيز، صعوبة في تمييز ما

هو في العادة روتينيٌّ. قرأ ورقتي تعاميمَ رسميةٍ من الولاية، ثمَّ من بين كلِّ الأوراق، رأى رسالةً من الدكتور ديفيد يوتو، يرُدُّ فيها على اتِّصاله.

أجرى ووك مسحاً عسيراً لذاكرته، وكان الإحباط آخذاً في التزايد قبل أن يستقرَّ على أنَّ الأمر كان يتعلَّق بتشريح جثة باكستر لوغان، الرجل الذي قتله فنسنت في إصلاحية فيرمونت. تحقَّق من ساعته، وجد أنَّ الوقت كان متأخراً لكنَّه طلب الرقم على أيَّة حالٍ.

أجاب الرجل بعد الرنة الأولى، اتَّضح أنَّه كان في أسبوع عمله الأخير، يحضِّر الأمور لتسليم خليفته الذي كان أصغر منه بعقدين، وعمرٍ كاملٍ من الخبرة العملية. أجرى حديثاً قصيراً. عرَّج ووك على قضية لوغان، واستغرق الأمر من يوتو دقيقةً واحدةً ليحدِّد مكان الملفِّ، هو رجلٌ يعرف معنى التنظيم.

- «ما الذي تحتاج إلى معرفته؟»، قال يوتو.

- «أنا لا... أعتقد أنني أريد تفاصيل. كنتُ أتساءل فحسب —».

- «لم نكن دقيقين جداً في ذلك الوقت. لم يكن هناك فحص الحمض النووي لنبحث عنه. وضَّحْتُ سبب الوفاة على أنَّه صدمةٌ في الرأس».

ارتشف ووك الويسكي وقدماه فوق المكتب العتيق. «إذاً هذا ما في الأمر. لكمةٌ واحدةٌ و—».

- «ليست لكمةٌ واحدةً. ليس بالهيئة التي بدا عليها لوغان».

حدَّق ووك في كأسه.

- «أندكر اتِّصال كادي بي. كان بالطبع شاباً في ذلك الوقت،

ولم يكن قد استلم المنصب من أبيه بعد. لكنّه أخبرني ألاّ أضيّع الكثير من الوقت على لوغان. إذ إنّ المعتدين الجنسيّين لا يتمتعون بشعبية كبيرة في فيرمونت. لذا فقد دوّنتُ سبب الوفاة وانتقلتُ إلى القضية التالية».

- «ماذا عن الضرب... هل كان مبرّحاً؟».

تنهّد يوتو. «لقد مرّ وقتٌ طويلٌ لكنّ بعض الحالات تكون عصيّة على النسيان. الأسنان فُقدتُ، مِحْجَراً العين تهشّما. تحطّم أنفه بشكلٍ سيّئٍ لدرجة أنّه كان غائراً داخل وجهه».

- «لكنّه كان شجاراً. كان فنسنت كينغ يقاتل من أجل حياته».

- «لست متأكّداً ما الذي تريد منّي أن أقوله هنا أيّها الرئيس ووكر. لقد كان شجاراً، لكن لوغان ظلّ يتعرّض للضرب بعد نهايته بوقتٍ طويلٍ».

تسارعت أفكار ووكر نحو ستار، وأضلاعها الثلاثة المسحوقة بذلك الشكل. شكر يوتو وأغلق الخط.

ابتلع الويسكي بجرعاتٍ كبيرة. كان حلقه يجفّ، ودقّات قلبه تتسارع. نهض، غادر المركز، وشرع يمشي. كان الليل قد حلّ الآن، لا يُرى شيءٌ سوى أضواءٍ بعيدة تركب الأمواج، قوارب تمخر عباب الخليج.

تنفّس هواءً ملحيّاً، وتحركَ ببطءٍ واضح وهو يحاول أن يجمع شتات أفكاره لكنّها كانت تهرب منه وتشكّل صوراً لم يكن يرغب في رؤيتها. على طول جادة برايسوود، كان هناك جيرانٌ يعرفهم من مواسم الصيف السابقة، عندما كانت هذه بلدته.

توقّف في نهاية سنست عندما رأى فنسنت على الجهة المقابلة من الشارع؛ ظهره إلى ووكر، يتحركُ مسرعاً، ويرتدي بنطال جينزٍ

وقميصاً غامق اللون. ففكر في أن يناديه، لكنه لحق به بدلاً من ذلك، تاركاً مسافةً كافيةً بينهما. تساءل عن شعور الرجل بالعودة من الموت إلى الحياة.

بعد دقيقتين على طول الشارع صعوداً، تسلّق فنسنت فوق الجدار الرمادي الذي ينتصب قبالة ضوء الشارع الخفيف. مشى نحو شجرة الأمنيات، بخطواتٍ واسعةٍ وثابتةٍ، ثم انحنى إلى الأسفل بسرعةٍ، ونهض بعدها وهو ينظر خلفه وحوله.

مرّت سيارةٌ أعلى الطريق، وألقت أضواءها الأمامية فوق التل. انتقل ووك ليختبئ داخل الظلال، وتحرك فنسنت بسرعةٍ مذعوراً مبتعداً عن الأضواء، وغاب في عتمة الليل.

راقب ووك السيارة وهي تبتعد، ثم تسلّق الجدار، وهبط فوق العشب الطويل. شعر عند الشجرة بأنه أعشى بالكامل، فأخرج هاتفه وسلّط الضوء على جذع الشجرة.

كانت الفجوة قريبةً من التراب، وصغيرةً بما يكفي كي لا تُلاحظ.

جثا على ركبتيه، مدّ يده بداخلها، وأخرج مسدساً.

- «آثار الأقدام تلك على سطح القمر»، قال توماس نوبل،
«لقد تركها رواد فضاء أبولو، وسوف تبقى هناك عشرة ملايين سنة
على الأقل».

رأت سماء لم تكن لانهائية بعد الآن. كانت تعرف عن
الأرواح والنبوءات، وعن لمّ الشمل المحكوم بتقديرات إلهية وبالعالم
آتي. حاولت ألا تفكر في روبن، وإذا ما كان سيستيقظ في ذلك
الصباح مذعوراً، ابتلعت كتلة من العار المرير جداً حتى كادت
تصرخ باكية.

- «إلى أين سوف تذهبين؟».

- «لديّ عملٌ يجب إنجازه».

- «يمكنك البقاء هنا».

- «لا».

- «يمكنني أن آتي معك».

- «لا».

- «أنا شجاعٌ. لقد تكبّدتُ عيناً زرقاء من أجلك».

- «سأكون دائماً ممتنةً لذلك».

كانا مستلقيين في الطرف البعيد من فناء منزله.

- «ليس عدلاً هذا الذي مررت به»، قال لها.
- «تبدو مثل طفلٍ وأنت تتحدّث عن فكرة العدل»، قالت وهي تغمض عينيها.
- «أنتِ تعرفين أنّه لن ينجم عن هذا شيءٌ جيّدٌ».
- نصف نجمٍ في السماء. لم تتمنّ أمنيةً. كان التمنيّ من النجوم شيئاً للأطفال، وكانت داتشس تعرف أنّها لم تعدّ واحدةً منهم. وتساءلت إنّ كانت واحدة منهم ذات مرة.
- «كلّ هؤلاء الناس»، قالت داتشس، «إنّهم يقضون عمراً كاملاً ينظرون إلى السماء وي طرحون أسئلةً. هل يتدخّل الرب؟ وإن لم يفعل، فلماذا ما يزالون يصلّون؟».
- «إنّه الإيمان. الأمل بأنّه سوف يتدخّل».
- «لأنّه بخلاف ذلك تكون الحياة محدودةً جداً».
- تكلّم بهدوءٍ مجدّداً. «أخشى أنّك لن تجدي طريق العودة».
- راقبت داتشس القمر.
- «اعتدْتُ أن أسأل الرب عن يدي. لماذا هي على هذه الحال؟ كنتُ أصليّ أن أستيظظ بيدٍ طبيعيّة. أتعرفين؟ تلك كانت مجرد صلواتٍ مهدورة».
- «لربّما كلّ الصلوات كذلك».
- «ابقّي هنا معي. سوف أخبّئك».
- «هناك شيءٌ عليّ القيام به».
- «أريد أن أساعدك».
- «لا تستطيع».
- «تريدين منّي أن أتركك تذهبين بمفردكٍ وحسب. هل هذا فعلٌ شجاعٌ؟».

أمسكتُ يدهُ السليمة وشابكا أصابعهما . سألت نفسها كيف هو الحال عندما يكون المرء توماس نوبل ، مشاكله بسيطةً جداً ، والدته نائمةً في المنزل ، ومستقبله واضحٌ لا تشوبه شائبةٌ ومفتوحٌ على مصراعيه .

- «سوف يبحثون عنك» .

- « ليس بتلك الجدية . مجرد هاربةٍ أخرى من دار رعاية» .

- «لكن أنتِ تستحقين أن يُعثرَ عليكِ . وماذا عن روبن؟» .

- «أرجوك» ، قالت ، قريبةً جداً من الانهيار ، «قد يأتي رجال

الشرطة لرؤيتك . لربّما يسألونك أين أنا وأين أنا ذاهبةٌ . وسوف تفكر في إخبارهم لاعتقادك أنّك تعرف ما هو الأفضل لي» .

- «وإذا فعلتُ ذلك؟» .

- «لن تفعل» .

استلقتُ حتّى الصباح . غادرتُ والدته في وقتٍ مبكرٍ مرتديةً ملابس التمرين ، زحفت سيّارتها اللكزس بصمتٍ خارجةً من الممرّ بينما كان توماس نوبل يفتح الباب الخلفي .

دخلت داتشس إلى منزل آل نوبل ، اغتسلت وأكلتُ حبوب الإفطار .

كانت هناك خزانةٌ حيث يجلسان ، أخذ منها توماس نوبل خمسين دولاراً وناولها إيّاها . رفضت بشدّة ، لكنّه دسّ الورقة في يدها .

- «سوف أردّها لك» .

ملأتُ حقيبتها بعلبٍ من الفاصولياء والحساء . تحرّكتُ بسرعةٍ لدى رؤيتها أنّ شيلي كانت تتحرّك بشكلٍ أسرع ، فقد رنّ جرس الهاتف وردّ المجيب الآلي .
أنصتاً .

- «تبدو قلقة».

- «لديها ألف حالةٍ أخرى مثلي».

انتبهت بالقرب من الباب إلى وجود حقائبٍ جاهزةٍ للتوضيب. سوف يذهب توماس نوبل في إجازةٍ خلال أيامٍ قليلةٍ. سوف ينساها. وستمضي حياته قدماً، ابتسمت لهذه الفكرة.

في الخارج، كان الشارع قد استيقظ، شاحنة القمامة في أحد طرفيه، ورجل البريد في الطرف الآخر.

دفع توماس نوبل دراجته خارجاً وأسندها إلى البوابة. «خذيها».

كانت على وشك أن ترفض لكنّه وضع ذراعه على كتفها. «خذيها فحسب. سوف تقطعين شوطاً أبعد قبل أن يصلوا إليك».

- «سأكون شبحاً. أنا كذلك بالفعل».

- «هل سأراك مجدداً؟».

- «نعم». كان كلاهما يعرف أنّها كذبةٌ، لكنّه تركها تمرّ، ومال إلى الأمام، ثمّ قبلَ خدّها.

ركبت الدراجة، وفوق كتفها حقيبةٌ فيها كلُّ ما تملكه في هذا العالم.

- «أراك لاحقاً، توماس نوبل».

رفع يده السليمة بينما كانت تعبر ممراً منزله وصولاً إلى الشارع. ثمّ أخذت تدوس بقوةٍ، لم تنظر إلى الوراء. كانت الريح تلمح وجهها وهي تغادر طرقات الضوء في سعيها إلى الظلمات.

بعد ساعةٍ كانت في الشارع الرئيس للبلدة. تركت الدراجة خارج صالة جاكسون هوليز للجنازات ودلفت إلى الداخل، لفحها هواء التكييف المركزي بقوةٍ وخزت مسامها.

- «داتشس»، قالت ماغدا مع ابتسامة، «سعيدة برؤيتك مجدداً».
- أدارت ماغدا المكان مع زوجها كيرت، رجلٌ تشارك الشحوب مع زبائنه. لا بدَّ أنه كان مع أحدهم، لأنَّ الستارة سُحِبَتْ وأُخْفِيَتْ التوايُتُ.
- «أريد أن أستلم رماد جدِّي».
- «كنتُ أتساءل متى ستأتين. قالت شيلي إنَّها ستُحضرك ذات يومٍ».
- «هي في السيَّارة». أشارت داتشس إلى سيارةٍ من نوع نيسان على الجهة المقابلة من الشارع.
- اتَّجهت ماغدا إلى الخلف وعادت بعد دقيقةٍ ومعها جرَّةٌ صغيرةٌ.
- أخذتها داتشس، واستدارت مغادرةً المكان بينما انفتحت الستائر وخرجت دوللي وكيرت خلفها. خرجت داتشس إلى الرصيف، كانت قد وصلتُ إلى مخبز تشيري قبل أن تلحق بها دوللي.
- «داتشس».
- اصطحبتها دوللي إلى الداخل وأجلستها في الزاوية. ثمَّ ذهبَتْ وطلبتُ لهما.
- كانت دوللي قد كبرت في العمر، لم يكن تبرُّجها مثالياً تماماً، وشعرها ليس مصقِّفاً بالأناقة المعهودة. لكنَّها ما زالت ترتدي الماركات المشهورة، حقيبةٌ وحذاءٌ من شانيل.
- «كنتُ أودُّ القول إنَّه من الجيد رؤيتك مجدداً هنا».
- «لكن؟».
- ابتسمت دوللي.

- «آسفةً بشأن بيل . لم أكن أعرف» .

- «لقد كان جاهزاً . لكن تبين أنني لم أكن كذلك» .

كانت حقيبة داتشس مفتوحةً ، ظهرت منها الملابس والعلب .
ضغطت بثقلها عليها وأحكمت إغلاقها .

نظرت إليها دوللي بحزنٍ .

- «ماذا ستفعلين الآن؟» ، سألت داتشس .

- «سوف أدفن زوجي . لم أفكر كثيراً فيما هو أبعد من ذلك .
كانت هناك رحلاتٌ ، وأماكن أردنا رؤيتها معاً . لا أعرف إن كنتُ
سأقوم بذلك بمفردي . لكنّه عاش حياةً جيّدةً ، هذا كلُّ ما يمكن أن
نطلبه ، أليس كذلك؟» .

- «إنّ توماس نوبل يتحدث عن العدالة» .

ابتسمت دوللي . «أفهم ذلك» .

- «العدالة تعني أنّ هناك شخصاً يتحكّم في زمام الأمور» .

- «لقد سمعتُ بأمر الرجل . كان ذلك في نشرات الأخبار .
فكرتُ فيكِ وفي روبن . ربّما كان هذا ما قصده توماس نوبل . كيف
أنّ شخصاً يمرُّ في الحياة فيتسبّب بالألم للآخرين ، فيما يحاول
بعضهم المضيّ قدماً في حياتهم وحسب . يبدو أنّ كليهما يصطدّمان
ببعضهما دائماً» .

فكرتُ داتشس في دوللي ، في حياتها ، في والدها اللعين . «قال
هال إنّ ذلك الرجل كان سرطان عائلتنا . وقد امتدّ أثره الخبيث
ليصل إليّ وإلى روبن . إلى شقيقي . لا أستطيع . . .» .

مدّت دوللي يدها وأغلقتها فوق يد داتشس . «قد لا تختارين
منّ تكونين . قد يكون ذلك مقدّراً سلفاً . بعضٌ منّا خارجون عن
القانون . ولربّما يجد بعضنا بعضاً» .

- «وربّما كل ذلك عبارة عن لا شيء. لا أحد يتحكّم في زمام الأمور سوى الشخص الذي يخرج ويأخذ ما يريد».
- «هل تعرفين عن العدالة، يا داتشس؟».
- «جاك ذو الثلاثة أصابع. قطع خمسمئة ميلٍ للانتقام لمقتل شريكه فرانك ستايلز».
- «لكن ماذا تعتقدين أنّها تعني؟ ولا أقصد بذلك تعريفها، بل ما الذي تعنيه للأشخاص الذين يتعرّضون للأذى».
- «إنّها نهايةٌ. يمكنني أن أشبّيها بالتنفّس، لكنني أعرف أنّ هذا ليس بكافٍ».
- «وبالنسبة إلى روبن؟ ماذا تعتقدين أنّه يريد؟».
- «إنّه في السادسة وحسب. هو لا يعرف ماذا يريد. هو لا يعرف عالماً أبعد من اللحظة التي يعيشها».
- «وأنّ؟».
- «أنا أعرف الكثير».
- جاءت النادلة ومعها كوبان من الكاكاو وكعكةٌ صغيرةٌ مع شمعةٍ في منتصفها. وضعتها على الطاولة، غمزت لداتشس وذهبت لشأنها.
- «عيدٌ ميلادٍ سعيداً، يا داتشس».
- حدّقت داتشس في الكعكة. «ما كان عليك أن —».
- «اصمتي الآن. ليس في كلّ يوم تبلغ الفتاة الرابعة عشرة. يجدر بك أن تتمنّي أمنيةً».
- حين أدركت أنّ دوللي لن تستسلم، انحنت للأمام وأغمضت عينيها، ثمّ نفخت.
- في الخارج، سارتا جنباً إلى جنبٍ على الجهة الظليلة من

الشارع. التقطت داتشس الدراجة لدى وصولهما إلى صالة الجنازات.

وقفت دوللي بجانب شاحتها. «هناك الكثير ممّا يجب عليّ قوله هنا».

- «لكن ما من شيء لا أعرفه بالفعل».

- «هلاً تأتين إلى المنزل؟ هناك ما أرغب في أن أريه لك».

- «لا أستطيع. يجب أن أمضي».

- «في وقتٍ آخر إذاً».

- «بالتأكيد».

أمسكت دوللي يدها. «عديني أنك سوف تمرّين بي ذات يوم».

- «سوف أفعل».

- «وأنا أعلم أنك ستفنين بوعذك. الخارجة عن القانون تكون

جيدة فقط بقدر ما تلتزم بكلمتها». بدت دوللي عندئذٍ منكسرةً، وقد رسم القلق ملامحها، كأنّ داتشس كانت مشكلتها.

- «يمكنني أن أطمئنّ على روبن».

أومأت داتشس برأسها، وشفتها السفلى ترتعش. سيكون عليها

أن تكون أكثر تماسكاً لما هو قادمٌ.

- «كوني بخير، يا داتشس».

ثمّ مدّت دوللي يدها إلى حقيبتها وأخرجت محفظتها. وعندما

بدأت تعدّ الأوراق النقدية، ركبت داتشس الدراجة وتحركت.

التفتت إلى الخلف حين أصبحت في نهاية الشارع.

لوحّت لها، ورفعت دوللي يدها بالمقابل.

نجحت داتشس في الوصول إلى أرض آل رادلي بعد ساعةٍ من

وقت الظهيرة. كانت عضلات ساقيها تحترقان، وقميصها مبلّلٌ

بالكامل، وشعرها ملتصقٌ بفروة رأسها. تركت درّاجتها في الأرض المعشبة قرب البوّابات وسارت ببطءٍ في الممرّ المتعرّج، تحت الأشجار، بجانب بركة المياه الآسنة.

فكرت في روبن، في ما إذا كان في المدرسة الآن، وما إذا كانت شيلي معه. استنزف الأمر كل طاقتها كي لا تتخلّى عن مسارها، فتعود وتنهار جاثيةً على ركبتيها وتحضنه بكلّ قوة بين ذراعيها. كانت قد أبقت معها صورةً واحدةً له تعود إلى عامٍ للوراء، حيث كان يبتسم وشعره أطول. أخرجتها من الحقيبة وهي تصعد درجات الشرفة القديمة، وتجلس على المقعد المتأرجح.

كانت هناك لوحةٌ معلّقة على البوّابات كُتِبَ عليها، سوليفان للعقارات. ذات يوم في المستقبل القريب سيُعقد مزادٌ هنا، وسينتقل شخصٌ آخر إلى هنا، سوف يعتني بالأرض، ويدخل نفس الحلقة المفرغة.

راقبت داتشس الأيائل في البعيد، متجمّعةً كعاداتها عند سفح التلال. كانت الحقول بحاجةً للعناية. فكرت في هال. في عمرٍ قضاهاً وحيداً بالكامل.

عند الحظيرة الحمراء، فتحت الباب ورأت أدواته ما تزال حيث كانت، لم تكن أشياء ذات قيمةٍ بالنسبة إلى أيّ أحدٍ. عبرت نحو العتمة في الداخل، مشت إلى البساط، وجرتّه إلى الخلف.

رفعت الباب الذي في الأرض، كان ثقيلاً وأخذ العرق يقطر من ذقنها. أسندته وشرعت تنزل السلالم.

مخزنٌ سفليّ. مسدّساتٌ فوق الرفوف، وحمّالةٌ بندقيةٍ.

كرسيٌّ جلدٍ قديمٌ. مكانٌ حيث يمكن لهال أن يكون بمفرده تماماً. بجانب الكرسي طاولةٌ صغيرةٌ عليها كومةٌ سميكةٌ من

الرسائل . أخذت تقلّب بينها ، توقّفت عند آخر رسالة وفتحتها ، ولدى قيامها بذلك رفرت من الظرف قطعاً ورقٍ وسقطتا على الأرض . قامت بالتقاطهما ، كانتا نصفي شيكٍ نقديّ . جمعتهما معاً ، وابتلعت ريقها ، شيكٌ بمليون دولارٍ . يستحقّ الدفع بعد شهرين من الموعد المقرّر لبدء المحاكمة . كان التوقيع بسيطاً ، أشبه بأحرفٍ مطبوعةٍ . ريتشارد دارك . على ظهر الشيك رأت أنّ فنسنت كان قد صادق عليه بتوقيعه ، وجيَّره مباشرةً إلى هال .

أعادت كلّ شيءٍ إلى ما كان عليه . فكّرت في كلفة هذه الكفّارة ، وشعرت بالدفء والعزاء لكون جدّها قام بتمزيقها . وقفت .

رأت صناديقٍ إلى الأمام قليلاً .

ذهبت إليها ، جثت حين رأت ورق التغليف الملّون . إنّها الهدايا . تحقّقت من البطاقات ، رأت اسمها مكتوباً ، ثمّ رأت اسم أخيها على بطاقاتٍ أخرى . كانت هناك تواريخٌ على كلّ منها ، لكلّ سنةٍ من سنوات حياتها . جلست فوق درجة السلم الدنيا ، وفتحت إحدى الهدايا . كانت عبارةً عن دميةٍ ، ثمّ فتحت واحدةً أخرى ، كانت لعبة بازل ، لم تفتح أياً من هدايا روبن .

ذهبت إلى آخر هديةٍ ، كانت مؤرّخةً بتاريخ ذلك اليوم . فتحتها بعنايةٍ ، نزعت الغطاء ، وابتلعت ريقها حين رأت ما الذي كان في الداخل .

رفعت القبعة من العلبة ، ولكمّ أعجبت بها . جلدٌ مرصّعٌ بمسامير زينةٍ ، مع ثنيةٍ أنيقةٍ في أعلاها ، وحوافٍ بعرض أربع بوصاتٍ . قلبت بطاقة المنتج التعريفية ، الذهب العتيق : جون ب . ستيتسون .

وضعتها بهدوءٍ فوق رأسها ، كان مقاسها مثالياً .

أخذت مسدّسين، مسدّسَها ومسدّساً آخر له. وأخذت علبة
طلقاتٍ من النوع الذي كان قد علّمها استخدامه.
حين انتهت، أعادت كلّ شيءٍ إلى مكانه، ثمّ حملت حقيبتها
وشعرت بالثقل.
كان رماده ينسحب مبتعداً مع الماء، في البقعة التي كانوا
يجلسون فيها في بعض الأحيان.
تماسكت برباطة جأشٍ، وقرصتُ طرف قبعتها: «إلى اللقاء، يا
جدّي».

أمضى ووك يوماً وهو يتملّص من الردّ على مكالماتٍ من مستوياتٍ عُليا .

كانت الأخبار قد انتقلت بسرعةٍ، سوف يُستدعى إلى مكتب الحاكم هوبكنز حيث سيتحدّثان بشأن بديله، ولا شكّ في أنّه سوف يعرض عليه وظيفةً مكتبيةً. ثلاث مكالماتٍ حتى الآن في ذلك اليوم، بدا أنّهم يتعاملون مع الأمر كأنّه لم يكن كفؤاً للخدمة على الإطلاق .

جلس إلى مكتبه، فتبعثر الملفّ أمامه، وظهر وجه ميلتون المنتفخ يحدّق فيه . لم يكن للرجل عائلةٌ تُذكر، هناك عمّةٌ بعيدةٌ تعيش في دار رعايةٍ في جاكسون . اتّصل بها، فادّعت أنّها لا تعرف أيّ ميلتون .

رفع عينيه حين رآها عند الباب، حاول أن يبتسم لكنّه وجد صعوبةً في ذلك .

أغلقت مارثا الباب خلفها .

- «كنت تتهرّب من مكالماتي أيّها الرئيس؟»، قالت مبتسمةً .

- «أنا آسف، لقد كنت مشغولاً هنا» .

جلست، أمالت رأسها ورفعت حاجبيها . «أهي الحقيقة؟» .

- «لم أكن قادراً على مواجهتك».
- «لقد احتلت».
- «لكنني لم أريد أن أحتال عليك».
- صالبت بين ساقها. «سأتخطى الأمر. لقد خاض كلانا في هذا بأعين مفتوحة، أليس كذلك؟».
- «أنا أكثر منك على ما أعتقد».
- «العمل يتدفق عليّ الآن. سفلة محكومون بالإعدام يريدون مني أن أتولى استئناف أحكامهم. انس الأمر. أعطني رجالاً مهزومين ونساء محطّطات. هؤلاء هم خبزي وزبدتي». مرّرت يدها عبر شعرها، وكان هو يراقب كلّ حركة من حركاتها.
- اقتربت منه، حاولت أن تمسك يده فسحبها إلى الخلف.
- «تكلم إليّ»، قالت له.
- «حين شرعنا في هذا، رأيت النهاية فقط. رأيت فنسنت يمضي حرّاً، وعقارب الساعة تعود إلى الوراء. كان ذلك كافياً بالنسبة إليّ. كانت تلك خاتمتي المنشودة. أنا مريضٌ يا مارثا. خلاياي تحتضر. ما يحدث الآن هو مجرد مرحلة مبكرة من المرض، إنها البداية فحسب».
- «أعرف ذلك».
- «هل تعرفين حقّاً؟ لقد قرأت عن الأمر، وتحدّثت مع الطبيب، ورأيت في غرفة الانتظار مرضى آخرين في مراحل متقدّمة أكثر مني».
- «إذاً، ما الذي تقوله هنا؟».
- «لا أريدك أن تكوني ممرضةً. أريد لك ما هو أفضل. لطالما كنتُ كذلك».

وقفتُ. «تبدو مثل والدي. كأنني فتاةٌ صغيرةٌ ليس لها رأيٌ في حياتها. لقد اتخذتُ خياراً... أنتَ هو خيارِي. وكنتُ أظنُّ أنني خيارك».

- «أنتِ كذلك».

- «هراء». لقد اخترتَ نفسك، اخترتَ ذاتك النيلة اللعينة التي يمكن الاعتماد عليها دائماً وأبداً».

أطرق برأسه.

مسحتُ عينيها. «أنا لستُ حزينةً. أنا غاضبةٌ. أنتَ جبانٌ يا ووك. لهذا السبب ابتعدتَ كلَّ هذا الوقت».

- «لم أكن أظنُّ أنكِ ترغين في رؤيتي».

- «حسنٌ، لقد كنتُ أرغب بذلك فعلاً».

- «أنا آسفٌ».

- «لا تقل هذه الكلمة السخيفة. كان بإمكانك طوال تلك السنوات أن تصل إليّ، أن تأتي وتراني، تبّاً، أن تلتقط الهاتف وتتصل حتّى. فنسنت هو من جعلك تفعل ذلك، كما كان الحال دائماً».

- «هذا ليس —».

- «حين سألتك عن فنسنت الذي تتذكّره، قمتَ بتسليط الضوء على الأشياء الجيدة، ولم تأتِ على ذكر أيّ هراءٍ حول كلِّ المرّات التي أساء فيها إلى ستار. كل قصصه مع الفتيات، كل المرّات التي بكّث فيها على كتفي. كنتَ معتاداً على التستّر عليه، حتّى إنَّكَ كنتَ تكذب عليّ. لطالما تسترتَ عليه».

- «هذا لم يكن يعني شيئاً».

- «أعلم ذلك. ما أقول هو أنك عشتَ الثلاثين عاماً الماضية من أجل شخصٍ آخر. ألم يثن الأوان لتوقّف؟». مشت إلى الباب، ثم توقّفت واستدارت، ووجّهت إصبعها نحوه. «عندما تقرّر التوقّف، عندما تنتهي حفلة الشفقة وتعثر على خصيتيك مجدّداً، اتّصل بي».

فُتِحَ الباب، فانطلقت مارثا بخفّة متجاوزةً ليا تالو التي استدارت لتراقبها وهي تغادر.

- «هل هي بخير؟».

نهض ووك وأغلق الباب، ثمّ قاد ليا إلى الكرسيّ المقابل له. لم تكن تضع أي مساحيق تجميلٍ، شعرها مربوطٌ إلى الخلف، ووجهها يعلوه التعب.

جلس في كرسيّه.

- «هل أنت متأكّد بأنّك تريد القيام بهذا يا ووك؟».

- «نعم».

راقبها فيما كانت تتّصل من هاتفٍ خلويّ مسبق الدفع.

لم يُجبّ دارك. انتظرت ليا إشارة البريد الصوتي.

- «أعرف أين هما. اتّصل بي». تهذّج صوت ليا وهي تتحدّث، انهمرت الدموع من عينيها وهي تقطع الاتّصال.

- «حين يعاود الاتّصال أعطيه هذا العنوان، قل لي إن الطّفل هو صديق داتشس، ولربّما يعرف أين يمكن العثور عليها». مرّر لها ووك قصاصة ورقٍ كاد خطُّ اليد عليها لا يكون مقروءاً.

- «لا تفعل هذا، يا ووك. سوف أتحدّث إلى بويد، سوف أخبره بكلّ شيء».

نظر إليها، إلى ما بقي منها، وحاول أن يكرها لكنه عجز عن ذلك.

كانت تعرف أنه يجب عليها أن تتجه جنوباً، إلى بلدة أكبر، فورت بريور، حيث توجد محطة حافلات كبيرة. لم تكن تعرف كم المسافة التي يمكن أن تقطعها بخمسين دولاراً، لكنها خمنت أنها ليست كافية. قد تصل بها إلى أيداهو، أو نيفادا إذا كانت محظوظة. قرّرت على الفور ألا تقلق ولا تنظر أبعد من اليوم الذي تعيشه، فالمهمة التي بين يديها كانت وحدها كفيلة بمنحها كل الزخم المطلوب للمضي قدماً.

قادت درّاجتها على طرقات ضيقة، وحافظت على وتيرة بطيئة، وحين كان الطريق يبدأ في الاتجاه صعوداً، كانت تنزل عن الدراجة وتقوم بدفعها، وحين ينحدر نزولاً، كانت تترك الدراجة تنزلق، فيما يدها تسحب الفرامل بهدوء وحذر.

مونتيس، كوميت بارك، مناطق ذات جمالٍ أخاذٍ يختبئ بالكامل بين الأشجار والظلال. منازل جميلة متباعدة، لافتات صفراء تدعو للتصويت على مشروع أنابيب كيستون الذي من شأنه أن يضخّ الحياة في البلدات المتعثرّة، ولم تعن تلك الشاحنات القليلة المتوقّفة خارج محلّ بقالة شيئاً أكثر من سكرة الموت.

ثُقت العجلة فيما هي بعيدة ميلين على الأقل عن أيّ مكانٍ مأهول. ضربة موجعة جعلتها توشك على البكاء. حاولت أن تمضي قدماً، لكنّ الدراجة بطيئة جداً الآن، وكل ضغطٍ على الدواسات تستهلك ضعف المجهود.

أخذت تشتم وهي تلقي بدرّاجة توماس نوبل في الغابة بالقرب من جاكسون كريك .

جلست على شجرة ساقطة، أكلت خبزاً كان قد أصبح قاسياً بالفعل، وشربت ما تبقى من ماء، ثم تابعت سيراً على الأقدام، لكنّ حذاءها الرياضي لم يكن صالحاً للمشي لمسافات طويلة، وبعد وقتٍ ليس بطويلٍ بدأ أسفل قدميها يؤلمها من الكعبين كليهما .

مرّت بحقولٍ وبيوتٍ مزارعٍ، وبكل طيفٍ من درجات الأخضر والبنّي، وكنائس الثالوث المقدّس التي ما زالت تملك أجراساً وأشخاصاً ليقرعوها . سارت مسافةً ميلٍ في إثر زوجين مسنّين، مع معدّاتٍ خاصةٍ بالتجوال مشياً، وعصيّ طويلةٍ، وابتساماتٍ مريحة . أصغت إلى كلّ خطوةٍ كانا يخطوانها، وبرغم أنّها ابتعدت عن الطريق، كان لديها على الأقل بعض الإحساس بالجهات . لا بدّ أنّهما كانا متّجهين إلى مكانٍ ما . وكانت ما تزال متأكدةً بأنّه الجنوب .

فقدت أثرهما في نقطةٍ ما، شتمت مجدّداً وهي تشعر بالضعف والنبذ .

وصلت إلى طريقٍ واسعٍ وطويلٍ جداً وفارغٍ تماماً ما جعلها تتوقّف على جانبه وتميل برأسها نحو السماء .

ثمّ ظهر الزوجان المسنّان مجدّداً . هانك وبيسي من كالغاري . متقاعدان يقضيان عطلةً، ينزلان في الفنادق الصغيرة ويذرعان الطرقات مشياً على أقدامهما كي يُلقياً بأعينهما الهرمة نظرةً على مشاهدٍ جديدةٍ .

عدّلت مسارها كي تنضمّ إليهما، أخبرتهما نصف قصّة، كيف أنّ والدتها كانت مريضةً، وهي متّجهةٌ إلى المستشفى في فورت بريور لرؤيتها . أعطياها الماء وقطعةً من الحلوى .

تحدّثت بيّسي عن أحفادها، سبعةٌ مبعثرون في أرجاء البلاد،
مصرفيّ في أقصى الشرق، وطبيبةٌ في شيكاغو. سار هانك في
المقدّمة كأنّه يستطلع الأرض، أزاح الأغصان للسّيّدتين، ورقبته
محمّرةٌ بفعل الشمس.

لاحظ هانك أنّها كانت تعرج، فجعلها تجلس على العشب في
الحال، وراح ينبش في حقيبته حتى وجد ضمادات فوضعها على
كعبي داتشس.

- «الفتاة المسكينة».

استأنفوا المشي. كان لدى هانك خريطةٌ، وأشار إلى بحيرةٍ
تُدعى تيثان. - «بحيرةٌ أخرى»، قالت بيّسي، ونظرت إلى داتشس نظرةً
عابثةً.

- «حين كنتُ صغيرةً عشتُ في بلدةٍ تُدعى كيب هيفن».

- «إنّه اسمٌ جميلٌ»، قالت بيّسي. كان لها عضلتا سمانةٍ
قويّتان، وساقان مجهّزتان للتجوّل. وجهٌ عريضٌ، جميلٌ لكنّه ليس
ناعماً. «هل تتذكّرينها جيّداً؟».

هشّت داتشس ذبابةً سوداءً عن وجهها بينما أخذوا يسلكون درباً
جديداً. «لا».

عبروا الطريق رقم 75، ثمّ سلكوا درباً لا يزيد عرضه عن
عرض شاحنةٍ. لم تسأل حين أخذت تحرّكات هانك هذا الشكل
القصدي. كانا يقيمان على بعد نصف ميلٍ خارج فورت بريور،
وكانا سيصلان بها إلى هناك بأمانٍ.

- «هل لديك أيُّ أشقاء؟»، سألت بيّسي.

- «نعم».

أَحَسَّتْ دَاتَشْسُ أَنْ بَيْسِي أَرَادَتْ أَنْ تَطْرَحَ الْمَزِيدَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ،
رَأَتْ ذَلِكَ فِي ابْتِسَامَتِهَا الْحَزِينَةِ وَعَيْنَيْهَا الدَامَعَتَيْنِ. تَرَكْتَ لَتَلِكِ
اللَّحْظَةَ أَنْ تَمُرَّ بِسَلَامٍ.

بَعْدَ سَاعَةٍ مِنَ الْمَشْيِ وَصَلُوا إِلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْبَوَابِ عِنْدَ
مَنْعُطٍ طَرِيقٍ يَتَّجِهَ صَعُوداً وَلَا يُمْكِنُ رُؤْيَا نَهَايَتِهِ. بِالْقَرَبِ مِنَ
الْبَوَابِ كَانَتْ هُنَاكَ أَزْهَارٌ آخِذَةٌ بِالذَّبُولِ، عَبَرُوا إِلَى الدَّخْلِ حَيْثُ
قَالَ هَانَكِ إِنَّ عَلَيْهِمُ التَّوَقُّفَ قَلِيلاً.

ظَهَرَ الْمَنْزِلُ أَمَامَهُمْ كَبِيراً وَفَخْماً. سَارُوا نَحْوَ وَاجِهَتِهِ الْأَمَامِيَّةِ
وَأَلْقَوْا نَظْرَةً عَلَى أَحْجَارِهِ، قَطَعَ حَجَرِيَّةٌ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا أَكْبَرَ مِنْ
رَأْسِهَا، وَنَوَافِذُ مَزْخَرَفَةٍ وَجَمِيلَةٍ.

كَانَ هَانَكِ يَنْظُرُ حَوْلَهُ وَكَانَتْ دَاتَشْسُ تَرَاقِبُهُ وَهِيَ تُمْسِكُ
حَقِيبَتَهَا بِأَحْكَامٍ وَتَتَحَسَّسُ مَسَدَّ سِيَّهَا.

- «الْمَنْزِلُ مِنْ طَرَازِ أَتَوَايَ، يَعِشُقُ هَانَكِ الْهَنْدَسَةُ الْمَعْمَارِيَّةُ».

أَخْرَجَ هَانَكِ الْكَامِيرَا وَالتَّقَطَّ عَشْرَاتِ الصُّورِ.
التَّفُّوا إِلَى الْجِهَةِ الْخَلْفِيَّةِ وَرَأَوْا هُنَاكَ مَسَطَّحَاتٍ مَائِيَّةً نَظِيفَةً
وَمُتَطَاوِلَةً تَمْتَدُّ حَتَّى الْغَابَةِ.

- «دَخَانٌ»، قَالَتْ بَيْسِي وَهِيَ تُشِيرُ بِإَصْبَعِهَا.

ارْتَفَعَ الدِّخَانُ مِنْ نَارٍ مُشْتَعِلَةٍ فِي بَقْعَةٍ مَقْطُوعَةِ الشَّجَرِ فِي الْغَابَةِ
الْقَرِيبَةِ. كَانَ هُنَاكَ ثَنَائِيٌّ آخَرٌ، بِالْعَمَرِ نَفْسَهُ تَقْرِيباً، وَبِنَظَرَةِ الْعَيُونِ
نَفْسِهَا، كَأَنَّهُمَا عَثَرَا عَلَى الْجَنَّةِ قَبْلَ عَقْدٍ مِنْ مَوْعِدِ ذَهَابِهِمَا إِلَيْهَا.
جَرَى التَّعَارُفُ بِسُرْعَةٍ وَبَسَاطَةٍ، نَانَسِي وَتُومُ مِنْ نُورْثِ دَاكُوتَا، كَانَا
يَمْلِكَانِ عَرَبِيَّةً سَكَنِ مُتَنَقِّلَةً لَكِنَّهَا مَرْكُونَةٌ قَرِيباً مِنْ سَدِّ هَارْتْسُونِ، فَقَدْ
أَرَادَا رُؤْيَا مَنْزِلِ الْأَتَوَايَ أَيْضاً.

أكلوا الهمبرغر المشوي. فكَّرت داتشس في روبن، تحقَّقت من ساعتها وعرفت أنَّه يأكل وحيداً الآن. هو لن يأكل من دونها. شعرت بالَم شديد في معدتها لدرجة أنَّها أمسكت بها وضغطت عليها.

عند الغروب وصلوا إلى الفندق الصغير. كانت فورت بريور على بعد عشر دقائق سيراً على الأقدام. ملأ هانك يديها بعصي الحلوى وزجاجة ماءٍ أخرى. عانقتها بيسي بقوة، وأخبرتها أنَّها ستصلِّي لوالدتها.

سارت داتشس وسط البلدة، وقد أصبح ألم قدميها أخفَّ قليلاً. حلَّ الظلام على الجبل في الخلف، أضواء تنبث من مطعم ستوكرمان أند بوب.

عثرت على محطة الحافلات عند الزاوية، مقابل ورشة لتصليح السيارات، حيث اصطفت سياراتٌ تلمع بفعل انعكاس ضوء الشارع عن أغطية محرَّكاتها. داخل المحطة كانت سيِّدة سوداء تجلس خلف المنضدة، لم تكن مشغولة كثيراً كما كانت داتشس تتمنَّى. خمَّنت أنَّ شيلي ستكون قد اتَّصلت بالشرطة، ربَّما ألَقوا نظرةً على المزرعة، وتحدَّثوا إلى توماس نوبل، لكنها استبعدت أن يكونوا قد قاموا بتجميع قطع أخرى من الأحجية معاً.

- «ما هي أبعد نقطةٍ يمكنني الوصول إليها بخمسين دولاراً؟».

- حدَّقت السيدة فيها من فوق النظارة. «في أيِّ اتِّجاءٍ تذهبن؟».

- «جنوباً، كاليفورنيا».

- «أنتِ بمفردكِ؟ لا تبدين كبيرةً بما يكفي لـ —».

- «أمِّي مريضةٌ. يجب أن أعود إلى البيت».

أمعنت النظر في داتشس، تعقَّبت ملامحها بحثاً عن شيءٍ ما،

عن الكذبة ربّما. ثمّ قرّرت أنّها ليست مهتمة بما يكفي لتكمل البحث، فالتفتت نحو جهاز الكمبيوتر خاصّتها.

- «بوفالو، أربعون دولاراً تقريباً».

كانت هناك خريطة معلّقة خلف الزجاج. عثرت داتشس على بوفالو. بدت مسافة طويلة، لكنّها لم تقترب أبداً من أن تكون بعيدة بما يكفي.

- «لن تتحرّك الحافلة حتّى الصباح. هل تريدان التفكير في الأمر؟».

هزّت داتشس رأسها، ودفعت نقودها فوق المنضدة.

- «سوف نُغلق أبوابنا قريباً»، قالت السيدة فيما كانت داتشس ترمق المقعد المحشوّ بالإسفنج. «هل لديك مكانٌ تذهين إليه؟».

- «نعم».

ناولتها التذكرة.

- «إلى أين أذهب من هناك؟».

- «هل تريدان الطريقة الأسرع أم الأرخص؟».

- «هل يبدو عليّ أنّي أملك المال؟».

عبست السيدة، ثمّ نظرت مجدّداً إلى الشاشة. «أرخص المقاعد لديّ هي إلى دنفر. ثمّ غراند جنكشن وصولاً إلى لوس أنجلوس. إنّه طريقٌ طويلٌ يا فتاة. ما زلتِ في حاجةٍ إلى الكثير من المال».

غادرت داتشس المحطّة. كانت تحمل سبعة عشر دولاراً، وحقيبة فيها مسدّسان، والقليل من الطعام، وبعض الملابس.

خارج حانة اسمها أوسوليفان، عثرت على هاتفٍ عموميّ، التقطت السّماعة، ثمّ أدركت أنّه ليس لديها أحدٌ كي تتصل به.

أرادت أن تتحدّث إلى روبن، لا أن تتحدّث حتّى، بل أن تستمع إلى أنفاسه وحسب فيما هو غارق في النوم. أرادت أن تقبّل رأسه وتجذبه إليها، وتنام وذراعيها تلقّه.

وجدت حديقةً صغيرةً، مجموعة أشجارٍ وساحة لعبٍ. تسلّلت نحو الأشجار واستلقت فوق العشب، نبشت سترَةً من حقيبتها وغطّت بها نفسها.

لاحقاً، وفي ساعةٍ حيث كانت البلدة ما تزال نائمةً، قطعت مسافة نصف ميلٍ، كلُّ خطوةٍ ثقيلةٍ، مضنيةٍ، كلُّ عضلةٍ تقاومها بشدّةٍ.

كان الفندق هادئاً، لم يكن هناك موظّف حتّى، لا أحد على الإطلاق. أمامه انتصبت لافتةٌ إعلانيةٌ كبيرةٌ: فندق بيغ سكاي، شاشات تلفزيونٍ ملوّنةٌ، غرفٌ شاغرةٌ. سارت عبر الساحة الأمامية، سيّاراتٌ عائليّةٌ أمام كلِّ بابٍ، صفٌّ من الأشجار التي ارتفعت أعلى سقف القرميد الواطئ. كانت الستائر مسدّلةً فوق زجاج النوافذ، انتقلت داتشس إلى الباب الذي رُكِنَتْ أمامه سيّارةٌ من نوع برونكو وتحمل لوحات كالغاري. إنّهما هانك وبيسي، كانت نافذتهما مفتوحةً على مصراعيها. ليسا قلقين، هذا ما كانا عليه ببساطة.

وضعت حقيبتها على الأرض وأخذت منها المسدّس. ثمّ تلت صلاةً صامتةً بينما كانت تتسلّق النافذة وتدخل غرفة نومهما.

في السرير شبّح هانك مغطّىً بالملاءات، غارق في نوم عميق جداً. إنّ يوماً طويلاً من المشي لمسافاتٍ طويلةٍ من شأنه أن يؤدّي إلى هذا. كان الضوء خفيفاً جداً، فقط ما يكفي كي تشقّ طريقها إلى الكرسي، حيث كان سرواله. نبشت الجيب، فعثرت على محفظةٍ، بداخلها صورةٌ لأطفالٍ مبتسمين. عجزت عن بلع ريقها فيما كانت

تسحب الأوراق النقدية من الداخل ، وعجزت عن التنفُّس فقد كان
هناك أَلَمٌ في صدرها .

ثمَّ رأت بيسي ، عينان مفتوحتان وحزيتان . مدَّت داتشس يدها
إلى الخلف وتحسَّست المسدَّس المدسوس في بنطالها الجينز . لم
تقل السيِّدة المسنَّة أيَّ شيء .

كانت داتشس محطَّمةً فيما هي تغادر المكان .

كانت وظيفتها هي أن تذكَّرهما ، أن تجعلهما يعرفان أنَّ العالم
ليس خيراً .

جلس ووك داخل سياره مستأجرة في نهاية طريق هايوود درايف.

صف من المنازل العائلية المفصولة عن بعضها، سيارات ألمانية كبيرة وباهظة الثمن أمام كل منها. كان يرتدي زي الرسمي، ومع ذلك فقد كان غارقاً داخل مقعده. أكواب قهوة فارغة بالقرب منه، لا طعام. كان قد قطع رحلة الألف ميل بالسيارة. فكر في السفر جواً، ومواجهة مخاوفه، لكنه كان بحاجة إلى مسدسه لذا أجل تلك المعركة إلى وقت آخر.

كان منزل آل نوبل فارغاً، توماس وعائلته يقضون إجازتهم السنوية. أخبرته داتشس ذات مرة أنهم يقضون كل صيف على شاطئ ميرتل. كان ووك قد أعطى العنوان لليا، عرف أن دارك سيظهر إذا اعتقد أن هذا الطريق سيقوده إلى داتشس.

لم يكن لدى ووك جريدة، أو كتاب، أو أي شيء قد يصرف انتباهه عن المهمة التي بين يديه. كان قد تناول قرصين قبل ساعة، ألم العضلات كان سيئاً للغاية، ذاك التشنج، والحاجة الشديدة إلى الاستلقاء على الأمر يمر فحسب.

سيكون هذا آخر عمل له كشرطي، الصيحة الأخيرة في عقود

من العدم. لم يكن يفكر في مارثا أو في فنسنت أو في الفوضى التي تعمُ كيب، كان هذا من أجل طفلي رادلي، أراد أن يبقيهما في أمان، سيفعل هذا من أجل ستار وهال. لم يكن يعرف كم كان دارك قريباً حين عاود الاتصال بليا، لكنّه خَمَّن أنّه كان بالقرب من مونتانا. داتشس، وشريط المراقبة، كانا آخر فرصة لدارك كي ينقذ إمبراطوريته المنهارة.

شعر ووك بالإنهاك كأنَّ بَطَّانِيَّةً دافئةً في أكثر الليالي برداً تُرخي بثقلها فوقه، تسحبه أعمق فأعمق بداخلها، وتصيب عينيه بالخدر. كان النعاس أحد الأعراض الجانبية الحسنة للأقراص التي يتناولها، لكنّه كان يعرف أنّه لم ينم جيّداً خلال عام كاملٍ، لذا لم يكن هناك خطورةٌ في أنَّ النوم يجد طريقه إليه الآن. ومع ذلك، فقد تشاءب مرّةً واحدةً، ثمَّ أغمض عينيه ببطءٍ.

كان توماس نوبل مستلقياً على سريره يشاهد التلفاز عندما انقطع التيار الكهربائي.

وقف صامتاً، لا شيء سوى أصوات المنزل، الساعة في الردهة، والأزيز المنتظم لسخّان الماء. أخذ خطوةً، وتعثّر بحقيبتة الموضّبة. كان والداه قد أوصلاه إلى المخيم، مثل كلّ صيفٍ، حيث كانا يقضيان أيامهما على الشاطئ فيما هو يصنع تماثيل من الطين وقمصاناً ملوّنة بعيداً ثمانية أميالٍ عن منزله. تسلّل في ذلك اليوم خارج المخيم بعد حلول الظلام، ذرع الدرب عائداً، وقطع الغابة وصولاً إلى فناء منزله، وعثر على المفتاح الاحتياطي في المرأب. سيتسبّب اكتشاف اختفائه في الصباح في حدوث زعرٍ وهرج ومرج عظيمين، لكن بحلول ذلك الوقت سيكون في طريقه إلى كاليفورنيا. يتعقّبها. ويذل ما بوسعه لمساعدتها.

خفق قلبه بسرعة، وضع يده عليه وحاول أن يهدأ ويتماسك. أصغى لكنه لم يسمع شيئاً، شعر بالغباء لأنه دُعِرَ بسبب الظلام. سار إلى النافذة ورأى المنازل المجاورة مضاءة، وأضواء الشرفات مشتعلة. كان يعرف أين هي لوحة التحكم الكهربائية، وما الذي يجب فعله حين ينقطع التيار.

كان قد تمكّن من الوصول إلى السلالم حين سمع صوت تكسّر الزجاج.

تجمّد في مكانه عندئذٍ، عاجزاً عن تحريك عضلة في جسمه. سمع صوت القفل وهو يدور، والباب وهو يُفْتَح. صوت الزجاج وهو ينسحق تحت ثقل الخطوات. كان يعرف أنّ والده يملك مسدساً وأنه كان مخبئاً في مكتبه. كان يعرف أيضاً أنه لن يملك الشجاعة لتصويبه وإطلاق النار منه، ليس حتى بيدين سليميتين.

وقع الخُطى مجدّداً، ثقیلاً فوق أرضية المطبخ، ومن ثمّ رقيق فوق أرضية الصالة المفروشة بالسجاد. أراد أن يصرخ، أن يعلن عن نفسه لأنّ نصف الذعر ناتج من كونه غير ملحوظ. منزلٌ جميلٌ في شارعٍ جميلٍ، كان لدى والدته مجوهراتٌ، بعض القطع اللمّاعة والصارخة التي لربّما لفتت الانتباه.

أخذ نفساً وتحركَ بسرعة، وهو يدوس بأطراف أصابعه على الحواف الخارجية لدرجات السلالم، من الطابق العلوي إلى الأوسط إلى غرفة نوم والديه. وصل إلى الهاتف على الطاولة قرب السرير.

ما من حرارة في الهاتف.

ركض إلى النافذة، ففكر في أن يصرخ لكنه سمع وقع الخُطى من جديد، كانت أقرب هذه المرّة، عند أسفل الدرج. كان عقله

يعمل بسرعة كبيرة، تأمل في مسألة القفز من النافذة، وأدرك أنه سيكسر ساقه على أقل تقدير.

أخذ يدور وينظر حوله، رأى فسحةً تحت السرير، وكان يعرف أن هناك مساحةً في الخزانة، لكنه استقرَّ على غرفة نوم الضيوف، وتحركَ إلى هناك بسرعة.

كان ثمة ظلٌّ على السلالم. لم ينظر إلى الورا حتى وصل إلى غرفة نوم الضيوف، تسلَّل منزلقاً خلف الباب وضغط نفسه إلى الحائط. أراد البكاء، لكنه قاوم بشدة، فكَرَّ في أنه أياً يكن هذا الذي هناك فسوف يعتقد أن المنزل فارغ، وسأخذ ما يحتاج إليه ثم يرحل.

- «توماس».

أغلق عينيه.

- «أعرف أنك هنا. كنت أراقب من الغابة. أخبرني ما أحتاج إلى معرفته، وسأتركك تعيش. أعدك بذلك».

أراد أن يصرخ، أن يسأل الرجل ما الذي يريد ويعطيه إياه مهما يكن، على الفور ومن دون جدال. ثم نادى الرجل مجدداً، وشعر توماس نوبل بدمه يتجمد.

- «داتشس رادلي».

إنه رجل سيَّارة الإسكاليد. دارك.

نظر توماس نوبل حوله بجنونٍ، لم يرَ شيئاً يمكن استخدامه، لا شيء ثقيلٌ أو حادّ، لا شيء يمكن أن يشتري له بضع ثوانٍ ثمينة. سوف يجده دارك الآن.

فَكَرَّ في داتشس، في المرَّة الأولى التي رآها فيها، فَكَرَّ فيما مرَّت به، في رقصتهما الأولى، وفي اللحظة التي قبلته فيها. فَكَرَّ في منزله المثالي ووالديه المحبَّين، فَكَرَّ فيها وأين قد تكون الآن،

وحيدةً على الطريق، مع مسدّسٍ في حقيبتها والشجاعة اللازمة لاستخدامه. كان عاجزاً عن مساعدتها، لكنّه يستطيع ذلك الآن، يمكنه أن يثبت نفسه. يمكنه أن يكون خارجاً عن القانون أيضاً.

شاهد شبح الرجل يخطو عبر الباب، ضخماً مثل وحشٍ لعينٍ، ولمّا اقترب منه، أخذ توماس نوبل نفساً عميقاً وأطلق نفسه في الظلام.

طلق نارِيّ.

استيقظ ووك، قفز من السيّارة، وانطلق يجري بأقصى سرعته. زجاجٌ مكسورٌ، بابٌ مفتوحٌ، اندفع عبره، أخرج سلاحه وجهّزه، فتشّ الطبقة السفلية منتقلاً من غرفةٍ إلى أخرى. ثم هرع وصعد الدرج إلى الطابق الثاني.

كان الطفل على الأرض، مستنداً إلى الحائط، متكوراً على نفسه.

- «هل تأذّيت؟».

هزّ رأسه. كانت ألواح الجبس فوقه قد تهشّمت، ونصف السقف قد دُمّر؛ كانت طلقةٌ تحذيريةٌ.

- «أين هو؟».

- «الباب الخلفي».

ركض ووك نزولاً على الدرج. رأى السياج في نهاية مرجة العشب، قفز عنه ووجد نفسه في الغابة. تبع درباً غير واضحة المعالم، مشهراً مسدّسه بينما ضوء القمر يسقط مثل كسراتٍ عبر الأغصان الكثيفة.

- «دارك»، صرخ ووك. لم يسمع شيئاً فتابع الركض.

تنقّل بين الأشجار الكثيفة.

ثمّ، وإلى الأمام منه، رأى طيفاً بجوار شجرة يتحرّك ببطء.
رفع ووك مسدّسه.

وقف وقدماه متباعدتان، ويداه تقبضان على المسدّس بإحكام.
أطلق رصاصة واحدة.

سقط الشبح.

تقدّم ووك ببطء.

حين وصل إليه، كان دارك قد أسند نفسه إلى شجرة. لم يكن
هناك شيء في يديه، رأى ووك المسدّس على بعد بضعة أقدام منه،
انحنى والتقطه.

تنفّس دارك بصعوبة. جرح في الكتف، مؤلّم بما يكفي لكنّه
سيعيش.

أصاخ ووك السمع، لم يكن هناك أيّة أصوات. لكن الجيران
سوف يتّصلون بالشرطة قريباً جداً.

في تلك اللحظة، لم يشعر ووك بالتشنّجات في جسده، كان
مركّزاً بالكامل على العمل الذي بين يديه فحسب. عمله، مكانه. لم
يكن مستعدّاً بعد للتخلّي عن أيّ منهما.

- «لم أعتقد أنّك تملك الشجاعة لفعلها».

- «هل تريد أن تنتهي من هذا يا دارك؟».

- «بالأكيد أيّها الرئيس ووكر». كان صوته هادئاً، خالياً من

الانفعال، برغم أنّ النهاية كانت تدنو منه.

- «كنتَ تختبئ طوال هذا الوقت».

- «كنتُ أتعافى. أنا مدينٌ بالمال لبعض الأشخاص. لن

يرحلوا قبل أن يحصلوا على مالهم. هل أُصِبتَ بعيارٍ ناريٍّ من قبل،
يا ووك؟ بالنسبة إليّ، هذه هي المرّة الثانية».

- «لديّ أسئلة».

لم يضغظ دارك بيده على الجرح، بل ترك الدم ينزف بوتيرة منتظمة ويجري نزولاً على ذراعه، لتتساقط القطرات من بين أصابعه.

- «عثرنا على ميلتون، لقد انتشله قارب صيدٍ». حدّق دارك به.

تابع ووك. «ماذا الذي كان يملكه ضدّك؟».

بدا دارك مرتبكاً، لكن ربّما كانت الأمور تختمر في رأسه شيئاً فشيئاً. «كان يحبُّ التقاط الصور».

أوماً ووك برأسه، ليس لأحدٍ بل لنفسه.

- «لقد أراد صديقاً فحسب، أحداً ما ليذهب معه إلى الصيد، لذا ذهبْتُ معه. لكلِّ منّا زواياه التي يبحث عنها أيُّها الرئيس ووك، هذا ما نحن عليه، وهذا ما نفعله».

فكّر ووك في مارتا.

شدّ دارك قبضته وأخذ الدم يتدفّق بوتيرةٍ أسرع. «هذا هو الجزء حيث أعترف بخطاياي؟».

صفّارات سيّارات الشرطة تدوي من بعيد.

- «أنا أعرف عن مادلين».

بلع دارك ريقه عندئذٍ، وظهر عليه أوّل أثرٍ للانفعال والعاطفة. «إنّها في الرابعة عشرة الآن».

- «نفس عمر داتشس رادلي».

- «لم أكن أريد أن أسعى خلف الفتاة. حاولتُ بكلِّ طريقةٍ أخرى».

- «هال؟».

- «لم يعطني فرصةً للكلام، بل سحب بندقيّته فحسب».

- «أنت قاتلٌ».

- «تماماً مثل صديقك».

أخذ ووك خطوة إلى الوراء، استحوذ عليه ذاك الشعور بالتشوش مجدداً. «فنسنت...».

- «للمأساة طريقتها في تحويل الخطاة إلى قديسين. صدقني، أنا أعرف ذلك». ابتلع دارك الهواء ابتلاعاً، كان الألم حاداً. «ذاك الصبي هناك. أنا لم أؤذه».

- «أعرف».

- «للناس تصوّراتهم عني. الهيئة التي أبدو عليها تجعلهم يفكّرون بي بطريقة محدّدة، وهذا شيء جيّد في العموم، فهو يساعدي على إنجاز الأمور».

- «لقد قتلت ستار رادلي».

- «ما زلت تصدّق ذلك حتّى الآن، أيّها الرئيس ووك؟ لقد طلبت منها معروفاً، أن تُكلّم فنسنت لأجلي، وتحثّه على البيع. كلّ ما فعلته كان أنني ذكرت اسمه، ففقدت عقلها وانهارت عليّ بالكلمات. كانت متوحّشة».

- «لقد أبرمت ما يشبه الصفقة مع فنسنت. لم تستطع أن تفي بجانبك منها. لم تستطع أن تجمع المال اللازم».

- «أنا رجلٌ ألتزم بكلمتي. أسأل فنسنت، سوف يخبرك».

- «تحدّث وكأنّك تعرفه».

- «ربّما أنا كذلك. ربّما أخبرتني ستار بأشياء. كانت تحبّ الشرب وتعاطي المخدّرات. الاعتراف لا يجري فقط في الكنيسة».

- «ما الذي تحاول قوله؟».

- «فنسنت... إنه ليس كما تعتقد».

أمعن ووك النظر به، باحثاً عن الحقيقة، غير راغبٍ ربّما في أن يرى أيّ شيءٍ منها.

- أصبحت أنفاس دارك أقصر فأقصر. «لديّ تأمينٌ على الحياة. إنَّه يكفي لرعاية مادلين».
- «لطالما كان الأمر متعلّقاً بالمال».
- «لن يدفعوا شيئاً إن كان الأمر انتحاراً. صدّقني، لقد تحقّقتُ من ذلك».
- «انتحارٌ بواسطة شرطيّ».
- «ليس إن روّيت القصّة بشكلٍ صحيح».
- «أليست بحاجةٍ إليك؟».
- أغمض دارك عينيه، ثمّ فتحهما على كلّ الألم. «من الأفضل للطفل دائماً أن يكون في كنف أبٍ أو أمّ. لكنّ المكان الذي هي فيه هو بالضبط ما تحتاجه. هذا كلّ ما يمكنني تقديمه لها».
- «هي لن تتحسّن».
- «لا يمكنهم تأكيد ذلك. هناك فرصةٌ مع مرور الوقت، المعجزات تحدث كلّ يوم».
- لم يعرف ووك على وجه الدقّة إن كان دارك يؤمن بذلك حقّاً، لكنّه رجّح أنّ هذا ما أعطاه الدافع للاستمرار.
- «أطلق النار عليّ».
- هزّ ووك رأسه ببطء.
- «ضع مسدّسي في يدي ثمّ أطلق النار عليّ».
- أخذ ووك خطوةً إلى الوراء.
- كان الدم ما يزال يقطر من بين أصابعه. كان دارك قوياً جداً، ضخماً جداً وقوياً جداً.
- «أطلق النار عليّ بحقّ الجحيم. أرجوك أطلق النار عليّ وحسب. لقد قتلْتُ الرجل العجوز. لقد جئتُ للنيل من الفتاة، أرجوك».

سمع ووك جلبه وراءه، بعيدة لكنها قادمة.

- «لا يمكنني فعل ذلك».

- «الرحمة أيها الرئيس، إلهك يؤمن بالرحمة».

هزّ ووك رأسه، لا شيء واضح، ما هو الشيء الصحيح؟
الشيء العادل؟ فكر في مادلين، فتاة لا يعرفها، وفي داتشس، فتاة
يعرفها.

أخذ خطوة نحو دارك.

- «امنح ابنتي فرصة. تستطيع فعل ذلك. أنت تملك الشجاعة
لفعلها».

أخذ ووك خطوة أخرى. «سوف يلقون بك في السجن».

- «سأخرج ذات يوم. عندئذ سأتي للنيل من داتشس مجدداً.
هذه المرة ستكون انتقاماً. سأطلق النار عليها. الأمر بهذه
البساطة».

رأى ووك حقيقة الأمر، كان واضحاً جداً.

- «تبا. أرجوك ووك. إذا تركت الشرطة تأخذني فسوف تموت
ابنتي. أنا مفلس الآن، ليس لدي شيء. كان النادي كل ما أملك.
لا أستطيع أن أدفع كي أبقها على قيد الحياة».

وقف ووك هناك. كان المسدس ثقيلاً لدرجة أنه استطاع حمله
بصعوبة.

- «عليك أن تمسح بصماتك عنه». أسند دارك رأسه إلى
الشجرة، كانت الدموع تملأ عينيه. «هناك مفتاح في جيبتي. إنه
لمخزن صغير خارج كيب، في ويست غايل. هناك أشياء في الداخل
أريد لمادلين أن تحصل عليها. من المهم أن تعرفنا».

كان ووك يحدّق فقط.

- «ليس لدينا وقتٌ . قم بذلك فحسب أيها الرئيس . أعطِ ابنتي فرصةً» .

مسح ووك مسدّس دارك، ثم انحنى وناولهُ إيَّاه .
ارتجف دارك فيما كان يرفع المسدّس، ثم صوّب بعيداً وضغط
على الزناد .

الصدى . الطنين في أذني ووك وهو يرفع مسدّسه .

أوماً دارك برأسه .

ضغط ووك على الزناد .

مرّت داتشس بملامح مدنٍ، وجبالٍ منعزلةٍ، وسماءٍ زرقاءٍ جداً
في بعض الأحيان لدرجة أنها عادت بها إلى الديار حيث زرقة مياه
كيب هيفن اللامتناهية.

جلست في مقعدٍ فوق عجلة الحافلة، شعرت بكل نتوءٍ على
الطريق داخل عظامها، شقّت الطريق نفسها مثل ندبةٍ عبر الأرض
التي اجتازها جدّها ذات يوم تاركاً سعادته الوحيدة بعيداً خلفه.

توقّفوا في البلدات، وجاء الناس ورحلوا، عجائز يحملون
أشياء هادئة ومُنسيةً، وشبانٌ يحملون حقائبَ ظهرٍ وخرائطَ وخططاً،
وأزواجٌ اندلق حبّهم في الممرّ بين المقاعد وهو ما كان يجعل
داتشس تشيح بوجهها. كان السائق رجلاً أسود، ابتسم لها حين كان
كلُّ مَنْ في الحافلة نائماً، وكانا الوحيدَين اللّذين رأيا مسافر طريقٍ
مؤطّراً بشروق شمس كولورادو.

على الطريق، شاحناتٌ تعطلّت، رُفِعَتْ أغطية المحرّكات
وانحنى الرجال فوقها. مطاعمٌ. سيّارات شرطة. قطعان خرافٍ.
امتدادٌ عظيمٌ وبعيدٌ جداً عن أيِّ مكانٍ يستحقّ الذهاب إليه.

في كاروغا بلاين صعد رجلٌ يحمل غيتاراً وسأل الركاب إن
كانوا يمانعون، فهزّ الجميع رؤوسهم، وهكذا أخذ يغني. كان صوته

أجشَّ لكنَّ شيئاً ما به جعل سقّف الحافلة القديمة ينزاح، والنجوم تتساقط مثل حَبّات المطر.

عندما حلَّ الليل، وانسكب القمر داخل أخدود أرتايا، وأبطأ السائق السرعة وخفَّف الإضاءة، عندها فقط سمحت داتشس لنفسها أن تفكّر في روبن. كانت تتألّم، ليس ذاك النوع من ألم العاشقات الذي قرأت عنه في مجلّةٍ لمّا تركها أحدهم في ظهر المقعد، هذا كان نوعاً من ألم صرفٍ يعتصر روحك، عنيفٌ ووحشيٌّ حتّى إنّها مالت إلى الأمام لاهثةً تطلب الهواء. مدّت يدها داخل الحقيبة، عثرت على زجاجة الماء، وأخذت منها بضع رشفاتٍ صغيرة. التقت عيناها بعيني السائق، كان ثمة قلقٌ مهدورٌ يملؤهما. هي لن تكون على ما يُرام، لا شيء يتعلّق بها سيكون على ما يُرام مجدداً.

نفد منها المال في مكانٍ ما خارج دوتسيرو، تلالٌ ناتئةٌ يتوسّطها جبلٌ بركانيٌّ، وأشجارٌ خضراءٌ افترقت عند أرضٍ مجدبةٍ حمراءٍ جداً لدرجة أنّ داتشس انحنت كي تلمسها.

عثرت على كشك هاتفٍ في محطة شاحناتٍ على الطريق رقم 70، ومياه نهر كولورادو العظيم تندفع شاقّةً طريقها الوعرة من جبال روكي إلى سهول المكسيك وما وراءها. طلبت اتّصلاً على حساب المتّصل به، وربطها عامل المقسم بعالمٍ شعرت أنّها بعيدةٌ جداً عنه. للصدفة السعيدة فقد أجابت كلوديت، فاضطرت داتشس للتصدي لأحاديث عن العودة ورجال الشرطة والمتاعب. صمدت وكبتت انفعالاتها بما يكفي حتى قالت لها كلوديت «نعم، إنّهُ على ما يُرام». ثم طلبت منها أن تنتظر ريثما تذهب وتحضره.

أنهت المكالمة بمجرد أن سمعت صوته، وتهاوت ساقطةً على طوب الطريق، هذا الطريق الطويل بعيداً عن أي مكانٍ، وهي الصغيرة جداً لتكون وحيدةً عليه. السماء، عاصفةٌ تتجمّع لا تستطع

النجاة منها . يقول شقيقها مرحباً ، يقولها بهدوء كأنه كان يُسرُّ بها ، فتعجز عن العثور على كلمة ، كلمة واحدة فقط لتقولها له ، ولا حتى كلمة آسفة لما فعلته وما سوف تفعله .

أنفقت آخر دولارين معها على الحليب والخبز الجاف .

جلست هناك أربع ساعات ، الشمس تزحف ببطء على درب قنطرتها السماوية ، وعقرب الساعة يدفع الصباح نحو الظهيرة . داخل محطة الوقود ، امرأة تعمل عند صندوق المحاسبة ، اختبأت خلف مجلة ، رأسها مطأطأ وقد بدا عليها الإعياء . كانت تضع نظارات كبيرة وهناك بقعة على قميصها . أعطت لداتشس مفتاح الحمام ، وابتسمت لها ابتسامة سريعة تشي بأنها تعرف مفترق الطرق الذي تقف الفتاة عنده ، وأنها رأت الكثيرات مثلها من قبل .

كانت الرائحة في الداخل كريهة ، رسومات على كل الجدران ، تصريحات من قبيل «توم وبيتي لوريل مرّا من هنا» ، وأرقام للاتصال من أجل قضاء وقت ممتع . خلعت داتشس قميصها وبنطال الجينز بحذر ، واغتسلت بالصابون السائل الموجود في الحمام ، ثم جففت نفسها بالمناشف الورقية .

في الخارج ، وقفت تراقب سائقي الشاحنات وهي تحاول أن تنتقي الشخص الصحيح ، غير مستندة على شيء سوى حدس داخلي لم يقدّر بتوجيهها جيداً فيما مضى .

استقرت بعد ساعة على رجل ضخم بشارب يشبه مقود الدراجة ويرتدي قميصاً مزركشاً . كان يقود رافعة نظيفة ، على غطاء محرّكها كُتب اسم آني-بيث ، وقلب على كل جانب .

اقتربت منه فابتسم لها ، أخذها معه بشعرها المبلل وقبعتها الأنيقة ، حقيبتها الصغيرة ، وجسدها ذي التسعين رطلاً .

- «إلى أين تحتاجين أن تصلي؟» .

- «إلى فيغاس ربّما» .

- «فيغاس ، هاه» .

- «نعم» .

- «أنتِ هاربةٌ؟» .

- «لا» .

- «قد أقع في ورطةٍ» .

- «أنا لستُ هاربةٌ . عمري ثمانية عشر» .

ضحك على ذلك .

- «أنا أعبر بحيرة فيش» .

- «أين يقع هذا؟» .

- «في يوتاه» .

- «لا بأس» .

على الطريق ، جلست تتفرّج على العالم من حولها ، من ذلك الموقع المرتفع والمشرّف . كانت المقصورة عابقةً برائحة الجلد . الرجل الضخم كان يُدعى مالكولم ، وكما توقّع له والداه فقد توقّف عن النمو عند طول خمس أقدام وسبع بوصات ، وبدأ يعمل . كانت هناك نبتةٌ صغيرةٌ على لوحة القيادة ، وعدّت داتشس ذلك علامةً جيّدةً . كانت هناك أيضاً صورة فتاةٍ لا تكبرها كثيراً وبجانبها امرأةٌ .

- «هل هذه آني-بيث؟» ، قالت له .

- «إنّها ابنتي» .

- «جميلةٌ» .

- «بالتأكيد . أصبحت هذه الصورة قديمة الآن . . . هي في

التاسعة عشرة . إنّها تدرس العلوم السياسية في الجامعة» . لوّن الفخر كلّ كلمةٍ كان ينطق بها . «أطمئنُ عليها كلّ ليلةٍ . هي ذكيّةٌ جداً لدرجة أنّنا لا نعرف من أين لها كلّ هذا . إنّها نعمةٌ وحسب» .

- «هذه التي معها هي زوجتك؟».

- «كانت كذلك. لقد كنتُ أعاقِر الخمر». أشار إلى دُبوسٍ مغروزٍ فيما يشبه الروزنامة على لوحة القيادة. «صاح منذ ثمانية عشر شهراً الآن».

- «ربّما سوف تقبل باستعادتك».

- «ليس هذا مرجّحاً بالنسبة إليّ حتى الآن. في الوقت الراهن لديّ نبتة، صَبَّارَةٌ. أحافظ عليها بصحةٍ جيدةٍ لستّة أشهرٍ ومن ثمّ، ربّما. الأمر كلّهُ يتعلّق باستعادتها، صحيحٌ».

نظرت إلى الصَّبَّارة على لوحة القيادة، ميتةٌ منذ وقتٍ طويلٍ. تساءلت إن كان يعرف ذلك، وأيضاً إن كان يعرف فحسب مدى صعوبة قتل الصَّبَّار.

حاول أن يطرح عليها بعض الأسئلة، لكنّها لم تعطهِ شيئاً إلى أن استسلم في نهاية الأمر، أنزل الشَّمَّاسة ليحجب ضوء الشمس، وتابع القيادة ميلاً بعد ميلٍ.

غفّت قليلاً، استيقظت على الشاحنة ترتدُّ بقوةٍ فوق أحد المطبّات، قال لها إنّ كل شيءٍ على ما يُرام. رأتُ صخرةً تداخل فيها الأحمر والأصفر والبرتقالي، غروب الشمس على طريقٍ طويلٍ جداً ومستقيم لدرجة أنها تساءلت إنّ كانت تحلم.

في محطةٍ للشاحنات أخبرها أنّ هذه هي النهاية. شكرته وتمنّى لها التوفيق.

- «اذهبي إلى البيت»، قال لها.

- «أنا ذاهبةٌ إليه».

على أطراف بلدةٍ لم يكن لها اسمٌ واضحٌ، سارت داتشس تحت سماءٍ فضيَّةٍ، قدماها ثقيلتان للغاية واستنزف الأمر منها كلّ ما

لديها من طاقةٍ كي تبقيهما تتحرَّكان. أبنيةٌ عاليةٌ على الجانبين كليهما، مَطْلِيَّةٌ بِالْوَانِ تزداد إشرافاً مع كل خطوة. أحواض زراعية صفراء وشتلات شجيرات، متاجرٌ وضوضاء في الأرجاء، حانةٌ على الجهة المقابلة من الشارع بضوء نيونٍ متذبذب. أصواتٌ أوحى لها بعدم الدخول. وقفت هناك، والحقيبة تشدُّ جلد كتفها، عيناها مرهقتان ومشوشتا الرؤية، وأضواء الشارع باهتةٌ. عبرت الشارع، كلُّ خطوةٍ مشوبةٌ بالضياح وفقدان البوصلة. تلعثت في تنفُّسها، لا تعرف مَنْ هي، يداها خدرتان من الوزن، ذكرى روبن تدفئ قلبها من حينٍ لآخر، وكلُّ ما في الدنيا من غلٍّ وكراهيةٍ للرجل الذي سرق حياتها القديمة ثمَّ رماها من دون اكتراثٍ مثل قمامةٍ تبعثرها الريح.

دفعت الباب رغم اقتناعها أنه لم يكن القرار الصائب، شقَّت طريقها إلى البار، رجالٌ وبعض النساء منتشرون في أرجاء المكان، ضوءٌ أحمرٌ يخيم على الأجواء.

كان الساقى كبيراً في السن، طلبت مشروب الكولا قبل أن تدرك أنه لم يكن لديها ما يكفي من المال. وبينما كانت تنقَّب في جيوبها، وَضَعَ المشروب أمامها، وإذ قرأ الساقى أفكارها، ودفع الزجاجة نحوها في لفظةٍ لطيفةٍ لم تحدث معها منذ زمنٍ بعيدٍ لدرجة أنها كادت أن تنسى وجود مثلها.

وجدت ركناً منزوياً، وضعت حقيبتها وجلست على كرسيٍّ منخفضٍ، ثمَّ أغمضت عينيها مستمتعةً بالمذاق الحلو للمشروب. حجز رجلٌ مع غيتارٍ الزاوية الأخرى، ودعا الزبائن المعتادين للتجمُّع حوله حيث عزفوا وغنَّوا معاً، فيما الحشد الصاخب يتفرَّج أحياناً، وأحياناً أخرى يضحك. لم يكن هناك أيُّ لحنٍ واضحٍ، لكن داتشس ركزت بتمعُّنٍ، كأنَّها لم تسمع الموسيقى منذ وقتٍ طويلٍ.

أغمضت عينيها لحظةً، مسحت العرق والأوساخ التي غطت وجهها، ورأت والدتها وهي ترفع روبن نحو النجوم مثل شيء مقدس عوضاً عن كونه مجرد خطأ آخر.

ثم وجدت نفسها واقفةً على قدميها، تتحرك وهم يتفرقون من حولها مفسحين لها المجال، النساء يراقبنها كأنها طفلة، والرجال ينظرون إليها بشيء من الفضول.

مرت بطاولة البلياردو، تنشقت الدخان ورائحة البيرة وأنفاس الرجال المتعبين، متكئين بعضهم على بعض، وبعضهم يترنح على أنغام الغيتار.

عندما توقفت الموسيقى، وصلت إلى الزاوية، قرص عازف الغيتار طرف قبعته، ففعلت المثل مع قبعتها ردّاً عليه.

- «هل تريدن الغناء يا فتاة؟».

أومأت برأسها.

- «حسنٌ إذاً».

أخذت مكانها قرب الرجل مع الغيتار، نظرت إلى الحضور، بعضهم كان يبتسم وبعضهم الآخر لم يكن كذلك.

انحنت، وتكلّمت همساً لأنها لم تكن متأكدة من اسم الأغنية، كانت تعرف الكلمات فقط، لكن الرجل فهمها وابتسم وكأنه يقول لها إنها أحسنت الاختيار.

عزف فيما جلست هي صامتة، لم يبدُ عليه الامتعاض عندما أغمضت عينيها وفوتت دورها، أصوات همهمات، لكنها لم تسمح بتشتيتها، بل تركت لذلك اللحن أن يحملها ويرجع بها عاماً إلى الوراء، عندما كانت والدتها شخصاً حقيقياً تستطيع أن تمدّ يدها إليه وتتشبّث به. صحيحٌ أنه لم يحدث أن تمسّكت بها بشكل فعليّ أبداً، لكن الشعور كان موجوداً وحقيقياً كأنه حدث مادّياً. رأت أخاها،

ثم جدّها، كانت الحاجة إلى التعويض في إظهار حبّها له تسرق كل الهواء من صدرها.

فتحت فمها وبدأت في الغناء.

أخبرتهم أنها كانت تقف إلى جانبهم، عندما تصبح الأوقات عصبية.

سكتت الهمهمات، وساد الصمت، وأحجم الرجال عند طاولة البلياردو عن التحضير لتسديد ضرباتهم، وتحركوا بدلاً من ذلك نحو الفتاة الصغيرة التي فتحت السماء على مصراعيها بروحها العارية المحترقة، والرجل بجانبها مذهولٌ لدرجة أنه لم يستطع أن يجاريها بوتيرته في العزف.

كانت منهارّة ومشردّة على الطريق. حلّ الظلام، ولفّ الألم كل شيء.

لم يستحوذ عليها أيّ وهم، كانت تعرف أنّ دمه لن يطهرّها. لكنها كانت ستفعل ذلك، ليس في وسعها ألا تفعل.

عندما انتهت تركت الصمت معلقاً في الهواء. جاء الرجل العجوز من وراء البار، وسلّمها مغلفاً محشوّاً بالنقود. تجمّعت قبل أن يشير إلى لافتة كتّبت عليها: غنّ لتربح مئة دولار شهرياً.

لم تنتظر من أجل الهاتفات، سمعتهَا تكسر صمت الليل وعزلته. بينما كانت تغادر بحقيبتها لتشقّ طريقها إلى محطة الحافلات.

كان هذا طريقها إلى الهلاك.

فتاة في طريقها لتصحيح أخطاء حياة كاملة.

أمضى ووك يوماً وليلةً وهو يتعامل مع التداعيات .

الكثير من الأسئلة من قسم شرطة مقاطعة آيفر . قال ووك القليل فقط ، ما زالوا يحاولون معرفة سبب اقتحام دارك منزل آل نوبل . لم يقدم ووك الكثير من المساعدة في ذلك . قال إنه كان متعباً ، ومريضاً ، وأنه سيكتب تقريراً كاملاً في الأيام القادمة . لن يتحدث عن داتشس والشريط . سيجد زاويةً أفضل لإخبار القصة .

ركب في السيارة المستأجرة وقاد إلى مكانٍ حيث يمكنه النوم . نزلَّ يبعد خمسين ميلاً عن أي مكانٍ .

في غرفةٍ مهترئةٍ ، تهالك على سريرهِ وأخذ يفكر في داتشس التي كانت تائهةً الآن . لم يقاوم الوتيرة التي كان جسده يرتجف بها ، بل استسلم للأمر فحسب . كان سرواله فضفاضاً ، وقد جعل لحزامه ثلاثة ثقوبٍ جديدةٍ حتى الآن . إنَّ نظر في المرأة سيري عبوساً في المكان الذي كانت فيه ابتسامته ذات يومٍ . قالوا إنه لن يتغير أبداً ، كان سيتشبَّث بذلك لو تسنى له .

وجد في الدرج إلى جانبه الكتاب المقدس وقلماً وورقةً ، فشرع بالكتابة ، خطَّ استقالته ، وتخلَّى عن شارته . كانت ما تزال هناك

أسئلة، ربّما ستبقى بلا إجابةٍ إلى الأبد، لكنه سيحاول، لأجل الفتاة والفتى، سيظلّ يحاول.

اتّصل بمارثا، حوّل اتّصاله إلى المجيب الآلي، فترك لها رسالةً مشوشةً يخبرها فيها أنه بخير. كان يعرف أنّها لن تقتنع بذلك لكنّه أنهى الرسالة على وعدٍ بالاتصال مجدّداً، بعد أن يأخذ قسطاً من النوم. أخبرها أيضاً أنه آسف، آسفٌ على ما هو أكثر مما يمكن له التكفير عنه.

رن هاتفه في الساعة التاسعة.

كان يتوقع أن يسمع صوت مارثا لكنها كانت تانا ليغروس من المخبر. لم يهتم كثيراً هذه المرة، سأل فقط إن أمكن القيام بالأمر من دون إثارة التساؤلات.

- «أنا مدينةٌ لك ببعض نتائج فحص الدم. لقد تركت لك عدّة رسائل خلال الشهر الماضي».

- «آسفٌ. لقد كنت...».

- «على أيّة حالٍ، لقد جعلتُ المسدّس أولويةً».

- «الدم في منزل دارك يعود لميلتون».

- «في الحقيقة لا. إنّهُ لحيوانٍ. ليس لإنسانٍ».

مرّر ووك يده داخل شعره وهو يفكر في ميلتون، كان يصطاد مع دارك ثم يعودان إلى منزله بعد ذلك. «غزالٌ؟».

- «يمكن أن يكون كذلك».

- «حسنٌ».

- «أنت بخير، يا ووك؟».

- «المسدّس، هل حصلتِ على أي شيء؟».

- «قمنا برفع البصمات».

- «فنسنت كينغ؟». حبس أنفاسه، راحت الغرفة تدور من حوله، كل شيء أو لا شيء الآن.
- «في الحقيقة لا».

تلقى ووك ذلك وقد أعياه التعب لدرجة أن نبضه عجز عن التسارع.

- «إنها بصمات صغيرة».

- «لامرأة؟»

- «لطفل، طفل صغير».

أغمض ووك عينيه ثم أفلت الهاتف بينما بدأت أجزاء الأحجية تتراكم في رأسه. اعتصره الألم، شعر بتعب شديد كاد لا يستطيع معه أن يرفع رأسه.

شكر تانا ثم اتصل بفنسنت.

أجاب فنسنت عند الرنة الثانية، رجل لم يعد ينام، واحد من أهل الليل.

- «أنا أعرف».

استمع إلى فنسنت وهو يأخذ نفساً.

- «ماذا تعرف؟»، قال فنسنت بهدوء لم يحمل نبرة التحدي، إنه قبول مجرد الآن.

- «روبن». ظل اسم الصبي الصغير معلقاً في الهواء وقتاً طويلاً، والعام الماضي، وكل ما حدث من قبل. خطأ ووك نحو النافذة، رأى الطريق السريع خالياً من السيارات، والسماء خالية من النجوم. «لقد وجدت المسدس».

صمت طويل. كانا هما الاثنان فقط، راسخين في ترابطهما كما كانا دائماً.

- «أتريد أن تخبرني؟» .
- «لقد سلبتُ شخصين حياتهما يا ووك. يمكنني التعايش مع أيّ شيء» .
- «باكستر لوغان. لقد دفع جزاء ما اقترفت يداه، صحيح؟» .
- «هل تعتقد أنّ ما فعلته بالوحش الذي دمّر عائلة تلك المرأة يجعلهم سعداء؟ ربّما. أنا مدركٌ لما فعلته، وأعيش مع ذلك. لكن ليس في حالة سيسبي، كلّ مرة... كلّ نفسٍ من أنفاسي يُسرق منها» .
- «أخبرني ما حدث» .
- «أنت تعرف ما حدث» .
- ابتلع ووك ريقه. «أطلق الصبي النار على والدته» .
- أخذ فنسنت نفساً .
- «لكنّه كان يصوّب إلى شخصٍ آخر»، قال ووك، هادئاً، حزيناً .
- «دارك» .
- «أحرق الفتاة ملهاه الليلي، التأمين لن يدفع له. كيف تصادف وجودك هناك؟» .
- «رأيت سيارته، فذهبتُ إلى هناك من الطريق المختصرة. قال دارك إنه كان يفتّش المكان، جرّبَ غرفة نوم الطفلين ففقدت ستار عقلها. تسلق الصبي النافذة كي يخرج، وحين سمع والدته تصرخ عاد إلى الداخل» .
- «شجاع»، قال ووك، «مثل أخته» .
- «حشرته ستار في الخزانة، وأبعدته عن الطريق. وجد الفتى المسدّس في الداخل، ربما كان يعتقد أنها تتعرّض للضرب» .

صَوَّبَ، أغمض عينيه، وضغط على الزناد. كانتا ما تزالان مغلقتين حين وصلتُ إلى هناك».

- «دارك؟».

- «كان سيقتل الصبي. كان دم ستار يغطّيه، والطفل هو الشاهد الوحيد، ودارك كان في مكان الحادث. أيّاً كان ما قد يحاول قوله فإنَّ نهاية دارك كانت محتومة».

أسند ووك رأسه على الزجاج حيث بدأ مطرٌ خفيفٌ في الهطول. فكَّر في دارك، في تلك الفطنة وكيف استخدمها. ربّما كان سيقتل الصبي، لكن ووك لم يرجِّح ذلك. لكن السؤال المهم طرح نفسه. «كيف ربّبت الأمر؟».

- «أخبرته أنني سأخذ كل شيءٍ على عاتقي. سأتحمّل الذنب والعواقب، ولا أحد آخر ليبحث عنه رجال الشرطة. هو لم يكن هناك قط».

- «هل اقتنع بذلك؟».

- «لا. إنَّه المنزل يا ووك. لقد أراد المنزل، لذا استسلمت، وأخبرته أنّه يستطيع شراءه شرط أن يدع الطفل وشأنه».

- «لماذا لم تقرّ بالذنب فحسب؟».

- «أقرّ بالذنب فأقضي بقية حياتي في ذلك القفص. أدفع بالبراءة فتأتي النهاية إليّ. لم تكن القضية قابلةً للربح. كانت الأسئلة عن المسدّس قادمة».

- «لقد أخفيتّه».

- «أخذه دارك. ضمانته في حال غيرت رأيي».

- «ساعدتَ روبن على العودة إلى غرفة النوم عبر النافذة. ثمّ غسلت يديك. تبّاً، فنسنت».

- «ثلاثون عاماً في الداخل كفيلاً بجعلك تتعلّم عن مسارح الجريمة».
- «سدّدَت الثغرات والتزمت الصمت».
- «إنَّ أسئلتك لا تحتاج إلى إجابة. إن بقيت صامتاً فسوف أبدو مذنباً أكثر. إذا بدأت في الكلام فسوف أحشّر في الزاوية، لا يُوجد سلاح، لا يمكنني تفسير ذلك. دعهم إذاً يضعون إبرة في ذراعي ويعدمونني. دعهم يفعلون ما كان يجب عليهم فعله قبل ثلاثين عاماً».
- «سيسي. لم تكن جريمة قتل».
- «لقد كانت كذلك يا ووك. أنت فقط لا تريد أن ترى الأمر بهذه الطريقة. أنا مستعدّ الآن. أريد أن أرحل. لطالما أردت الرحيل، لكن بعد أن أقضي عقوبة سجنني. قال هال إنّه سعيد لوجودي هناك، وإنني يجب أن أعاقب. الموت كان شيئاً جيّداً جداً كي أحظى به».
- «لم يتمكّن دارك من جمع المال لشراء منزلك، ولا حتّى الدفعة الأولى، ليس بعد ما فعلته داتشس»، قال ووك.
- «لم أكن أعرف ذلك، لكنه كتب لي بعدها».
- «لقد رأيت الرسالة».
- «صحيح».
- «لا بد أنّك كنت غاضباً».
- «كنت كذلك في البداية. ليس لأجلي... لكن المال. كنت بحاجة إلى ذلك المال».
- «أعاد المسدّس لأنّه لم يتمكّن من الوفاء بجانبه من الصفقة. رجلٌ عند كلمته، أليس كذلك؟».
- خيم صمتٌ طويلٌ.

- «البشر كائناتٌ معقدةٌ، يا ووك. بمجرد أن تعتقد أنك تمكّنت من فهمهم... لقد أعطاني مخرجاً إن احتجت له في يومٍ من الأيام».

- «في بعض الأحيان الأمنيات تتحقّق بالفعل... شجرة الأمنيات». قالها ووك لنفسه، وعلى وجهه ابتسامةٌ متعبةٌ، سرعان ما ضاعت منه.

فكر ووك بفنسنت على الطرف الآخر. تساءل كم كان محطماً، وإن تبقي في داخله أيُّ شيءٍ من الطفل الذي كان عليه ذات يومٍ. «لقد راهنت على عدم تذكّر الصبي».

- «لقد رأيته، تأثهاً على هذا النحو، خارج هذا العالم. لا أعتقد أنه كان مدركاً لشيءٍ، لذلك أخبرته أنني أنا من فعل ذلك. هذا كافٍ، مجرد الشك كافٍ. فليحمل شخصٌ آخر هذا العبء الرهيب. اللعنة، يستحقّ الصبي ذلك. لقد حاولتُ إعادتها للحياة، نفختُ في صدرها بكلّ قوّتي».

فكّر ووك بستار، بأضلعها المكسورة، وفكّر بدارك ومادلين، ويد القدر القاسية.

- «لقد كذبت من أجلي، وقفت في المحكمة مرتدياً شارتك وكذبت، أما زلت تتعرف على نفسك يا ووك؟».

- «لا».

- «لا يمكنك أن تنقذ شخصاً لا يريد أن يتمّ إنقاذه».

صمتٌ طويلٌ.

- «كيف هي الأحوال مع مارثا؟».

تدبّر ووك رسم ما يشبه الابتسامة. «لهذا السبب كنت تريدها».

- «تلك الليلة كانت البداية لمليون مأساةٍ، يا ووك. ليس في وسعي إصلاح معظمها».

فكّر ووك في روبن رادلي . «أرغب عادةً في الرجوع إلى الوراء
لأعيد ترتيب الأحداث بالكامل، لكنني الآن متعبٌ فحسب، متعبٌ
جداً. ربّما فعلتَ الصواب بعد كلّ شيءٍ».

- «أنا مدينٌ لآل رادلي. ربّما لن يتذكّر، إنه صغيرٌ. كنتُ
مستعدّاً للموت مقابل أن أعيد إليه حياته. هناك احتمالٌ أن يظلّ الأمر
برمّته بمثابة ثقبٍ أسودٍ في ذاكرته».

- «كنتَ على وشك أن تعطي حياتك من أجل احتمالٍ».

- «لم أستطع السماح بأن يؤول به الأمر ليكون أنا».

قاد ووك السيّارة عبر آخر الطرقات، ميلاً بعد ميلٍ لن يقطع أيّاً منها مجدّداً. أمضى حياةً كاملةً خائفاً من التغيير. الآن، لقد ارتكب فعل القتل. لم يَبْدُ أيُّ شيءٍ مختلفاً من الخارج. كان يعرف أنّ الاختلاف ما كان ليحدث من الخارج. باغته الخليج إلى الأمام منه بلمعانه المبهر، أبقى عينيه على خطوط الطريق المتقطّعة.

وجد المكان على بعد عشرين ميلاً من الديار، مرفق تخزينٍ يدعى ويست غيل، متهاكك، خزائنُ حمراء، لم يكن هناك مكتب استقبالٍ. فقط رقمٌ للاتّصال إن احتجت المساعدة.

توقف ووك، اتجه إلى الداخل وهو يُخرج المفاتيح من جيبه. تفحص الرقم الموجود على البطاقة، ثمّ عثر على إحدى وحدات التخزين الصغيرة. فتح القفل ومشى في الظلام، وجد مفتاح النور، فأنارت الأضواء صفراء باهتة.

في إحدى الزوايا وجد صندوقي تخزينٍ من البلاستيك. أخذ يشتغل بهما ببطء، رأى كل شيءٍ من حياةٍ قديمة، وأكثر سعادةً: ألبوم زفافٍ، بدا دارك شاباً، طويلاً ولكن ليس عظيم الهيبة، كانت زوجته جميلةً، وكانت هنالك أيضاً صورٌ لمادلين، شعرٌ بنيّ، عينا فاحتان، وابتسامةٌ عريضةٌ في كل لقطة. بدت مثل والدتها. كان في

الصندوقين أيضاً ثوب تعميد، وستان زفافٍ قديمٍ من تلك الأشياء التي تتوارثها الأجيال.

سيحتفظ ووك بغرفة التخزين، سيدفع الإيجار، ويُعلم الأشخاص في المستشفى بمكانها في حال حدثت المعجزات.

كان على وشك أن يستدير كي يطفئ الأضواء ويقفل الغرفة عندما رأى كومةً من الصناديق وأكياس القمامة في الزاوية البعيدة. قام بتفحصها، ملفاتٌ قديمةٌ، ملاحظاتٌ لا أهميَّة لها، ثم رأى كومةً من البريد المهمل. ورأى الاسم والعنوان. دي لين.

شحذ ذاكرته للعودة عاماً إلى الوراء، ثمَّ تذكَّر. كان دارك قد عرض أن يقوم بتخزين أغراضها بينما تجد مكاناً آخر للعيش فيه، قبل أن يبرما تلك الصفقة المشبوهة.

رمى البريد معيداً إيَّاه إلى أعلى الكومة، ثم شتم عندما تبعثر كل شيء. وحين انحنى ليرتب الفوضى قليلاً، ظهر واضحاً للعيان شيءٌ في غير محله.

شريط فيديو.

عاد نحو كيب، دخل حدود البلدة، ورأى لافتةً جديدةً، معدن صلبٌ وسقالةٌ شاهقةٌ، سُلط الضوء على مشاريع منازلٍ ومتاجرٍ جديدة. كان مقترح المشروع قد مرَّ في صمتٍ، إذ كان ووك مشتبَّ الفكر. مجرد تغييرٍ آخر في عالمٍ متغيِّر.

كان قسم الشرطة غارقاً في الظلمة. ترك الأنوار مطفأةً، جلس في مكتبه، وحمل الشريط. عبس عندما رأى ذي أيت، نادي دارك، ثمَّ لاحظ التاريخ في الزاوية العلوية، وبدأ نبضه يتسارع عندما أدرك ما كان يشاهده.

كان الشريط يغطِّي يوماً كاملاً، سرَّعه إلى الأمام حتى رآها،

ستار وهي تعمل خلف البار. جلس يشاهدها، يشاهد الطيف الذي كانت عليه، الكيفية التي تبتسم بها وتغازل عندما يمطرونها بالبقيش. سرّع قليلاً، وتوقّف عند شجارٍ، أجسادٌ في كل مكانٍ. سقطت ستار، وضعت يدها على عينها وبدا أنها تكيل الشتائم. كانت تتعثر، وتتحرك كأنّ تأثير الخمر قد بدأ يظهر أخيراً.

لم يستطع ووك رؤية مَنْ كان الرجل، كان ظهره للكاميرا. لكنّ الرجل تحرّك.

تعرفّ ووك على تلك العرجة والألم المصاحب لمحاولة تصحيحها.

براندون روك.

تابع البحث، سرّع الشريط للأمام إلى أن رآها، واضحة كضوء النهار، صغيرة، بشعرٍ أشقر، ووجوه يقطر كراهيةً بينما تقوم بعملها. شاهد داتشس تبدأ بإشعال نارٍ ستظلّ مشتعلةً عاماً كاملاً.

وقف حين انتهى. نزع شارته، وضعها على المكتب، ثمّ أخذ الشريط من الآلة، ومشى خارجاً إلى هواء الليل.

مشى صعوداً باتجاه مين، التقط الشريط من العلبة وسحب البكرة منه، ثمّ رماه في سلة المهملات.

كان منزل آل كينغ فارغاً.

وقفت داتشس في الخارج أمامه، وعند الرصيف رُكّنت سيارة فورد توروس قديمة. كانت قد أخذت المفاتيح من سيدةٍ تلعب على آلات القمار في حانةٍ في كاماريلو. ستترك لها السيارة هناك، والمفاتيح في الداخل، فهي متعبةٌ جداً لتشعر بالأسف الآن.

طرقت على الباب. كان ثمة شكٌ يعتريها ويجعلها تتردد، شكٌّ في أنها تستطيع المضي في هذا، على الرغم من الرحلة المضنية التي قامت بها كي تقترب من هذه اللحظة.

في أثناء مرورها بالسيارة في مين، تمعّنت في الشوارع جيداً، كأنّها تتوقع أن شيئاً ما قد تغيّر في العام الذي كانت فيه بعيدةً، ليس شيئاً عظيماً، بل مجرد شيءٍ صغيرٍ كان يخبرها أن كيب هيفن لم تكن هي نفسها من دونها ومن دون عائلتها الصغيرة. بدلاً من ذلك، رأت البلدة في حالةٍ من السكون، لا شيء مختلفٌ على الإطلاق، ولا حتى ياردةٌ واحدةٌ تُركت ليطول العشب فيها أكثر من اللازم. مظهرٌ جذابٌ وحسب، كأنّ دماء والدتها قد غُسلت بالكامل، كأنّها لم تكن موجودةً قطّ.

انتقلت إلى الجهة الخلفية، وجدت حجراً، وكسرت به إحدى النوافذ، وتكفّلت الأمواج المتلاطمة بكتم الصوت.

داخل منزل آل كينغ، انتقلت من غرفةٍ إلى أخرى، والمسدّس بيدها. صورٌ على الحائط، فنسنت ووك وقد أدارا ظهريهما للماء، ابتساماتٌ خاليةٌ من الهموم، ابتساماتٌ من النوع الذي لم تعرفه هي نفسها أبداً.

صعدت الدرج، وتفحصت كلّ غرفة نوم مستعينةً بضوء القمر لا أكثر. رأت خزانة ملابس فنسنت، كانت قليلةً جداً: ثلاثة قمصان، بنطالٌ من الجينز، وحذاءٌ ثقيلٌ. فكّرت في تكوين القاتل، هل يبدأ ذلك قبل الولادة بوقتٍ طويلٍ، مثل لعنةٍ مرتبطةٍ بجينات الوالدين، سلالة دم قاتلةٌ. أو ربّما تسللت ببطءٍ عبر العديد من الضربات، والكثير من الندوب. ربّما كان فنسنت كينغ شخصاً جيداً في يوم من الأيام، لكنّ دم طفلٍ لن يُغسل عن يديك أبداً. ثلاثون عاماً بين أكثر الرجال فساداً، سيتطلب الأمر الأقوى للبقاء على قيد الحياة.

لم يكن هناك سريرٌ، مجردَ فرشَةٍ على الأرض. لا أثاث في الغرفة، لا لوحات أو كتب أو جهاز تلفزيون. صورةٌ واحدةٌ فقط، ملصقةٌ على الحائط. صورةٌ خطفت أنفاسها، فقد كانت الفتاة تشبهها تماماً. شعرٌ أشقر وعينان زرقاوان. سيسي رادلي.

غادرت المنزل وسارت مبتعدةً صعوداً على الدروب التي تشرف على أضواء البلدة. توقفت في منتصف الطريق، تؤلمها كلُّ عضلةٍ في جسمها، والهواء يوجع صدرها كأنَّ جسدها لم يُرد لها الاستمرار بين الأحياء.

حين وصلت إلى التلِّ الأخير رأَت النور، القدَّاس المتأخِّر. كانت قد حضرته ذات مرَّة في السابق، حيث جلست مع نصف دزينة من الحضور من دون سببٍ غير أنَّها كانت عاجزةً عن النوم. كنيسة ليتل بروك الأسقفية.

سلكت الطريق قرب السياج ذي الأوتاد الخشبية، اقتربت من الباب وأصغت إلى الموسيقى السماوية. أفلتت حقيبتها لحظةً، واتَّكأت على الخشب، لقد شارف يومها الطويل على الانتهاء. ومع عدم وجود مكانٍ لتذهب إليه، شقَّت طريقها إلى القبر الصغير حيث ترقد والدتها، إلى جانب سيسي، في ذلك الجزء من المقبرة المخصَّص للأبرياء. كانت داتشس قد طلبت أن تكون الأختان معاً من جديد.

تجمَّدت في مكانها.

وقف هناك، فارع الطول قبالة الليل العظيم. خلفه، انهارت الأرض، الجروف الشاهقة، والبحر اللامتناهي.



في طريق آيفي رانش، دخل ووك عبر الممر وطرق الباب.
بدا براندون في حالة مزريّة، لم يقل شيئاً، تنحّى جانباً
فحسب، وأفسح المجال لووك كي يدخل. كانت الرائحة كريهة في
الداخل، علب توصيل الطعام الكرتونية متناثرة في كل مكان، علب
البيرة، غبار كثيف فوق كل السطوح. كومة من أقراص الفيديو
الرقمية الخاصّة باللياقة البدنية.

بدت عينا براندون متوهّجتين عندما جلس إلى طاولة المطبخ.
فكّر ووك في ستار، كيف قامت بصدّه مراراً وتكراراً عبر السنين،
وربّما هذا ما جعل براندون يطلق العنان لقبضته في تلك الليلة.

- «أعرف ما الذي فعلته»، بدأ ووك.

وكان هذا كلّ ما تطلّبه الأمر.

بكى براندون كأنّ سدّاً قد انهيار، بكى حتّى اهتزّت كتفاه. راقبه
ووك، وقد بدأت الحيرة تملّكه.

- «لم أقصد ذلك. أنا آسف. عليك أن تصدّقني، يا ووك».

لم يقل ووك شيئاً، أصغى فحسب للقصة وهي تتخلّل نحيب
براندون.

- «لقد تواصلت معه، كما قلت لي. عرضت أن أصطحبه على
متن القارب، لصيد السمك أو شيء من هذا القبيل. كنت راغباً في
وضع حدّ لتلك الحالة. لكنّي بعدها فكّرت في الأمر، وكيف أنّه قام
بخدش سيّارتي الموستانغ. كنتُ أعرف أنّه هو، من غيره قد يفعل
ذلك؟ في البداية كنتُ أنوي التبليغ عن الأمر، ثمّ حدث كلّ ذلك مع
ستار. كان يُفترّض بها أن تكون مزحّة، كي أردّ له ما فعله بي. لم
نكن حتّى بعيدين عن الشاطئ».

تنفّس ووك، ذهبّت الحيرة، بقي الحزن فقط. «دفعّت ميلتون
في الماء».

بكى براندون أكثر، سعل كأنه يحاول تقيؤ الذكرى. «انتظرته أن يعود إلى متن القارب. أردت فقط أن أردُّ له الصاع صاعين، وأجعله يضطر للسباحة. مجرد مزحة. ومن ثمَّ لم يظهر، لذا قفلتُ راجعاً. لكنَّه كان قد رحل يا ووك. كان قد رحل».

جلس ووك معه، اتَّصل ببويد وانتظر، وأخبر براندون بما عليه قوله. كُن صادقاً. ستنام أفضل في الليل.

شاهدتهم يأخذونه. مشى براندون مطأطئ الرأس، وانهار من جديد حين رمقَ بنظرة سريعة منزل ميلتون العتيق على الجهة الأخرى من الشارع. ربَّما كانت الكارما، تلك القوى الكونية التي اعتادت ستار أن تتحدَّث عنها. لم يكن لدى ووك الكثير من الوقت للتفكير في الأمر، فقد ورده اتصالٌ من دي لين على هاتفه النقال، وأخبرته أنَّها رأت شخصاً يقتحم منزل آل كينغ.

- «هل لمحتِه؟»، قال ووك وقد انطلق في الجري.

- «بدا أنَّها فتاة».

ركض كلَّ الطريق وصولاً إلى سنست، تحرَّك خفيفاً وسريعاً مع فقدان وزنه. كان يتصبَّب عرقاً لدى وصوله إلى الباب حيث أخذ يطرقة بقوة.

التفَّ إلى الجهة الخلفية ورأى هناك الزجاج المكسور. تتبَّع أثر خطواتها، هجومها المضاد، وعرف أنَّ الأوان قد فات لما هو آتٍ لا محالة. وجد الصورة على رفِّ الموقد، وتعرَّف على الصبي الذي كان عليه بصعوبة، لكنَّه في فنست وستار لم يرَ سوى الابتسامات، لقطةً من زمنٍ بات عاجزاً عن استحضاره مهما بذل جهداً في المحاولة.

ثمَّ صعد الدرج. وتجمَّد هو الآخر في مكانه أيضاً حين رأى الصورة.

قد يمضي فنسنت قدماً، قد يخرج من الزنزانة، من السجان، والرجال، والأسوار. لكنّه لن يخرج من الفتاة الصغيرة أبداً.

راقبته وقتاً طويلاً قبل أن تخطو تلك الخطوات.

- «كنتُ في انتظارك»، قال فنسنت.

اقتربتُ داتشس أكثر، وضعت حقيبتها ببطء، وسحبتُ المسدّس. كان أثقل ممّا تتذكّر، كادتُ لا تستطيع أن ترفعه في تلك اللحظة.

نظر إليها كأنّها كانت الطفل الأخير في هذا العالم، الشيء الأخير الجيد في عالمه. رأت أنّه قد وضع زهوراً فوق القبرين، وكأنّ له الحق في ذلك.

رأى المسدّس لكنّه لم يبدُ مرتاعاً، بل أرخى كتفيه وأخذ أنفاساً منتظمة، كأنّه كان ينتظر الخاتمة النهائية لحياة كاملة من النهايات. تراجع خطوة إلى الوراء فيما تقدّمتُ هي خطوة إلى الأمام، خطوة بعد خطوة، إلى أن غرست قدميها في الأرض وشاهدت ضوء القمر يرسم هالة خلفه.

حمل الهواء موسيقا الأرغن من الكنيسة العتيقة.

- «أحبُّ هذه الأغنية»، قال فنسنت، «كانت هناك كنيسة صغيرة... في فيرمونت. لطالما أحببتُ هذه الأغنية. فرّح الأرض يبهت، وأمجادها تزول».

- «في كلّ ما أراه تغييرٌ وخرابٌ».

- «أنا آسفٌ».

- «لا أريدك أن تتكلّم».

- «حسنٌ».

- «لا أريدك أن تخبرني بما حدث، لا أريد أن أعرف».
- «حسن».
- «يقول الناس إنَّ هذا ليس عدلاً».
- «إنَّه ليس كذلك على الإطلاق».
- «في ذلك اليوم عندما أعطيتني مسدساً. قلت إنَّه كان مسدس والدك».
- «نعم».
- «لقد نظَّفْتُه كما علَّمْتَنِي. احترمته، صحيح؟ لكن بعد ذلك أخفيته في الخزانة، برغم أنَّكَ طلبتَ مِنِّي أن أستخدمه لحماية نفسي».
- «ما كان يجدر بي أن أطلب منك —».
- «لذا فإنَّ هذا هو ما أفعله الآن. قال هال إنَّكَ سرطانٌ. كلُّ ما تقترب منه... أنتَ تقتل كلَّ شيءٍ فحسب. قال إنَّكَ لا تستحقُّ أن تعيش».
- «لقد كان محقّقاً».
- «ووك وقف في المحكمة واخترع كذبةً. كانت ستار تقول عنه إنَّ الخير كلُّه فيه».
- «أنا آسف، يا داتشس».
- «تبّاً!». مدَّت يدها وعدلَّت وضع قَبْعَتِها، خذَلَتْها أنفاسها، وظلَّ صوتها متماسكاً بصعوبةٍ، لكنَّها ثَبَّتَتْ يدها ومدَّت إصبعها إلى الزناد. «أنا الخارجة عن القانون، داتشس داي رادلي. وأنتَ القاتل، فنسنت كينغ».
- «لست مضطّرةً إلى فعل هذا». ابتسم برقّةٍ.
- «أنا أعرف ما الذي عليّ فعله. عدالةٌ. انتقامٌ. أستطيع التعامل مع الأمر».

- «ما يزال بإمكانك أن تكوني أيّ شخصٍ ترغبين به، يا داتشس».

وازنت المسدّس.

انهمرت دموعه، لكنّه ظلّ يبتسم لها. «لقد جئتُ إلى هنا كي أقول وداعاً. هذا ليس خطأكِ أو مسؤوليّتك. لن أسمح أن تحمّليني معكِ طوال حياتكِ».

شهقت حين أخذ خطوةً للخلف، فطار في سقوطٍ حرٍّ وذراعاها مفتوحتان للخارج.

ركضت وهي تصرخ، وتوقّفت عند حافة الجرف بينما كان الظلام يتلعه.

سقط المسدّس بجانبها. سقطت معه، ركبناها في التراب وهي تمدّ يدها من الحافة، وتمسكُ بالهواء.

خلفها، استلقت والدتها، واستعانت داتشس بآخر ما تبقى من قوّتها كي تزحف إلى القبر. أراحت خدّها فوق الحجر البارد، وأغمضت عينيها.

مكتبة

t.me/soramnqraa

القسم الرابع

فاطر القلوب

تقع بلير بيك على حدود غابة إيلكتون-ترينيتي الوطنية ووايتفوت، وهي نوعٌ من البلدات التي كان ووك يستطيع أن يقضي يومه فيها يحدّق في الامتداد الشاسع للبريّة وحسب، في الأشجار السامقة جداً كأنّها تتناول لتمسك يد الرب.

كان قد قاد قاطعاً هذا الطريق أكثر من مئة مرّة على مدار العشرين سنةً الماضية، مارّاً بالتلال القاحلة ومروج العشب الميّت لعشرات المجمّعات المأهولة، ستار تجلس بجانبه تعدّ الأميال بهدوءٍ. ثمّ رآها بعد ذلك سعيدةً كما لم يرَها من قبل، إذ طردت الشياطين التي كانت تسكنها على يد رجلٍ يُدعى كولتن شين، مستشارٌ كان يعمل في غرفةٍ فوق متجرٍ لبيع آلات البيانو المستعملة. كانت في يده جرّةٌ صغيرةٌ. كان القدّاس سريعاً ومختصراً.

كانت الوصيّة الأخيرة لفنسنّت كينغ واضحةً وغامضةً بما يكفي. كانت الغابة الممتدّة عبر ستّ مقاطعاتٍ ومليونني فدّان برأي ووك مكاناً جيّداً مثل أيّ مكانٍ آخر.

عبر الشارع ونزل أسفل الطريق، داس على الأوراق الميتة متّجهاً نحو أشجار الصنوبر الشاهقة، ثمّ نثر الرماد فوق أرض

الغابة. لم يقل شيئاً، لا وداعات فخمة أو مهيبّة، بل سمح لنفسه فقط بلحظةٍ لاستذكار زمنٍ قد بدأ أخيراً في التلاشي.

بعد ذلك، غدَّ السير عبر شارع يونيون حتّى عثر على الباب. كان المتجر مغلقاً، لكن كان هناك نورٌ مضاءٌ في الأعلى. ضغط على الجرس، سمع الباب يُفتَح، فدخل إلى الردهة الصغيرة، ثم صعد السلالم الضيقة. لقد حضر هنا مرّةً من قبل، المرّة الأولى كانت للتأكّد من أنّها لن تفرّ هاربةً.

- «أنا الرئيس...» تلعثم ووك، «آسف، أنا ووكر. ووكر فحسب. كنت في السابق رئيس شرطة كيب هيفن».

لم يتفاجأ ووك حين لم ترسم على وجه شين أيّة تعابير تشير إلى أنّه يتذكّر شيئاً. كان الرجل الواقف أمامه قد تقدّم في السنّ على نحوٍ لطيفٍ، رأسٌ مغطّى بالكامل بشعرٍ رماديٍّ قصيرٍ فوق جسدٍ يبلغ طوله ست أقدامٍ. مدّ الرجل يده مصافحاً ووك حين ذكر اسم ستار رادلي.

- «أنا آسف، لقد مرّ وقتٌ طويلٌ»، قال شين، «موعدِي القادم بعد عشر دقائق، لذا يمكنني أن أمنحك هذا القدر، أخشى أن هذا كلُّ ما أستطيع».

جلسا، ووك متهاكاً على الكرسي الناعم، مبتسماً للصور الرائقة على الحائط، وبجانبه نافذةٌ ضخمةٌ تفتح إطلالةً على مشهدٍ مهيبٍ لغابات إيلكتون-ترينيتي والقمم الشاهقة البيضاء خلفها.

- «يمكنني قضاء يومٍ في تأمّل المنظر».

ابتسم شين. «أفعل ذلك غالباً».

- «أنا هنا بخصوص ستار».

- «يجب أن تعرف أنّي لا أستطيع إخبارك بشيءٍ. أنا مقيّدٌ —».

- «نعم»، قاطعه ووك، «أنا فقط... أنا آسف، لقد وجدت نفسي في البلدة مرة أخرى، ففكرت أن أمرّ بك فحسب. كما رأيت... لقد ماتت».

ابتسم شين وقد بدا عليه التعاطف. «رأيت ذلك، تابعت القصة في الأخبار. إنها مأساة بحق. لكن حتى في الموت...».

- «أنا لست متأكداً حتى من سبب وجودي هنا».

- «أنت تفتقد صديقتك».

- «أنا... نعم، أنا أفتقد صديقتي». صدمته تلك الفكرة، فبعيداً عن كل المشاعر المتضاربة، كل المطاردات التي حدثت، ونظريات الصراع، هو لم يفكر فعلاً كم يفتقد صديقتة. كان من السهل رؤية مشاكلها، وجمالها، وكل شيء ما عدا الشخص اللطيف، الحقيقي، الذي عرفه طوال حياته.

- «أظن أنني أردت أن أعرف فقط لماذا توقفت عن المجيء إلى هنا. لقد أبلت حسناً، لوقتٍ طويلٍ كانت تُبلي حسناً. ثم توقفت كل شيء بشكلٍ مفاجئٍ جداً. ثم لم تعد بعد ذلك أبداً».

- «هناك مليون سبب يجعل الناس ينتكسون، أو يجعلهم يختارون مساراً مختلفاً. حتى لو كان في وسعي إخبارك، فلقد مضى وقتٌ طويلٌ جداً. وأنا رأيتهَا مرةً واحدةً فقط».

عبس ووك. «أنا آسف، نحن نتحدث عن ستار رادلي هنا».

- «نعم. أنا أتذكرك الآن. لا يحدث كثيراً أن يتم إحضار المريض بواسطة ضابط شرطة».

- «لكنني كنت أقود بها إلى هنا كل أسبوع».

- «ليس إليّ. لكنني كنت مع ذلك أراها في كثيرٍ من الأحيان. أنا دائماً عند النافذة كما كنا نقول».

انحنى ووك إلى الأمام. «أَيْنَ كُنْتَ تراها بالضبط؟» .
وقف شين. لحق ووك به نحو الزجاج.
- «هناك تماماً»، أشار شين.

في الخارج، عبرت سحابةً بينما وقف ووك على الرصيف.
كانت هناك حافلةٌ واحدةٌ تعبر بلير بيك، وقد ركب ووك على متنها،
كما كانت تفعل ستار مرةً كلَّ شهرٍ لاثني عشر عاماً، وموقف الحافلة
قبالة نافذة كولتن شين.

جلس في الخلف، الحافلة نصف فارغة وهي تتسلق المنحدر
القاسي صعوداً ثم تهبط نزولاً في قلب الوادي. علت الأشجار
وظللت الطريق.

استغرق الأمر بعض الوقت حتى اجتازوا الغابة، وانكشفت
سهول كاليفورنيا الشاسعة. نهض ومشى إلى الأمام، وقف بجانب
السائق وأخذ ينظر إلى الخارج.

لم يدرك الأمر حتى المنعطف الأخير حيث فجأةً ومن دون
سابق إنذارٍ، فهم أين كان وما الذي يقف أمامه.

توقفت الحافلة، نزل منها، ونظر حوله بينما كانت تمضي في
طريقها. لم يكن هناك شيءٌ آخر على بعد أميال في الاتجاهين
كليهما، بل طريقٌ طويلٌ ضيقٌ فحسب، والسياج الشائك بارتفاع
عشرين قدماً، والمباني المنخفضة التي تشكّل مرافق إصلاحية
مقاطعة فيرمونت.

انتظر ساعةً كاملةً، جلس في الغرفة بمفرده، رفع يده وراقب
ارتعاشها. كان وضعه الصحي في تراجع، وكان يفوّت أدويته. بات
الوضع سيئاً الآن، الألم أحياناً، والخوف دائماً. الآن هو يضبط
المنبه ساعة أبكر من المعتاد، متيحاً الوقت لمعركة كان الفوز بها

يصبح أصعب فأصعب. كان المستقبل شيئاً يبعث على الذعر، لكنه أدرك مع الوقت أنه لطالما كان كذلك.

كانت هناك نصف ابتسامة حين ظهر كادي. «كدتُ لا أتعرف عليك من دون النجوم على كتفيك. أوشكتُ أنتهي إن كنتَ ترغب في المشي معي».

مشى ووك مع كبير السجّانين، بقي قريباً خلفه عند البوّابات في أثناء فتحها وإغلاقها. حياةٌ كاملةٌ من هذا النسق، النظام وعدمه، إبقاء الأشرار في الداخل، والأخيار في الخارج.

- «آسفٌ لأنّي لم أحضر قدّاس الجنازة»، قال كادي، «لستُ جيّداً في مسائل الوداع».

سارا على طول السياج، أبراج المراقبة أشبه بالصوامع.

- «هناك أشياء لا أعرفها»، قال ووك.

تنفّس كادي بعمقٍ كأنه كان ينتظر ذلك. لم يعرف ووك ما الذي كانا يفعلانه، هذا المشي حول محيط السجن، ربّما أحبّ كادي أن يتنشّق الهواء الطلق بعد عشر ساعاتٍ في الداخل فحسب.

- «جاءت ستار إلى هنا»، قال ووك.

- «لقد فعلتُ».

- «لكن اسمها! لقد تحقّقْتُ من سجلّات الزوّار. تحقّقْتُ من كل شيءٍ استطعتُ الوصول إليه».

مرّاً بحارسٍ أعلى البرج، رفع كادي يده.

- «أحبُّ الغسق»، قال كادي، «نهاية الشفق الفلكي، الشمس وتدرّج الألوان تحت خط الأفق. أدعهم في بعض الأحيان يخرجون ليشاهدوا مغيب الشمس. خمسمئة رجل، قتلةٌ، ومغتصبون، ومعتدون. يقفون معاً ويحدّقون في السماء، إنّها الحالة الوحيدة التي لا نواجه فيها مشكلةً حقيقيةً».

- «لماذا؟» .

- «الجمال، ربّما. إنّه يجعل من الأصعب إنكار وجود سلطنة أعلّى» .

- «أو يجعل ذلك أسهل» .

- «لا تفقد قلبك يا ووك. ستكون تلك هي المأساة الحقيقية» .

- «أخبرني عن ستار» .

توقّف كادي عند أبعد نقطة من حدود السجن، بين برجين وحرّاسٍ جاهزين لإنهاء حياة بالسرعة نفسها لأيّ هيئة محلّفين .

- «كنتُ أحبّها. أُتيح لي أن أعرفّها جيداً عبر السنين. كان فنسنت كينغ رجلاً نبيلاً لم ألتق بمثله قطّ. وقد أُتيح لي أن أكون شاهداً على التغيير. طفلٌ مذعورٌ، ثمّ فتى لا يعرف معنى الخوف، ومن ثمّ أصبح متألّفاً» .

- «ماذا؟» .

- «متألّفاً مع جلده أو متقبّلاً له. لكنّه لم يكن بخير. وقد ساعدته ستار. هو من تسبّب لها بالألم، وكان هو الوحيد القادر على جعله يزول. أصبح يملك هدفاً من جديد» .

شاهد ووك أوّل النجوم وهي تظهر، بهيئةً، سماويةً هناك في البعيد .

- «كان بحاجة إليها، ليشعر بشيءٍ مرّةً أخرى، ليكون أكثر من الشخص الذي كان عليه عندما يرتدي البرتقالي ويمشي مقيّداً بالسلاسل. كانا مثل زوجين على مدى العشرين عاماً التي كانت تأتي فيها إلى هنا. في بعض الأحيان كانا لا يتكلّمان، كان ذلك في البداية، حدّقاً أحدهما في الآخر وحسب، هي متحفّزة كأنّ ناراً تضطرم بداخلها، وهو ينظر إليها كأنّها وُضعت على هذه الأرض من أجله فقط» .

- «ماذا عن السجناء الآخرين؟».

- «أوه، أنا لم أترك هذين الاثنين في الغرفة المشتركة. أعني أنهما كانا هناك في البداية طبعاً، لكنني أدركتُ في الحال أن ستار كانت صغيرة جداً لتكون فيها، الرجال هناك فظُّون جداً بكلامهم البذيء وتهديدهم ووعيدهم. ضايقوا فنسنت كثيراً، وبمرور الوقت أصبح الحراس يتدخلون لفضّ الشجارات، ولكن حالما عرف الآخرون نقطة ضعفه استخدموها ضده. كانت هناك غرفة أخرى. أشبه بشقة للأزواج لدينا. لقد توجّب علينا أن نربح معركتنا لأجلها. شيء كهذا موجود لدينا وفي ثلاث ولايات أخرى فقط».

- «تركتهما وحدهما هكذا؟».

- «كان فنسنت يحتاج إلى ذلك... أن يشعر أنه بشريّ من جديد. تَبّاً، أنا كنتُ بحاجة إلى أن أراه بشرياً من جديد. وستار أيضاً، كلاهما. إنها مسألة قوى كونية وما إلى ذلك. ما من سجن على وجه الأرض يمكنه اجتثاث هذا النوع من الجاذبية».

ابتسم ووك.

- «لم يكن في وسعي وضع هذا في السجلات، فالأمر غير مسموح به بشكلٍ رسمي. كنتُ أراقبها، تسعة أشهر من ذاك الألق العجيب. حدث ذلك مرّتين. معجزتان وُلدتا من قلب اليأس».

ابتسم كادي.

- «لكنّها لم تحضرهما أبداً —».

- «ما كان ليُقبل بذلك. ليس وهو محبوسٌ هكذا. كما أنّه لم يُرَدّ لهما أن يعرفا. لا تستطيع أن تلومه حقّاً. قال إنّهُ ما من طفلٍ في الخارج قد يرغب في أبٍ من فيرمونت. تحدّثنا في الأمر، وقد شدّد ذلك من عزمه. أن تعيش الحياة لأجل شخصٍ آخر. هذا ليس ضائعاً، وهو يعني أن حياتك لم تذهب هباءً، صحيح؟».

أغمض ووك عينيه وفكر في داتشس وروبين، في دمهما الذي كان غير معروفٍ.

- «لقد طلب مني ألا أفشي الأمر. قلتُ إنني لن أتطوَّع للقيام بذلك، لكنني أيضاً لن أكذب إذا جاءني أحدٌ يسأل. أنا رجلٌ ألزم بكلمتي».

- «صحيحٌ».

ضحك كادي بلطف. «لم يبقَ منَّا الكثير».

- «أعتقد أنَّ ستار ربَّما أخبرت دارك».

- «لماذا؟».

- «مجرَّد شيءٍ قاله في النهاية. الأشياء التي يفعلها الناس من أجل أحبائهم، صحيحٌ؟ لقد رأى كلُّ منهما ذلك في الآخر. فنسنت وستار عَجْزاً عن الاستمرار على ذلك الحال».

- «بعد ذلك تغيَّر الوضع، قاموا بهدم الشقَّة كي يفسحوا المجال لتمديد كابلاتٍ جديدةٍ. ما كان فنسنت يسمح لها بالقدوم إلى الغرفة المشتركة مجدِّداً، ليس بعد آخر مرةٍ. أعني أنَّ أولئك الرجال قطعوا وعوداً أنَّهم سيذهبون للبحث عنها حين يخرجون. كلامٌ فارغٌ، لكنَّه مؤثِّرٌ رغم كلِّ شيءٍ. لم يُردِّ فنسنت ذلك، ليس لها، وليس لأطفاله».

- «لذا فقد قاطع زياراتها»، قال ووك بحزنٍ.

- «يكاد يكون هذا أصعب شيءٍ فعلته على الإطلاق. إبعادها بذلك الشكل. طلبَ منها فنسنت أن تمضي قدماً في حياتها، أن تجد شخصاً آخر. لكنَّها واطبَّت على المجيء، انتظرت عاماً كاملاً، في حال غيَّر رأيه. ثمَّ لا شيء، فكَّرتُ في أنَّها وجدتُ طريقةً لتمضي قدماً».

- «لقد فعلتُ. وجدتُ طريقةً لكن ليس لتمضي قدماً، بل كي لا تشعر بشيءٍ».

لم يقل كادي شيئاً، لكنّه كان يعرف. ليس هناك نوعٌ من المآسي لم يكن شاهداً عليه أو لم يرَ تداعياته.

- «إذاً أنتَ لم تكن تعرف شيئاً عن ذلك؟»، قال كادي.

- «لا. لقد عرفتُ ستار ما كنتُ سأقوله، إنّهُ يجدر بها أن تهتمَّ بنفسها، وإنَّ النبش في الماضي والخوض فيه لا يساعدان على الإطلاق. كأنّني أعرف، وكأنّني الشخص المناسب لقول شيءٍ كهذا. ربّما كانا بحاجةٍ إلى شيءٍ لهما فحسب. عائلتهما الصغيرة، المفكّكة المحطّمة، لكنّها عائلتهما».

صافحه ووك لدى وصولهما إلى البوّابة. «شكراً لك يا كادي. لقد فعلتُ حسناً».

- «هل يمكنني أن أسأل، لماذا الآن؟ ما الذي عاد بك إلى هنا؟».

- «الصدفة. أراد فنسنت منّي أن أنشر رماده في إيلكتون-ترينيتي. لستُ متأكّداً حتى من السبب».

ابتسم كادي، ثمّ أمسك بكتف ووك وأشار بيده. «تلك هي زنزانة فنسنت في الأعلى. الزنزانة 11-3. ثلاثون عاماً وهو يسرح بنظره من هناك. هل ترى علامَ تطلُّ؟».

استدار ووك.

وهناك، أعلى التلال الشاسعة، رأى مليوني هكتارٍ من الحرّية.

كان صباحاً خريفيّاً جميلاً، سطع ضوء الشمس من خلف
الجبَل.

امتطت داتشس الفرس الرمادية، إذ تخرج الاثنان معاً كلّ يوم
قبل أن تستيقظ مونتانا. باتت تعرف الطرقات جيّداً الآن. تصاعدت
الأنفاس، كانت الرمادية مرتاحةً للسير ببطء، لن تركض بشكلٍ جيّد
ثانيةً. ربّت داتشس عليها حين وقفتا أعلى التلّ مطلّتين على
المزرعة.

كان المنزل جميلاً، مصنوعاً من عوارض خشبية، نارٌ في
الموقد، والدخان ينبعث من المدخنة. كانت هنالك حظائرٌ، ونهرٌ
تتبعه ثلاثة أميالٍ عبر أشجار الحور قبل أن ترى آثار ذئبٍ وتعود
أدراجها بسرعة. كان لديها سكين جدّها، وفي عطلات نهاية
الأسبوع كانت تستكشف بمفردها، تقطع الممرات في الأراضي
المشجرة، وتنقلّ عبر جداول المياه الضحلة التي صنعها الخريف.
كانت الأشهر اللاحقة طويلةً وصعبةً، لكنّها وجدت بيئةً جديدةً
مساعدةً. عملت على استعادة أنفاسها، كما علّمها هال ذات مرة،
على الرغم من أن الأمر برمّته كان مؤلماً، إلّا أنّها عرفت أنّ للزمن
قوّةً جبّارةً.

عندما وصلت إلى الإسطنبول قادت الرمادية إلى الداخل، وتأكدت من وجود الماء والقش لها وربتت على أنفها.

وجدت دوللي في المطبخ تقرأ جريدة، ورائحة القهوة تملأ المكان. كانت داتشس قد ذهبت إليها، ظهرت في منتصف الليل وفيّة لوعدها الذي قطعته لدوللي. وافقت في البداية على البقاء ليلة واحدة، وفي صباح اليوم التالي، قادتها دوللي إلى الإسطنبول وأرتها الرمادية التي حصلت عليها بلا مقابل بعد تسوية ملكيّة هال.

يوم واحد أدى إلى أسبوع، ثم أفضى إلى شهر وأكثر. تذرعت دوللي بأنها تحتاج إلى مساعدة في الأرض، برغم أنها كانت ثريّة بما يكفي لجعل عدة رجال يمرّون بها كل أسبوع. عملت داتشس بجدّ، وبقية في الخارج من الفجر حتى غروب الشمس. لم تتكلّم كثيراً في البداية، فالفتاة منكسرة للغاية، وعرفت دوللي أنه فقط بعد مرور بعض الوقت يمكنها التدخل لمساعدتها.

طرح دوللي موضوع التبنّي الرسمي ذات صباح، بينما كانتا تجرفان أوراق البرقوق من الممر. لم تقل داتشس شيئاً ثلاثة أيام، ثم أخبرت دوللي أنها إن كانت غيبة بما يكفي لترغب بها كابنة فعليها مراجعة الطبيب. ولكن إذا أعطها شهادة أنها سوية، فعندئذ، أجل، هي تؤدّ البقاء.

ركلت داتشس بحذاءها. «أنا بحاجة لكسب بعض المال».

رفعت دوللي رأسها عن الجريدة.

- «أنا مدينة لشخص ما، أحتاج إلى ردّ المال له».

- «أستطيع أن أعطيك —».

- «لا بدّ أن أكسبه بنفسه، الخارجون عن القانون يسدّدون

ديونهم». لم تكن قد تبيّنت بعد كيفية اقتفاء أثر هانك وبيسي. كانت

ستبدأ من الفندق وتجري بعض الاتصالات. سوف تضع الأمور في نصابها الصحيح.

همّت داتشس بالمغادرة وكادت تتجاوز دوللي، لكنها توقفت عندما رفعت هذه الأخيرة يدها وفيها رسالة.

- «وصلت هذه لك».

أخذت داتشس الرسالة منها. رأت ختم كيب هيفن، فانسحبت إلى غرفة نومها المطلية بلونٍ أخضر فاتحٍ يتناسب مع لون التلال في الخارج.

أغلقت الباب خلفها، وجلست على الكرسي الكبير بجوار النافذة.

عرفت هذا الخط على الفور، كان صغيراً بما يكفي حتى إنها تصوّرت ووك وقد أمضى أسبوعاً كاملاً في كتابتها.

قرأتها ببطء. اعتذر عن كذبه في المحكمة، عن زعزعة إيمانها به. أخبرها أن الناس يفعلون أحياناً الشيء الخطأ لكن للسبب الصحيح.

تحدّث على مدى عشرين صفحة عن حياته وحياة والدتها، فنسنت كينغ الشاب، ومارثا ماي. أخبرها بمرضه، وكيف كان يخجل به، ويخشى أن يخسر موقعه بسببه. ثم ثرثر على نحوٍ ركيك لصفحة كاملة قبل أن يصل إلى زبدة الكلام، حيث أخبرها بالحقيقة التي جعلتها ترمي الأوراق، ثم تنهض، وتبدأ في ذرع الغرفة جيئةً وذهاباً.

عندما هدأت جمعت الأوراق وأكملت القراءة. أخبرها عن فنسنت، عن الدم الذي في عروقها، وكيف يجب ألا تشعر بالحزن بل بالفخر. كيف أحبته والدتها دائماً، وحافظت على هذا الحب

حيًا في أقصى الظروف. أشار إلى عذابات فنسنت، وكيف لم يستطع التكفير عن الحياة التي سرقها. مع ذلك، هي فتاةٌ محبوبةٌ وغاليةٌ، هذا ما قاله ووك. فقد وُلِدَتْ هي وشقيقها من رحم حبٍّ لا يمكن كسره.

كانت هناك صورةٌ واحدةٌ مرفقةٌ بالرسالة، ووك على قاربٍ صديٍّ، لكنَّ اللافتةَ المثبتةَ عليه جديدةٌ، كيب هيفن للصيد. رأت داتشس على سطح الماء انعكاساً لصورة سيدةٍ صغيرة الحجم ذات شعرٍ داكنٍ، كانت تحمل الكاميرا، وتعلو وجهها ابتسامةٌ عريضةٌ جداً.

بالإضافة إلى الصورة، كانت هناك وثيقةٌ قانونيةٌ، الوصية الأخيرة لفنسنت كينغ.

لاحقاً، أخبرتها دوللي كيف أنها تملك الآن مع روبن منزلاً كبيراً في كيب هيفن. كان فنسنت يرُمُّه لأجلهما. وليس عليهما فعل أي شيءٍ بعد، لكن يوماً ما يمكنها زيارته، أو بيعه، أو القيام بما يحلو لها به. في غضون فترةٍ قصيرةٍ من الوقت انتقلت من كونها لا تملك أيَّ شيءٍ إلى مالكةٍ لشيءٍ ما، ما يزال المستقبل غير مؤكدٍ ولكنه كان موجوداً.

بقيت مستيقظةً في تلك الليلة، وفكرت في كلِّ ما حدث سابقاً، في كلِّ ما تعلَّمته، وفيما سوف تعمل على نسيانه. كانت تنتظر، تتعافى، تشحن طاقتها من جديد.

في صباح اليوم التالي أخبرت دوللي أنَّها مستعدةٌ.

مكتبة

t.me/soramnqraa

أعلنت البلدة عن نفسها من دون بهرجة، مجرد لافتة صغيرة
كُتِبَ عليها اسمها.
أول كريك.

كان لدى دوللي صديقة في ريكسبورغ. قادت السيارة طوال
الليل، ومن هناك استقلت داتشس الحافلة بنفسها. سألتها دوللي إن
كانت تحتاج إليها. «لا، لكن شكراً لك»، قالت لها داتشس.

كانت الحافلة طويلة فضية مع تفاصيل حمراء وزرقاء. حين
توقفت، أمسكت داتشس حقيبتها ونهضت، ثم عبرت الممر بين
المقاعد لتخرج من الحافلة إلى هواء وايومنغ.

تمنى لها السائق سفرًا آمناً، أغلق الباب ومضى. ألقت نظرة
أخيرة على النوافذ، انعكاس نظرات خلف الزجاج، بضع
ابتسامات. رائحة المحرك، وحرارته.

كانت تسير ورأسها للأسفل الآن، أصبحت منذ ذاك اليوم أهدأ
مما كانت عليه يوماً.

مرّت بفندق الكابيتول. مظلات معلقة فوق متاجر يتسوق فيها
زوّار أثرياء. لاسي للفخاريات، ألدون للتحف، محل بريسلي
للزهور.

بعد مكتبة كارنيجي، ظهرت الشمس قريبةً وحادةً فوق خراف البيغهورنز، والسهول الواسعة تتموج ممتدةً قبالتها. تنفّستُ بعمقٍ، كان ظهرها يؤلمها بسبب الجلوس الطويل على مقعد الحافلة. انتعشت بعض الشيء داخل حمّام محطة وقودٍ، وجعلتُ شعرها تحت قبعتها مباشرةً.

كانت تحمل خريطةً صغيرةً، حوّطت المكان الذي عليها أن تكون فيه بدائرة. لم يَبْدُ بعيداً إلى هذا الحد. سارت أقل من ميلٍ ووجدت مرجاً رحيباً من العشب وعلى أطرافه منازلٌ جميلةٌ. بعد شارعٍ آخر وجدتها. ابتدائيةٌ أوّل كريك.

كان المبنى منخفضاً، لافتاتٌ مطليةٌ باللون الأبيض، وزهورٌ تتدلّى من سلالٍ معلقةٍ. على الجانب الآخر كانت هناك مرجة عشبٍ أخرى، وفي نهايتها شجرة بلوطٍ كبيرةٌ ذكّرتها بشجرة الأمنيات. شقت طريقها إليها، وقفت تحت ذراعي الشجرة ثم جلست على رقعةٍ ظليلةٍ تكسوها أوراق برتقالية اللون، التقطت إحداها ورفعتها نحو السماء.

كان معها زجاجة ماءٍ في حقيبتها، فشربت قليلاً، محتفظةً ببعضها لوقتٍ لاحقٍ. وكان معها أيضاً لوح حلوى لكنّها كانت متوترةً للغاية لتأكل.

توقفت السيارة الأولى، ثم توقفت سيارةٌ أخرى، لكنّها لاحظت أن معظمهم جاؤوا سيراً على الأقدام عبر البلدة لاصطحاب أطفالهم.

رأت بيتر في الحال، وجيت يجذب طوقه بحركاتٍ مفاجئةٍ. كان بيتر يتسم ملقياً التحية على الجميع. وضعت يدها على صدرها عندما بدأ أول الأطفال بالخروج.

عبثت بقبعتها، ثم أعادت ربط حذاءها الرياضي. كانت ترتدي أفضل فستانٍ عندها، الأصفر، لونه المفضل. شهقت حين رأيته.

بدا أطول، وشعره أقصر، وابتسامته جميلة لا تشوبها شائبة. كانت تعلم أنه في يومٍ ما سيكون فاتراً للقلوب.

كانت لوسي بجانبه، أمسك يدها بإحكام، فيما هي تقوده إلى نهاية الممر. ثم رأى بيتر، ركض روبن نحوه، فحمله هذا الأخير وتعانقا بقوةٍ لوقتٍ طويلٍ، وعينا أخيها مغمضتان.

أنزل بيتر روبن وسلّمه الطوق، قفز جيت ولحق وجهه، فراح روبن يضحك بكلّ جوارحه. وقفت داتشس متسمرةً في مكانها بينما اصطحبهما بيتر إلى الحديقة الصغيرة المجاورة، حيث دفع روبن على الأرجوحة، ثمّ ساعده على صعود الدرجات والتقطه أسفل المزلجة الطويلة.

راقبتهم، شعرت بكلّ ابتساماته كأنها ابتساماتها، وسمعت ضحكته الجذلة ترفرف في الفضاء. انضمت إليهما لوسي، كانت تحمل حقيبةً تناثرت منها الأوراق. عندما رآها روبن ركض نحوها كأنه لم يرها منذ دهرٍ.

تحركت داتشس عندما تحركوا، وبقيت على مسافةٍ كافيةٍ خلفهم كي لا يلاحظوها. حاولت أن تناديه عدّة مراتٍ بهدوءٍ شديدٍ حتى إنها كادت لا تلفظ اسمه.

كانوا يعيشون في منزلٍ جميلٍ. ألواحٌ خشبيّةٌ خضراء، مصاريعٌ بيضاء، فناءٌ نظيفٌ. منزلٌ من النوع الذي حلمت ذات يومٍ بالعثور عليه لهما.

كان لديهم صندوق بريدٍ، كُتِبَ عليه اسم عائلة ليتون. مشّت

في الحيّ مع غروب الشمس، قابلتها سماء وايومنغ بجمالٍ أخاذٍ.
تحقّقت من الجيران، فرأت أطفالاً، ودراجاتٍ، ومضرباً، وكرةً.
عندما حلّ الظلام، عادت وتسلّلت إلى فناء منزلهم. كانت
هناك أرجوحةٌ، عدة شواءٍ، وصائدة حشراتٍ.
وقفت بلا حراكٍ وقتاً طويلاً، إلى أن حلّ الليل مكان النهار
بنجوم كثيرةٍ.

سَقَّت طريقها إلى الشرفة، صعدت الدرجات وتوقفت عند
النافذة. النور مضاءٌ في الداخل، والمشهد المثالي يُمثّل أمامها.
لوسي مع روبن، تساعد في القراءة، ويتر عند المنضدة، ينادي من
أجل العشاء، طبقٌ لكلّ منهم. جلسوا معاً، التلفاز يعمل لكن على
الوضع الصامت، جيت بجانب روبن، بعينين يملؤهما الانتظار.
أنهى روبن وجبته حتّى آخر لقمةٍ.

ظلّت تراقبهم إلى أن حان الوقت، إلى أن قبّل بيتر رأس روبن
برقّةٍ، وأخذت لوسي كتاب القصص وأمسكت يده مصطحبةً إيّاه إلى
الأعلى.

تساءلت إن كان سيتذكر كلّ ما مرّاً به. كانت تعلم أنّ هناك
احتمالاً جيداً لجهة أنّه لن يتذكر. التفاصيل على الأقل. كان صغيراً
بما يكفي ليكون أي شخصٍ يريده. كان العالم مُلكاً له. لقد كان
أميراً، وقد فهمتِ السبب في نهاية المطاف.

لم تكن داتشس الفتاة التي تبكي، لكنّ دموعها انهمرت هذه
المرّة إذ سمحتُ للسّد أن ينهار.

بكت على كلّ ما فقدته، وعلى كلّ ما وجدته.

ضغطت داتشس بكفّها على الزجاج، وقالت الواداع لأخيها.

اعتكفت داتشس في غرفتها خلال الأيام القليلة التالية .
عرفت دوللي رغم قلقها كيف تمنحها الوقت ، والمساحة ،
والفسحة للتنفّس . تركت لها الوجبات عند الباب ، ودخلت إليها مرّة
واحدة لتسألها إن كانت ترغب في أن تساعد في الاعتناء بالرمادية
في ذلك الصباح . رأت في الداخل داتشس جالسةً إلى مكتبها
الصغير ، يغمرها ضوء الشمس فيما هي منكبّة على الكتابة .
دخلت داتشس الفصل مع توماس نوبل يوم الاثنين .
- «هل انتهيت؟» ، قال لها .
- «نعم» .

كان واجباً منزلياً حرّاً ، كتابة تقريرٍ عن موضوع من اختيارهم .
شاهدت داتشس الأولاد يقفون في المقدمة ويتحدّثون عن أشياء
متنوّعة جدّاً مثل الرئيس توماس جيفرسون ، وكرة القدم ، وعطلات
الصيف ، وكيفية تعقّب أثر الغزال أبيض الذيل .
حين استدعتها المعلّمة ، مشت داتشس إلى المقدمة ، ثبتّت
ورقتها على السبّورة ، وحاولت أن تهدّئ أعصابها . حشرت يديها
عميقاً داخل جيبيها ، ووقفت أمام شجرة عائلتها .
مكتملة الآن .

شعرتُ بكلّ العيون مسلّطةً عليها وهي تنظر إلى توماس نوبل
الذي ابتسم وأشار إليها أن تبدأ.
تحنّحتُ داتشس، استدارت إلى الأمام، وبدأتُ.
بدأتُ بوالدها، الخارج عن القانون، فنسنت كينغ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كريس ويتاكر

نبدأ حيث النهاية

«لا أحد منا يُختَزَل في شيء واحد.

نحن توليفة من أفضل وأسوأ الأشياء التي فعلناها في حياتنا».



«فلنبدأ حيث النهاية. بعد أن تقلب الصفحة الأخيرة من رائعة كريس ويتاكر الجديدة، سوف تعاني - أنا عانيتُ بالتأكيد - للعثور على كلمات مناسبة لوصف هذه التجربة...».

آ.ج. فين

«قصةٌ خلّابة، نابضة بالحياة، ومشحونة بزخمٍ عاطفيٍّ شديد. إنها إحدى تلك القصص النادرة التي لا تنفكُ تفاجئك، ثم تبقى عالقةً في ذهنك لوقتٍ طويل بعد انتهائك منها».

كريستين هانا

«رواية ستسلب قلوب القراء... لا يمكنك إلا أن تواصل تقليب الصفحات».

والي لامب

«هذا كتابٌ ينبغي قراءته وإعادة قراءته، وهذا كاتبٌ ينبغي الاحتفاء به».

لويز بيني

مكتبة
t.me/soramnqraa

المركز الثقافي العربي



الدار البيضاء: ص.ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com